

حنّا مينه

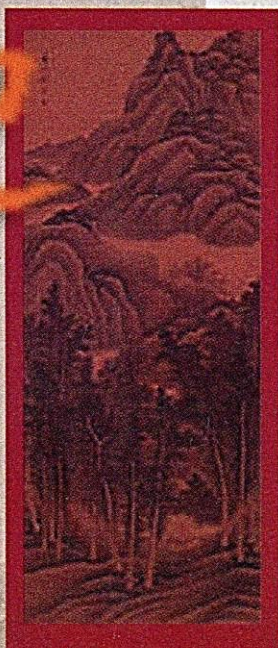
المغامرة الأخيرة

رواية

欢迎

دار الآداب

دار الآداب



المغامرة الأخيرة

حنّا مينة

المغامرة الأخيرة

دار الآداب - بيروت

المغامرة الأخيرة

حنا مينة/روائيّ سوريّ

الطبعة الأولى ١٩٩٧

الطبعة الثانية ٢٠٠٢

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت - لبنان

هاتف : 861633 (01) - 861632 (03)

فاكس : 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

بعد ذهاب جيفرسون مع الميتر، إلى باب المطعم الخارجي، كان ثمة من ينتظره. وكان الميتر، ذو الشعر الرمادي، رصيناً، قويّ القبضة على ساعد جيفرسون، ليشره بأن الإفلات غير ممكن. وكان جيفرسون ينقاد له طائفاً، خائفاً، دائراً معه حول صالة المطعم، كيلا يستلفت أنظار الطاعمين، إلا من كان حول المائدة التي حاول جيفرسون، أن يحطم ما عليها دون نجاح. هنا الصين! وهنا العريضة ممنوعة، وكل شيء يتم بهدوء، وعبثاً راح جيفرسون يشرح نفسه قائلاً:

- لم أكن اقصد... صحيح أنني رفعت قبضتي، إلا أن رفعها كان عفويّاً، ولم أكن أنوي الإهواء بها على المائدة، عندما أمسكت بي من ساعدي، لذلك أرجو منك، تونجي، أن تدعني أذهب إلى البيت، وأعدك أن هذا لن يتكرر، في المطعم أو خارجه.

قال الميتر بما يشبه الهمس، دون أن تختلج عضلة في وجهه، - أعرف كل هذا الذي تقوله.. إخراجك من المطعم من باب الاحتياط ليس إلا. الزم الصمت، وهذا أفضل لك.

- لكنني..

قاطعه الميتر، بعد أن ضغط على ساعده بقوة:

- قلت لك الزم الصمت.

- وإذا لم أفعل؟

- أنت، رغم سكر، عاقل بما فيه الكفاية كي تفعل.

- لست سكراناً!

- هذا واضح!!

- إنني..

- ولا كلمة أخرى!
- لا حق لك أن تقبض عليّ.
- أنا أساعدك على الخروج من المطعم.
- وبعد ذلك؟
- أنت حر!
- تدعني أذهب إلى البيت.
- طبعاً! ولكن مع الرفيق الذي سيوصلك إليه بأمان.. انظر! إنه هناك!
هيا..
تقدم الرفيق الصيني، الذي على الباب الخارجي، وتبادل كلمات مع
الميتير، ثم قال لجيفرسون بالإنكليزية:
- لا تخف! سر معي وهذا كل شيء..
- إلى أين؟
- ستعرف بعد قليل..
قال جيفرسون بتعته:
- أنا.. لم.. أفعل.. ل.. شيء.. ذأ!
- نعرف هذا!
- إذن لماذا تقبضون عليّ؟
- نحن لا نقبض عليك..
- الميتير، في المطعم، قبض عليّ..
- فعل ذلك حتى لا تسقط وأنت تترنح..
- لكنني قادر على السير وحدي..
- ها أنت تسير وحدك..
- اذن دعني أسر في طريقي..
- ليس قبل أن تستريح قليلاً لدينا..
- أين لديكم هذه؟
- في الإدارة!
- أنا لا استريح إلا في بيتي..

- الإدارة مثل بيتك.. نتحدث قليلاً ثم تذهب.
- نتحدث حول أي شيء؟
- حول راحتك في بيتاخوا!
- ولماذا لم تتحدثوا مع الآخرين؟ زبيد ومارلين والسيدة نلسون..
- سنتحدث معهم واحداً واحداً.. ويهدوء تام.. ها قد وصلنا.. تفضل
إذا أردت.

دخلا مبنى الإدارة. جلس جيفرسون على كرسي في إحدى الغرف. عاملوه بلطف. كانوا يريدونه أن يستريح فعلاً. طلب ماء، شرب حتى ارتوى، اقترحوا عليه، بعد قليل، أن يستلقي على سرير في الغرفة. رفض أولاً، تركوه وشأنه، كان تعباً أغفى وهو على الكرسي، عندئذ ساعدوه في الانتقال إلى السرير، وبعد أن تمدد، بكامل ثيابه، أغفى.. تركوه ينام.. ولم يفعلوا سوى إغلاق الباب، دون رقابة أو حراسة.

على الطاولة، في المطعم، خيم صمت ثقيل بعد ذهاب جيفرسون مع الميتر. راقبهما زبيد من طرف خفي إلى أن خرجا. بعد لحظات عاد الميتر وحده. الذين انتبهوا إلى ما جرى كانوا قلة وحتى مع الانتباه ظنوا أن جيفرسون انصرف إلى بيته، وهو في حالة سكر، وهذا مألوف في المطعم، ويتم، دائماً، دونما عريضة. زبيد وحده أدرك دقة الموقف. الميتر تدخل في الوقت المناسب تماماً. كان يراقب. إنه يعمل ويراقب. أمسك بساعد جيفرسون في اللحظة المناسبة. لولا ذلك لحدثت فضيحة. كان جيفرسون في حالتين من يأس وسكر. قال إنه يريد مارلين! كيف؟ لماذا؟ بأي حق؟! هذه أسئلة غير واردة مع عاشق شارف حد الجنون. لولا الميتر لحطم جيفرسون الطاولة وما عليها. زبيد ما كان ليقف مكتوف اليدين طبعاً، لكنه لن يضرب جيفرسون بأية حال. هذا، في رأي زبيد، مسكين. إنه سريع الانفعال، انفعاله يصل إلى درجة الهسترة. يشرب أقل من الآخرين، يسكر قبل كل الآخرين، يعربد، يتصرف بتهور، يثور، يبكي، يشتعل من الداخل، يرتعد شبقاً، يحب مارلين حباً مهووساً، حباً جارفاً، عنيفاً، يزداد ما ازداد تمنعها عليه، وهي تتمتع لأنها لا تحبه، ولأنها تكرهه، وكذلك تخافه، وفي الاستبدال، يكون تعلقها بزبيد استبدالياً فهي تحبه، ويزداد حبها طرداً،

لأنه لا يحبها، الا أنها لا تثور عليه، لأنها ترتوي معه، وفوق ذلك تجد فيه، الآن، حامياً لها، وهذا يخفف من غلوائها والجموح، مؤقتاً على الأقل. بعد فترة من صمت، قالت السيدة نلسون، التي جلست مكانه، مواساةً لمارلين:

- هذا ما يسمونه، يا مارلين، يا عزيزتي، حباً صاعقاً! جيفرسون ليس سيئاً، بعد كل شيء، لكنه عاشق، ويسكر بسرعة، فكيف صار واجتمعتم أنتم الثلاثة حول طاولة واحدة؟ قالت مارلين شبه باكية:

- لقد فرض نفسه علينا، زبيد وأنا!

- وماذا في ذلك لو لم يسكر؟! هذا من طبيعة الحياة هنا. الكل يجالس الكل، لا تنسي أننا رفاق، وزملاء عمل في الصين.

- لكن جيفرسون لا أخلاقي، وقد رايت تصرفه الأحمق، فماذا في وسعي أن أفعل؟

- في وسعك الكثير، والكلمة الطيبة أولاً.. أنت تعرفين ما قاله السيد المسيح.. الإنسان، يا صغيرتي، لا يحيا بالخبز وحده.

نبرت مارلين:

- تريدني أن أذهب إلى البيت معه؟! أن أقدم له الخبز وغيره؟

قالت السيدة نلسون وهي تشرب ما تبقى في كأسها:

- ولم لا؟ كنت سأقترح أن نذهب معه كلنا، لو لم يسبقني بطيشه، الأرعن! هذا ما يسمونه تهدئة الثور عندنا! ما رايك عزيزي زبيد؟ كن صريحاً وعادلاً.

ابتسم زبيد وقال:

- أنت على حق سيدة نلسون! هذا ما يسمونه تهدئة الثور عندكم، وما أشك في أن خبرتك جيدة في هذا المجال!! ما رايك بقليل من الكونياك؟ إنه مفيد في مثل حالنا.

- لا مانع، عزيزي زبيد، لا مانع.. لكنني أقول لك، وأمام صغيرتي مارلين، عجوزي يراقبنا!

- لكن السيد نلسون تناول عشاءه وانصرف.

- مع ذلك لا بدّ من الحذر. انتبه! سأقول لك شيئاً مهماً، ولتغفر لي

عزيزتي مارلين صراحتي: إنني أبادلك المشاعر نفسها! لكن! - انتبه إلى «لكن» هذه، فهي ليست مجّانية! - لكن أية مشاعر؟ إنها المشاعر النبيلة، المشاعر الغنية المجيدة، التي تربّيت عليها. قال زبيد بعد أن طلب الكونيك:

- إلى أين تريدين الوصول سيّدة نلسون؟

ابتسمت السيدة نلسون، وشفقتها تلتمعان:

- أوه زبيد، عزيزي، لا تكن دبلوماسياً معي.. أنت تعرف، فلماذا تتجاهل؟ أنا لست تلك المتصايبة الأويس.. ومشاعري تختلف! فكّر في هذا! أرجوك!

قال زبيد وقد راق له أن يتسلّى كي ينسى:

- أفكّر بماذا سيّدة نلسون؟ ماذا بعد المشاعر النبيلة، المشاعر الغنيّة المجيدة؟! وما هي حدود هذه المشاعر كي التزمها؟ إنني، بعد كل شيء، لست «جيغولو»، ولن أكونه، مع السيدة الأويس أو غيرها.. أما الموقف، بالنسبة إليك، فإنّه يختلف! أنا..

قاطعته محرّرة:

- هسّ.. ولا كلمة أخرى.. الحب، في نظري، شيء مقدّس، لا يتحدّث المرء عنه أمام الآخرين، ألست معي عزيزتي مارلين؟

قالت مارلين وهي تحاول إخفاء ابتسامتها:

- أنا معك، سيّدة نلسون!

غمزت السيدة نلسون زبيد وسألت:

- معي بماذا؟! أنت لست خبيثة، اليس كذلك يا مارلين؟

- لا! قالت مارلين: أنت لست خبيثة! أنا معك في أن الحب مقدس، ولا

يقال أمام الآخرين.

- وأيضاً؟

- هذا كل شيء!

- لا! ليس كل شيء.. هناك نقطة حسّاسة جداً هي الغيرة.. هل أنا

على خطأ عزيزي زبيد؟

- لست على خطأ أبداً.. الغيرة والحب متلازمان، ولكن عن أي غيرة

تتحدثين؟ غيرة من ومن؟

- غيرتك من جيفرسون.. وغيره مارلين مني مثلاً.. انتبه! أنا أقول مثلاً.. أين الكونيك؟

صب زبيد كأساً للسيدة نلسون وقال:

- في صحة حب ما، في مكان ما.. مثلاً!

ابتسمت السيدة نلسون، شربت جرعة من كأسها وقالت:

- هذا نخب يُشرب! «حب ما، في مكان ما»! هذه توريةٌ جيدة، الإنسان،

مهما تقدّم في العمر، يظل يحلم، وأنا إنسانة وأحلم، أليس هذا من حقّي؟

قال زبيد:

- هذا من حَقك تماماً.. أنت تحلمين بالعودة إلى الأوبرا، وأمل أن

يتحقق هذا الحلم، وكذلك مارلين.. أم ماذا؟

وضعت السيدة نلسون إصبعها على فمها، وقالت وهي تغمز بعينها

اليمنى:

- هس زبيد.. نحن في مطعم! توريتك جيّدة، هذه المرة أيضاً! وأنت،

عزيزتي مارلين، تحلمين بماذا؟ بمن؟

ضحكت مارلين وقالت:

- ليس بجيفرسون طبعاً!

- ولماذا طبعاً.. هذه؟

قال زبيد:

- لأنّ الوقت تأخّر سيّدة نلسون، ولم يبق في المطعم سوانا.

نظرت في ساعتها، تلفّتت حولها، شربت بقية كأسها، قالت وهي

تنهض:

- صحيح عزيزي زبيد صحيح.. الوقت تأخّر جداً، وعجوزي ينتظر

فارغ الصبر، لأننا..

قال زبيد ضاحكاً:

- ستلعبان تلك اللعبة الصغيرة..!

- أوه زبيد، صديقي، هذه أشياء لا تقال علناً.. هناك دائماً ألعاب

صغيرة في غرف النوم، وفي كل مكان، ولو كان بإمكان النظر أن يخترق

الجدران، لراى أشياء طريفة جداً، ولكانت فضائح.. لماذا تفكر على هذا

النحو؟ هل هذا من الحرمان؟ إنني، الليلة، لا أستطيع لأجلك شيئاً.. أسفة! عجوزي، من هذه الناحية، ملحاح كأنه مراهق، وأنت تعرف.. يُقال إن أنغرين الأويس تكركه جداً، لماذا؟

- لأنها عنصرية، وهي من الشباب المنحرف! هناك، في ألمانيا، نازية جديدة، تُشجّع من الداخل والخارج، وهذه حقيقة.. أنغرين تكره الأتّحاد السوفياتي، تقول إن ألمانيا ستنتقم لهزيمتها في الحرب العالمية الثانية، تأملي!

- نعم! نعم! نلسون يلاحظ هذا الانبعاث النازي أيضاً.. تعرف، زبيد، أن الفاشية، في إيطاليا، تنبعث أيضاً، وهذا مؤسف.. هناك تضليل للشبيبة.. ليس كل الشبيبة.. هيّا نخرج.. سأدفع فاتورة المطعم وألحق بكما.. سارت السيدة نلسون وهي تتأبط ذراع مارلين. دفع زبيد الفاتورة وقال للميتر:

- اعتذرا! تأخرنا قليلاً! لكن السمكة كانت جيّدة التحضير، شكراً على كلّ شيء.

قال الميتر:

- انتبه تونجي زبيد.. لا تخرج كثيراً في الليل، باتجاه البحر..

- لماذا؟ هل هناك خطر ما؟

ابتسم الميتر:

- ساجين (مع السلامة)!

قال ذلك، ثم أدار ظهره وانصرف. توقف زبيد للحظة. كان يرغب في أن يعرف سبب هذا التحذير، الذي تكرر هذه الليلة، لكن الميتر اختفى. فكّر زبيد في الرجل الذي كان يتبعه، والحارس الصيني الذي نبهه إليه، وتساءل: «ما هناك؟!» ثم حثّ الخطى ليلحق بالسيدة نلسون ومارلين، اللتين كانتا تنتظرانه، في أوّل الطريق، خارج المطعم. إنّه يستشعر خطراً ما، لكن ما هو؟ من أي جهة؟ ولماذا؟ هذا ما يجهله، لكنه لا يخافه، ليس لأنّه في الصين، بل لأنّه يثق بقوة. فكّر: «هذا لا شيء.. عليّ أن أوصل السيدة نلسون إلى بيتها، وكذلك مارلين، ثم أعمل قليلاً في إصلاح ترجمة المجموعة القصصية».

فكر في ذلك للحظة، وبعمق، مشى مسرعاً ليلحق بهما.. كان يالُم لما حدث، ويحسُّ بأنَّ روحه مجرَّحة، هو أيضاً، وقد صاحت السيدة نلسون منذ رآته قادمًا:

- هالو زبيد، عزيزي، لماذا تأخرت؟ مارلين فتاة طيبة، لكنها قلقة.. اسمع! علينا، أنت وأنا، أن نزيل الجفوة بينها وبين جيفرسون، هذا المسكين، الذي سيضيع نفسه بسببها، وهذا لا يجوز! قلت لها هذا فرفضت، قالت إنها تكرهه، هو المتيَّم بها، فماذا نفعل؟
قال زبيد:

- وما أدراني؟!

- كيف ما أدراك وأنت السبب؟ مارلين تحبك، فهل ترغب في الزواج منها؟ إذا كنت لا ترغب فإن جيفرسون يريد أن يتزوجها، وفي هذه الحال تفعل معروفًا إذا أخليت له الطريق.
«بلية!»

- عن أي طريق تتحدثين سيدة نلسون؟! إنني لا أسدَّ أيَّما طريق على أيَّما أحد، مارلين راشدة، ولها كل الحرية في أن تفعل ما تريد، لنسرع.. السيد نلسون ينتظرك، وأنا لذي عمل لا بد من إنجازه.. كفى كلامٌ في هذا الموضوع!

قال ذلك وأمسك بالسيدة نلسون من ساعدها كيلا تقع. الناس يشربون لينسوا، وهي تشرب لتتذكر، ما كينة كلام! إنَّها طريفة، عذبة، فنانة، مثقفة، لكنها، عندما تسكر، لا تكفَّ عن الكلام، وهذا ما يزعجه فيها. عليه أن يسرع بها، أن يجرَّها جرًّا، وهذا ما فعله، وعندما أوصلها إلى بيتها، تنهَّد بارتياح، وعاد من الطريق نفسها، ملتزمًا الصمت، راغبًا في أن يتخلَّص من مارلين أيضًا، وبأسرع ما يمكن، وهذه تحاول أن تتباطأ، أن تضع ذراعها في ذراعه، أن تنتزَّه معه، في هذا الليل الساجي، كحبيين، غير عابثة بالعيون الخفية التي تراقب، والتي لا تتدخَّل، لكنها تبلغ الإدارة، كالعادة، بكل ما يجري، وبكل ما ترى.

سألته، فجأة:

- إلى أين؟!

- إلى بيتك!

- لا! إلى بيتك.. أريدك أن تحبني قليلاً.

- هذا مستحيل، مع أنني أربح كما ترغبين. فكري بعقلك لا بعاطفتك يا مارلين، لا أريد أن يرانا الصينيون معاً، في بيتك أو بيتي، هذا ليس في مصلحتك، ونحن في هذا الوقت المتأخر من الليل.

- هل تخاف الصينيين؟

- تعرفين أنني نادراً ما خفت أحداً، لكنني، في مثل وضعنا، أخاف عليك، لست بالأناني أو النذل، وأحسب أنك تعرفين هذا.

توقفت مارلين ورنّت إليه، شددت على يده وقالت:

- أعرف يا حبيبي، ومن أجلك، من أجل نيك وشجاعته، أترك الدنيا وأتبعك لو أردت.

- اذن تذهبين إلى البيت؟

- وإذا قلت لك إنني، في هذا الوقت من الليل، أربح في أن أتنزه معك قليلاً؟ ألا يحق لنا أن نفعل حتى هذا؟

فكر زبيد وقال:

- في وسعنا أن نمشي قليلاً، هذا من حقنا، ولكن دون أن يلتصق أحدهما بالآخر، وبذلك نتجنب استفزاز أحد، نبدو كصديقين لا أكثر، وهذا من الاحترام لك، ومن أجل الحفاظ على سمعتك، وتالياً من أجل حمايتك، هنا في الصين! إننا، يا مارلين، لسنا في لندن أو باريس، ولا بد من أخذ كل شيء في الحسبان.

قالت مارلين وهي تمشي إلى جانبه:

- أوافق، ولكن على مضمض.. أنت تفكر كعاقل، وأنا أفكر كمجنونة، ولا حل لمشكلتنا إلا بالزواج. لماذا، يا زبيد، لا نتزوج ونسكن معاً، كالأخرين؟

- لأنني لم أخلق للزواج.. قلت لك هذا مرات عديدة.

- ولكننا نمارس الحب كزوجين، فماذا بعد؟

- الرباط! تعرفين رأيي في المؤسسة الزوجية. أن نتزوج يعني أن يحب أحدهما الآخر، ومن القلب، وهذا ما أفتقده..

- تريد إقناعي بأن لا قلب لك؟ وماذا هناك، في الجانب الأيسر إذن؟

- كرة زجاجية! حطّميها وعندئذ نتزوج!
 - ولماذا لا تحطّميها أنت؟
 - حاولت بغير نجاح، وإلا فلماذا هذه الجروح على جسمي؟
 قالت مارلين بنبرة شجن:
 - أنا لا أفهمك كما ينبغي.. لماذا كل هذا الغموض؟
 - لأنني عاقل مجنون!! أشقى بعقلي وبجنوني، ولست سعيداً كما تتصوّرين.
 - ولهذا تغامر؟
 - ربّما! المغامرة في دمي!
 - هذا لأنك لم تتزوَّج.. تزوَّج تعقل!
 - شكراً على هذه النصيحة، لا أريد أن أجنبي على أحد! شاعرنا، المعري، قال: «هذا جناه أبي علي، وما جنيت على أحد» مات دون أن يتزوج وينجب.. كان منطقياً مع نفسه!
 - أليس هو الفيلسوف العربيّ الضرير، الذي حدثتني عنه وعن فلسفته؟
 - هو ذاته!
 - ولكنك، أنت، لست ضريراً، وهناك فارق كبير..
 - نعم يا مارلين! المسألة، هنا، لا تتوقّف على البصر، بل على الحب..
 عندما أحب سأتزوج، وليس قبل ذلك.
 - والكرة الزجاجية التي تقول إنها في صدرك؟
 - هذه ستتحطّم تلقائياً، في يوم من الأيام! حين أعرّ على ما أبحث عنه.
 توقفت مارلين وسألت:
 - أنت لا تريد إخافتي، أليس كذلك؟ لماذا تتحدث على هذا النحو؟
 تحسبني لا أعرف لماذا كانت تلك المغامرة، وهذه الجروح؟ كن عاقلاً! لا تؤذ نفسك لأجلي، أنا التي تحبك بزواج أو دونه.. هل تعدني؟
 فكَرّ زييد وقال:

- أعدك!
- وهل تلك المغامرة هي الأخيرة؟
- ما دمت في الصين نعم! إنها المغامرة الأخيرة هنا.
- وهل تعالج جروحك كما ينبغي؟
- أحاول!
- ولماذا لم تبق في المستشفى؟
- عندما قلت «لا!» للمستشفى، قال الصينيون «نعم!» وعندما قلت «نعم!» قالوا «لا!» أليست هذه مفارقة؟
- مفارقة كبيرة، ولكن لماذا؟
- هذا ما أتركه لفظنتك.. تذكّري دائماً أننا في الصين، وتصرفي على هذا الأساس!
- أنت لا تتصرف دائماً على هذا الأساس!
- لأنني مجنون!
- لكنّ الصينيين، العاقلين جدّاً، يحترمون جنونك هذا، وهذه مفارقة أخرى!
- أنا استثناء!!
- وهل أنت كذلك في كل مكان؟
- تقريباً!
- لماذا؟
- لأنني كثير الأخطاء! ودائماً هناك من يغفر لي أخطائي، أو يتغاضى عنها لأمر ما.. ظنّي أنّ الصينيين يتغاضون عن أخطائي مؤقتاً!
- ولو حدث العكس؟
- هزّ كتفيه وقال:
- الدنيا واسعة!
- هذه اللامبالاة فيك قاتلة يا زبيد!
- أنت على صواب!
- قالت مارلين:

- تبدو، من هذه الناحية، كأنك مقامر!
- تمامًا!
- تقامر على مستقبلك؟!
- على حظي!
- وتربح دائماً؟
- ليس دائماً، ولكني محظوظ دائماً، ولا أحد يريد أن يصدّقني.. وهذه مفارقة ثالثة!
- أنا أصدقك يا حبيبي! أنت تعمل كثيراً، وتكسب كثيراً، وتنفق كثيراً.
- هذا من الجنون يا مارلين!
- لكنني، أنا، وربما غيري، نحبك بسبب هذا الجنون، وهذه مفارقة رابعة!

قال زبيد بارتياح ملتبس:

- ولكنها مفارقة خطيرة يا مارلين.. مَنْ يصارع القدر لا يكن في مأمن!
إن نُحِبَّ، بسبب من جنوننا، فهذا طريف، لكن ماذا بعد الطرافة؟ كل ما نصنعه بعفوية يكون صادقاً، لكن الجنون، أو بعض مظاهره، يكلف صاحبه غالباً حتى مع صدقه. لناخذ جنون الشجاعة مثلاً. هذه حالة معروفة في علم النفس، وهي، في مقياس الشجاعة، تأتي في الدرجة العليا، لكن ما هي العواقب؟ إذا تساءل مجنون الشجاعة عن عواقب أفعاله المجنونة يدخل منطقة الحذر، والحذر هو التهيّب، ومن يتهيّب لا يقدم! برقت عينا مارلين، تحت ضوء الشارع، وقالت:

- أنت، يا زبيد، لا تتهيّب، لذلك تُقدم، تُغامر، لا تُبالي، وهذا أعرفه، وصار يعرفه الآخرون، بعد تلك المغامرة الرهيبة، التي أرتعش لمجرد تصوّرها، لكنني، مع ذلك، أو بسبب من ذلك، أحببتك أكثر، عشقتك إلى الحد الذي أتعب من أجله، ومن أجله قلت لك إنني على استعداد لاتباعك حيثما تذهب، كما فعلت حبيبة راسكولنيكوف، التي تبعته إلى المنفى في سيبيريا، حسب رواية «الجريمة والعقاب».

ابتسم زبيد بحنان وقال لمارلين:

- أنت الآن تتبعينني على طريق المنفى، مثلها تماماً.. إنني، هنا، في

منفىً اختياريٍّ لأسباب قاهرة، وقد أطرِد في يوم ما، وعندئذ أتشرَّد، أساق
كما ورقة في مهب الريح، وهذا عامل آخر، ثانويٍّ، لعدم تفكيري في الزواج
والاستقرار كما غيري.. ولكن انظري هناك، وراء السياج، ثمة من يراقبنا!
نظرت مارلين بخوف، لكنَّها لم تر أحدًا. كان الذي يراقبهما قد اختفى،
انجرد زبيد وراءه، ركض في كل الاتجاهات دون طائل، وعندما رجع إلى
مارلين وجدها ترتجف خوفًا، تريث للحظة قريبها، ابتسم لها مشجعًا وهو
يقول:

- لنتابع طريقنا.. قد يكون وهما ما رأيت!

قالت مارلين في محاولة لطمأنة نفسها:

- إنَّه وهم بغير شك! نحن في الصين يا زبيد، والحراسة قوية، خاصة
على الأجانب!

- هو ما تقولين يا مارلين، ولكن..

سألت هلعة:

- لكن ماذا؟

- لا شيء! انسي «لكن» هذه؛ إنَّها سخافة، زلة لسان!! هيَّا نَعُدْ إلى
البيت، يكفي ما تنزَّهنا وثرثرتنا الليلة.
أمسكت مارلين بذراعه وقالت:

- لا! ليس إلى البيت.. لا أجرؤ على البقاء وحدي، ابق معي ولو في
الشارع، إلى أن يطلع الضوء.. في النهار فقط يمكن بقائي وحيدة، في
بيتي.. نحن في خطر يا زبيد، قد يكون هذا جيفرسون، وربما كان مسلحًا
بسكين، كما حدث أول أمس، عند آل بروك!

قال زبيد مشددًا على الكلمات:

- هذا ليس جيفرسون، إنَّه وهم، صدَّقيني!

- لا أصدِّق أنك تتوهم.. هناك من يراقبنا فعلاً.

ضحك زبيد وقال:

- طبعًا هناك من يراقبنا، وإلا فماذا يفعل الحراس الصينيون في
بيتاخو؟ إنَّهم يسهرون على سلامتنا.

- حدسي يقول إنَّ الذي كان يتبعنا متخفياً ليس صينياً .. إنه جيفرسون!

- وعلى فرض أنَّه جيفرسون، ماذا بوسعهُ أن يفعل؟
- يقتلك! وقد يقتلني أنا أيضاً .. إنه مجنون، بدقة الكلمة.
- جيفرسون يعريد ولا يقتل .. يعرف أنَّ حبل المشنقة في انتظاره لو فعل! ألم تقولي، قبل قليل، إنَّنا في الصين؟
- قلت! إلا أنني، الآن، خائفة .. انظر من هناك! يا إلهي!
نظر زبيد حيث أشارت. كان هذا صينياً يتقدم نحوهما . استدار نحوه دون أن يعبأ به، فلما وصل اليهما قال بإنكليزية مفهومة:
- ماذا هناك؟

أسرعت مارلين إلى القول:
- إنسان ما يتبعنا .. مع أننا ننتزّه قليلاً، قبل النوم!
قال الحارس الصيني:
- تابعنا نزهتكما .. أنتما في أمان.
قال زبيد:
- أعرف أننا في أمان، لكن تونجي مارلين خائفة دون سبب، ولا تجرؤ على البقاء وحدها في البيت.
قال الحارس الصيني وهو يتوجه بالكلام إلى مارلين:
- غريب ما أسمع! تخافين وأنت في الصين؟ كيف هذا؟ من يضايقك؟
تخافين ممّن؟

- من جيفرسون!
- ها! جيفرسون؟! سمعت في الإدارة شيئاً ما حوله .. لكنّه، الآن، ينام، ولن يفيق إلى الصباح .. كوني مطمئنة!
قال زبيد:

- جيفرسون غير سيئ، لولا أنَّه يسكر بسرعة.
لم يعلّق الحارس الصيني بشيء. حياً وانصرف. هذه أوّل مرّة يتكلّم فيها حارس صيني مع زبيد، في أي وقت من ليل أو نهار. إنهم عادة،

يراقبون من بعيد، فإذا مرّ بهم أحد يكتفون بالتحية. هذا الحارس كان موجوداً ورأى. زبيد لم يسأله عن الذي كان يتبعهما، وهو، الحارس، لم يشير إليه، في محاولة للتجاهل ليس إلا.. هذا، ربما، بسبب وجود مارلين، حتى لا تخاف أكثر. حسناً فعل! مارلين غدت أقلّ خوفاً، قالت:

- الآن أستطيع التأكيد أنّ ما رأيته كان وهماً يا زبيد. في بيتاخو كما في الدروجبا، الحراسة جيدة، لكنني لم أفهم قولك «جيفرسون غير سيئ!» تريد تبرئته بعد كل الذي فعل؟

قال زبيد وهما في طريق العودة:

- لا أميل إلى الطعن في الخصم، على فرض أنّ جيفرسون خصم! الاستقواء بالسلطة ليس شيمتي، إضافة إلى أنّ جيفرسون يحب، وما يفعله، بل كل ما يفعله، بدافع من هذا الحب، لذلك فأنا معذور... عندما نجد إنساناً يغرق نلقه أولاً، ونحاسبه ثانياً، وليس العكس.

قالت مارلين:

- أخالفك الرأي يا زبيد. الحب ليس جنوناً.

- الحب نوع من الجنون، عندما تصدّ المرأة من حبها.

- وإذا كانت هي لا تحبّه؟ وإذا كانت قد أفهمته ذلك مراراً، وبقي

كالأصم؟

- يكون الأمر طبيعياً.. من يحبّ لا يسمع!

- وما العمل في هذه الحال؟

- الصبر!

فجأة توقف زبيد وقال:

- اسمعي جيّداً يا مارلين، افهمي ما أقول: الحب مرض، ومن يحب أكثر يمرض أكثر، وتالياً يضعف أكثر. وكما يتطوّر المرض إذا لم يعالج، فإنّ الحب يتطوّر أيضاً إذا لم يجد استجابة. جيفرسون يحبك منذ التقات في الدروجبا، وحبه لقي صدمة منك في بيتاخو، فتحوّل الحب عشقاً، ومع العشق ارتفع حبه درجة إلى أعلى، نحو الخطر، وأمام تمنّعه عليه، وبضغط من حرمانه، ارتفع عشقه درجة أخرى فأخرى، نحو خطر أشد، وهكذا، ساعة فساعة، يوماً بعد يوم، ومع السكر المتواصل، أصبح

جيفرسون أقرب إلى الجنون، لا ينفع معه النصيح، لأنه لا يسمعه، ولا ينفع معه العذل، لأنه يولعه، وفي وضع نفسيٍّ مماثل لوضعه، يكون الاهتمام متوقفًا، إنَّه بداية جنون، والمجنون، كما تعلمين، لا مسؤوليَّة عليه قانونًا، لذلك علينا أن نصبر، كيلا ندفع جيفرسون إلى ما هو أخطر: الجنون الكامل، الجنون الذي يكون أحيانًا عدوانيًا في اتجاه النفس والآخر.. هل كلامي واضح؟

قالت مارلين:

- واضح تمامًا.. ولكن ماذا عليَّ أن أفعل؟

- أن تدفعي ضريبة جمالك. لماذا أنت جميلة؟ ستقولين: «هكذا خلقت!» هذا صحيح، غير أن الآخرين، يحبون الجمال، لأنَّهم «هكذا خلقوا أيضًا!» فمن المسؤول؟

- أنت! لماذا لا تتزوَّجني؟

ابتسم وقال:

- هذه قصَّة فرغنا منها، ما تبقى أن نطوي الكتاب، مرة وإلى الأبد.. تصبحين على خير.. ادخلي واقفلي الباب وراءك، ورقم هاتفي معك، دقاتك وأكون عندك في حال الضرورة، في حال الضرورة فقط، وهذا لن يحدث، كوني مطمئنة، نامي جيدًا، مع أحلام ذهبية..

- وأنت؟ ستعمل أم ستنام؟

- سأعمل قليلًا.

- لا تعمل، أرجوك، أنت في حاجة إلى الراحة.. عدني بأنك ستنام!

- لا أستطيع! هناك الواجب يا مارلين.

- أيَّ واجب وأنت في إجازة؟

- سبق وتكلَّمتنا حول هذا الموضوع.. إلى اللقاء غدًا! هيَّا ادخلي

واقفلي الباب وراءك، سأكون سعيدًا إذا ما فعلت.

فتحت مارلين الباب. دخلت وأغلقتة بالمفتاح. انارت المصباح في غرفة نومها. أدرك أنَّ كلَّ شيء على ما يرام، وعندئذ استدار ومشى في اتجاه بيته، محاولاً نسيان كلَّ ما حدث، إلا أنَّ سؤالاً ظلَّ يلحُّ عليه: من هذا الذي كان يتبعك يا زبيد، هذه الليلة، مرتين؟!

اليومية العشرون ٥ ايلول ١٩٦٠

ماذا تقول الصاعقة للشجرة قبل أن تحرقها؟ ماذا يقول القدر للإنسان قبل أن يدمره؟ في أي درج يضع المستقبل ما يخبئه؟ لماذا نعجز عن معرفة ما ينتظرنا؟ الحياة جميلة، وكذلك قبيحة، لكنها صمدت في الحالتين، فمتى يكون في وسعنا أن نتحدث معها؟ أن نتفاهم ولو قليلاً، فلا يكون ثمة غادر ومغدور؟ أسئلة! دائماً أسئلة، فمتى الأجوبة، ونحن نقرع باب المجهول كل يوم؟

فراغ! سافر برهان مخلص وترك فراغاً. الخبراء السوفيات يرحلون، يتركون وراءهم فراغات، هم يحسّون بوطأة الفراق مرةً، لكننا، نحن، نحسّها كلّ مرةً، وفي كل يوم، وفي كل ما تقع أبصارنا عليه. لقد كانوا هنا، أمس، الآن صاروا... رحلوا! وحدها الذكريات بقيت، ليتهم أخذوها معهم، رحمةً بنا كيلا نتألم. الحلف المقدس أصبح غير مقدّس، هُدم، فجأة، كبناء من كرتين! وبعداً؟ نرحل نحن أيضاً؟ إلى أين؟ هم عادوا إلى وطنهم، نحن، الآن، لا وطن لنا، نحن محرومون من العودة إلى وطننا، فما هو مصيرنا؟ ولماذا الغربية هنا وهناك؟ يا للمنفي من مهنة شاقّة، قال ناظم حكمت، تراه كان يفضل السجن على المنفى؟ السجين في وطنه ليس رقماً، أما خارجه، وفي المنفى، فإنه ليس أكثر من رقم «يا زبيد، يا بني، أنت هنا رقم، مهما تحاول، فكفّ عن تعذيب نفسك، بما لا يجدي. أنت اشتراكيّ، هذا جيّد، ولكنك لا تجد الطمأنينة حتّى في بلد اشتراكيّ، سواء كان اسم عاصمته بكين أو موسكو أو بوخارست! هذا درس للحفظ، ويا لكثرة الدروس التي على المرء أن يحفظها، حيثما كان!»

اليوم، صباحاً، قمتُ بجولة حول الدروجبا. كنت حزينا، كان البولفار مقفراً! قلّة من الأجانب تمشي، تترىض، تركض، تجلس، دون أن تستشعر أسفاً. لكلّ منهم وطنه، فلماذا الأسف إذن؟ وحدي، مع العجوزين الأرمنيين، كنّا نحسّ، وبعمق، أنّ رحيل الخبراء السوفيات يعني، أنّ الخلاف، بين بكين وموسكو، يضرّ بقضيتنا، وأن هذه المهزلة أضحت تراجيديا، يترصدنا القدر من خلالها، كما تترصد الافعى، في الدغل، العصفور الذي على غصنه.

قلت وأنا اجلس بجوار العجوز قره بيت على المقعد:

- فيم تفكر؟

اجاب:

- في الذي تفكر فيه أنت.

- والبسطرمة؟

- اللعنة!! هناك، الآن، ما هو أهم.. أرمينيا أضحت بعيدة جدًا.. من

كان يظن؟

قالت زوجته التي تجلس معنا على مقعد واحد:

- كفى يا قره بيت! لا تقتل نفسك حزنًا، وما النفع؟ لقد رحلوا وانتهى

الامر!

رد بنيرة يأس:

- ليتهم رحلوا دفعة واحدة، حتى لا نتعذب أكثر.

- وإذا كان القطار لا يتسع لهم جميعًا؟

- سيترّون قطارات إضافية..

- ألم تقل إنهم عشرة آلاف؟ فكّر في هذا العدد الكبير!

- ليفكر الآخرون، في موسكو وبكين.. هؤلاء الذين أضاعوا عقولهم،

وأضاعونا معهم.

التفتت العجوز اليّ وقالت:

- هكذا هو دائمًا! إنّه نكد إلى درجة لا تطاق، منذ بدأوا بالرحيل.

نبر قره بيت:

- اسكتي أنت! دعيني على حالي! هذه كارثة يا بلهاء!

- وماذا نستطيع أن نفعل؟

- نسكت!

- أراك تموت كمدًا وأسكت؟

- وماذا يفعل المرء اذا كان يرى قبره قد فُتح، وهو على قيد الحياة؟!

يضحك؟! لقد عشنا، عمرنا كلّهُ، على أمل، وما هم يقطعون حبل هذا الأمل ببلطة.

- وما هو أمّلك؟ أن يأتوا بأرمينيا إلى الصين؟
خطب العجوز قره بيت الرصيف بعصاه وقال:
- المسألة ليست هكذا يا غبية!
- وكيف هي إذن؟
التفت إليّ وقال:
- اشرح المسألة لهذه العجوز.. أنا يئست منها.
قلت:

- هوّن عليك يا عم قره بيت. إنّها نكسة! لكن القضية لن تموت بالسكّة
القلبية بسببها. سيأتي يوم..
قاطعني بحدّة:

- عن أي يوم تتحدّث أنت أيضاً؟! كنّا نقول سيأتي يوم، والآن؟ أين
صار هذا اليوم؟! إنّني عجوز، ولن أراه أبداً! عندما تحرّرت الصين رأيت
بصيص النور يكبر، وفي ضوئه رأيت المستقبل.. قلت في نفسي: ها هي
الصين، بمئات ملايينها، وبإمكاناتها الكبيرة، تأتي إلى الاشتراكية، وها
هو الحلف الجبار: الاتحاد السوفياتي والصين، فمن يقف في وجههما؟
أميركا؟ خسئت! نحن الأقوى، لكننا، الآن، صرنا الأضعف، صار الرجوع
إلى اسطنبول مستحيلاً، والذهاب إلى أرمينيا أكثر استحالة، والثقة
بالانفراج في تركيا انعدمت.. أين نذهب من هنا؟ ومن يعيد اليّ شبابي
الذي أفنيته في السجون؟ آثار القيود لا تزال في يدي، لقد عشت يا بني،
ناضلت بنفسي وبأسرتي، وما هي النتيجة؟ خلاف خطير لا يصدّق، ليتني
متّ قبل أن أرى هذا الخلاف، وقبل أن يصير الاشتراكيّ عدوّ الاشتراكيّ،
وقبل أن نصير، نحن الاشتراكيين، غرباء في بلد اشتراكيّ. إنّهُ الزلزال
الصغير، وي بعده ماذا؟ الزلزال الكبير، وأنت تهوّن عليّ!! كفى! إنني ذاهب
إلى البيت.. هناك لن يراني أحد أبكي أحلامي!

قال ذلك ونهض. كان حزينا أكثر من أب فقد ولده الوحيد. وكانت
زوجته حزينة مثله، لكنّها تتماسك إشفاقاً عليه، وقبل أن يودّعني سألت
باهتمام غير عاديّ:

- وأنتم؟! هل سترحلون أيضاً؟! سمعت أن الأحزاب الشيوعية قرّرت

سحب أعضائها أيضاً، تضامناً مع الاتحاد السوفياتي! جنون! سنُجنّ كلنا وهذا أفضل! نعم أم لا؟!

- لا أدري! أمس وصلتُ من شنتاو، كنت في إجازة هناك، على البحر، لكنني حدثت أن أمراً ما خطيراً قد حدث، لذلك قطعت إجازتي وعدت.. إنني مثلك، حزين جداً، هل نشرب معاً قليلاً من الكونياك مع القهوة التركية؟

- كونياك صيني؟! بة! هناك كونياك واحد في العالم، هو الكونياك الأرمني! ومع ماذا؟ مع البسطرمة! هل تفهم ما أقول؟!

- تماماً!

- إذن إلى اللقاء.. تعال إليّ، في بيتي، إنني أتلهّف على خبر ما طيّب.. ماذا تتوقع أنت؟ نرحل، نحن أيضاً، فجأة كما حدث مع الرفيق مالك، الذي سافر بسرعة، خلال ساعات، وبالطائرة؟ علينا أن نتوقّع الأسوأ، هذا هو رأيي، ولكن ما قيمة رأيي أنا العجوز؟ وإلى متى أتجرجر، في هذا العالم الظالم؟ الموت راحة لمن هو في عمري، لكنني أرغب في أن أموت وأدفن في بيريفان، هناك فقط ترقد عظامي بسلام، وإلى الأبد!

قالت زوجته وهي تمسك بذراعه:

- كفى تخريفاً! أنت بسبعة أرواح، كالقطط!

ابتسم قره بيت لأول مرة، وهو يغمز بعينه اليمنى:

- هل سمعت؟! هكذا الإنسان، وفي كلّ مكان، لا أحد يطيقه، إذا ما صار عاجزاً بسبب الشيخوخة! هذه المهرة، في شبابها، كانت تموت حباً بي، أنا الحصان الفحل.. مرة أخرى إلى اللقاء، وأعتذر لأنني قلت تقاهات!

صافحت العجوزين وبقيت واقفاً، نظرت إليهما بأسى؛ إنهما يدبان تقريباً! لكنّ ذهنهما غاية في الصفاء.. ما قاله قره بيت حقاً! أجدنا يفهم الآخر لأننا من العالم الثالث، المتخلف في كلّ شيء، باستثناء أجهزة القمع. ضربة الخلاف قاصمة. إنها بزنة ألف طن من النحاس. إننا، هنا، نحسّها بقوة أكبر، لأننا نعيشها.. العجوز يتوقّع الأسوأ، فماذا يحمل الغد لنا؟! ضربة أشد؟! إنني متفائل بطبعي، لكنني لست بالأحمق. هناك ضربة

ما أشدّ، حدس العجوز هو حدسي، لكنني مثله، لا أريد الموت في الغربية!
أكملت جولتي حول الدروجبا، تحاشيت الدخول إلى وسطها، يكفي ما
رايته أمس من مشاهد الرحيل، والوداع، والعناق، والحزن. لو لم يسافر
مالك لأتصلت به فوراً، بكيت عندما ودعته ليلة أمس في المطار، سألته:
- لماذا هذا الاستدعاء على عجل؟

قال:

- لا أدري! أقدر أن هناك مشاورات بين الأحزاب العربية في موسكو.
- سمعت أنّ هناك نيّة في التضامن مع الاتحاد السوفياتي.
- هذا أقلّ ما يجب.
- على الأحزاب العربية ألاّ تتسرّع في قراراتها.
- في مسألة التضامن لا بدّ من التسرّع، الصين تلعب لعبة خطيرة
وستندم.

- والاتحاد السوفياتي؟

- أنت تعرف رأيي: حزب لينين لا يخطئ!
- لا أنكر أنّه متمرّس، وتجاريه موضع إعجاب.. يكفي أنّه هزم
الجيش الهتلري وانتزع النصر، لكن إيجاد مخرج للحفاظ على العلاقات
مع الصين ضروري.

- ليس قبل أن تعود الصين عن أخطائها.

- أخطائها وحدها؟

- طبعاً يا زبيد!

- لديّ شك!

- الشك بماذا؟ ألا ترى؟ ألا تسمع؟

- أرى وأسمع جيّداً، لكن هذا لا يمنع أن يكون لي رأي.

نبر مالك:

- المسألة محسومة! أنت مع الاتحاد السوفياتي أم مع الصين؟ هذه

هي المسألة!

قلت جاداً:

- مع الاتحاد السوفياتي قطعاً.. رغم ملاحظاتي التي تعرفها.. لكنني
لست ضدّ الصين، رغم ملاحظاتي أيضاً!
- احتفظ بهذه الملاحظات لنفسك.
- سأفعل، ولكن لي رجاء: انقل هذه الملاحظات إلى الرفاق العرب
المسؤولين في موسكو.
احتدّ مالك:
- ما شاء الله! ماذا تريدني أن أقول لهم؟ الاتحاد السوفياتي مخطئ
أيضاً؟
- بعض الخطأ! هناك تسرّع في سحب الخبراء.. الصين دولة
اشتراكية كبرى، ولن تركع بأيّ حال! ثم لماذا نريدها أن تركع؟ هذا في
مصلحة من؟!
- في مصلحة الحركة العالمية كلها!
- أشكّ في ذلك!
- وأنا أعدك بنقل شكك هذا، وكذلك بعض ملاحظاتك التي قد تكون
مفيدة.
شدت على يده وقلت:
- نحن متفقان إذن.. كم أنت إنسانيّ ونبيّل يا مالك! سأحسّ بعدك
بفراغ قاتل هنا! ما أروع نكاتك اللاذعة!
ضحك مالك ضحكته المجلجلة وقال:
- إذن تذكّرني بها. اكتب إليّ على العنوان الذي سأبعث به إليك ما إن
استقرّ.
- سأذكّرك بكل شيء.. بكل شيء.. وسأكون كما ينبغي، وكما
عرفتني، ثق بما أقول.
- أنا واثق أمل أن نلتقي في موسكو أو في الوطن.
- في الوطن يا مالك! لديّ حنين مرضيّ إليه.. ولكن متى؟!
كنّا نجلس في إحدى زوايا قاعة الانتظار في المطار. وكانت عائلته على
مبعدة، فلمّا حان وقت الصعود إلى الطائرة، فتح ذراعيه وضمّني، وكذلك
فعلت أنا، قبّلني وأنا أبكي. تلجلج صوتي. صافحت السيّدة زوجته. قبّلت

أطفاله، عدت أعانقه وأقبله، فلما صعد درج الطائرة لَوَّح لي بيده، لَوَّحَ بيدي حتَّى دخل، وغاب في الطائرة، عندئذ انكفأت راجعاً، مستشعراً مرارة الوحدة في غربتي التي خيلَ إليَّ أنها بدأت الآن، وبشكل حقيقي وموجع!

أعترف. أنا عاطفيّ بأكثر ممَّا يجب. هذه نقطة ضعفي! إنني طيّب دائماً، وحازم في وقت الحزم، إلّا أنَّ الغربة تملي على الإنسان أخلاقيَّاتها وسلوكيَّاتها. الطيبة تحتاج إلى حماية، وفي المنفى تصعب هذه الحماية، أحياناً! المنفى له قانونه: ألا تنمّي شعور الحنين المرضيِّ في ذاتك، أن تتلاطم، وأن تنسى، لكنك، برغمك، تحمل وطنك في قلبك، بسبب من أنك مبعّد عنه، قسراً لا اختياراً.. الاختيار سهل، ويعكسه القسر، إنّه صعب وإلى أبعد الحدود.

سافر مالك وبقيت وحيداً، حزيناً، متعباً!

وليلة البارحة، وبعد عودتي من المطار، شعرت بتفاهة كلِّ ما حولي. دور مَنْ بعد مالك؟

ربّما الجميع! كل الرفاق العرب قد يرحلون، أحزابهم ستستدعيهم، واحداً بعد الآخر، وربما دفعة واحدة إلّا أنا؛ لن يستدعيني أحد، بعد أن فصلت من الحزب هنا، في المنفى! عليّ، إذن، مواجهة مصيري بمفردي، دون سند من أحد، دون مساعدة من أحد، فإذا ما طردت من الصين يوماً، فسأجد نفسي في قارب التشرّد، يبحر بي وسط الأنواء، وإلى غير ما هدف معيّن.. المدن كلّها، المرافئ كلّها، مغلقة في وجهي، وفي المقدّمة مدينتي، دمشق، فالى أين؟! وما هو المصير؟! وهل أبقى متأرجحاً، لا مع الصين ولا مع الاتحاد السوفياتي؟! ولماذا أحشر هكذا، في زاوية حادّة؟! هل هذا كله بسبب أفكار المستقلّة؟ بسبب اقتناعاتي المغايرة؟ قدر! هذا قدر، وما تبقى هو المواجهة بشجاعة، وهذه لا تنقصني، ولكن أن أرى الصينيين، في تفانيهم، في نكران ذاتهم، لأجل بناء الصين، وأنا خامل، منغمّ، «دون جوان»! فهذا ليس من الشجاعة، ومن الشرف، وبكلمة، من المبدأ!

نمت على وسادة المسألة، سؤال يذهب وآخر يجي، رأسي والشوك،

وسادتي شوك! في الظلمة بقيت مفتّح العينين، أتقلب دون جدوى. متى أغفيت؟ وهل أغفيت؟ النوم عدوي، لماذا، يا نوم، أنت عدوي؟! لا جواب! يا لقسوة السؤال، عندما يكون بغير جواب، ولشدّ ما تسألت، عمري كله، ولشدّ ما افتقدت الأجوبة، عمري كله، إلّا أنّ السؤال، في الغربة، يكون سؤال الغربة، يكون أقسى الأسئلة، وأكثرها تجريحاً للروح! هكذا أفقت، بعد إغفاءة مع الفجر، معذب الروح، وزاد العجز قره بيت، أمس، في تعذيب روحي، لذلك لذت ببيتي، وبالصمت المتمدّد في فضائه.. عالجت نفسي بالشراب، إلى أن جاعني عبد القادر، ضاحكاً كعادته، فقال:

- ستكون هناك حفلة فنيّة بعد الظهر، هل تحضرها؟

- ولماذا الحفلة الفنية، وبأي مناسبة؟

- كيف بأي مناسبة؟! لأجل الرفاق السوفيات!

- تقصد حفلة وداع؟

- لا! حفلة فنية لكي يكونوا مسرورين.

- من الذي سيكون مسروراً، أنتم أم هم؟

- كلّنا!

- ما أظن!

- كيف لا تظن؟ هناك حفلة كل يوم، على شرف المسافرين، وقد أهدينا إليهم أوسمة.

- وما نفع الأوسمة؟

ضحك عبد القادر وقال مستغرباً:

- كيف ما نفع الأوسمة؟ إنها تعلّق على الصدر!

«أبله!»

- أعرف أن الأوسمة تعلّق على الصدر، لكنّها، الآن، فقدت الرمز الذي كان لها في الماضي.

- لا! الأوسمة لا تباع، فكيف تفقد قيمتها!

«بليّة هذا العبد القادر!»

- اسمع! أنا لن أحضر أيّة حفلة.

- لماذا؟ ألا تريد أن تكون مسروراً؟

«سرور؟ ومع هذا الرحيل؟»
 - في البيت ساكنون مسرورًا أكثر.. أرتاح قليلاً!
 - لكنك، في شنتاو، كنت ترتاح جيّدًا.. لماذا هربت؟
 - هكذا!
 - تحبّ الدروجبا أكثر؟
 «كانت الدروجبا! والآن؟»
 - دعني يا عبد القادر.. إذا لم يكن هناك ما هو مهمّ، فإنّني سأشتغل..
 مع السلامة!
 - أنت حزين؟
 - جدًّا!
 - وبسبب رحيل الخبراء السوفييات؟
 - نعم! وأنت يا عبد القادر؟
 - أنا أعمل لبناء الصين الاشتراكية!
 - والاتّحاد السوفيياتي.. أليس دولة اشتراكية؟
 - ولكنّ قيادته، بعد ستالين، أصبحت بورجوازية.
 - من قال هذا؟!
 - نحن!!
 - تعرف ما هي البورجوازية؟
 - إنّها ضد البروليتارية!
 - وأيضا؟
 - كيف وأيضا؟ أنا لا أفهمك.
 - ليس من الضروري أن تفهمني يا عبد القادر، الآن على الأقل!
 - وأنت لا تصدق أنّ المسؤولين في الاتحاد السوفيياتي أصبحوا أغنياء جدًّا.
 صحت به:
 - هذا اتّهام! هذا ادّعاء!! أنت تردّد ما تقرأ، أو ما تسمع، بصرف
 النظر عن رأيي في هذا كله!
 - وأنت؟

- هل تحقق معي؟! إنني أعمل في الصين، وهذا يكفي!
- ونحن نشكرك على المساعدة التي تقدمها لنا، لكننا نريدك مسروراً،
لأجل صحتك، لأجل أن تعمل جيداً، ولكي تعرف أننا نحبّ الاتحاد
السوفياتي مثلك، وأننا نحذره حتى لا تقتله أخطاؤه!
- ربما، ولكن..

ضحك عبد القادر وقال:

- لا تكن متعصباً (عصبياً!) يا أستاذ! أعمل بقدر ما تستطيع.. أنت
الآن في إجازة!

- انتهت الإجازة!

- لا! لم تنته.. الإجازة من حقك.

- وإذا قلت لك إنني أتنازل عن حقّي، وسأعود غداً إلى العمل؟
- والعطلة الصيفية في الجامعة؟

فكرت. هذا صحيح! الجامعة في عطلة. لكنني، أنا، سأضع برنامج
الدراسة للعام المقبل، فما هو هذا البرنامج؟! إنهم يفرضون عليّ أن أدرس
بياناتهم السياسية، بكل ما فيها من أشياء ضد الاتحاد السوفياتي! هذا
مستحيل! سأرفض! وإذا رفضت؟ نعم إذا رفضت؟ يطردونني من الصين؟
ليكن.. سأرحل إلى الجحيم، نعم! أرحل إلى الجحيم ولا أخون صداقة
الاتحاد السوفياتي.. فلو قبلت هذا ما خرجت من وطني، وما تغربت،
وتشردت، فهل يعقل، وأنا في بلد اشتراكي، أن أخون بلداً اشتراكياً آخر؟
أن أعضّ اليد التي تقدم المساعدة لنا، نحن العرب؟ لا! وألف! هناك
أخطاء؟ نعم! وقد نددت بها علناً، قلت: حزب لينين غير معصوم عن الخطأ،
ولينين، نفسه، لم يقل بهذه العصمة! فلماذا الملكية أكثر من الملك؟!

قلت لعبد القادر:

- هل تريد شيئاً آخر غير الذي قلته؟

- الرفيق تشوتن، مسؤول دار النشر باللغات الأجنبية، يشكرك على
مساعدتك في إصلاح بعض الترجمات للدار، ويسألك: هل تقبل، وأنت في
إجازة، أن تصلح كتاباً ترجمه أحد الرفاق العرب؟ هذا الكتاب، كما يقول،
مهم جداً، وضروري..

- ما هو هذا الكتاب يا عبد القادر؟

ناولني المغلف الذي يحمله وقال:

- إنه، كما قال الرفيق تشوتن، عن نضال العمال في كانتون، قبل تحرير الصين.

فتحت المغلف، تناولت الكتاب باللغة الإنكليزية. كان فعلاً عن نضال العمال في كانتون، النضال السري والثوري، نظرت في الترجمة العربية وضحكت: يا للتخبيص! المترجم يخطئ حتى في الإملاء، فكيف المعاني؟! كنت أعرف أن الرفيق ليوتشاوشي، رئيس الجمهورية، هو من قاد نضال الطبقة العاملة الصينية في المدن، وبشكل مواز لنضال الفلاحين الصينيين في المسيرة الكبرى بقيادة الرفيق ماوتسي تونغ، وباقتران نضال الفلاحين والعمال تحررت الصين.. إذن هو كتاب مهم فعلاً، وضروري راهناً، بالنسبة إلى نضال العمال العرب، الذين سيقدم لهم، في ترجمته العربية، خبرة ثمينة، هم في حاجة إليها. وضعت المغلف ومحتوياته على المكتب وقلت:

- لماذا كُفوك أنت بهذه المهمة يا عبد القادر؟ أنت لا تعمل في دار النشر، فلماذا لم يأت رئيس القسم العربي في الدار بنفسه؟

قال عبد القادر بارتياح، بعد أن وجدني قد هدأت:

- الرفيق هادي، رئيس القسم العربي في دار النشر، موجود في الدروجبا.. إنه ينتظر هاتفاً مني ليأتي بنفسه.

- ولماذا لم يأت مباشرة؟

- لأنه! لا بأس يا استاذ! سيأتي فوراً، إذا أردت.

فكرت: «في دار النشر يحتاجون إلى مساعدتي! سيحتاجون أكثر إذا رحل الرفاق العرب، وفي مثل هذه الحال علي أن أعمل كثيراً.. لا بأس! إنه، بالنسبة إلي، واجب، أزداد معه اطلاعاً، وأؤدي مهمة، وهذا يعزّيني قليلاً، يخفف من شعوري المعذب، لكوني لا أعمل لأجل القضية عملاً نافعاً، مباشراً.. لكن لماذا لم يأت هادي مباشرة؟ إنهم لا يخافونني، ما داموا لم يخافوا حتى مجابهة الاتحاد السوفياتي نفسه، غير أنهم يعرفون أنني في إجازة، وأنتي قطعت هذه الإجازة وعدت خفية من شنتاو، دون أن أبالي بأحد، ولهذا يحملون عن سلوكي العصبي فكرة مضحمة، وهذا

سيئ، وقد أرسلوا عبد القادر، مرافقي، لجس النبض، خاصة في هذه الظروف، ولا بد أن يكون هادي قد أبلغ قيادة الدروجبا بمهمته، وعلي، بصرف النظر عن كل شيء، ألا أردّه خائباً، لأنّ هذا لمصلحتي، في دار النشر، والدروجبا، والجامعة أيضاً! سيعرفون أنني، هنا، لأداء واجب، لا للتسلية، أو الراحة، أو اللجوء السياسي!..

قلت لعبد القادر:

- اهتف للرفيق هادي أن يأتي.

قال عبد القادر:

- أبلغه أنك قبلت بإصلاح الترجمة؟

قلت صارماً:

- أبلغه أن يأتي فقط.. ها هو الهاتف!

رفع عبد القادر السماعة، أدار القرص على الرقم المطلوب، أما أنا فقد نهضت وأحضرت زجاجة الكونياك مع كأسين.. سألت:

- هل تشرب معي قليلاً يا عبد القادر؟

ضحك وقال:

- ولكن كيف هذا؟ تشرب الكونياك قبل الغداء؟

- اشربه في كل وقت.. إنه لذيذ جداً.

- وإذا كسرت (سكرت!)؟

- لا! لن أسكر! أنا لا أسكر أبداً، أنعش نفسي فقط.

- هذا جيد يا أستاذ.. اشرب أنت.. هادي في الطريق إليك.. أنا سعيد

لأنك وافقت!

«يظنني وافقت كرمي له! هذا، بالنسبة إليه، علامة ممتازة، دلالتها أنّه يجيد العربية، ويحاور بشكل ذكي ومقنع! وما الضرر في ذلك؟ وجود عبد القادر يروق لي، إنه ليس أبله تماماً، ويعرف أشياء كثيرة، مفيدة!».

فُرع الباب فركض عبد القادر وفتحه. هادي شاب هادي، ذو مكانة حزبية محترمة، لأنّه شارك في النضال السريّ. لا يحسن العربية، لكنّه يتكلّم الإنكليزية، وهذا هو المطلوب. وقفت أستقبله كما يحسن بمضيف، وبعد التحية، والمصافحة، جلس وسألني عن طريق عبد القادر:

- هل أنت بخير؟

- بخير تمامًا!

- لماذا لم تبق في شنتاو؟

- لا أعرف..

- هذا غير مهم، ما دمت بصحة جيدة.

- تشرب قليلاً من الكونياك؟

- ضحك عبد القادر وقال:

- كيف هذا يا أستاذ؟ هادي في مهمة!

قال هادي:

- شي شي ني تونجي زبيد (شكرًا رفيق زبيد) نحن نشرب الماوتاي، وفي المناسبات الرسمية فقط.. ما رأيك في إصلاح الترجمة؟ أم أنك تترتاح وأنت في إجازة؟

رشفت جرعة من الكونياك. كان عليّ، في هذا الوقت العصيب، أن أبدو رائق المزاج، متفهمًا للموقف، مستوعبًا له.. من يعمل في السياسة، يتحمل كلّ طارئٍ بصبر، وبشيء من دهاء. السياسة بغير دهاء لا سياسة. هذه قاعدة أساسية، لا بدّ أن تؤخذ في الحسبان، شرط أن يكون الدهاء فهمًا لا كيدًا، مفيدًا لا مبتذلًا، وفيه، ومعه، التعلم بإتقان، ألا نستعجل النصر.. التسرع في الطلب، وفي تحقيقه، مقتل في العمل السياسي، والأهم، مقتل في جانبه النضالي! أخذت جرعة أخرى من الكونياك وقلت:

- ما رأيك أنت، تونجي هادي، أعمل أم أستريح؟

- هذا عائد إليك.

- ولو كنت مكاني؟

- هناك فارق بيننا، أنا صينيّ، وهذا بلدي، ونحن نخرج من قمقم، وكيلا نعود إليه، لا بدّ من الكفاح، والبناء هو الكفاح الأصعب! إذن لا راحة بالنسبة إلى الرفيق الصيني المخلص، هناك الواجب.

ابتسمت وقلت:

- أنا هنا لأداء هذا الواجب، ودونما راحة، إذا كانت الصحة تسمح، وصحتي، كما ترى، لا بأس بها.

- هذا كلام فيه وعي وإخلاص، ونحن نعرف وعيك وإخلاصك،
ونقدّرهما.

- لأمشكلة إذن! سأصلح هذه الترجمة، لكنّها سيئة جدًّا، من الذي قام
بها؟

- رفيق سودانيّ، كان يتعامل مع دار النشر سابقًا، وقد اكتشفنا أنّه لا
يُحسن الترجمة.

- لديه أخطاء حتّى في الإملاء، فكيف الأمر مع المعنى؟ الترجمة غير
أمينة، وتحتاج إلى وقت طويل.. إعادة ترجمة تقريبًا!

- أفهمك جيّدًا، لكننا أمام واقع وضرورة، لذلك لجأنا إليك، بنصيحة
من الأستاذ مكين.

- سأبذل كل جهدي، وستصبح الترجمة جيّدة.

- شكرًا! (قالها بالعربية) هل أنت مرتاح بالإقامة في الدروجبا؟ إذا ما
كان هناك إزعاج، أو طلب، فإننا على استعداد لمعالجتهم مع قيادة
الدروجبا.

ابتسمت:

- لا طلبات خاصّة لديّ، وليس هناك إزعاج.. الإزعاج قد يصدر عنّي!
- نحن نقدّر ظروف الغربة القاسية، ونقدّر ظروفك تمامًا.. سايجين

(إلى اللقاء)!

- سايجين!

عندما بقيت وحيدًا، بعد ذهاب هادي وعبد القادر، تساءلت: «ما هي
ظروفي التي يقدرونها؟! هل هذا تلميح إلى موقفني الانتقاديّ من «باي
لي»؟! هربي من شنتاو كان سلوكًا غير مقبول هنا، وحديثي، اليوم، مع
عبد القادر، اتّسم بالقسوة، فما هو ردّ الفعل؟ اتهام القيادة السوفياتية
بالبرجزة والإثراء اتهام خطير، فهل هو تجنُّ أم معرفة بما لا نعرف، نحن
الذين نرى الأشياء، كل الأشياء، في الاتحاد السوفياتي، حسنة جدًّا؟ أين
الحقيقة؟ ولماذا، قادة أحزابنا، لا يمارسون أيّ انتقاد، ويرون أنّ حزب
لينين لا يخطئ؟! من يعمل يخطئ! هذه بدهيّة، فلماذا يتجاهلوننا، ويقفزون
عليها، ونقفز نحن معهم؟! الصين لم تكن من رأينا، ومن رأي قادة حزبنا

في موضوع الوحدة بين سورية ومصر، وهي في هذا على حق.. الوحدة العربية حلم العرب الثوري النبيل، وكان يجب على حزبنا، ونحن في البرلمان السوري، أن يصوت مع الوحدة، ويعد ذلك ننتقد أخطاءها، لا أن نتغيب عن جلسة الموافقة عليها، ونشرع، من موقف ضعيف، بانتقاد أخطائها، فنُدفع الثمن غالباً، بعضه السجن، وبعضه التشرد، وبعضه الموت، في الوطن أو الغربة!

هذه الآراء جالت في خاطري وأنا في سورية، وازدادت إلحاحاً عليّ وأنا مشرد في لبنان، ولم أجهر ببعضها، لأن أحداً لم يطلب رأيي فيها، ولو جاهرنا لطردت من الحزب، بذريعة خرق الانضباط (الديسبلين)، ورغم ذلك، وخلافاً للرفاق الآخرين، المشردين مثلي في لبنان، عشت منبوذاً، لاجترائي على البوح، بقليل جداً من أفكار، لرفيق مشرد مثلي، ولم يكن خروجي من لبنان، وتسفيرتي إلى الصين، إلا بمسعى من كاتب لبناني كبير، صديق للحزب، وكلمته مسموعة، وإنّي لأحفظ له مسعاه، بكبير الامتنان^(١).

غير أنّ الذي لم يحدث في لبنان حدث هنا في بكين، الفرقة الحزبية انتقدتني على بعض أفكار، وبعض سلوكي، ولم تطردني بقرار علني، إنّما عزلتني، وكان هذا العزل صادراً عن حقد شخصي من رئيس الفرقة، ولم تكن المناقشة مجدية، فعددت نفسي خارج الحزب، مع الالتزام الكامل بمواقفه، إلا من التبعية الكاملة للاتحاد السوفياتي، فأننا لست مع الصين، إلا أنني لست مسعوراً في عدائي لها، وإذا ما طلب الحزب خروجي منها فسأخرج، لأنّ له الحق في ذلك، ولن أخالف إرادته، حتّى مع فقدان عضويته تعسفاً. أه يا وطن! أنت كنور العين، فعلام عقابك لي؟ أه يا غربة! إنني، معك الآن، في غربتي! لقد رسم رفاقي حولي علامة استفهام، والويل لمن ترسم هذه العلامة عليه، فهو متهم، وتالياً مقاطع، وهذا ما حدث لصديقي رثيف خوري تماماً!

للمت أحزاني وذهبت إلى المطعم. جلست وحيداً إلى طاولة صغيرة ومنعزلة. شربت زجاجة بيرة. تناولت بعض الطعام بصعوبة، لفقدان

١ - هذا الكاتب والصديق الكبير هو الدكتور جورج حنا.

- الشهية، وقبل أن أنهض جاء إليّ أبو المجد، رحّبت به كما يليق، اقترحت أن نشرب قليلاً من النبيذ الأبيض المبرّد فوافق، سألتني بعد تمهيد:
- لماذا هربت من شنتاو؟
 - ضجرت منها!
 - كان يمكن أن تأتي بمعرفة الصينيين، وبشكل نظامي.
 - أخطأت!
 - أخطأوك صارت كثيرة.
 - أعرف.
 - لا تخاف أن تطرد من الصين؟
 - لم أعد أخاف شيئاً!
 - هذه جناية مالك عليك!
 - ليكن! مالك يبقى صديقي، وهو يعرف أفكاري.
 - وإذا سحب الحزب أعضائه من الصين؟
 - أمتثل للقرار!
 - في الوقت الحاضر لا شيء... حزينا طلب منا التريث.
 - هذا موقف صائب.
 - أبلغوك ذلك؟
 - لا! أنت تعرف وضعي.
 - كان عليهم أن يبلغوك.
 - أعذرهم في عدم إبلاغي.
 - لكنني، أنا، أتفهم موقفك، ولهذا أبلغتك.
 - أشكرك على ذلك، وسيبقى الأمر سرّاً بيننا.
 - يقال إنك بكيت عند فراق مالك!
 - نعم بكيت!
 - أنت طيّب.. لكنّه، هو، لا يستحقّ.
 - أرجوك! ولا كلمة واحدة ضدّه أمامي!

عمل زبيد حتى الفجر، أنهى إصلاح المجموعة القصصية، أحسن
بصداع وتعب شديد، تناول قرص أسبرين، نظف جروحه بالمطهر، دهنها
بالمرهم حسب إرشاد المشفى، بعد ذلك تمدد في فراشه، أطفأ الضوء، فكّر
قليلاً حتى أعفى. كان في حالة إرهاق نفسي وجسدي. الحياة، في هذه
الغربة، أرهاقته، وما يلح فجر الخلاص، وليس، في المدى المنظور، ما يشير
إلى أي فرج قريب. انتهت الوحدة السورية - المصرية بالانفصال. رغب في
العودة، لكن الظروف ما لبثت أن تطورت بشكل سيئ، فاضطر إلى تجديد
عقده مع الصينيين لمدة عامين. عاش فترة قاسية، في الأعوام الثلاثة التي
مضت على وجوده في الصين. أحسها بليونة، ثقيلة، مزهقة للروح، دفعته
دفعاً إلى التماس العزاء في الخمرة والمرأة، بعد أداء واجبه الذي رفعه إلى
مرتبة القداسة أكثر فأكثر.. تجلّى ذلك في عمل متواصل، بتدريس وترجمة
وإصلاحاً للترجمات، مع رجاء رفعه إلى القيامة في دار النشر، كتابةً
وشفهيّاً، ولعدة مرّات، أن يُعفى من أخذ الأجر، لأنّه ليس بحاجة أولاً، ولأنه
يرغب أن يُرضي ضميره ثانياً، وفي كل مرة كان الجواب واحداً: «من كل
إنسان حسب طاقته، ولكل إنسان حسب عمله» وفق شعار النظام
الاشتراكي المعمول به في الصين، وبدقة تامة.

وكما يشعر الكاتب بالارتياح، عندما يضع نقطة النهاية لعمل ما، كان
زبيد يشعر بالارتياح، حين ينجز عملاً ما، أترجمه كان أم إصلاحاً
لترجمة. هذا كله جعل له دالة عند الصينيين، فأعفى من كل عمل فيه حرج
كبير، وكلف بتدريس وترجمة المواد التي فيها نقاش نظري، أو التي تتحدث
عن نضال الصين، قبل التحرير، وعن بنائها بعده. وقد التزم الطرفان،
بغير اتفاق مكتوب، بمراعاة هذا الوضع، ما دام زبيد ليس ضدّ الصين،

وليس ضدَّ الاتحاد السوفياتي أيضاً، ومُنح ما يشبه الامتياز، في سلوكه الخاص، الذي لا تسيب فيه، ولا تزلزله، مع الخشية عليه من الإجهاد، ومن المغامرة، لأنه ذو كفاءات يحسن الاستفادة منها، ويحسن عدم هدرها، ما أمكن ذلك.

لكنَّ زبيد، رغم التحذيرات من كل جهة، كان يغامر، يهدر صحته، باندفاع ملحوظ، لسبب ما في الداخل، وما مرجه إلا ستارة لهذا الذي في داخله، والذي، بسببه، كان شقياً، راغباً عن متاع الدنيا، وعن الحياة، لا مبالياً، بشكل صادق، بالمال أو المرأة! الليلة، رغم الوقت المتأخر، عمل إلى ما قبل الصباح، مصراً على إنجاز العمل، في إصلاح المجموعة القصصية، كي يهنا، وينام مرتاحاً، وقد حصل، بعناده، على الهناءة والراحة معاً، فنام إلى ما قبل الظهر، نوماً مستمراً، إلا أنَّه مضطرب، متقطع، منغص بالكوابيس، هذه التي لا يدري لها سبباً، رغم كينونتها وديمومتها، في أكثر لياليه، واذ يفيق في حال من الإنهاك، كان يتمنى لو لم يبق، لو ظلَّ نائماً النومة الأبدية، وعندما أفاق، اليوم، كان تعباً، سثماً، ففكر، كعادته، تفكيراً ساخراً، قائلاً «عليك، يا ابن الأفاضل! دخول «غرفة الإنعاش!، كما بعد عملية جراحية، فانت تخضع، كل ليلة، لعملية مماثلة، ولا بد لك من إنعاش! لا بد لك، كي تصحو، وتسترد بعض نشاطك، وبعض مسرّتك، من قليل من الكونياك، وبإذن من الإله باخوس، حسب تعبير السيدة نلسون!».

جلس في الفراش، مدَّ يده فتناول زجاجة الكونياك، كرع جرعات منها، أشعل سيكارة، استعاد، في ومضات استرجاعية، بعض ما جرى له أمس، هزَّ رأسه مبتسماً، قال بغير صوت: «أحسننَّ يا مارلين، يا دميّتي الصغيرة والجميلة، في عرضك الزواج عليّ! إنني زوج صالح جداً! الرجل، عادة، هو الذي يقدم عرضاً كهذا! أنتِ يُست من انتظار ما لا ينتظر، فتقدمت بعرضك الرائع: «أن نتزوج، ونسكن معاً، كالآخرين يا زبيد!» شكراً على هذه الأريحية، إنها من النبل، فهل أنت، يا محترمة، سليلة نبلاء؟ قد يكون هذا وقد لا يكون، إلا أن زبيد، يا سيدتي الجميلة، يحار بأمر النعمة، وبما يفعل بها، لذلك يردّها لأصحابها مع انحناء بوذية، واليدان مضمومتان! أعرف أنك ستبتسمين من إشفاق وعتب، لأنك

في غير حاجة إلى أية تحية لائقة، كونفوشية كانت أم بوذية! أنت، يا سمكنتي الذهبية الرائعة، بحاجة إلى زوج، وما دام ذلك كذلك، فإن جيفرسون على استعداد، وبالزواج منه تقدّمين له معروفين: المتعة ونعمة العقل، قبل أن يُجنّ تمامًا في هواكِ! أمّا أنا، الذي من سلالة غير نبيلة، حتى لا أجرّح نفسي أكثر، فإنني أكره المؤسسة الزوجية، كما أكره الأنسة باي لي في الدروجبا، ومن اللاجدوى الحديث الضائع، والوقت الضائع، في أمر كهذا!

نهض من الفراش، الإنعاش تمّ، خرج من غرفته المعقّمة بعناية. الآن لا بدّ من القهوة، ومعها قليل من الكونياك، إرضاء لباخوس، وللسيدة نلسون التي لا يدري إذا ما كانت، بعد عودتها المتأخّرة ليلة أمس، قد لعبت «لعبتها الصغيرة» تلك، مع السيد نلسون الذي لا يحتاج إلى نبات الجنسنع، حسبما زعمت. زبيد سيحتاج إلى هذا النبات الطيّب، الموصوف شعبياً في الصين، وخلال كل الأنظمة التي تعاقبت عليها. نعم! نبات الجنسنع، فقد كبر زبيد، في ثلاث سنوات، كما لو في ثلاثة عقود. أرق نفسه، أرق أعصابه، أحرق سفنه، وفي المضطرب الذي هو فيه، كان يستشعر كأن دوامة نهريّة تشدّ به شدّاً قويا نحو الأعماق، نحو الغرق، مع الشعرات البيض التي تكاثرت في رأسه، ومع الهموم التي لا يدري بها أحد، لكنّها مترسّبة في أعماقه، تطفو في لياليه السود، أن يفتقد الأنيس، ويفتقر إلى الزوج والولد، وإلى الاستقرار الذي هو الأهمّ دائماً، لكنه الأصعب، أو المستحيل دائماً!

كان فطوره القهوة والكونياك، الأجانب، العرب، الآخرون، يفطرون في البيت أو المطعم، أمّا هو فإنه غير الآخرين، غير الجميع، الطعام آخر ما يفكر فيه، ولو كانت الحياة ممكنة دونه لاستغني عنه، ولطالما نُصح بأن يفكر في صحته، ألا يعمل كثيراً، ألا يشرب حتى لا يُدمن، فكان يجيب: «أعرف ما يجب وما لا يجب.. الحياة محتملة، بالنسبة إليّ، على هذا الشكل فقط!» أو يضحك قائلاً: «أنتم تريدون أن تعيشوا طويلاً، وهذا من حقكم، وهذا هو الصواب، لكنني، أنا، لا أريد أن أعيش طويلاً، وهذا من حقي، وأعرف أنه خطأ.. أمّا الإدمان فغير وارد.. أنا أشرب الكحول وليست هي التي تشربني!» فإذا قالوا له: «أنت تتفق كثيراً، لأنك تكسب

كثيرًا، لكن انتبه! هناك القرش الأبيض، لليوم الأسود!» أجابهم: «كنت أنفق مما أكسب، قبل الصين، وسأظل كذلك بعدها.. أنا لا أخاف الفقر، وأعرف الحديث الشريف: «أخشوشنوا فإنَّ النَّعمَ لا تدوم» لكنني أعرف، أيضًا، أن أعيش على الخبز والزيتون، كما أعيش على الزبدة والعسل، معدتي لا تدخل في دائرة اهتمامي!» ومرة، أو أكثر، تجرأ عليه بعضهم قائلًا: «هذا بطر! ما تفعله هو البطر! أنت تمالئ الصينيين حتى تكون لك هذه الخطوة عندهم، وحتى يعطوك الشغل فتكسب من ورائه.. أنت تنجز في يوم ما ينجزه غيرك في أسبوع، لأن الصينيين لا يفرقون بين العمل المتقن، وغير المتقن» فرزت عيناه شعاعًا غاضبًا وقال «نعم! أنا هكذا! فماذا بعد؟! لولا أننا في الصين، ولولا أننا زملاء، لأريتمكم نجوم الظهر، وجعلتكم تفرقون بين الكرامة والمالأة.. أوغاد!!». ثم أدار لهم ظهره وانصرف. غير أنه، وخاصة عندما يرتكب بعض الأخطاء، من جراء الطيبة في غير مكانها، وغير أوانها، كان يعترف: «نعم! هذا غير لائق!» أو «هذا إسراف لا مبرر له!» أو «هذا طيش أضعت معه صوابي!» وعندئذ تأخذه نوبة ندم فيقول: «أنت، يا أبله، لم تستفد من تجاربك.. أنت إنسان سخيف وغبي!».

هذا الصباح، وهو يشرب القهوة، لاحظ في سره «أن المزاح يحط من الهيبة!» أضاف بصمت: «مزحت أكثر مما يجب مع السيدة نلسون، وللمرة الثانية! وكان عليّ، في المرتين، أن أوصلها إلى بيتها في حالة سكر، فماذا يقول زوجها، وهو قيادي في حزبه؟ وماذا يقول الصينيون، وأنا بين عجوز متعتة، وصبية يانعة، في منتصف الليل؟ وقبل ذلك كان جيفرسون إلى طاولتي، وعليها شرب وسكر، والنتيجة؟ عريضة ومحاولة تحطيم، لولا تدخل مدير المطعم! هذا السلوك، ومن أيّة جهة، غير مقبول!».

ولأنّ الندم هو التجربة ذاتها، مرة أخرى، فإنّ زبيد كان يندم كي يجرب، ويجرب كي يندم! ولم ينقذه من حلقاته المفرغة هذه سوى هاتف من عبد القادر:

- أين أنت يا أستاذ؟

- في البيت طبعًا!

- أعرف أنك في البيت، لكنني أسأل أين كنت ليلة أمس؟

نبر زبيد:

- ولماذا هذه الأسئلة يا عبد القادر؟ أنا لست قاصراً وأنت لست وصياً عليّ!

ودون أن يفهم عبد القادر، أجاب ضاحكاً:

- لا بأس! لا بأس يا أستاذ.. أنا أهتم بك، وفي دار النشر يسألون عن العمل.. متى ينتهي؟

- المجموعة القصصية انتهى إصلاحها.. سهرت عليها ليلة أمس حتى الفجر. تعال خذها!

- هذا جيد يا أستاذ. لكنك ترهق نفسك.

- تعال خذها والسلام.. إنني أنتظرك!

جاء عبد القادر سريعاً وضاحكاً، قابله زبيد بفتور، في العلاقات الشخصية، خارج إطار العمل، لا أسئلة ولا مجاملات، عبد القادر يعرف أنه كان أمس في البيت، وفي المساء كان في المطعم، وأن الحراس الصينيين حذروه مرتين، من رجل كان يتبعه وظلّ مجهولاً، لا لأنه هرب قبل أن يلحقوا به، وإنما لأنهم لم يلحقوا به، وتالياً لم يقبضوا عليه لسبب لا يعرفه، وإن كان يخمنه تخميناً! إنهم يريدون إخافته! إلا أن زبيد أظهر لهم أنه لا يخاف، لذلك لم يخبر الإدارة في بيتاخو، التي هي على علم بكل شيء، وهذا الأبله عبد القادر ليس، أكثر الأحيان، بأبله، إنه يعرف ويتجاهل، لكن ماذا لو عرف أو تجاهل؟ سيان! نعم! سيان!!

ناول زبيد المغلف وقال:

- أوصله اليوم إلى دار النشر.

أجاب عبد القادر بملاطفة:

- سافعل يا أستاذ.. هناك رفيق مسافر في قطار الواحدة بعد الظهر، وفي دار النشر سيكونون مسرورين.. الرفيق تشين تن، المسؤول الأول في الدار، اتصل بالإدارة في بيتاخو، وطلب الاهتمام بك..

قاطعه زبيد:

- لا أريد اهتماماً خاصاً، أنا خبير كغيري في الصين، وأعمل، وقتي كله، لا لإرضاء أحد، بل لإرضاء ضميري، بدافع من شعور بالواجب.

- لا بأس! لا تزعل يا أستاذ.. كيف تقول أنت كالآخرين؟ أنت تقدم لنا مساعدة كبيرة.. تشتغل وأنت في إجازة، بينما الخبراء الآخرون يسبحون ويستريحون.. هل راجعت المستشفى كما أوصاك الطبيب؟
- لا ضرورة للمراجعة.. أعالج جروحي كما أوصاني الطبيب تمامًا.
ضحك عبد القادر وقال:

- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟! الطبيب، في المستشفى، سيقلق عليك، أنت بحاجة إلى أدوية جديدة.

- ولماذا الأدوية الجديدة؟ مع ذلك سأراجع الطبيب.. مع السلامة.

- وجيفرسون؟

- ما به أيضاً؟!

- موجود في الإدارة، وهو يطلبك، وكذلك مدير الإدارة، أنا ذاهب إلى هناك.. لأجل الترجمة!

قال ذلك عبد القادر وانصرف «هناك مشكلة جديدة!» فكر زبيد «مشكلة قذرة، لا علاقة لي بها، ويصرّ جيفرسون على إشراكي في مشاكله التي من هذا النوع.. لماذا؟! يحسب أن كلمة مني تنقذه؟ وهل يعرف، هذا المجنون، أن كلمتي تحملني مسؤولية أنا بغنى عنها؟ الربط بيني وبينه ليس في مصلحتي، يجعلني متورطاً في حبه لمارلين، وهو حب ملتهب، قد يحرقه ويحرق مارلين ويحرقني معهما! أف! أي بلوى هذه؟! جيفرسون يحبّ مارلين، وهذه تزعم أنّها تحبّني، وهي خائفة، تطلب حمايتي، لكن إلى متى؟ كيف أنفض يدي من هذه القضية كلها؟ ألا تكفيني همومي؟ همومي؟! أه! نعم! لكن أحداً لا يدري بها، بسبب ذلك التمويه الذي أبدو معه سعيداً، وأنا شقيّ إلى أبعد حدّ، شقيّ إلى حد البكاء، ليلاً، لو أستطيع! الدمع، أحياناً، تمرد.. هل يبكي الإنسان تمرّده؟ ربما!»

حلق ذقنه، طهر جروحه، ارتدى ثياباً خفيفة، ذهب إلى الإدارة ليعرف ما هناك، وما إذا كان جيفرسون قد ارتكب حماقة جديدة! «إنه إنسان هالك! في طريقه إلى الموت أو الجنون، وعلي، من باب الشفقة، وكذلك من ناحية العلاقة الإنسانية، ألا أدعه يموت أو يجنّ! وهذا ليس في وسعي.. لماذا؟ لأن دواء جيفرسون في بلوغ إربه من مارلين، بالزواج أو بغيره، المحبّ يفتش عن الدواء، وحبه هو الدواء، شرط أن يكون متبادلاً، وأن

يتحقق، بطريقة ما، فهل أنصح مارلين بأن تكون له؟ وكيف تكون له وهي تكرهه؟ وكيف لا تكرهه وهو يتهاك عليها؟! لو لم يكن الحب أعمى، كما يقولون، لراى جيفرسون الخطر المهدق به، لابتعد عنها، لصبر أو تصابر، ولجد هذا الحب، كاتمًا إياه في كبده، مهما تكن المعاناة قاسية.. قرأت، يوماً، عن الحب القاتل! ضحكت! كيف يقتل الحب؟ كنت، ولا أزال، على خطأ! ها أنا أرى الحب القاتل بعيني، ولكن ما أدراني أن هذا القتل، حقيقةً كان أم مجازاً، ليس فيه متعة ما؟ لو لم يكن الحب، لما كانت للحياة قيمة، لما كان لها معنى، أنا هو الذي يعيش بلا معنى، اذن أنا هو التعيس، لا جيفرسون! أنا، في حرمانى من مرض الحب اللذيذ، أعيش بلا مرض لذيذ، فماذا لو حدث وصار؟ ليكن، ليحدث، ليقع هذا الحب، وليحدث لى ما يحدث لجيفرسون، وعندئذ يمكننى القول، عن تجربة: «حقاً لقد عشت!»

فى الإدارة، وبعد انتظار قصير، استقبله مدير بيتاخو وهو يبتسم. كانت هناك فتاة صينية تجيد الإنكليزية، وهي التي ستتولى الترجمة، وقد ارتاح زبيد لذلك، حرصاً منه على نقل الحوار، بينه وبين مدير الإدارة، بدقة وأمانة، لا يستطيعهما عبد القادر. قال المدير خيو وهو يرحب به، متابعاً الابتسام، كأنما يريد أن يعبر به عن تفاهة الموضوع:

- أتعبناك للمرة الثانية! إنه جيفرسون أيضاً!

سأل زبيد:

- وما هي مشكلته أيضاً؟

- كيف تسأل وأنت تعرف؟

- أعرف ماذا؟ جيفرسون رغب فى الجلوس إلى طاولتى فى المطعم.. لم أمانع لأن المطعم للجميع، ولأن الرفاق الأجانب يجالس بعضهم بعضاً.. هذه عادة جيدة، شعور بالرفاقية، ولهذا كان من اللياقة أن أرحب به، وأن أدعوه، أو أدعه، يتصرف بحرية، فهذا من الديمقراطية الشعبية المعمول بها فى الصين.

قال الرفيق خيو بعد أن أشعل سيكارة:

- تونجى زبيد، أنت غير ملوم، والأمر جرى كما تقول، لكن تونجى

مارلين كانت معك، ولهذا أقحم جيفرسون نفسه عليك.

أشعل زبيد سيكارة أيضاً وقال:
 - هل هناك مانع في أن تكون مارلين معي أو أكون معها؟
 - لا، طبعاً..
 - إذن أين المشكلة؟
 - بالنسبة إليكما لا مشكلة! لكن جيفرسون يشرب كثيراً، ويسكر بسرعة.
 ضحك زبيد وقال:
 - الحق على «الكامبي» (شرب الكأس دفعة واحدة) وعلى الماوتاي..
 جيفرسون تعلم منكم!
 ضحك خيو بدوره وقال:
 - لكننا، نحن، نشرب في المناسبات، ولا نسكر أبداً.
 - لا أحد لا يسكر، أحياناً، وجيفرسون يفعل هذا، مثل غيره.
 - لكنه يسكر ويعربد، لأن مارلين ترفض أن تتزوجه
 قال زبيد ضاحكاً:
 - لديّ اقتراح، تونجي خيو، زوجه فتاة صينية!
 - وإذا كان يرفض الزواج إلا بمارلين، التي يحبها؟
 - وإذا كانت مارلين لا تحبه؟
 - ولماذا رغبتنا في التحدث اليك؟ أليس ذلك لأننا نريد أن تساعدنا في حل هذه المشكلة؟
 عاد زبيد إلى الجدّ وقال:
 - ما دام الأمر كذلك، اسمح لي، تونجي خيو، أن أزيل التباساً حول هذه النقطة. إنكم، ضمننا، تتهمونني بعرقلة هذا الزواج، أو بعبارة أوضح، تتهمونني بأنني أقف حائلاً بين جيفرسون ومارلين، وهذا خطأ! مارلين تحتمي بي خوفاً من جيفرسون، وأنا أحميها بالتعاون معكم، لا أكثر.
 - نحن نعرف كيف نحميها دون تدخل من أحد!
 - هذا جيد، ومعناه انتهى الحديث، شكرًا!
 قال زبيد ذلك ونهض. لكن المدير خيو استبقاه.. قال موضحاً:

- نحن نثق بك تونجي زبيد. نعرف أن مارلين، وهي رفيقة جيدة، تانس بك. في هذا الموضوع لا دخل لنا ولا اعتراض. موقفنا دقيق ومحدد: لا تدخل في شؤون الذين يعملون في الصين من الرفاق الأجانب، إلا إذا حصل اعتداء.. جيفرسون هو المعتدي.

- جيفرسون يعاني الغربة، والحب، والضياح.. وهو معذور، في رأيي، لأنه يتصرف مدفوعاً بالعاطفة لا بالعقل، وفي مثل هذه الحال علينا أن نساعد، إلى أن يقتنع بعدم الجدوى فيهدأ! إنه، الآن، مريض نفسياً، وكل ضغط يزيد من مرضه النفسي، لذلك أرى مفيداً أن يدخل المستشفى، وأن يعالج فيه بالمهدئات التي تخفف من هياجه، فيعود، تدريجياً، إلى حالته الطبيعية.

تأمله المدير خيو، مستغرباً ما يسمع، قال:

- لو تعرف رأي جيفرسون فيك، لما قلت هذا الكلام الطيب في حقّه.

أجاب زبيد بنبرة ساخرة:

- أعرف رأيه! يعدّني عدوّه!

- ويريد التخلص منك، بأية طريقة.

- وهذا أعرفه أيضاً.

- ومساءلة السكّين التي أراد طعنك بها؟

- هذا لا شيء، مجرد محاولة لإخافتي.

- ألم تخف؟

- ليس من إنسان لا يخاف.. لكن جيفرسون يعرف جيّداً أنّه في

الصين، ويحسب لذلك حساباً كبيراً، مثلنا تماماً.

- ولماذا لم تخبر الإدارة بمحاولة جيفرسون؟

- لأنّها محاولة تافهة.. إضافة إلى أنّكم تعرفون كل شيء.

ابتسم خيو وقال:

- في كلامك، تونجي زبيد، بعض المبالغة.. ماذا تعني بقولك إنّنا نعرف

كل شيء؟!

- أعني الذي تعرفه جيداً..

- هل نثق بنا إلى هذا الحد؟ تحسب أنّنا نراقب كل تصرفات الرفاق

الأجانب؟

- أعرف أن الانضباط كامل، والأمن مستتب، لذلك نعمل باطمئنان.
- خن خاو! (جيد جداً) أنت لمّاح! ولكن ما رأيك بتصرف جيفرسون ليلة أمس في المطعم؟ نعاقبه أم نسامحه؟
- هذا يعود إليكم، ما عدا ذلك فإنني أعرف، وأثق، أنكم لا تعاقبون رفيقاً لاجئاً لديكم، خاصة إذا كان صديقاً لكم، ويعمل لديكم، وفعلته غير سياسية، ولا تتسبب بأي أذى، وهي، فوق ذلك، شأن خاص، تتعلق بعلاقة حب، بين شاب وشابة غير صينيين!
- لكننا مسؤولون عن الجميع، أولاً وأخيراً، وهذا واجبنا، ومن صلاحيتنا في ضبط الأمور!
- وإذا كانت الأمور منضبطة ولا تحتاج إلى استعمال الصلاحية؟ ما حدث في المطعم أمس كان طبيعياً، فالأجانب يشربون في بلادهم وخارجها، ومن وقت إلى آخر يسكر أحدهم، فماذا يعني هذا؟ جيفرسون في إجازة، وهو لا يؤذي أحداً، وكل فعلته أنه أراد التعبير عن حبه بطريقة غير لائقة، وقد حسم الموضوع مدير المطعم، وجيفرسون أراد أن يكون ضيقاً، عليكم في الإدارة، وأنتم، بدمائكم المعروفة، تقدرون الأمور بشكل صحيح، لذلك وفّرتم له الراحة، وقد ارتاح ونام.. فأين هو الآن؟ رأيي أن تنصحوه بالذهاب إلى المستشفى، كزيارة لا أكثر، وهناك يفحصه طبيب مختص، ويعطيه الدواء اللازم.
فكر الرفيق خيو قليلاً. أشعل سيكارة لنفسه وأخرى لزييد قال بتأن:
- جيفرسون حالة نادرة، لا سابق لها في بيتاخو.. الرفاق الأجانب يأتون للراحة هنا، ونحن نبذل جهودنا لتوفير الجو الملائم، كي يستمتعوا بإجازتهم، ولم يحدث أن وقع إشكال، بسبب الحب أو غيره، ولو لم تكن طرُقاً في الموضوع، لعالجناه بشكل آخر، أما وأنت رفيق عزيز علينا، فإن اقتراحك لا بأس به، ولكن للمرة الأخيرة.. أمل أن تفهمني جيداً.. سايجين!
- سايجين!

خرجوا من الإدارة، جيفرسون وزييد، دونما ممانعة. كان الجو الصيفي، في انقشاع الغيم مؤقتاً، يعطي للشمس أن تسطع بكل بهائها، وهذا ما أكسب الجو جمالاً أخاذاً، يبدد كل جهمة في النفس، ويبعث على

النشوة الكاملة. وكان المصطافون، الذين يرغبون في اكتساب اللون البرونزي، يجدون في الشمس فرصة مؤاتية، كي يتعرّوا، الا من المايو، ويعرّضوا جسامهم للأشعة اللاذعة قليلاً، في البلاج أو أمام مساكنهم، وخاصة النساء منهم. ولم يكن جيفرسون معنياً بهذا، كان نهياً للندم، وقد اطمأنَّ إلى أنَّ عقاباً لم ينزل به، ورضي، بطيبة خاطر، أن يذهب مع زبيد إلى المستشفى، حيث أخضع لفحص دقيق، ولأسئلة كثيرة، تتعلق بما ينتابه من قلق، ومن قلة النوم، وانتفاء الشهية، وأعطى الدواء اللازم، من مهدئات وفيتامينات ونُصح، بتشديد، أن يتناول حبوب الدواء في أوقاتها، وألا يشرب، وأن يرتاح في منزله، ويتنزّه، ويسبح عندما يريد، ويراجع الطبيب، في وقت محدّد، مرّة كلّ يومين.

قال جيفرسون للطبيب:

- سأفعل كل ما طلبته مني، وأتناول الدواء في المواعيد المحددة، لكنني، الآن، أرغب في التحدث إليك على انفراد.

خرج زبيد من قاعة العيادة فوراً. وجد أنَّ جيفرسون على حق في طلبه. المريض نفسياً، بصرف النظر عن القرابة أو الصداقة، بحاجة إلى خلوة مع طبيبه، كي يقول له الأشياء التي لا تقال أمام غيره. زبيد دخل لأن الطبيب رغب في ذلك، وكان الطبيب مخطئاً، وكذلك هو. قد يكون هناك سرٌّ، وقد يرغب جيفرسون في كلام يريحه الإفضاء به، وربما كان الحوار، حول علاقته بمارلين، ضرورياً مع الطبيب المعالج، لأن منشأ الحالة النفسية التي يعانيتها، تعود إلى هذه العلاقة «ومهما يكن، فكر زبيد، فإنَّ هناك، لدى كلّ إنسان، خصوصية تتوضّع في اللاشعور، لا بدُّ من الكشف عنها، ودون هذا الكشف، لا يتوصّل الطبيب، مهما يكن بارعاً بالتحليل النفسي، إلى معرفة العلة الأساس، التي عنها تصدر التصرّقات، وإليها تعود النتائج، باعتبارها المركز المحوري، وكلّ عصاب أو ذهان، يدور على محور هذا المركز.

جلس زبيد في غرفة الانتظار وراح يدخّن. كان يأمل، بعد الحوار بين جيفرسون والطبيب، أن تتوضّع الأمور، كلّ الأمور، بشكل جيّد، فقد تكون حالة هذا المريض ذات صلة بسبب آخر، غير الحبّ، وهذا السبب يتمظهر

في الحب، كنوع من الاستبدال ليس إلا، كقشرة تخفي ما تحتها، في تمويه يلجأ إليه العقل في مرونته، فيخيّل للرائي أنّ السبب الأقرب، المباشر، هو مصدر هذا الانفعال الذي يدفع إلى السكر والعريضة، وإلى التحرش لإشباع اللذة، بديلاً للألم الذي يعانيه المريض، ويبحث للخلاص منه، أو يندفع لإسكاته، باللذة، وهذه هي ثنائية الألم واللذة في تناوبهما الذي يدوم في الإنسان ما دام على قيد الحياة.

فتح الباب، خرج جيفرسون ووراءه الطبيب، وقف زبيد، سأل جيفرسون عن حاله، لم يجب هذا بكلمة، مضى خارجاً من المستشفى، وعلى وجهه أمارات كره، لم تخف على زبيد، إلا أنّه لم يستغريها، فمن عادة جيفرسون أن يتقلب، فجأة، من ودود إلى مجافٍ، حسب الواقع غير المعروف، الذي يقبع في الداخل، ويتحرك، نفسياً، حركة لا واعية، تعبر عن ذاتها في سلوك قُلب، يشتد عندما يهتاجه السكر.. لذلك فكر زبيد أن يسأل الطبيب، إلا أن هذا سبقه بالكلام قائلاً:

– هل لديك بعض الوقت لتتحدث قليلاً؟

وافق زبيد دون تردد، دخل غرفة الطبيب، ابتسم هذا بعد أن أغلق الباب وجلس إلى مكتبه قائلاً:

– جيفرسون مصاب بحالة ذهانية متحوّلة، وقد تكلم كثيراً، وشجعتة على المزيد، إلا أنّه فجأة، لاذ بالصمت، ولم يجب، إلا بصعوبة، عن بعض الأسئلة، إلا أنّ الدواء الذي وصفته له، إذا ما تناوله بانتظام، سيجعله يسترخي، وينام لفترات طويلة.

أضاف الطبيب بعد أن أشعل سيكارة:

– هذه حالات نفسية معروفة جداً، يدخل فيها الحنين المرضي إلى الوطن، ويتبدّى في حالة اكتئاب يشتد، إذا لم يعالج، فينقلب إلى هياج، قد لا يكون عدوانياً بالضرورة، إلا أن له اندفاعات، منها كثرة الكلام، نشاط الحركة، العريضة، الرغبة في التخطيم، الضحك الهستيري، وبعد ذلك الصمت، وأحياناً البكاء، وكرة أخرى الهياج.. وقد أحسن جيفرسون بالمجيء إلى المستشفى، واتصل بي الرفيق خيو، قبل وصوله، شارحاً لي وضعه، وأفادني أنك أنت صاحب الاقتراح في ذلك، وأنك تعرف وضعه

جيدًا، ويمكن أن تقدّم لي بعض الملاحظات المفيدة، إذا ما رويت لي قصّته بتفصيل.

سأل زبيد:

- هل جيفرسون الآن، في حالة هُلوسة؟

- أبدًا، إنّه في كامل قواه العقلية، بعد أن نام جيدًا، وندم على فعلته أمس في المطعم.. هذه صحوة جيّدة، وسيساعد الدواء، تدريجيًا، على دوامها.. ماذا بشأن قصّته؟ إنّني مصغ، وسأدوّن بعض الملاحظات.

روى زبيد قصّة جيفرسون منذ التّقاء في الدروجبا، وعرف منه أنه يعمل في دار النشر باللغات الأجنبية، في الدار نفسها التي تعمل فيها مارلين، ولكن في قسم آخر، وكان هادئًا، لطيفًا، صموثًا، يشرب الماوّاي مع الطعام الصيني، في مطعم الأجانب في الدروجبا، ولم تكن بينهما صداقة أو عداوة، انما معرفة زمالة، ولم يكن، زبيد، يعرف شيئًا عن علاقة جيفرسون بمارلين، وما إذا كان يحبها، أو كانت هي تبادله هذا الحب، وما إذا كانت بينهما علاقة جنس، أو كان جيفرسون محرومًا لأنه أعزب، أو كان يشكو من مرض ما، إلى أن التّقاء في بيتاخو، وكانت سهرة السبت التي أمضيها معًا، جيفرسون ومارلين، ورغب بعد السهرة في أن يناما معًا، فامتنعت مارلين، وأغلقت الباب في وجهه، وفي اليوم التالي تحرش بها، وراح جيفرسون يلاحقها في كل مكان، ومارلين تخاف منه وتكرهه، وتطلب منه، هو زبيد، أن يبقى إلى جانبها، أن يحميها، ولا يرفض حبّها، إلى آخر القصّة.

دوّن الطبيب هيو بعض الملاحظات، طالبًا من زبيد حتّى التفصيلات الصغيرة، وبعد ذلك سأل:

- ما هي علاقتك بمارلين، ومنذ متى؟

أجاب زبيد:

- إنها علاقة حبّ طبيعيًا، ومنذ حوالي العام.

- قلت إنّ مارلين كانت تطلب منك ألا ترفض حبها، لماذا؟

- لأنّني لا أبادلها الحب!

- والسبب؟

- هذا شأن خاص جداً، لكنني، رغم ذلك، أصدقك القول أنني لا أعرف الحب، لأنني محروم منه، وأتعذب بسبب من ذلك، راغباً في أن أكون عاشقاً مثل جيفرسون..

ضحك الطبيب وقال:

- مثل جيفرسون تماماً؟

قال زبيد وهو يضحك أيضاً:

- نعم! مثل جيفرسون تماماً، كي أعرف هذه التجربة.

- تجربة الحب أم تجربة المرض؟

- الحب، تونجي هيو، هو مرض، لكنه مرض لذيذ، كما أقرأ في القصص، والفارقة، هنا، أن جيفرسون يحب مارلين، ومارلين تؤكد أنها تحبني أنا، وهذه حال مركبة، ومعروفة حتى في شعرنا العربي القديم.

قال الطبيب هيو:

- هذه الحالة المركبة موجودة في الصين، وفي العالم كله، ومنذ وعى الإنسان وجوده، إلا أن الحب ليس شرطاً في الزواج، هناك كثيرون يتزوجون دون حب، فلماذا لا تتزوج مارلين وهي تحبك، وتؤكد هذا الحب كما سمعت منك؟

- لأنني أخاف مؤسسة الزواج إلى درجة كبيرة، بل إنني أنفر منها وأكرهها.

- ولماذا ترفض مارلين الزواج من جيفرسون وهو يحبها إلى درجة المرض؟

- لأنها تقول، وتؤكد، أنها تكره جيفرسون وتخشى حتى رؤيته!

- هذا بسببك طبعاً!

- ولماذا لا يكون بسبب الحب؟! مارلين لا تحب جيفرسون، وهو يضغط عليها بعنف، كي تفعل!

نقر الطبيب بأصابعه على مكتبه، وقال بعد تفكير:

- نعم! الأمر كذلك، وهذه حالة مركبة كما قلت، فالحب لا يكون بالإكراه، بل إن الإكراه يزيد في الكف عن الحب، ومن هنا منشأ بعض

الأمراض النفسية، قبل الزواج أو بعده، وغالبًا بعده، إذا ما كان الزواج ناتجًا عن القوة أو الضغط، لأسباب مختلفة، خاصة في البلدان التي تسمى متخلفة، حسب اصطلاح الغرب.. لكن المشكلة التي نحن بصددتها ليست هنا، إنها في عدائك لجيفرسون كما يزعم، وفي محاولتك المتعددة لاغتياله!

صاح زبيد برودة فعل عنيفة وعفوية:

- عدائي أنا؟! هو يقول ذلك؟!

- نعم مع الأسف! فهل حدث أنك حاولت الاعتداء عليه؟

- أبدًا!

- وهل حاولت اغتياله، أو هددته بهذا الاغتيال؟

- أبدًا أيضًا! وإدارة بيتاخو تعرف.

- المدير خيو يقول عكس ما يدّعيه جيفرسون، ويؤكد أنك تدخلت لدى الإدارة، مرات عديدة، لمصلحته، وإنك، قبل أن تأتي به إلى المستشفى، دافعت عنه كثيرًا، وبذلك نجا جيفرسون من العقاب.. إنني، الآن، مطلع على كلّ شيء، على ما قلته، وما قاله الآخرون، لذلك أشكرك كثيرًا على صراحتك.

قال زبيد وهو ينهض مودعًا:

- وما الدافع، تونجي هيو، إلى مثل هذا الاتهام السخيف والكاذب، أهو المرض أم الحق؟

أجاب الطبيب هيو وهو يشدّ على يد زبيد:

- هناك مرض، وهناك حقد ضخّمه المرض! جيفرسون خبيث ومراوغ، أحذره، وانتبه جيدًا، الاحتياط ضروري، في كل الأحوال، وبالنسبة إلى الجميع!

سأل زبيد وهو على عتبة غرفة العيادة:

- الحذر من جيفرسون مفهوم، لكن الانتباه، وبالنسبة إلى الجميع، غير مفهوم، ماذا هناك؟

ربت الطبيب هيو على كتف زبيد وقال:

- كلمة انتبه هذه عابرة.. سايجين!

- سايجين!

خرج زبيد من المستشفى دون أن يراجع طبيبه، بشأن جروحه التي لم تشف تماماً بعد. كان غير مبالي، كعادته، وكان يعرف، من تجاربه، أن الصينيين لا يقولون كلماتهم جزافاً، لذلك أسر في نفسه:

- كلمة انتبه هذه غير عابرة!!

أضاف وهو يتجه إلى منزله:

- لا! ليست عابرة، وأنا متأكد من ذلك!

ثم مرّ كتفيه قائلاً:

- ليكن ما يكون، الآن، وكذلك في المستقبل، الحياة، في هذه الغربة،

ليست عزيزة علي كما يتصورون!!!

اليومية الحادية والعشرون ٢ أيلول ١٩٦٠

رحل جميع الخبراء السوفييات، الموجودين في الدروجيا، مع عائلاتهم. أغلقت المدرسة الروسية. فرغت الأبنية السبعة، الكبيرة، ذات الطوابق الستة، وفي كل طابق عشرات المساكن. بدت مقفرة، مهجورة، مظلمة في الليل. خلا النادي الواسع جداً من لاعبي البليارد. طاولاته الكثيرة، ذات الأغشية الخضراء، والكرات البيضاء والملونة، غدت عاطلة. عصي البليارد معقدة في أماكنها، أو مكدونة في الزوايا. ماتت الحركة، الضجة، البهجة، وطواها النسيان. العدم خيم على هذه المدينة الصغيرة، التي كانت تمور بالحياة. أطلال! الآن عرفت معنى الأطلال، ومعنى الوقوف عليها، والبكاء على من ترحل عنها. «يا دار مية بالعليا فالسند» أين مية وأين دارها؟ صمت! وحدي، ربما، أقهم هذا الصمت، الذي أصغي إليه، وأكلمه، وأسائله، دون جواب، بعد أن عي جواباً «وما في الربيع من أحدا!»

إنني حزين على غير عادتي. الماضي لم يكن يعني لي شيئاً ها هو يعني لي كل شيء. صدمة! إنني مصدوم جسداً وروحاً. مجرد مشاعر وعواطف. أحس احساساً غريباً بالوحدة. أدرك أن «بنيان قوم تهدم» كما أدرك، ذلك، الشاعر الجاهلي، قبل مئات الأعوام. الخلاف كان كارثة،

وخاصة بالنسبة إلينا، نحن الذين كنا نأمل التعاون بعمق، فكانت خيبتنا بالعمق نفسه. ومع ذلك لا يزال علينا أن ننشئ حلماً جديداً، بعد أن صارت حياتنا مصنعاً للأحلام، ننتج منها الكثير، ونفقد منها الكثير، الواحد بعد الآخر!

لم أكن في حالة ضياع. كل شيء، تقريباً، كان واضحاً. اتهامات الصينيين، ردود فعل الاتحاد السوفياتي، مواقف الأحزاب المتضامنة معه، وجهات نظر الخبراء العرب والأجانب، عدم اكتراث أعضاء الأحزاب الأوروبية. قلق أعضاء الأحزاب في العالم الثالث، وخاصة في البلاد العربية وأميركا اللاتينية. وصول الخلاف إلى نقطة اللا عودة، انعكاسه علينا، نحن المنفيين لظروف القاهرة، الذين، وحدهم، لا يعرفون مصيرهم، بين بقاء أو رحيل. هذا هو وضعي الخاص، كإنسان ملتزم، دون أن يكثر أحد بالتزامه، لطيرانه «خارج السرب»! كما يظن، مع انقطاع أخبار الوطن، لاستحالة سماع الإذاعات العربية، وحرمانني من قراءة صحيفة الحزب، أو معرفة التوجيهات التي يتلقاها أعضاء الفرقة الحزبية!

معاقب دون ذنب، متهم بالخروج على الانضباط (الديسبلين) هذا الذي كان صارماً، شديداً في صرامته، لا تستطيع معه أن تجهر برأيك، أن تحاور من أجله، أن تناقش في موضوعه، حتى مع رفاقك مطلوب منك أن تقول «نعم» دائماً، فإذا تجرأت وقلت «لا» رُسِمت حولك إشارات الاستفهام، وبعدها يأتي الرجم بحجارة الاتهامات الظالمة، ومعها العداوات، والشكّ فيك، لمجرد أنك مثقف، ولأنك لست مهرجاً عند «السلطان»، ولأن هذا السلطان لا يثق بالمتقنين، باستثناء الذين ينافقون له، ويتمدحون أقواله وأفعاله كلها.

عرفت وأنا في الصين، كما يقول ألبير كامو «ما كنت أعرفه، مرة أخرى» وممن؟ من حزبي ورفاقي، لكن الحق، بعد كل شيء، على مَنْ؟ ربما عليّ، دون أن أدري، ولا شفيع، في هذه الحال، الا الانتقاد الذاتي، الانتقاد الانتقاري، باعترافك بذنوب لم ترتكبها، وعليك أن تخلقها، كما فعل رفيق قيادي كبير وشهيد، حرصاً منه على ألا يُطرد، ولا يُحرم من العضوية التي كانت، بالنسبة إليه، أثمن ما في الوجود. رفضت، وأنا في الوطن، مثل هذا الاعتراف التجريحي للذات، ورفضته، أيضاً، وأنا مشرّد في لبنان،

ورفضته، كذلك وأنا في الصين، ونلت جزائي نبذاً، وتقبّلت بصبر، «إسفنجة الخل» وأنا على صليب إشارات الاستفهام، التي رسمت، قبلي، على كثير من المثقفين، ضاع بعضهم أو مات.

«أنا لا أحارب من أجل عمر». استعادة، لا إعادة، لما قاله خالد بن الوليد، قديماً في التاريخ العربي. لقد وُضعت خارج السرب، إلا أن طيران السرب كان طيراني، وفي هذا بعض العزاء، وبعضه الآخر في العمل أيضاً، وفي الحفاظ على استقلالية الموقف، بالنسبة إلى الخلاف الذي تفجّر، وكان له دويّ كبير، ونتائج سيئة وخطيرة أيضاً، بالنسبة إلى الطرفين، تماماً كما تنبأ العجوز قره بيت، الذي قتله الحزن، لأنّ أرمينيا أضحت بعيدة، وليس من «بسطرمة» في الصين!

وضعت، خلال اسبوع، برنامج الدراسة للعام المقبل، أنجزت اصلاح بعض الترجمات الصغيرة لدار النشر. قرأت كلّ كتاب حصلت عليه بالإنكليزية والفرنسية، وبالعربية طبعاً. عشت وحدة قاتلة، رفضت دعوات غير قليلة، للمشاركة في الرحلات، ولرؤية بعض الحفلات الفنية، ومنها عروض أوبرا بكين، ولحضور الحفلات الراقصة، كل ليلة سبت، وللترفيه، كما توقّعت الإدمان، فلم أغرق في الشراب، ولم اتهالك في طلب الجنس رغم الحرمان الذي أعانيه؛ صرفت وقتي كله، في إنجاز بعض الترجمات، وكتابة اليوميات، والبحث عن التحف، التي من أجلها قرأت بعضاً من تاريخ الصين، وبعض الكتب عن الكونفوشية والبوذية، وعن السلالات الصينية، وسلالة المينغ بشكل خاص.

هذا كله نفعتني جداً. ساعدني في التأقلم، في تحصيل المعرفة، في قضاء النهارات والليالي بغير ملل، بغير حنين مرضيّ إلى الوطن والأهل، ودون فرض نفسي على الآخرين، من عرب وأجانب، وتجنب المناقشات السفسطائية، المماحكة، في السياسة، وفي مشاكل العمل، وتزمتات الصينيين، والعلاقات الخاصة بين الخبراء، والفضائح الصغيرة، التي تثار من حين إلى حين، وتشتم الأخبار، كما يفعل سواي، والاكتفاء ببعض الزيارات، سواء للرفاق العرب أو الأجانب، والعيش الرومانتيكي، هذا الذي حماني، كشاب أعزب، من أيّ تورط، في علاقات محرّجة، كما من الحرص على جمع المال، ومن التفكير المعذب في الفرج المنتظر، والتسرع في طلبه،

والاعتقاد الأحق بأن الاشتراكية، في العالم، ستحقق في حياتي، وأن عدم تحققها، في هذه الحياة، سيثبط عزمي في الكفاح لأجلها، في الحدود المتاحة، أو الوقوع في تفاؤل أرعن، أو تشاؤم أبله، يقود إلى يأس من أي نوع.

هكذا مضت أيامي في يسر ودعة. كان عبد القادر يزورني من حين إلى حين: وكذلك هادي، رئيس القسم العربي في دار النشر. وعندما بدأت السنة الدراسية، استأنفت العمل في الجامعة، ومع اطلالة العام الجديد، ١٩٦١، وبفواصل زمنية قصيرة، طرأت ثلاثة أحداث في حياتي، حركتها تحريكاً قوياً: تطورت، مع الوقت، علاقاتي مع أسرة بورجرون، دخلت مارلين تشارلز عالمي الخاص، عادت تشين لاو إلى الدروجبا، كمسؤولة عن العلاقات العامة! ورغم أن برنامج الدراسة، الذي وضعته بدقة وانتباه لطلابي في القسم العربي، جرى عليه بعض التعديل، لم يكن الخلاف حاداً، بيني وبين الرفيق ليو، المسؤول الحزبي في الجامعة، ولم يؤد إلى صدام عنيف، أترك معه العمل وأرحل.

ففي بدء الدراسة، وبعد أن انتظمت الأمور، وجدت على مكتبي في القسم العربي، ذات صباح، بياناً نارياً ضد الاتحاد السوفياتي، وقال المسؤول عن الطلاب في القسم، إن الرفيق ليو يطلب إدخال هذا البيان في مواد الدراسة، وإنه، أي البيان، هو الأهم من كل المواد الأخرى، التي هي أمال أدبية، ومقتطفات من الكتب العربية المترجمة عن الصينية، حول المسيرة الكبرى، والنضال التحرري في الصين، وبعض التعريفات الضرورية، لفهم الاصطلاحات الدبلوماسية العربية بعد التخرج، وحين العمل في الخارج، أو حين الترجمة للوفود الأجنبية العربية التي تزور الصين.

قلت للمسؤول عن الطلاب في القسم:

- تدريس هذا البيان السياسي، وكل مفرداته معروفة، لا يفيد الطلاب في شيء.

أجابني:

- نحن نعرف ما هو مفيد، وما هو غير مفيد.

سألته:

- هذا الكلام منك، أم من الرفيق ليو؟

- إنه من الرفيق ليو، وهو مصرّ على تدريسه.

- وإذا لم أدّرسه؟

- نرفض تلقّي الدروس!

قلت بهدوء:

- وأنا أرفض تدريس البيانات السياسية التي من هذا النوع، لأنها غير مفيدة في تطوير لغتكم العربية، وهي لا تدخل في البرنامج المقرر.

رد بقسوة:

- تستطيع إدخالها، منذ اليوم، في البرنامج المقرر.

- أرفض!

- ونحن نرفض أخذ الدروس، وننصرف إلى قراءة افتتاحية جريدة

«الشعب».

قال ذلك وانصرف، مع بقية الطلاب، إلى قراءة الافتتاحية، وبقيت جالساً إلى مكتبي، في صمت مطبق. انتظرت ساعتين، في جو مكهرب، وانسحبت بعد ذلك، لانتهاؤ الوقت المقرر للدراسة، لكنني، عندما عدت صباح اليوم التالي، وجدت البيان نفسه على مكتبي، والوضع نفسه في الصف. داومت، على هذه الحال، ثلاثة أيام، دون تبديل أو تغيير. إنه العناد الصيني، الذي سمعت به، ولسته، الآن، بالتجربة. ولأنه لم يكن لي من أحد تحدّث معه حول هذا الموضوع، بعد سفر الرفيق مالك إلى موسكو، كتمت الأمر في نفسي، وعانيت منه معاناة شديدة. فكّرت: «إذا كانت الصين قد جابهت الاتحاد السوفياتي، ومعه الحركة العالمية، وإذا كانت قد قاومت سنوات الجفاف، وانخفاض الناتج الاقتصادي إلى أدنى درجة، كما واجهت الكوارث الطبيعية من كل الأنواع، وتحملت شدّة الأحزمة على البطون طول هذا الوقت، ولم تتراجع، ولم تهادن، ولم تتخلّ عن عنادها، فمن أنا حتى أعاندها في قلب بلادها؟ ماذا أكون بالنسبة إليها، حتى لو امتلكت مواهب وكفاءات استثنائية؟ إنني أواجه أزمة حقيقية، وأنا الآن، على حدّ الحدّ منها، فإمّا الرضوخ وإمّا الرفض، ولا خيار ثالثاً».

ذهبت إلى رئيس الفرقة الحزبية، شرحت الأمور بموضوعية، ناقشت مع الرفاق العرب المأزق الذي أنا فيه، مؤكّداً التزامي، وإيثاري الرفض، حتى لو طردت من الصين، وتشردت في الآفاق، فكان الجواب متلعثماً. كان بين بيّن. قالوا: «موقفك جيد، التزامك بموقف الحزب تُشكر عليه، لكنك تتحمل المسؤولية بصورة شخصية، لأنك لم تعد، باختيارك، عضواً في الحزب، وتالياً في الفرقة الحزبية في الصين، ولا نملك صلاحية أن نقول لك اقبل أو ارفض!» تفهّمت الموقف على نحو جيد: لا مساعدة! هم يترثون بأخذ موقف، حسب التعليمات، ولا يواجهون مأزقاً حاداً كما نقي! إذا غادروا الصين، فإنّ الحزب يتكفّل بهم، باعتبارهم أعضاء فيه، وسيجد لهم إقامة، وكذلك عملاً، في بلد اشتراكيّ آخر، ريثما تسمح الظروف بعودتهم إلى الوطن، أما وضعي فإنّه يختلف، لأنه فرديّ، وشخصي تماماً. حسناً! الأمور كلها في الضوء، والقرار قراري، وعليّ أن أتصرّف وفق اقتناعي. «شكراً لهذا الإيضاح، ولهذه الحرية المتاحة، دون وسائل ممارستها، وشكراً للكلمات الجمالة: سنبقى أصدقاء! ونأمل أن يتغيّر الموقف منك في المركز، ونرحّب بأن تكون معنا، والأّ تنعزل عنا، ونثق بأنك ستتمسك بصداقة الاتحاد السوفياتي، لأنها معيار الموقف الوطني، ونحن نشهد بصدق ووطنيتك، رغم التباين في موقف كل منا من مسألة الخلاف العارض، الذي سيزول في المستقبل، ولعلك تراجع أفكارك، وتتقدّم بانتقاد ذاتي، كما يليق برفيق مثقّف مثلك!» انتهت الدباجة!!!

عدت إلى البيت، القهوة والكونياك والسكاثر. إنضاج أعصابي على نار هادئة. مثقف! وماذا في ذلك؟! غرامشي، في إيطاليا، كان يعطي الدور الأهمّ للمثقّفين، لأنهم يحملون الوعي إلى الطبقة العاملة. أن تعرف فهذا جيد، أن تشرح فإن شريك يجد من يصغي إليه، أمّا أن تُقنع فهذا أمر آخر. الاقتناع يأتي من فوق، وفوق لا يُخطئ، كما أن خروتشوف لا يُخطئ، الصين مخطئة، وستركع! هذا درس للدول الاشتراكية الأخرى. لغو! في وسعك، أوجب عليك، أن تبلى هذا اللغو، والأّ فإنك منحرف! «أنت، يا زبيد، منحرف! والطغراء الحميدية وضعت على اسمك، فابحث عن اسم آخر، وجه آخر، قول آخر، والأّ فَنَحْلُ بماء البحر!»

قررت، بعد تفكير متأنّ وطويل، الإصرار على موقفني: رفض تدريس أو

ترجمة أو إصلاح أي ترجمة، فيها عداً للاتحاد السوفياتي، ولو أدى ذلك إلى طردي من الصين. كنت أمام عدة إشكالات، أولها وأصعبها، أنني لا أملك جواز سفر، ورقة خروجي من لبنان انتهى مفعولها منذ وصولي إلى الصين، والسفارة السورية في بكين، خلال الوحدة القائمة بين سورية ومصر، لا تمنحني جوازاً، باعتباري من الفارين، ومن المطلوب القبض عليهم. وحتى لو تدبرت أمر خروجي من الصين، فليس ثمة دولة تسمح بدخولي إليها دون جواز سفر، وفيما من سفارتها في بكين. لم يبق إلا اللجوء السياسي، ولكن على أي أساس وكيف؟! أن أسافر وأسلم نفسي في المطار، أي مطار، طالباً اللجوء، فإذا لم يُقبل طلبتي أغادر إلى بلد آخر، إلى أن أجد الملجأ الذي أبحث عنه.

مغامرة! هذه هي الكلمة. ومع أنني لا أتهيب المغامرة، يختلف الأمر هذه المرة! ظهري إلى الجدار! لا يمكن الرجوع أكثر، ما تبقى هو الاقدام، بغير تهوؤ.. إذا لم تُطرد فلا تحرك ساكناً. دعهم يفكروا ما شاعوا. إذا رغبا في الحديث اليك كن صريحاً، كن منطقياً، حاذر الاستفزاز.. لا قرار في الصين إلا من القيادة، الرفيق ليو سيرفع تقريراً بما جرى، والقيادة ستدرس التقرير، وستعود إلى أضبارتك، لتعرف كل شيء عنك، قبل أن تبت في أمرك.

استرخيت بعد هذا الرأي الذي توصلت إليه. كل الاحتمالات قائمة. لم يبق احتمال إلا أخذ في الحسبان. نجحت في السيطرة على أعصابي. وفقت في الكف عن التفكير، عن الدوران في حلقة الأسئلة وأجوبتها، استشعرت الراحة، تمددت على السرير طلباً للنوم، كنت تعباً، مرهقاً، لذلك أغفيت سريعاً، وعلى غير العادة، رحت في سبات عميق إلى ما بعد الظهر، حين قرع جرس الباب قرعاً متواصلاً أيقظني، تحاملت على نفسي، فتحت الباب، فإذا عبد القادر ووراء هادي، رَحَبَ بهما كما يليق، اعتذر عبد الهادي عن الإزعاج، جلس وهو يبتسم الابتسامة التقليدية، ويسأل الأسئلة المعتادة، عن الصحة والنشاط والعمل، وعبد القادر يترجم، فأفهم نصف فهم، محتملاً هذا الواقع الذي ألفته.

قال هادي:

- الرفيق تشوتن يقدم تحياته اليك، ويشكرك على المساعدة، ويسأل ما إذا كنت بخير.

قلت:

- أنا بخير، وعبد القادر يعرف.

سأل عبد القادر:

- لماذا لا تذهب إلى الجامعة يا أستاذ؟

- لأنني في إجازة!

- كيف هذا في إجازة؟ التدريس بدأ في الجامعة!

- أعرف، لكنني، في الوقت الحاضر، أشعر بحاجة إلى الراحة.

- الرفيق خيو يسأل عنك كل يوم، يخشى أن تكون مريضاً.. ثم لماذا انقطعت عن إعطاء الدروس؟

- وأنت لماذا انقطعت عن المجيء اليّ؟

ارتبك عبد القادر وأجاب:

- خفت أن أزعجك!

- أنت لا تقول الحقيقة! تعرف ما جرى معي في الجامعة.

- ولكن هذا لا يهم يا أستاذ.

غيرت مجرى الحديث بسؤال مفاجئ:

- هل تونجي هادي في زيارة أم مهمة؟ إنه صامت لا يتكلم، فماذا هناك؟

قال هادي:

- أنا في زيارة ومهمة.. لكنني فهمت من الرفيق عبد القادر انك منزعج من التدريس، لهذا أتردد في طرح الموضوع الذي جئت من أجله.

- وما هو هذا الموضوع؟

- إصلاح ترجمة كتاب نظريّ.

- وماذا أيضاً؟

- معرفة سبب انقطاعك عن التدريس في الجامعة.

قلت وأنا أروّزه بنظرة حادة:

- لماذا تسأل اذا كنت تعرف؟ ألم يخبرك الرفيق تشوتن؟
- يخبرني بماذا؟
- بسبب انقطاعي عن التدريس في الجامعة؟
- الرفيق تشوتن كلفني بحمل هذه الترجمة مع الأصل الإنكليزي إليك.
- أضاف:
- نحن بحاجة إلى مساعدتك، ونأمل أن تتعاون معنا كما اعتدنا.. أنت رفيق جيد.
- سأقدم هذه المساعدة بطيبة خاطر، بعد قراءة الكتاب بنصّه الإنكليزي.
- إذن أنت موافق؟
- ليس قبل أن أقرأ الكتاب والترجمة.
- تدخل عبد القادر في الحديث قائلاً:
- الكتاب جيد، والرفيق هادي يأمل أن توافق الآن.
- قلت بحسم:
- ليس الآن..
- متى؟
- حسب الظروف!
- ومتى تعود إلى التدريس؟
- لن أعود إلى التدريس.
- لماذا؟
- الرفيق خيو يعرف!
- وقف هادي مودعاً، تمنى لي الصحة والمزاج الرائق، سألني ما إذا كنت أريد ابلاغ الرفيق تشوتن شيئاً، قلت لا شيء! «صافحني ومشى إلى الباب، وعبد القادر وراءه. كنت واثقاً من استنتاجي؛ إنهما يعرفان سبب انقطاعي عن التدريس، واعتكافي في البيت، وإن الرفيق ليوي يحاول أن يفرض عليّ ما أرفضه. هذه المراوغة في الأسئلة، وهذه التلميحات، وغياب عبد القادر لأيام، دون أن يتصل بي ولو هاتفياً، مؤشرات كافية كي أفهم

أن وضعي في الصين، يدرس من قبل الجهة المختصة بالأجانب في القيادة، وأنَّ الموقف مني يتأرجح، وأن هذا الصمت ضغط نفسي، يمارس عليّ قصدياً، لحلمي على قبول ما لا أقبل به، وأنه سيدوم لفترة ما أيضاً، تنهار فيها طاقتي على الاحتمال، فأتصل بهم، لمعرفة ما هناك، وعندئذ تبدأ المساومة، من منطلق نقاد صبري، هذا الذي يراهنون عليه، بدهاء يحسبون أنني على جهل به.

غير أن سؤالاً يبقى: لماذا يعرضون عليّ إصلاح ترجمة كتاب نظري؟ ولماذا الإصرار، ولو بشكل غير مباشر، على إعطاء موافقتي، أو رفضي، أنياً، وبدون إمهالي لقراءة النص وترجمته؟ هذا، بحسب تجربتي، ليس عفويّاً، ولا تلقائياً، إنّه تدبير ما، لهدف ما، غايته تتجاوز جسّ النبض، إلى معرفة الموقف من الفكر النظريّ الصيني، وهل أرفض التعامل مع هذا الفكر، ولي منه موقف مضاد، كموقف من تدريس بيان سياسي فيه عدااء صريح، واتهامات شديدة ضد الاتحاد السوفياتي؟ أم أنني أفرق بين فكر نظري، يعد من الأدبيات الفكرية، وبين فكر سياسي أني، اقتضاه الخلاف، وهو زائل بزوال الأسباب التي فرضته؟ هنا دهاء أيضاً، الأفضل لو لم يكن، فقد فكرت في هذه النقطة، قبل عرض الكتاب عليّ، وانتهيت إلى رأي جليّ: ثمة فرق بين مقولة نظرية بحتة، وبين شتيمة سياسية مكشوفة حيناً، ومقنّعة بقشرة نظرية حيناً آخر! استمهالي في إعطاء الجواب، لم يرق لهم، فهموا أنني أريد الاطلاع قبل الموافقة أو الرفض، وكان عبد القادر، هذا الذي كنت أحسبه ساذجاً، ومع شيء من بله، هو الأشدّ إلحاحاً على الجواب الفوري، فمن كلفه بذلك؟ ولماذا هو لا هادي؟ وهل يكون عبد القادر، في الموقع الحزبيّ، متقدماً على هادي؟ ولماذا اختاروا عبد القادر ليكون مرافقي، ومترجمي، مع أنّه لا يحسن الترجمة؟ الاعتباط، هنا، إلى انتفاء، كل شيء بتدبير، ومن حسن الحظ أنني انتبهت إلى هذا، فلم أتزحزح عن موقف: الجواب بعد الاطلاع!

مضى يوم وآخر وآخر، قرأت الكتاب النظريّ، كان اسم المؤلف، في حدود معرفتي، غير مشهور خارج الصين، أبحاثه النظرية سابقة لمثيلاتها، إنها من المصادر اللازمة للأبحاث اللاحقة، وفيها إشارات مهمة، إلى دور الفلاحين في حركة تحرير الصين.. نظرت في الترجمة، سبرتها، وجدت

فيها اختلالاً! المترجم غير متمرس، يجهل حتى الاصطلاحات النظرية، فلسفية أو اقتصادية أو اجتماعية. لا يميّز بين الطبقة أو الفئة، بين الكولونيالية والامبريالية، بين التراكم الكمي والتحول النوعي. بكلمة: الترجمة سيئة جداً، لكن المضمون، في النص الأصلي، مهم، وضروري بالنسبة إلى حركة التحرر الوطني العربية، والجهد الذي يُبذل في إصلاح هذه الترجمة، يستحقّ العناء تماماً، لذلك قررت الموافقة على التكليف، إذا ما فُوتحت، مرةً أخرى، في أمره، وإذا ما أصرّت دار النشر، على قيامي بالمهمة، وتفهمت جيداً أخطاء الترجمة، وما تحتاج من وقت للإصلاح.

هتف إليّ أبو المجد، في اليوم الثالث لزيارة هادي وعبد القادر، يسألني ما إذا كنت باقياً في البيت، ولديّ الوقت للزيارة. رحّبت به، وكنت مشوقاً لرؤية أي رفيق عربي، لأنني، منذ انقطاعي عن الجامعة، فضلت تناول طعامي، في المطعم الصغير المجاور لبيتتي، الذي يقدم الطعام الصيني فقط، ولا يرتاده الرفاق العرب، الذين يأكلون في بيوتهم، ويفضلون المطعم الكبير، الذي يعد وجبات على الطريقة العربية والإيرانية، وكذلك الطعام الغربي!

تعانقنا، أبو المجد وأنا، عناقاً حاراً، وجلسنا ندرش، مستعدين ذكريات الوطن، وما استجدّ من أحداث في الصين، ونحن نشرب بعض النبيذ الأبيض، الذي أعرف أنه يحبه، ويفضّله على الكونياك الصيني. سألني:

- هل من جديد في قضيتك؟

أجبتُه بالنفي، قال:

- هل صحيح أنك منقطع عن العمل؟

- صحيح!

- وماذا بعد هذا الانقطاع؟

- الجواب عند الرفاق الصينيين.. وأرجّح أنه الطرد من الصين!

فكّر قليلاً وسأل:

- إلى أين؟

- أرض الله واسعة.

- لماذا لا تذهب إلى موسكو وتشرح وضعك لقيادة الحزب؟
 - قيادة الحزب تعرف وضعي، ولا حاجة إلى تحميلها عيني.
 - عنيد!
 - وملتزم!
 - ولكنهم، في الفرقة الحزبية، تركوا لك حرية التصرف.
 - دون وسائل ممارستها! شكرًا لكم على كل حال.
 - عاد إلى التفكير قبل أن يدخل في الموضوع الذي جاء من أجله. قال:
 - أنت تعرف أفكاري، لكنني لا أجرؤ على الجهر بها.
 نظرت إليه نظرة حادة:
 - من لا أجرؤ على المجاهرة بفكره لا فكر له!
 - أنا لذي عائلة!
 - ولديك جنسية أجنبية، مم تخاف؟
 قال مداورة:
 - لا أخاف، لكنني أراعي «الديسبلين»!
 - هذا جيد! وبعد؟
 - هل من خدمة أقدمها لك؟
 - أن تشرب زجاجة النبيذ معي، وتطمئن إلى أنني بخير!
 ابتسم وقال:
 - وأن تعتبرني صديقك، وتزورني ما دمت في الصين!
 «اللعب على الحبلين»!
 - أقدر صداقتك، وأعرف أفكارك المعلنة والمضمرة! ابعُدْ عني تبعد
 الشبهة عن نفسك!
 - أنت لست مريضًا، وأنا لا أخاف العدوى.. وبالمناسبة: آل بورجرون
 يفتقدونك!
 - بلِّغهم تحياتي.
 - هل نزورهم معًا؟
 - لا! في الوقت الحاضر على الأقل!

- تحدثت مع السيد بورجرون حول موضوعك مطولاً.. إنه يقدر أفكارك! والسيدة بورجرون دعتنا إلى سهرة في بيتها غداً، وترغب في حضورك.

- هاتفي معروف، وأرحب باتصالها في أي وقت.

- والسهرة؟

- أسف يا صديقي!

- إذن إلى اللقاء!

- إلى اللقاء.. في الوطن!

ارتحت لهذه الزيارة التي لم تأت بجديد. أبو المجد لن يعود إلى سورية. أُرَجِّح أنه سيعيش في بلد زوجته الأجنبية، لذلك لا يريد أن يقطع مع الصينيين. إنه غير معني بالخلاف بين بكين ومسكو، لأن إقامته، خارج الصين، مؤمنة، ومن هناك يرأسل دار النشر هنا، ويعرض عليها خدماته، مثل ترجمة بعض الكتب، التي يتحرج من ترجمتها هنا! هذا ما يسمونه التلبسة!

لا بأس! لكل إنسان أسلوبه في الحياة، كما لكل كاتب أسلوبه في الكتابة. المرء هو ذاته، لا ذات الآخر، هذه قاعدة، ومن العبث تجاهلها.. الأسماء تتشابه، والوجوه تتشابه، لكن النفوس تتفاير، وإلى حد بعيد. لن أبدل اسمي، أو وجهي، مهما تطل المقاطعة، ومهما يضغط المسؤولون في الجامعة، ومهما تعددت وسائل الضغط! هذا هو اليوم العاشر على وقف الدراسة، وعلى وجود ذلك البيان السياسي على مكتبي في القسم العربي، وعلى رفضي تدريسه، والنتيجة؟ عناد متبادل؟ فليكن. لم أعد راغباً في البقاء، أو العمل، في هذا الجو المسموم! سأشرع بحزم أمتعتي، ومنذ الغدا!

بعد القيلولة، وحوالى الساعة الخامسة، تلقى زبيد هاتفًا غير متوقع، كان ينتظر هاتفًا من السيّدة بورجرون، أو من الأنسة مارلين، إلا أنّ الهاتف فاجأه! الأنسة إيتوال بروك هي المتكلمة، وهي التي تسأله ما اذا كان لديه وقت، لزيارة قصيرة، ترغب فيها للاطلاع على ما عنده من تحف صينيّة! وافق مع غير قليل من الاستغراب «بيتي، أسّر في داخله، ليس متحفًا، وما فزت به في بيتاخو، من تحف صينية، يكاد لا يذكر، فمن أخبر إيتوال بروك أنّ لديّ مثل هذه التحف، أم أنها، في هذه الزيارة شبيه المستعجلة، تريد إبلاغي خبرًا ما؟ وهل تكون ضجرة، أو في وضع لا يسمح لها بالسباحة، فأثرت أن تتحدّث إليّ، لوصل ما انقطع من حديث الشرفة، عشية الاحتفال بميلاد أمها؟ اضاف بعد أن أعدّ زجاجة من النبيذ «مهما يكن، مهما يكن، فإنّ طلبًا من هذا النوع، من أنسة رصينة مثل ايتوال، لا يمكن رده، أو الاعتذار عنه لأي سبب، فكيف وأنا لا عمل لديّ، ولا أنوي الخروج، ولست جلفًا كي أقابل الرقة بالخشونة!».

اكمل ارتداء ثيابه الخفيفة، ربّ سريريه بقدر ما استطاع، ألقي نظرة على مكتبه، وأخرى على تحفه القليلة، ابتسم وقال: «الآن لا بأس، وعسى ألا تطيل الزيارة، اذا لم يكن لديها ما تقوله». بعد دقائق قرع الباب قرعًا خفيفًا، فتحه مرحبًا، مبدئيًا سعادته، وعند المصافحة، أعطته إيتوال خدها، بلياقة فرنسية، فقبله، داعيًا إياها إلى الجلوس، ورفع الكلفة، كما بين صديقين، وجلس قبالتها مبتسمًا، منطويًا على دهش، من هذه العفوية العذبة، ومن ملاحظة إيتوال، التي اتخذت كامل زينتها، رغم أنّ الحياة الحرّة، في هذا المصيف، لا تتطلب أي تبرّج، كما في الدروجبا مثلاً.. قال مرحبًا:

- هذا هو بيتي المتواضع، وأمل أن تكوني فيه، كما في بيتكم!
قالت إيتوال:

- هذا مؤكد، نحن أصدقاء، وإنني لأذكر سهرة السبت في النادي،
والحديث في شرفة بيتنا، بكثير من المودة والتقدير.. لكنني أستغرب
انقطاعك عنا، وأعذر إذا ما كانت لديك مشاغل خاصة، فقد أخبرتني
السيدة بورجرون أنك تعمل وأنت في إجازة.
هتف زبيد بعفوية:

- أوه! السيدة بورجرون! كيف حالها، وكيف حال الوالدين، والشقيقة
سوزان؟

- كلهم بخير، وما كنت أعلم أنك لا ترى السيدة بورجرون، في البلاج
أو المطعم أو البيت.. إنها سيّدة رائعة.
- يكفي أن تكون باريسية راقية، ولها هذا الذوق الارستقراطي في كل
شيء.. ما رأيك بكأس من النبيذ؟ إنه من النوع الفاخر!
ابتسمت بدلًا وقالت:

- ليس هذا وقت الشراب، ولم أعتد الشرب إلا في المناسبات، لكنني،
معك، سأكون سعيدة بأخذ كأس واحدة، في نخب جروحك التي شفيت
تمامًا كما سمعت.

صبّ زبيد كأسين، رفع كأسه وقال:
- في صحة أنستي الجميلة، وكذلك صديقتي!
قرعا الكأسين وقالت إيتوال:
- في صحة صديقي الذي كلّفته تلك المغامرة المشؤومة الكثير من
العناء.

قال ضاحكًا:

- مغامرة نعم! ولكن مشؤومة لا!
- معنى هذا أنك ستعيد المحاولة.. أرجوك! يكفي! لتكن هذه المغامرة،
هي الأخيرة!
- ولماذا الأخيرة؟

- كيلا تعرض نفسك للآذى، ولا أقول أكثر! كيف تقضي أوقاتك؟

- في العمل، والقليل من النزهة، وفي معالجة هذه الجروح التي لا تريد أن تشفى!

هتفت:

- ألم تشف بعد؟ هذا ليس بالخبر الحسن! هل في وسعي أن أفعل شيئاً لأجلك؟

- إدخالني المستشفى من جديد؟!

ضحكت إيتوال وقالت:

- لتهرب من جديد؟

- كي أقول «نعم»! بعد أن قامت الدنيا عليّ لأنني قلت «لا»!

- حقاً؟! هذا تضخيم للأمور، وتدخل في الشأن الخاص! مع أنك رفيق

طيب، في رأي الصينيين، كما بلغني!

قال وهو يقدم لها سيكارة:

- ما بلغك مبالغ فيه.. لكن من أين لك كل هذه المعلومات؟ هل تتتبعين

أخباري؟

سحبت نفساً من سيكارتها وقالت:

- وهل يزعجك إذا ما قلت: نعم؟!

هتف زييد:

- بالعكس، يفرحني!

- ويفرح صديقتك مارلين؟

قالت ذلك وهي تضع ساقاً على ساق، كاشفة عن ركبتين بيضاوين،

جميلتين، وتنفت دخان سيكارتها في الهواء. ففكر زييد: «ما وراء هذا

السؤال؟ وهل الزيارة بريئة أم بقصد؟ وهل هي بدفع من السيدة

بورجرون؟ وهل تتوسط، كما فعل والدها، بيني وبين جيفرسون؟!» ولماذا

كل هذا العدا لمارلين؟ أهي الغيرة أم الحسد؟

ملا الكأسين من جديد، رفع كأسه وقال:

- لنشرب!

قالت إيتوال:

- ليس قبل أن تخبرني بماذا كنت تفكر؟
قال زبيد من فوره:
- فيك!
شربت جرعة طيبة من كأسها وهتفت:
- في؟! وتريدني أن أصدق؟!
- وما الغرابة؟
- الغرابة في أنك مشغول عني بسواي! من أكون أنا! وأين ليالي
البيض من لياليك الحمر؟
سأل زبيد بخبث:
- تستبعدين أن يفكر الصديق بصديقه؟!
- لا أستبعد، ولكن أنت لا وقت لديك لمثل هذا التفكير!
- وقتي لأي تفكير إذن؟
- اسأل نفسك!
- سألتها قبل أن تأتي.
- وبماذا أجابت؟
- بأن ماء البحر مالح!
- هذه تورية! أنت أذكى من أن تقول الأشياء الحقيقية..
قاطعها ضاحكاً:
- ومن الزيارة الأولى!
قالت جادة:
- هذه ثالث مرة نلتقي فيها.. تذكر؟!
- وهل تُنسى مثل هذه اللقاءات؟
- نعم بالنسبة إلى مغامر مثلك!
- وماذا أفعل إذا كنت ترفضين المغامرة؟ أو لا تتراحين إليها.. على
أقل تقدير؟
قالت ضاحكة:
- برافو! لقد كشفتني.. ومن الزيارة الأولى!

جاراها في الضحك قائلاً:

- وماذا وراء هذا الكشف؟ أية فائدة؟ أية مكافأة على الذكاء، على فرض أنه موجود؟!

- المكافأة هي الشكر.. أشكرك على هذا الاستقبال، وأمل أن نتزاور قريباً جداً.

قالت ذلك ونهضت. نهض لوداعها. لم يقبلها في خدها أو يدها. توقفت على العتبة وسألت:

- هل سمعت؟ هناك علاقة ما، بين انغرين والدو!

ردّ بلا مبالاة:

- وما أهمية ذلك؟ هذا طبيعي، ويحدث كثيراً!

- لكن انغرين تكرهك!

- وهذا لا شيء! أنغرين طفلة بعد!

قالت قبل أن تتوارى:

- لا! انغرين ليست طفلة، وأنت لا تعرف!

أغلق الباب وقال بغير صوت «بلى! أعرف! نازية وفاشي! هذا هو مكر التاريخ! محاولات جديدة لبعث النازية والفاشية، لا في ألمانيا وإيطاليا وحدهما، بل في كل مكان. إنه التشويه المتعمد، لبعض الشباب الحاقد والمضلل، في أوروبا وخارجها. هناك من يظن أن العالم دموية، ويمكن تحريكها بالخيوط، ولمصلحته حتى النهاية! وما هو الخلاف الصيني - السوفيياتي، يصب في المجرى الذي يخدم ذلك! ثم ماذا؟ مكر آخر للتاريخ، ومصائب أخرى قادمة!»

أعدّ لنفسه فنجائاً من القهوة. تساءل: «الأويس يعرف تفكير انغرين المنحرف، فهل يعرف أنجيلو، تفكير الدو المنحرف أيضاً؟» اختراق! وأين؟ في الصين! ولماذا لا؟ إذا صدق ما يقوله الصينيون، عن البرجزة وعن الغنى، في قيادة الحزب في الاتحاد السوفيياتي، فإن ثمة اختراقاً، هناك أيضاً! وأحسب أن هناك اختراقات، في كل الأحزاب الأخرى التابعة، وأنا هنا معاقب، لأنني تجرأت وعبرت عن بعض أفكار «الاختراقية»؟!

الآلم يأتي على قدر الإخلاص، زبيد كان يتآلم صامتاً، ليس له، في

بيتاخو، من يفضي إليه بالأفكار التي تعذبه. الرفيق مالك، الصديق العزيز، الحبيب، في موسكو، وهو يتعذب بدوره، ويفكر، كما في آخر رسائله، أن يلتحق بالشوار في الجزائر، أن يحمل السلاح ويقاوم ضد الفرنسيين المستعمرين، إلا أن الطريق، للوصول إلى الجزائر، ليس سهلاً، رغم أن مالك يحمل جواز سفر نظامياً، فكيف الأمر إذن، بالنسبة إلى زبيد، الذي لا يحمل أية وثيقة شخصية؟!

تذوق، على مهل، ما تبقى من القهوة، ومعها جرعات صغيرة من الكونياك، لإنعاش نفسه، ونسيان همومه! الآخرون، الذي يعرفونه في بيتاخو، يظنونهم سعيداً لكونه محظوظاً، وضعه النفسي الآن، أفضل بكثير مما كان عليه في العام الأول لوجوده في الصين. لم يتبدل شيء، في فكره ومسلكه؛ الموقف ذاته، الالتزام عينه، هناك اقتناعاً متطوراً، بأن الصين لم تكن وحدها على خطأ! وهناك شعور أفضل في أنه يؤدي عملاً نافعاً فيها! إنه يعرف لماذا يشتغل، وهو، كإنسان حر، لديه أكثر من سبب للفخر، لايمانه بما يقوم به، وبما يقدمه من مساعدة، لبلد عانى كثيراً، وقدم تضحيات لا عد لها، حتى تمكن من تحرير وطنه، وشرع ببناء هذا الوطن، ومساهمته، هو زبيد، مهما تكن متواضعة، فإنها ذات قيمة ما، للتعريف بهذا البلد، فكراً وتجربة وكفاحاً على كل الجبهات.

خلع قميصه، عاين جروحه، سُرَّ لأنها تقترب من الالتئام، قام بتطهيرها، دهنها بالمرهم، لم يكن لديه ما يعمل، استشعر فراغاً بسبب من اعتياده العمل، وفيما كان يهم بالخروج، جاء عبد القادر ضاحكاً:

- أين أنت يا أستاذ؟ لماذا لم تراجع الطبيب في المستشفى؟
- المراجعة غير ضرورية يا عبد القادر، ثم إنني أرتاح قليلاً، لأنه لا عمل لدي.

ضحك عبد القادر وقال:

- ولكن كيف هذا؟ كنت في المستشفى ولم تراجع الطبيب.
- قلت لك لا ضرورة لهذه المراجعة! كنت في المستشفى لسبب آخر.
- أعرف.. أخذت جيفرسون إلى الطبيب هيو.. لكن جيفرسون قال عنك أشياء سيئة!

حدّق زبيد إلى عبد القادر، محاولاً استشفاف ما في داخل جمجمته المحدثبة. «هذا الماكر يعرف كلّ شيء، فمن أين له هذه المعرفة؟ الطبيب، في كل بلاد العالم، مؤتمن على السر، وخاصة الطبيب النفساني، فكيف سمح هيو لنفسه بإشاعة ما قاله له جيفرسون؟!»

سأل زبيد:

- ما هي الأشياء السيئة التي قالها جيفرسون؟

- هذا غير مهم يا أستاذ! غير مهم!

- ولماذا قلته إذن؟!؟

عاد عبد القادر إلى الضحك وقال:

- كنت أمزحك (أمازحك)!

- وماذا تريد؟

- كيف ماذا أريد؟ عليّ أن أزورك وأهتم بك.

- وإذا كنت لست بحاجة إلى هذا الاهتمام؟

- ولماذا أرسلوني معك إذن؟! أنت تخرج في الليل، وتبقى إلى وقت متأخر، وهذا لا يجوز، لأجل سلامتك!

- اسمع يا عبد القادر! كفّ عن الاعييك هذه. لا أريدك حارساً خاصاً

لي، ولا أهتم بما يقوله جيفرسون، ولا بسلامتي.. هل تفهم ما أقول؟!؟

- نعم! نعم يا أستاذ! لكنه واجبي!

- واجبك أن تراقبني؟! مع السلامة!

- وإذا احتجت إليّ؟

- أعرف كيف أجدك!

- هذا جيّد. لا تزعل، ولكن انتبه! مع السلامة.

قال ذلك عبد القادر وخرج. جلس زبيد وقد اعتكر مزاجه. «من أين لعبد القادر هذه المعلومات؟ الحرص على سلامتي مبرر، وقد يكون هذا من واجبه كما قال، باعتباره مرافقي.. إلا أن رقابته، هو أو سواه، لا معنى لها، وإذا كان غيري يقبلها فإننا أرفضها. «إنني حر في الخروج، في النهار والليل، وإلى الوقت الذي أشاء، ومع من أشاء، ولا أشك في أنهم، في الإدارة، لا تخفى عليهم خافية، فلماذا يصرّ عبد القادر، على تعريفني

بما أعرف؟ ولماذا يعاديني جيفرسون؟ وهذه الافتراءات اللثيمة؟ كل ذلك من أجل مارلين؟ طيب! مارلين لي، ما دامت هي تريد ذلك، وسأحميها متحدثاً، وليذهب جيفرسون وهيو وعبد القادر إلى المكان الذي خرجوا منه! كفى! لم أعد قادراً على الاحتمال أكثر من ذلك! خطر!؟ علي!؟ لماذا!؟ ومِمَّن؟ وهذا التنبيه المستمر!؟ إنه تحذير تكرر إلى درجة لا تطاق.. هل يريدون إخافتي؟ وما هي مصلحتهم في ذلك؟ وعلى فرض أن هناك خطراً، فهل يظنون أنني سأختبئ في بيتي؟ لا! إنهم واهمون!!»

ذهب زبيد، في غرفته، وجاء، دُخُن كثيراً وهو يمشي ويفكر، أخذ يهدأ مع الوقت، فتح النافذة المطلة على الحديقة. الطبيعة جميلة، نادرًا ما رأى مثل هذا الجمال! الطبيعة، بعمق سكينتها، سيدة الحكمة. الطبيعة تنشئنا، لنعود نحن فننشئها، بصورة أبهى. تعطينا القدرة على النطق، على الكلام معها، عندما نتعلم أن نصغي إليها جيدًا! أصغى زبيد، بكثير من الحنان، إلى الطبيعة من حوله، مستمدًا السكينة من سكينتها، ولما تحول عن النافذة، وجد نفسه في حال أفضل، لتفكير أفضل، هادئ، صافٍ، يتناغم مع ما في داخله من شعور طيب، نحو الآخرين، كل الآخرين، بمن فيهم جيفرسون «هذا الإنسان المنسجم، في حبه، مع الناموس الأزلي، الذي هو حب، بداية ونهاية، بخلافي أنا، الذي أفترق إلى الانسجام، لأنني عاجز عن التلاؤم مع هذا الناموس!» جلس زبيد، ورأسه بين يديه، يتأمل الأشياء في ضوء حقيقة جديدة، حقيقة أنه لا يستحق مارلين، ما دام لا يحبها، بينما يستحقها جيفرسون لأنه يحبها، وكل ممارسة خارج هذا الحب، هي اغتصاب، هي استغلال للآخر، هي الأنانية التي تشوه أنبل عاطفة لدى الإنسان، إذا ما عاش، وبوعي، هذه الأنانية، وأمعن فيها، بذريعة التحدي الكاذب! التحدي لمن؟ ولماذا؟ للصادق حتى درجة الجنون، ولامتلاك مارلين التي تعيش نزوة، غداً أو بعده، تتلاشى، وعندئذ تستفيق على واقع، نسيجه وهم المتعة العابرة، حين تصل غريزتها حد الإشباع!«

قرر زبيد، وبتصميم كامل، أن يصارحها. أن يفتح عينيها على واقع الوهم الذي تعيشه، دون أن تراه، لأن صاحب النزوة لا يرى، وهي تحبه مدفوعة بنزوتها، وقد أن أوان إيقاف لعبة الغش هذه، من طرفه تحديداً، لأنه الأوعى، الأوفر تجربة، وعليه، كصاحب مبدأ، أن يكون مبدئياً في كل شيء، وفي هذا وحده إرضاء للضمير، وللراحة النفسية!

رفع سماعة الهاتف، أدار القرص وسأل:

- مارلين؟

- أنا هي! زييد! أه! كنت على وشك الاتصال بك!

- هل أستطيع أن أراك لوقت قصير؟

- ولماذا لوقت قصير؟ أريدك لوقت طويل جداً.

- تعالي إذن، إذا ما كنت جاهزة للخروج، وسنتكلم قليلاً.

ردت مارلين:

- أنا قادمة وبسرعة.. تعرف أن هذا أول هاتف ألتقاه منك، لذلك فإنَّ

سعادتي لا تقدَّر، يا إلهي! كم انتظرت هاتفاً كهذا دون جدوى!

- أنتظرك!

- أقبلك!

أغلق الهاتف، ارتدى قميصاً حريراً خفيفاً. حاول ترتيب أفكاره من جديد، وبسرعة. «هذا هو اللقاء الأخير! الليلة أنام هانئاً. انتهى الكابوس الذي كان ينتابني، في يقظتي والنمائم. لا أشك في أن مارلين ستفهم دوافعي. إنني أريد خيرها، ولديّ المبررات الكافية لإقناعها».

عندما وصلت مارلين وجدت الباب مفتوحاً. كان زييد على العتبة، من الداخل، ينتظرها، فتحت ذراعيها واحتوته، قبلته في كل مكان من وجهه وعنقه، تركها تفعل كما اعتادت، بادلها العناق، اعتصرها كما في اللقاء الأول، انبهر بزينتها وجمالها، فتننته بعفويتها واندفاعها، خاف أن يتراجع عما اعتزم، تماسك بقوة إرادة مستنجدة، جلسا متقابلين أمام المكتب، سألها:

- ماذا تشربين؟

- الذي تشربه أنت!

أضافت بعد أن رأت زجاجة النبيذ الفارغة على مكتبه:

- من كان عندك؟

- لا أحد!

- وهذه الزجاجة الفارغة؟

- شربتها وأنا أقرأ.
 - بودي أن أصدقك.. ماذا هناك؟
 - لا تتعجلي! ما رأيك بقليل من الكونياك؟
 - مشروبك المفضل؟! لا بأس! ولكن علينا ألا نكثر.. سنشرب على العشاء أيضاً.. أنا جائعة!
 صب قدحين من الكونياك. رفع كأسه وقال:
 - في صحة الإنسانية العزيزة علي!
 - في صحة حبيبي! أنا سعيدة اليوم كما لا تتصور! ألسنت بشوق إلي؟
 - أنا بشوق دائم، ولكن أرجوك أن تصغي إلي جيداً، وبغير مقاطعة..
 هزت برأسها مبتسمة، شرع يتكلم متلجلجاً، أحست مارلين أن هناك شيئاً جديداً، مع ذلك استمعت إليه بانتباه، لكنها، مع تطاول الكلام، غاضت ابتسامتها، تجهمت، انكمشت، وأخيراً بكت، تاركة دموعها تسيل، كأنها تتلقى نبأ وفاة أمها أو أبيها.. وعندما فرغ زيد من عرض أفكاره، وشرح نفسه بأشد ما يكون المنطق إقناعاً، صاحت به:
 - كفى! قل إنك لا تريدني باختصار! قل إنك خائف! قل إن الضغوط التي مارسوها عليك فوق طاقتك على الاحتمال، عندئذ أعذك! إنني مثلك، لا أريد أن أكون أنانيّة، أمّا الذرائع التي سقتها، والتي هي صحة ضمير، حسب تعبيرك، فإنّها واهية جداً.. تقول إنك دون حب، تشعر وكأنك تغتصبني، فلماذا لا أشعر أنا أيضاً بهذا الاغتصاب، مع رجل لا أحبه، سواء كان جيفرسون أم غيره؟ إنني أحبك، وهناك فارق بين الحب والنزوة، وقد تفحصت مشاعري جيداً، وطويلاً، وتوصلت إلى اقتناع تام، بأنني أحبك، لذلك منحتك نفسي، لذلك أشتهيك، وليس العكس، أمّا إذا كنت راغباً في التخلّي عني، وتركي لمصيري، لقدري، فإنّ هذا يعذبني، لكنني على استعداد لتحمل هذا العذاب، ولن أهادن جيفرسون أو سواه، ولن يستطيع أحد أن ينالني بالقوّة.. أنت، يا صديقي الذي كان، لا تفهمني، لا تفهم المرأة، بينما أنا أفهم الرجال، المرأة تفهم الرجل بأكثر مما يفهم الرجل المرأة، وهذه حقيقة برهن عليها الزمن، ومن المؤسف أن تفوتك هذه البديهة، رغم بساطتها وشيوعها. لكنني، أنا لا أصدق أن المسألة صحة

ضمير، أو أنها نبذاً للأنانيّة، المسألة هي أنك خائف... ودليلي على ذلك هو استدعاؤك إلى الإدارة، وذهابك مع جيفرسون إلى المستشفى، وما وقع لنا أمس ليلاً، وهذا التحديّ الذي تواجهه، والذي هو حقيقي، وأنا لاحظته! لن أطيل عليك أكثر، لأنّه ما من أحد يضحيّ بكل شيء، مقابل لا شيء، مقابل امرأة تحبّك، وحبّها لا يعني لك كثيراً أو قليلاً، لأنّ هناك فارقاً في العقلية، فأننا، كفتاة إنكليزية، لا تهمني، ولا تهتم مثيلاتي، مسألة الزواج، بينما أنت كرجل شرقي، تربط بين الحب والزواج، هذا الذي لا أطالبك به، ولا أريده، وقد قلت لك ذلك مراراً! أعطني قليلاً أيضاً من الكونياك، ولنقلب هذه الأسطوانة اللعينة، مع اعفائك من الكلام، اذا كان الصمت لا يزعجك، وإذا كان بقائي عندك قليلاً أيضاً، لا يسبب لك المتاعب!!

تجمّدت ملامح زبيد كما لو كانت في ثلاجة، مارلين أشرت بمنطقه كله، عابت عليه ما يخاف عيبه حتى الموت: الجين! كشفت، بكلام مركز، واضح، صريح، ما في دخيلة نفسه، وبسهولة تامة. قالت مشاعر امرأة تحب، حقيقة لا وهمًا، زادت فقالت مشاعر المرأة تجاه الرجل، رمت، هو والرجال كلهم، بنبلة نافذة حتى العظم، خارقة حجاب الادعاء بأنهم يفهمون المرأة، كالمرأة نفسها. لا! المرأة ليست لغزاً، لكنها ليست صفحة مقروءة أيضاً، هذه قضية خلافية، كانت وستبقى، غير أن مارلين، وبيسر، أظهرت له أنّه لم يفهمها، حين لم يفهم أنّها ذات عقلية مغايرة لعقلية الفتاة في الشرق، وأنّ الزواج، في ضوء هذه العقلية، ليس مشكلة، فالممارسة الجنسية، وحتى الانجاب، أمر طبيعي، حتى دون زواج، لأن سيف العار، المعلق فوق رأس المرأة الشرقية، ليس هو ذاته فوق رأس المرأة الغربية، والمجتمع، في موقفه من العار، وفي نظرتة إليه، يختلف في أحكامه، وفي رؤيته، ما بين غرب وشرق. لكنّ المشكلة الأساسية، الكبرى، الأليمة والمؤلمة، تكمن في الجواب عن هذا السؤال: هل خاف، حقيقة، الضغوط الممارسة عليه، وخشي التحدي، الذي لا طاقة له عليه؟! والتواري، خلف مقولة ناموس الحب، أكان فيه على صواب أم خطأ؟

نهض، وهو يدفع عنه ما استشعر من انكسار، راح يقطع الصالون، جيئة وذهاباً، دون أن يتفوّه بكلمة! هو، لا هي، بحاجة إلى الصمت. بعض القول، في بعض المواقف، نقمة، لولا أن هناك نعمة الصمت. إنّه، أكثر من

أي وقت مضى في حياته هنا، مفتقر إلى فترة هدوء لا تعكرها نامة، كي يتمكن من السيطرة على انفعاله المكتوم، وترتيب أفكاره التي تشوشت بما سمع، وخاصة في موضوع الخوف، هذا الذي عاش طويلاً، وفي مواقف متعددة، متنوعة، على يقين من أنه بعيد عن شرفه! إنه لا يذهب، حتى في ادعائه، إلى أن الخوف لم يكتنفه، في هذه اللحظة أو تلك، في هذا التواجه، بينه وبين الخطر، أو ذاك، إلا أن جسارته كانت تتغلب دائماً، وكانت إلى ثبات، بينما لحظة الجبن إلى تخلخل، إلى زوال!

ذهب إلى المطبخ، أعد فنجانين من القهوة، قدم أحدهما لمارلين، والآخر له، ملاً كأسَي الكونياك، دون أن يبالي بالسكر، منها أو منه. الحياة، في هنيهة ما، تبدو تافهة، إلى حد عدم الاكتراث الكامل، وهو، زبيد، مستعد، الآن تخصيصاً، للاعتراف بالاحتفاظ، بأن بعض ما قالته مارلين، حول مفهومه للشرف، صحيح، وأن ثمة فارقاً، بين عقلية وأخرى، لا يجوز معها التعميم، وأن صحوة الضمير المفاجئة، قد يكون مبعثها التعب، لا نبذ الانانية، إلا أن اتهامها له بالارتداد أمام التحدي، غير صحيح، وغير مقبول، وإلا فلماذا هذه الجروح على جسمه؟ ولماذا المغامرة ومعاينة الخطر؟ ولماذا يخرج في النهار والليل دونما مبالاة بكل التحذيرات التي تتنالى عليه، وتلاحقه حيثما اتجه؟ لا! بعض النوايا الطيبة لا تُفهم أحياناً، يغتالها سوء الظن، يئدها الرمل، تذهب بها ريح الشكوك، أو تحولها إلى نقيضها! لا بأس! مع ذلك لا بأس، فقد عرف كثيراً من حالات ارتطام نواياه الصادقة بصخرة الجمود، وتناثرها رذاذاً أسود، في فضاء أسود، خاله عتمة ليل، لن تنجلي أبداً، ثم انجلت، أشرق الشمس، تبدد الأسى، وما فيه من ألم النكران، لأعز الأمانى! ما حدث قد حدث، لا ندم! في وسع مارلين أن تذهب وقت تشاء، وبذلك ينتهي ما بينهما، مرة وإلى الأبد!

اليومية الثانية والعشرون ٧ تشرين الأول ١٩٦٠

لم تهتف السيدة بورجرون، داعية زبيد إلى السهرة عندها، حسبما قال أبو المجد، وحتى لو هتفت فسيكون جوابه الرفض، لا لأنه حزين، معتكر المزاج، بل لأنه، أيضاً، راغب عن حضور عرس في يوم القيامة! من حق بورجرون، السيدة الباريسية، أن تقيم هذا العرس، وأن تدعوه من

تشاء، وحتى أبو المجد وزوجه، ومن حق هذا الأخير أن يلجّي الدعوة، لأنه في أعماقه، راغب في الاستمتاع، كالسيدة بورجرون والسيد جاك زوجها، ما دامت هناك باريس، وفي أي وقت يمكن الخروج من بكين والدخول إليها، فأبو المجد متزوج من سيدة فرنسية، ويحمل جواز سفر فرنسياً نتيجة هذا الزواج، وليس ثمة مشكلة بالنسبة إليه، ومن المرجح أنه، في سريره، غير معنيّ بالخلاف السوفياتي الصيني، وغير أسف، وحتى غير أبه، بعواقب هذا الخلاف على حركة التحرر الوطني العربية بعامّة، وعلى بلده سورية بخاصة، هو لن يعود إليه، وبذلك يتخلّى، تلقائياً، عن عضويته في الحزب، وما تجرّه هذه العضوية من مصاعب عليه، ويعيش في باريس بدل دمشق، وفي الشانزليزيه بدل حديقة السبيل، وفي هذا يتساوى مع السيديين بورجرون، اللذين لن يسحبهما حزبهما من الصين، لأنه، في حضارته، وثقافته، وتجربته، حزب يفرّق بين الأممية والتبعية، وينتقد بجرأة، دون رفع شعار مسلم العينين، شعار تميمي، فارغ، مؤذٍ، هو «إن معيار الوطنية صداقة الاتحاد السوفياتي» وجعل هذه الصداقة عشقاً مشبوهاً، يوافق فيه العشيق عشيقه موافقة عمياء، كما تفعل بعض الأحزاب الشيوعية هنا وهناك، وفي إخلاص لهذا العمى، تُنزّه عن الخطأ. ما هو غير مُنزّه: الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي!

وكما توقّع تماماً، لم تهتف السيدة بورجرون لزبيد، بعد خروج أبو المجد من عنده، كما وعد هذا الأخير، لمعرفته أن زبيد سيفرض، ويعناد، أن يرقص مثل الآخرين، رقصة الأشباح البيض، علي «قبور» الراحين، التي لم يجف ترابها بعد، وربما كان أبو المجد، في تستره على أفكاره وأعماله، هو الذي طلب الأُيّدَى زبيد إلى السهرة، وكذلك أي عربي، تجنّباً للخرج، وقد ارتاح زبيد لأنّ آل بورجرون لم يهتفوا له، وقال في نفسه: «هذا من الكياسة»، متابعاً شرب جرعات من الكونياك، مع رشقات من القهوة، في حال من الاسترخاء واللامبالاة التامين، سواء بالنسبة إلى الجامعة التي انقطعت صلته بها، أو بالنسبة إلى رفاقه العرب الذين نبذوه، أو بالنسبة إلى من يقيمون الأفراح، غير مستشعرين، ولو بحد أدنى، وقع كارثة الخلاف، وما تبعها من رحيل الخبراء، وهم معذورون، بشكل ما، لأنّ لهم بلدانهم، وأحزانهم، غير التابعة، وغير المتضامنة، بشكل أهوج، مع الاتحاد

السوفياتي، أو مع رعونة خروتشوف، لذلك رفضت هذه الأحزاب سحب أعضائها العاملين في الصين، لأنها لم تكن قليلة الإدراك كي تعتقد، أن سحب هؤلاء الأعضاء، يقدم أو يؤخر، أو أن تنزيه موسكو عن الخطأ، وتحمله للصين وحدها، هو من الموضوعية في كثير أو قليل!

وبينما كان زبيد يستعد بهدوئه المغلف بالكآبة، للخروج في نزهته المسائية حول الدروجبا، وحيداً، منكسراً، برماً بكل ما حوله، فُرع الباب قرعاً لجوجاً، ورن جرس الهاتف في وقت وأحد، فظن أن بورجرون هي التي تهتف، لذلك رفع السماعرة وأعادها دون أن يرد، ومشى إلى الباب ليرى من هناك، فإذا المفاجأة غير المتوقعة، وغير الراقية، حتى في خاطر، رقيقاً عابراً، تطالعه على الباب: كانت هذه السيدة بورجرون، وهي في كامل زينتها، وكامل ابتهاجها، وكامل شوقها، وقد ابتسمت، وهي تدلف إلى الداخل، ابتسامة إغراء، وقالت وهي ترفع شالها الحريري عن كتفها: - جئت إليك بنفسي، رغم ظني أنك قد لا تستقبلني، وقد تتصرف، كعادتك معي، بغير لياقة، حتى لا أقول بجلافة، وإن مزاجك مسود بحزنك الذي أحترمه، لكنني لا أرى مبرراً له، فما حصل كان لا بد أن يحصل، وأنت تعرف هذا بأكثر مما أعرفه.

تأملها زبيد، بعد أن جلست واضعة رجلاً على رجل، وفستانها يفتح من أعلى عن عنق جميل، أبيض، موشع بالبرونز الشمسي، وفي عينيها تلتصع نظرات، ماؤها زجاجي، صارخ الإثارة، وشعرها ينسدل، في تثنئات كبيرة، مؤطراً وجهاً للرغبة، حتى ليحس الرائي أمامه بالحيرة في إرسال أصابعه تتخلل هذا الشعر، أو في إرسال هذه الأصابع لترفع خصلاته إلى وراء، كي يبدو الوجه، أو ينفتح، على بهائه كله، بينما الساقان، المصبوبتان في قالب فني، لنحات ماهر، ينشمر الفستان عن ركبتيهما المدورتين، وفي نهاية الساقين، من أسفل، قدامان جميلتان، يزيدهما الحذاء المصنوع من جلد أفعى مرقش جمالاً، يضرع شهوة مرمدة، تغري بفج الرماد عنها، كي تتوهج، وترسم في المخيلة المحرومة، أشكالاً لرؤى هاتين القدمين، وهما حافيتان، تسعيان بين المقعد والسرير، أو تتجولان في القاعة، بكل عريهما الفتان، الصارخ الفتنة، كأنما السيدة بورجرون، في تعارفها مع زبيد خلال ما يقرب من عام، قد أدركت، بحس الأنثى، أن أكثر

ما يفتن هذا الشرقيّ، المتوسطيّ، هو جمال الساقين فجاءت الآن تكشف هذا الجمال، وتجعله مباحًا له.

توقّف زبيد عن السير، منذ دخلت السيدة بورجرون، كفّ عن التحديق، عن التفكير، تاركًا لرماد سيكارته أن يسقط حيث يشاء، دون اعتذار، دون مجاملة، لأنه فهم، من مجيئها إليه، في زيارة مؤقتة، أنها تقنص، أو تسعى لقنص إنسان في ذروة مأساته، المتجلية في وحدته، والمه، وحاجته إلى من يتكلم معه، كي يخفف قليلًا عنه ما به من شجن! مفاجأة! مفاجأة مذهلة! حتى إن زبيد، في اقصى مناه، لم يكن يتصوّر أنها ستحدث، وأنّ السيدة بورجرون ستأتي إليه، مانحة السعادة لإنسان غير سعيد، لإنسان مدعوّ إلى وليمة دسمة، تُتاح فيها كل المحرّمات، دفعة واحدة، وتُكشف كل المفاتن، دفعة واحدة أيضًا، وعليه، هو المضيف، أن يحسن التصرف مع ضيفته، دون أن يفوته، للحظة، أن هذه الضيفة، تقف في الطرف الآخر المقابل، الطرف اللاهي في موقف هو للجدّ تمامًا، وهو للشعور الذي يستدعي عدم الانسياق مع شعور آخر، من أجله كانت هذه الزيارة.. وعندما ضاقت السيدة بورجرون ذرعًا، ونفد صبرها حيال هذا الصمت الذي جاء لاختراقه، سألته وهي تبسم:

- هل تأملتني جيدًا؟

ردّ زبيد:

- جيدًا جدًا!

- وبماذا خرجت من هذا التأمل؟

- بالإعجاب طبعًا!

- ولماذا «طبعًا» هذه؟

- لأنّ الإنسان قد يخرج، أحيانًا، من تأمله بما يخالف الإعجاب، حتى

لو كانت الزائرة الكريمة هي السيدة بورجرون نفسها.

- أفهم من هذا أنك تستقبلني؟

- وبترحاب يا سيدتي!!

أضاف:

- لن أعتذر عن سهومي فقد تطلّب الانتقال، من حالة نفسيّة إلى أخرى

بديلة، وقتًا ما، كنت فيه مُسامحةً وكريمةً.. والآن؟ ماذا تشرب سيدتي؟

- كأسًا من الكونياك، الذي اعرف أنك تكثر منه، إلى درجة الإدمان
هذه الأيام!

- هذا صحيح، وصديقنا المشترك، الرفيق عياد أبو المجد، يعرف هذا،
وهو من أخبرك به.

قالت السيدة بورجرون وهي تتناول كأس الكونياك:

- هذا صحيح أيضًا، وهو السبب الذي دعاني إلى المجيء، بدل أن
أهتف اليك.. قدّرت أنك بحاجة إلى المواساة، فجئت مواسية، لكنك
استقبلتني ببرود، حتى كأنك ترغب في انصرافي.. وفورًا!
شرب زبيد كأسه في صحة ضيفته وقال:

- لست من الجلالة بالقدر الذي تتصورين.. أهلاً بك في بيتي!
قالت ضاحكة:

- فاجأتك زيارتي فارتبكت، وهذا يحدث دائمًا، فلا تبال به.. نحن
صديقان، ورفيقان، وجاران في مدينة دروجبا، هذه، الرائعة.. إذن لنتكلم
بصراحة، ولنرفع الكلفة بيننا، وليقبل أحدهنا الآخر، تدشينًا لمرحلة جديدة
من الصداقة!

تبادلًا القبل، على الخدين، والسيدة بورجرون جالسة، تهفّ منها رائحة
العطر الفرنسي المنعش، وبأناملها الرخصة، الرشيق، تردّ شعرها إلى
وراء، وهي تنظر في عيني مضيفها مباشرة، كما يفعل المنوم المغناطيسي،
في محاولة تهيئية لتقبل ما تريد قوله، بشكل مباشر ودون مواربة، وكي
تقطع عليه سبيل الاعتذار، عندما ابتسمت، ثم وجّهت إليه الدعوة قائلة:

- جئت بنفسني لاصطحابك إلى السهرة المتواضعة، التي نقيمها،
زوجي وأنا، الليلة في بيتنا، لأنك فرضت على نفسك عزلة غير مبررة، فيها
شيء من هشاشة أمام الظروف الطارئة، وأمل أن تتقبل صراحتي هذه
برحابة صدر، إذا ما كانت كلمة هشاشة نابية!

قال زبيد:

- نعم! نابية يا سيّدي، ولن أقول أكثر، حتى لا أقع في الخطأ الذي
وقع فيه غيري!

قالت السيدة بورجرون:

- اعتبر نفسك قد قلت الذي تريد قوله، أم أن لديك أكثر؟
- في الوقت الحاضر لا!
- وفي المستقبل؟
- ربما!
أضاف زبيد بعد تردد:
- ألسنت معي في أن الكلام، أي كلام، له زمانه ومكانه؟
فكرت، ابتسمت، ردت شعرها عن الخد الأيسر، قالت:
- اعترف! أنا معك في هذا.. كيف أقول؟ لا بأس! الصراحة لها أناقتها
أيضاً!
ابتسم زبيد، تناول جرعة كونياك، نظر إليها كأنه يراها للمرة الأولى،
جلس قريبها، وضع رجلاً على رجل، قال كأنه يكلم نفسه:
- أناقة الصراحة! نعم! نعم! أناقة الصراحة، اسمحي لي أن أبدي
إعجابي بهذه العبارة المبتكرة، المنتقاة بلطف باريصي خلّاب!
- تسخر؟
- وهل أجرو؟
- قيل لي إنك تجرؤ، ولم استبعد ذلك، رغم أن معرفتنا عابرة بعد،
وهذا ما يدعو إلى الأسف، لأنه كان علينا أن نعمّق هذه المعرفة، ما نمنا
زملاء، وجيراناً أيضاً!
قال زبيد ضاحكاً:
- يبدو أن الحق على الجيرة، فما يلفت النظر هو في البعيد دائماً، أم
أنني مخطئ؟
ضحكت السيدة بورجرون وقالت:
- هذه حقيقة أنيقة أيضاً، تعرف لماذا؟ لأنني لست في البعيد الذي
تقصده!
- ما نمنا على هذا القرب، وهذه اللقطة الكريمة منك، فإن البعيد لم يعد
له شأن! اسمحي لي، سيّدتي الجميلة، أن أشرب نخب زيارتك اللطيفة و...
قاطعت:

- غير المتوقعة!

- تماماً!

كشفت بحركة رشيقة، عن ركبتيها، اعتذرت، رفعت ذيل فستانها قائلة:
- أنا مغرمة بالحرير الصيني، لكنه أملس، يكاد لا يستقر على
الجسم.. تقول إن زيارتي كانت غير متوقعة تماماً؟ في هذا أنت على صحة
كاملة، لكن أياك خرج من عندك قلقاً، قال لي: «زبيد حزين بأشد ما يكون
الحزن، وقد ترك التدريس في الجامعة، إلى أن يُحل الإشكال حول موادّ
الدراسة، وهو عنيد، مغامر، وقد يندفع حتى إلى الإضرار بنفسه!!» أمل
أن يكون في هذا القول بعض المبالغة، فأنت عزيز عليّ.. عفواً، أنت عزيز
علينا، أم تشك في ذلك؟

نهض زبيد ليأتي بزجاجة الكونياك، كان هذا تعلّة ليفكر قائلاً: «ماذا
تريد هذه السيدة؟ الحرير الصيني، أملس، لكن جسمها، في ما أقدر، أكثر
ملاسة، ولقد لفتتني إليه بذلك، ثم ماذا؟ قلقة عليّ؟ خافت كما خاف أياك
أن أرتكب ما يضرّ بي؟ قد أكون عزيزاً عليها، لكن «عفواً» هذه الكلمة
الاستدراكية، لم تكن بغير قصد!»

جاء بزجاجة كونياك جديدة، من أفضل الأنواع المنتجة في الصين،
تظاهر بأنه يحاول فتحها حتى يفكر بكل ما قالت، كما جاء بكأسين وهو
يقول:

- أطلب رأيك، أنت الذوّاقة، بهذا الكونياك الصيني!

تمنّعت السيدة بورجرون في البدء، بذريعة السهرة، الليلة، في بيتها،
أصرّ زبيد على أن تتذوّق هذا النوع من الكونياك، أخذت قليلاً وهي تقف
قائلة:

- هل تسمح لي بأن أعاين، عن قرب، هذه التحف الصينية، وخاصة
عصا المينغ، هذه المعلقة بشكل مائل، فني، على الجدار؟
هتف زبيد باستغراب:

- عصا المينغ؟! أي مينغ هذا؟ أنا من أطلق هذه الإشاعة!

ردت السيدة بورجرون وهي تميز بقذفاً المتسوق، الملفوف بغير سمّة:
- ولماذا هي إشاعة؟ قد تكون عصا من أسرة مينغ فعلاً.. في الصين

تجد، أحيانًا، تحفًا من كل العهود، تحفًا حقيقية، ثمينة جدًا، ممنوعًا إخراجها، إلا إذا أخفيت جيدًا عند التوضيب، ولم يكتشفها الخبراء الصينيون المكلفون بمراقبة التحف قبل توضيبها.

- إلى هذه الدرجة؟ شكرًا لهذه المعلومة، لكن هذه العصا ذات الرسوم الدقيقة، والرأس المتوج بعصفور الهدد، لا يعقل أن يعود تاريخها إلى ما قبل ٥٠٠ سنة، إبان حكم أسرة المينغ.. تفضلي أطلعي على هذه المقتنيات، التي لا تمت إلى التحف الحقيقية بصلة، فقد اشتريتها متسرعًا، عديم الخبرة، بقصد تزين بيتي بأي شيء، حتى لا يبقى عاريًا!.

قالت وهي تقلّب «فازًا» صغيرًا بلونيه الأبيض والأزرق:

- التجارب لها ثمن يا سيدي، وقد دفعناها كلنا في أول مجيئنا إلى الصين.

قال زبيد منتشياً:

- لماذا لا نختصر الطريق يا سيدتي، فأستفيد من تجاربك في هذا المجال؟ ثم لي ملاحظة صغيرة أرجو أن تستجاب فكرتها: اسمي الصغير زبيد، ولا حاجة إلى كلمة «سيدي» بعد الآن، موافقة؟

- موافقة على التماثل، اسمي الصغير مارغريت...

- أنت السيدة بورجرون، مهما ارتفعت الكلفة بيننا.. والآن، ما رأيك بفنجان من القهوة؟

- هو هو! القهوة التركية شديدة التأثير، بسبب ما فيها من «كافيين» مع ذلك لا بأس، إذا ما سمحت لي برؤية تحضيرها.. هيّا يا صديقي العنيد والمغامر.. وبالنسبة، هذا ليس اكتشافًا، أنا أردت ما أسمع، وصدقني إنني مثلك، أحب المغامرة..

قاطعها زبيد سائلاً:

- بكل أنواعها؟

طبطبت على ظهره وهما يسيران إلى المطبخ، قالت بإغراء:

- لا تكن خبيثًا بأكثر ممّا يجب.. سؤالك جوابه معروف: المغامرة إلى حدّ ما!

- ومن يعيّن هذا الحد؟

- ليس الآخر طبعاً! انتبه.. القهوة تفور!
- وماذا لو فارت؟
- لا شيء.. بعضهم يحبها فائرة.
- وأنت؟
- ماذا تقدّر؟
- لست منجماً!
- المسألة ليست بهذا التعقيد، ولا تحتاج إلى تنجيم من أي نوع..
أضافت وهما يشربان القهوة، مع رشقات من الكونياك:
- بالنسبة إليّ، الحياة بسيطة، لا تعقيد فيها ولا تنجيم، وأحبّ أن تفهمني!

قال زبيد:

- أجتهد لكي أفهم، لكنني، صدقيني، لست على ذكاء كاف لكي أفهم من الوهلة الأولى.

- أصدّقك، ولكن التواضع، في غير محله، لا يريحني.. أنت ذكي بأكثر من الكفاية لكي تفهمني أو تفهم غيري.. هذه ليست الوهلة الأولى لتعارفنا، ولا حاجة إلى الاجتهاد كي تتذكّر ذلك.. قلت لك: الحياة بسيطة بالنسبة إليّ! ورحت أنت تتحدث، مناوئاً، عن التعقيد والتنجيم، وترى إليّ كأنني قادمة من عالم آخر، تجهله كل الجهل.. فما هو، في كلامي أو سلوكي، هذا الذي تجهله؟

- العالم الباريسي الذي قدمت منه، والذي أخشى أن أخرج بروتوكوله، أنا الشرقيّ، الغرّ.

قاطعته:

- الغرّ أحياناً! وعندما تريد، والأصح عندما تتعمّد أن تبدو غرّاً.. لماذا هذه الازدواجية؟ ولماذا نتكلم بصوت مسموع، ونفكر، في الوقت نفسه، بكلام غير مسموع؟ لقد جنّت إليك بنفسني، واستقبلتني على نحو جيّد، وقد استمتعتنا، معاً، بالكونياك والقهوة، فهل تريدني أن أنصرف؟ قلّ ذلك بشجاعة أدبيّة..

فوجئ زبيد بهذا الهجوم الصاعق، ابتسم وقال:

- أنا أريدك أن تنصرفي؟! وأنا مزدوج التفكير؟! إذن عليّ أن اعتذر.
سألته:

- وهل تراني أطلب اعتذارًا منك؟ ثم ما نوع هذا الاعتذار؟ وكيف يكون؟ وما حاجتنا إليه؟ كفّ عن هذا اللعب... إنه لا ينفع في مثل وضعنا!
قال زبيد:

- أعرف! لنجدد كأسينا، ولنشرب، ما دام هذا يلذّنا، ويغير حدود،
انتظري..

جدّد الكأسين، شربا، التمتع بارق في العيون، مدّ يده وأنهضها،
احتواها بين ذراعيه، غمغم:

- أمل ألا يزعجك هذا الهصر القوي.
قالت:

- ليس بالقويّ حتى الآن!

- وعظام ظهرك التي تطلق؟

- وماذا في ذلك؟ زوجي، أيضًا، يسمع ما تسمعه، لكنك، أنت.. كفى كلامًا.. احذر من عضّ شفّتي، وتبقيع جسمي بالأزرق، كن عنيقًا دون أن يترك عنفك أثرًا.. هل نسيت أن لدينا سهرة الليلة، وسيكون ثوب السهرة مكشوفًا؟

- حبيبتي!

- حبيبي!

- كنتُ أشتهيك، ومن اللقاء الأول!

- وكنت أعرف ذلك من اللقاء الأول!

- ولماذا عذبتني إذن؟

- حتى أشفق عليك.

أمسك بها زبيد من شعرها، رفع رأسها إلى أعلى، قبلها بعنف وهو
يجمجم:

- لا أريد شفقة! هل تسمعين؟!

- أسمع، لكنني غير مقتنعة بأنك لا تحتاج إلى شفقة.. لماذا كل هذا
الحزن؟

قال وهو يخلع عنها ثيابها قطعة قطعة، ويرميها على المقعد:
- تعالي إلى السرير، وبعد ذلك نتكلم.
قالت وهي تحديق إلى عينيه:
- عندما أموت لا أستطيع الكلام!
قال زبيد وهو يقبلها في كل مكان من جسمها:
- على يديّ ستموتين موتاً مريحاً!
وفعلأً، حدث هذا، ماتت السيدة بورجرون موتاً مريحاً حقاً، لكنها قالت
وهي ترتدي ثيابها:
- لولا العجلة، بسبب السهرة اللعينة، لكان عليك أن تميتني مرّات
ومرّات..
ضحك وسأل:
- بشكل مريح؟
- بالشكل الذي تجيده.. نعم! بهذا الشكل، أيها المغامر الذي يتوارى
وراء حزنه المصطنع!
قال زبيد بحسم:
- حزني غير مصطنع، ولا بأي شكل.. إنّه حزن حقيقي!
- ولماذا؟!
نظر إليها وهي تدخّن وقال:
- تسألين بعد؟
- ولماذا لا أسأل؟
- لأنّ لك عينين!
- ماذا تقصد؟ تحسبني لا أرى؟ الذي يدور في ذهنك، دار في ذهننا،
جاك وأنا، ولكن ما علاقتنا؟ نأسف للخلاف، لقد أسفنا! وبعد؟ قل أنت،
أيها الذي يكاد يقتل نفسه حزناً، ماذا علينا أن نفعل، اذا كان حزيناً لا
يرى ضرورة لسحبنا من الصين، ولو فعل لكان مخطئاً؟ نعم! لكان مخطئاً،
لأن الصين، في خلافها مع الاتحاد السوفيياتي، لا تتحمّل التبعة وحدها،
وأنت من رأينا، وبخلاف رأي حزبك الذي تجنّى عليك، وأنت في هذه
الغرية، فحرمك من عضويته، ووضعك في هذا الحرج الذي تعاني من

جرّائه معاناة شديدة، دون أن تتخلى أنت، حتى في معاناتك هذه، عن التمسك برأي حزبك، ومن أجل ذلك رفضت تدريس موادّ موجّهة ضدّ الاتحاد السوفياتي، وهذا هو النبل، إلا أنّ هذا يجانب الصواب، فإذا كنت تقف ضد اقتناعك، فإنّ هذا شأنك، إلا أنّ هذا الموقف يضر بقضية الاشتراكية، التي تشردت، وأنت مستعدّ، الآن أيضاً، إلى التشرّد في سبيلها!

نظر إليها زييد نظرة ملتبسة وقال:

- أعرف، دون حاجة إلى أيّ شرح، كل هذا الذي قلته، وأعرف أن أباد، في السر، من هذا الرأي، وهو الذي حدثك عني بكل ما سمعته منك الآن، لكنّ المسألة ليست هنا.. المسألة هي: إذا لم نحزن، فهل نفرح؟ وهل إقامة حفلة ساهرة، في هذا الوقت بالذات، بالأمر المناسب، أنا لا أتصوّر أبداً رفيقاً جيّداً، يغني ويرقص، والأسى يخيم على الدوجبا كلها.

أشعلت السيدة بورجرون سيكارة، وضعت، باسترخاء تامّ، رجلاً على رجل، ابتسمت بإشفاق، وقالت بنبرة ساخرة:

- وهل رأيت رفيقاً جيّداً، يمارس الحب بهذا العنف، ويستشعر سعادة غامرة، في هذا الوقت بالذات؟ ومع من؟ مع زوجة رفيق له؟ ألا تحسّ بالتناقض، إذا لم أقل بالخجل؟ هيّا أجب!

أطرق زييد برأسه مصدوماً، غاضت نشوته، تعرّق حياءً، فكّر وهو يذهب ويجيء، توقف وقال:

- اتقبّل هذا الذي تقولين دون مناقشة، من ناحية واحدة فقط، كونك زوجة رفيق لي، كما ترغبين بتذكيري، على فرض أنني لا أنكر، ما عدا ذلك كله سفسفة، ينطوي على ما يجب أن تخجلي أنت منه، لأنك جئت إليّ، وأغريتني إغراء لا يقاوم، مع أنه مبتذل، حسب رأيي الآن، بعد أن جرى ما جرى... إنني أسف!

قالت السيدة بورجرون بنبرة هازئة:

- أعطني كأساً صغيرة من هذا الكونياك الجيّد، الجيّد لأنّه من اكتشافك فقط، وخذ لنفسك كأساً مثلاً، وعندئذ يزول خجلي، ويتلاشى، كدخان هذه السيكارة، أسفك المفتعل كله!

ردّ زبيد بنزق:

- أسفي ليس مفتعلًا، ولا رغبة لي في تأكيد ذلك.

- أعطني، إذن، قدحًا من الكونياك، كي يزول خلجي غير المفتعل، أنا الأخرى.

قالت ذلك واستوت في جلستها، بعد أن أعطاهما ما طلبت، تابعت هزّها باقتراحها أن يشرب نخبها، وأن يصغي إليها، دون توتر أو نزق، لأنه من اللياقة، حسب تعبيرها، أن يكون الرجل الشهم، كيسًا، وأن يمتلك الحس السليم، أمام امرأة تمرغ معها بحمأة ممارسة الجنس، قبل قليل... وعندما رفض زبيد أن يشرب نخبها، قالت مع ابتسامة:

- أنت، يا سيد زبيد، كلاسيكي جدًا، لم تتجاوز الماضي الذي صار في ذمّة التاريخ. تعرف لماذا؟ أنا أقول لك: النقطة التي أثرتها ضعيفة جدًا من الناحية الأخلاقية، فلا موجب للخجل أو الأسف، لأن ممارسة الحب مع الذي لا نحبه، هي النقيصة، بينما ممارسة هذا الحب، مع الذي نحبه، هي العكس تمامًا، بصرف النظر عمّن يكون... إنني أعزّ جاك، زوجي، بأكثر مما أعزّك، لكنني أحبك بأكثر مما أحبه، فما رأيك؟

قال زبيد:

- رأيي أننا نسوّغ لأنفسنا ما لا يسوغ، تبريرًا للخطأ!

- وأين هذا الخطأ؟

- في ما حدث بيننا!

- ما حدث كان طبيعيًا جدًا، لأنني حصلت على ما كنت أريده، وهذا

ينطبق عليك أيضًا، وبنفس القدر!

- أنا لا أقول خلاف ذلك، وأعرف ثنائيّة الألم واللذة، فعندما نجوع

نحسّ بالألم، ولا يُزال هذا الألم إلا بلذة الشبع، وكذلك الأمر في ألم الحرمان ولذة الوصال، غير أنني أرفض، بشكل قاطع، أن يسخر أحد من حزني، لأسباب كثيرة، منها هذا الخلاف بين الصين والاتحاد السوفياتي، الذي ستكون له عواقب ضارة جدًا بالنسبة إلى حركة التحرر الوطني، هذه لا تعني لك، باعتبارك من بلد أوروبي، شيئًا كثيرًا، أما بالنسبة إليّ فهي كارثة، تتجاوز شخصي، تتجاوز كثيرًا ما هو ذاتي، إلى ما هو عام، إلى

القضية التي ناضلت كثيرًا من أجلها، وكنت أحسب، كما غيري، أنها إلى انتصار وشيك، فإذا العكس هو الذي حدث، والانتصار صار بعيدًا، بعيدًا بأكثر مما تتصورين يا عزيزتي، رغم الدماء المشتركة التي سفكت، من قبل الطرفين، في النضال المشترك، على الأرض الصينية ذاتها، لأجل تحرير الصين نفسها.

قالت السيدة بورجرون:

- كل هذا صحيح، حدثني جاك عنه..

قال زبيد:

- رحيل الخبراء السوفييات هو أكثر من رحيل عادي، إنه فاجعة، ومتى؟ في هذه الظروف الدولية البالغة الخطورة، كأنما الذين اختلفوا تعمدوا أن يقدموا، بخلافهم، خدمة مجانية لأعدائهم، وفي المقدمة الولايات المتحدة الأميركية، بكل ما تنبض به شرايينها من حقد علينا، فتأملني: كنت أمس أقرأ في كتاب، وقد اذهلتني تضحية نادرة جدًا، قام بها رفيق روسي، في سبيل إنقاذ مناضل صيني، فقد نوذي على اسم تشن توليقاد إلى الإعدام، في مدينة كانتون، إلا أن ثوريًا روسيًا، له ملامح صينية، خرج من بين الصفوف، وقال: «حاضر!» فسيق إلى الإعدام، ونجا تشن تو، الذي سيكون له دور مهم في نضال الطبقة العاملة في كانتون، خلال حرب التحرير الصينية، التي تتوجت بالنصر.. تلك، يا سيدتي، كانت أيامًا مجيدة وما نحن نعيش أيامًا سافلة، في هذا الخلاف الذي أحرزني جدًا، فهل ألام على حزني؟

وقفت السيدة بورجرون بحركة عفوية، احتضنت زبيد وقالت:

- لا! أنت محق في هذا الحزن، لكن إلى متى؟

- لنُدع هذا للأيام!

- تحسب أن الأيام القادمة ستكون أفضل؟

قال زبيد:

- بل أسوأ، بالنسبة إليّ، إذا ما طردت من الصين، وهذا متوقع جدًا.

- وماذا بشأن قلقنا الشخصي عليك؟

- اطمئنوا، لن نتحر حتى لو وضعت على الحدود!

- أنا، شخصياً، متأكدة من شجاعتك وصلابتك، وما دمت كذلك، فما المانع أن تحضر السهرة، فتشرب قليلاً، وتتسلى مروحاً عن نفسك؟
- إذا كانت السهرة للشرب، فهذا أنا أشرب، فماذا بقي للتسلية؟
الرقص؟!

- لا! لا ترقص، ولن أدع أحداً يحرّجك من هذه الناحية، ستكون بيننا على ما يرام، وتستمع إلى شيء من الموسيقى... موافق؟!
- أسف!

- حتى مع الرجاء، ومنّي شخصياً؟
- رجاؤك مقبول، ولديّ من الشعور بالامتنان لزيارتك ما لا مجال لوصفه الآن، الآن بالذات وبعد أن قلت الكثير عما يعدّني، ويجرّح روحي..
كوني سعيدة، وثقي أنني ساكون مبتهجا لسعادتك، ولو عن بعد!
- ولماذا ليس عن قرب، إذا كنت تحبّني؟
- لندع الكلام على الحب لفرصة أخرى، شكراً لك، فقد أنعشتني بزيارتك، وكلماتك، وكل هذا اللطف الباريسي غير المستغرب من سيدة باريسية مثلك.
- قبّلني إذن!

قبّلها، انصرفت، لكن العطر الذي خلّفته وراءها، ظلّ يتضوّع في الغرفة إلى وقت ليس بالقصير، وهذا ما أنعشه جداً، وهو يستعيد وقائع الزيارة لحظة بلحظة، منذ فتح لها الباب، إلى أن أغلقه وراءها!

«جميلة، رائعة، قال زييد في نفسه، ولديها نظرتها، هي الأخرى، لما يجري، لكنّها نظرة أوربية، وهذا طبيعي، فالأحزاب الشيوعية الأوربية، تتمتع بنوع من الاستقلالية في موقفها من الخلاف الصيني - السوفياتي، وهي لا تحمّل الصين وحدها تبعة هذا الخلاف، لذلك لم تسحب أعضائها منها، وهو موقف صائب، بخلاف موقف الأحزاب الشيوعية العربية، التي بدت في حالة تبعية كاملة، تبعية لا أممية، بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي، فتسارعت، باسم التضامن، وباسم الصداقة بسحب أعضائها، محملة الصين كل التبعية، في الخلاف الجاري. وهذا موقف خاطئ، لكنني سألتزم به، حتى وأنا مفصول من عضوية حزبي، وعلي، في ضوء كل ما

سمعت من السيدة بورجرون، أن أعذر الآخرين، إذا لم يحزنوا كما حزنت، وإذا كان لهم المزاج الحسن، المؤاتي، لإقامة الحفلات في بيوتهم، والتمتع ببعض الفرح، في هذه المدينة الصغيرة التي أسمها «الدروجبا» والتي كانت مكرسة لصداقة انتفت الآن، و«للحليف الكبير» الذي لم يعد حليفاً. وهذا، من وجهة نظري، بداية لما هو أكثر سوءاً من النكسات في المستقبل!«.

أضاف زيبيد بحرقه كاوية، كالسهم في الكبد: «لماذا يكون على الصغار، أن يتحملوا نتائج أخطاء الكبار دائماً؟! نحن ضحايا، وبصورة مجانية، وأنا ضحية مفاجئة، أنظر إلى الواقع من حولي بياس شديد، لكنني لن أؤذي نفسي، قررت أن أصمد، ووعدت السيدة بورجرون بأن أصمد، وسأكون عند وعدي، إلا أن مكافأة القدر، في العلاقة مع هذه السيدة، جاءت متأخرة، متأخرة جداً، لا تصلح إلا لذكرى جميلة.. أحملها معي كما يحمل المسافر المسكين، زاداً ناعلاً، وهو في طريقه إلى سفر بعيد!»

لم تذهب مارلين كما توقع، عز عليها أن ينتهي ما بينها وبين زبيد في فورة غضب، كانت تحبه، تحبه في كل حالاته، تقدّر أن الجروح التي في روحه، أعمق وأوجع من الجروح التي على صدره، وأن عليها، لا أن تدافع عن حبها فحسب، بل أن تساعد زبيد لشفاء الجروح التي في داخله أيضاً، الجروح التي لا يتحدث عنها أبداً، في اصرار غريب على الكتمان، كأنما معاناته، من الداخل، أمر يخصه وحده، راغباً في تأكيد أحقيته المبدئية، أمام أية نظرة مريبة، من أي كائن، في أنه بوهيمي، وذو ترسبات بورجوازية، تدفع به إلى التسيّب، وتالياً إلى نسيان أنه ماركسي، مناضل، وصلب في نضاله، إلى الحد الذي لا يرقى إليه الآخرون، الذين يمالئون الصينيين، طلباً للكسب، وللعيش الرخي، والتنعم بما توفره لهم كلمة خبير، من امتيازات لا يحلم أي صيني، في أي منصب، أن يحظى بعشرها على الأقل، وهو، زبيد، يرى ذلك بالأم، وصمت، يتبديان في نظراته الملأى بالاحتقار، لسلوكيات من هذا النوع، رامياً إلى البرهنة، من خلال العمل وحده، على أنه ماركسي أصيل، واشتراكي مخلص، ورفيق كوته التجارب، وفولذته في آن واحد.

مارلين تعرف كل هذا، لا سمعاً بل عياناً، ولشد ما نصحته بأن يترفّق بنفسه، وأن يتوقّف، ما بين فترة عمل وأخرى، طلباً للراحة، فيكتفي بابتسامة ودود، قائلاً بجد:

- أني لا أفعل إلا ما يمليه عليّ الواجب، مع شعور دائم بالتقصير، والسعي الدائم لتلافيه، دونما تفكير في المادة، لأنني في غنى عنها، ولو سعت إليها في وطني، لكنت من الأثرياء، ومن المستقرّين في بيوتهم الفخمة، والمترفّحين بمالهم الوفير، المسروق من عرق الشعب، ولكن من الجالسين على مؤخراتهم المترهلة، جراء كسلهم والتبذل.

وتقول مارلين:

- أنا لا أثنيك عن القيام بالواجب، لكن ما تفعله يفيض عن هذا الواجب، ويضر بصحتك ضرراً خطيراً، فأنت مرهق يا زبيد، يا حبيبي، والإرهاق واضح في تجعد التعب في عينيك، فإلى متى؟! وكان زبيد يضحك ويجيب:

- إلى ما لا نهاية له. لا أريد أن أنزل في قبوري جديد الجسد، كي أوفر وجبة دسمة للديدان، أنت، يا مارلين، تشفقين عليّ من مظاهر التعب الخارجي، وهذا، صدّقيني، لا يهم كثيراً، هناك ما هو أشدّ هولاً منه.. لكن كفى! ماذا قلت؟ ها! قلت كفى، أي لا شيء! إنني، أحياناً، أكلّم نفسي بصوت عالٍ.. ما هي وجبة الغداء التي ترغبين فيها؟! فتضحك مارلين بدورها قائلة:

- على أي غداء تتكلم ونحن الآن، في المساء تقريباً؟! ماذا بك؟

- عته شيخوخة مبكر!

- لا تجعلني أصدق!

- صدّقي!

- لا! أنت تقول هذا لتخيفني!

- خطأ! نعم! هذا خطأ يا مارلين، ماذا كنت أقول؟ ها! تذكرت! أنا، يا حسنائي العزيزة، لا أحرر شيكات بالخوف المجاني.. ما رأيك في أن نشرب عصير التفاح؟

تذكرت مارلين كل هذا، وهي جالسة إلى مكتب زبيد، بينما هذا يذهب ويجيء، بخطى عصبية، والصمت يخيم على الصالون، بكثافة كآبية، وهي، غير المرغوب في بقائها، تتساءل في ذاتها: «ماذا فعلت؟ بأي كلام جرحتك حتى أثارتك بهذا الشكل؟ وكيف السبيل إلى تهدئته؟ وهل يهدأ بعد هذا الهيجان الثوري؟ إنني أرغبه، أحياناً، منفِعلاً، لكن ليس بهذا الشكل الشيطاني المرعب.. لا بد أن أفعل شيئاً، شيئاً يرضيه، يضحكه، يجعله يشفق على سخفي، وعلى جهلي حتى بالتافه من شؤون المطبخ!»

وقفت مارلين وأخذت تتمطّى، أدار لها زبيد ظهره كي تفتح الباب وتخرج بهدوء، دون أيّما كلمة، لكن الباب لم يفتح، مارلين دلفت إلى المطبخ،

فحسب زبيد أنها ستشرب، لكنها تأخرت، فكرت أن تعد له فنجائاً من الشاي، لكن زبيد يشرب القهوة، وهي نفسها ترغب، الآن، في القهوة مع شيء من الكونياك، أشعلت السخانة الكهربائية، تناولت ركوة القهوة، ملأتها بالماء، وبعد؟ تحولت مارلين من الدعابة إلى الجد، رغبت حقيقة في أن تعدّ القهوة لزبيد ولنفسها، لكن المشكلة أن إعداد «النيس كافيه» غير إعداد القهوة التركية، والحيرة في مسألة البن، تضعه بعد أن يغلي الماء وتحركه حتى يذوب، أم تضعه في الماء البارد، وتذويه أولاً؟ تناولت علبة البن، وضعت القهوة بكثرة، حاولت تذويبه دون أن تنجح، فظننت أن القهوة تذوب بالماء الساخن، رفعت الركوة إلى السخانة، انتظرت حتى يغلي الماء ليذوب البن، وعندما وصل الماء إلى درجة الغليان، أسرعت إلى تحريك البن، إلا أن الماء فار، وساح على السخانة والطاولة والأرض، وبلل يدها وفستانها، أحدث نشيئاً خافت معه من إحداث حريق، وعندئذ نادت:

- زبيد! زبيد! تعال، أسرع، حريق..

أسرع زبيد مغضباً، لكنه ما إن دخل المطبخ حتى فوجئ، فبادر إلى سحب «فيش» الكهرباء، ونظر إلى حالة مارلين مستنكراً، ثم مستغرباً، وبعد ذلك فهقه ضاحكاً ومارلين تبكي، تبكي حقيقة من احتراق كفها، وهو لا يدري ماذا يفعل وسط هذه اللخبطة، والتلوّث الذي طال كل شيء، الطاولة والأرض والثياب، أمّا التهاب كف مارلين فقد جعلها تصرخ من الألم، بعد أن انقلب الموقف من الدعابة إلى المأساة! سحبها زبيد إلى الحمام، انقادت له دون ممانعة، ودون أن تكف عن البكاء، وهو يقول لها:

- لا تخافي! ما حدث بسيط جداً، هاتي يدك، هاتيها، ضعيفا تحت صنوبر الماء، كفّي عن البكاء لأن روما لم تتخرّب بعد!

صاحت مارلين من بين دموعها:

- أعرف أن روما لم تتخرّب، ولكن هل كنت تتمنى أن أتخرّب أنا؟ أن أحترق كلّ شيء حتى تستريح مني؟ سأريحك تماماً، وأحقق رغبتك اللعينة والحقود!

كان جواب زبيد المزيد من الضحك، بعفوية كاملة، فالذي حدث كان طريفاً، طريفاً جداً، رغم أسفه لما أصاب يد مارلين من حروق، وما لحق

بفستانها من تلوث، وكل ذلك مقابل أي شيء؟ مقابل أن تعد له فنجانًا من القهوة، تعرف أنه سيكون سعيدًا به، وأنه قد يهدأ بعد انفعاله وغضبه الشديدين، غير المبررين من وجهة نظرها، لأنها، بحاسة الأنثى، أدركت منذ استدعائها على عجل، أنه سيقول لها شيئًا على غاية الأهمية، متوقفة، للحظة، أنه سيفاجئها بما يسعدها سعادة العمر، وهو الزواج بها، كما اقترحت عليه مرارًا، لينتهي من وضعهما القلق، ومن ملاحقة جيفرسون والحاحه، ومن كل المضايقات وكل الأقاويل، حول حبهما الأكيد، ولو من طرفها هي، فالزواج يعني، من جملة ما يعنيه، أن يزيد حبها أيضًا، وأنه كان يتكلم على هذا الحب، كيلا يصادر حريتها في الاختيار، بينه وبين جيفرسون، وما هي، كما حدثت، أمام مفاجأة، ولكن بشكل معكوس، فبدلاً من طلب الاقتران، صدمها بطلب الاقتراق، وهذا ما أثارها، ودفعها إلى غلظة في القول، وإلى اتّهامه بالخوف، وبالارتداد عن وقوفه معها، وإلى جانبها، هربًا من تحدّيات لم يعد قادرًا على احتمالها.

قالت مارلين ويدها تحت صنوبر الماء:

- أنا أخطأت يا زبيد!

قال زبيد:

- الذي أخطأ هو أنا، أنت، يا مارلين، لا تخطئين!

سحبت يدها بعصبية وصرخت:

- كفى سخرية يا زبيد، ارحمني! أقول لك ارحمني! أرجوك.

قالت ذلك وانفجرت باكياً، على نحو مباغت، أدهش زبيد، ألمه، فحاول

تدارك الموقف، دون أن يقول لها:

- لماذا هذا البكاء؟ كفي عنه يا مجنونة، طرافة ما حدث هي التي

أضحكتني.

كان يعرف جيداً أن البكاء مفيد لها، وأنه وحده يفرّج عنها، ويخفّف من الاحتقان الذي يكاد ينفجر، ولولا أنها تماسكت، ضاغطة على أعصابها، كيلا تبدو ضعيفة أمامه، حفاظاً على كرامتها الجريحة، بسبب رعونته، وما أحدثت هذه الرعونة من صدمة لها، هي الرقيقة، الشفافة، الحريصة على أن تكون شجاعة، وفي كل المواقف، وأمام كل الناس، إلا

أمامه، ثقة منها به، ويأثني يتفهمها في كل حالاتها، ولا داعي للمراوغة مع حبها النبيل ولكن الجارف، الذي من المفروض أن يقدره، ويحترمه، ويكف عن علاقاته المهينة لها، وخاصة علاقته بالسيدة بورجرون، هذه التي تكن لها كرهاً شديداً.

بكت مارلين بالقدر الذي أراحها، وبعد أن غسل يدها من آثار القهوة، وخفف الالتهاب بالماء البارد، طلب منها بلطف أن تجلس إلى جانب المكتب، كعادتها دائماً، وجاء بمعجون الأسنان فدهن مكان الالتهاب، آملاً في أن تمنع هذه المعالجة البدائية ظهور الفقاقيع، لأنه من غير اللائق أن تذهب إلى المستوصف، وفستانها ملوث، مبقع بالقهوة، وقال لها ضاحكاً برغمه:

- لولا خطأ بسيط، لشربت من يدك الكريمة ألد فنجان من القهوة التركية! دعيني الحس البقع التي على فستانك، كنوع من التعويض!

نظرت إليه مارلين وضحكت بدورها، تفحصت فستانها وقالت:

- يا إلهي! إنه خرقة ملوثة بالسواد! ما العمل الآن؟

قال زبيد:

- العمل أن تخلعي هذا الفستان، كي أتمتع برؤية المفاتن التي تحتها، كنوع من التعويض أيضاً!

- وإذا لم أفعل، كنوع من القصاص أيضاً وإيضاً؟

- أن تتدوشي والفستان عليك، ثم تنتقي تحت هذه الشمس الحارة حتى يجف!

- وإذا قلت لك شكراً أيها الوغد، على هذه النصيحة البائخة؟!

- أجيبك تفضلي وأخلعي هذا الفستان الرائع، وشرّفيني بالرقاد في هذا المستشفى المتواضع الذي هو بيتي، إلى أن أغسل الفستان، وأجففه، وأكويه، وتشفى يدك الكريمة شفاء تاماً.. مع ملاحظة بسيطة: هي التمني لو أن غيرك تجرأ وقال لي: «أيها الوغد»!

- زعلت؟ أسفة، اعتذر، ما كنت أقصد!

- أعرف، ومن أجل هذا أصرف النظر عن قولتك هذه.

- لشدة ما أنت معتد، أيها المجنون الذي أحبه، والذي كاد يفجعني بأعز أمانتي: حبي الكبير الكبير له! ماذا فعلت حتى تعاقبني بهذه القسوة؟!

قال زبيد:

لو كنت تعرفيني حقًا، بعد كل هذه العشرة الطويلة، لأدركت أنني كنت أعاقب نفسي! أنت، يا مارلين، طيّبة، رائعة، وأنت أيضًا معتدّة، لكنك متسرّعة في قذف الآخر بكلام جارح، بأنّهامات غير صحيحة، تغتال أفضل نواياه.. هاتي يدك لأرى، أبسطيها جيّدًا، هناك بقع حمراء لا أكثر.. هذا جيّد، لديّ مطهر، ومرهم للحروق، وشاش وكل ما يلزم.. ولكن لديّ ما هو أهم: الامتنان! فقد أقدمت على تضحية لإرضائي، وكفّفتك هذه الترضية، غير الضرورية، ثمّنًا من الخوف والالَم، شكرًا!

قالت مارلين:

- لو كنت تحبّ يا زبيد، ولو كان لك قلب، لا كرة زجاجية، حسب تعبيرك، لعذرتني. سأقول لك شيئًا: ما هو في رأيك، المقدّس في هذا الوجود، غير الله؟

رد زبيد:

- الكلمة!

- ماذا تعني؟

- أن نحترم الكلمة، أن نفي بها، أن نترجمها إلى واقع، لأنها البدء كانت، والختام ستكون، وبهذا المعنى تتقدّس الكلمة، وتتقدّس معها، لا من الوجهة الأخلاقية وحدها، وإنما من الوجهة الإنسانية، من وجهة الكرامة في قول الحق، والالتزام به، فالكذب هو المعصية التي تتفرّع عنها كل المعاصي.. إنني أرفض الكذاب بأكثر من رفضي للشرير.. أدركت الآن لماذا أردت أن أعاقب نفسي؟

قالت مارلين:

- لا!

قال زبيد:

- لأنني أغشّ في علاقتي بك.. أضع أوراقتي تحت الطاولة.

- وإذا كنت، أنا، أعرف ذلك، وأرضى به؟

- تبقى مسؤولية استغلال حبك، لإشباع نزواتي الجسدية، فماذا يعني هذا؟ النذالة! نعم النذالة، هذه هي الكلمة المناسبة.. أنت تحبين، في هذه

الحال، نذلاً، هل يرضيك هذا؟ وإذا أرضاك، مؤقتاً، بحكم العاطفة لا القلب، فهل يرضيني أنا؟ ربما نعم، مؤقتاً أيضاً، إلا أن التفتل، من امرأة إلى أخرى، ليس من الرجولة في شيء، والأمـر نفسه بالنسبة إلى الأنوثة.. أنت وفيّة، وفي مرآة وفائك أرى نفسي خائناً فاجـل، إنني، يا مارلين، صاحب مبدأ، صاحب قضية، والمرأة ليست جزءاً من هذه القضية، إنها القضية كلّها، وعندما تكذب على المرأة، لا بدّ أن تكون كاذبين مع القضية، فماذا يتبقى، عندئذ، لإنسان كرّس نفسه لأجل قضيتـه، قضية العدالة الاجتماعية؟ لاشيء! قد تكون هذه الصرامة غير مبرّرة، غير واقعية، غير صالحة للجميع، لأنّ جورج ديمتروف نفسه قال: «تسلّوا أيّها الرفاق، فالدرب طويل» وقد أمعنت، أنا، في التسلّي، لا من جانبه الفاضل الذي عناه ديمتروف، بل من جانبه غير الفاضل الذي أعيشه محكوماً باعتبارات اللياقة، المجاملة، إرضاء الجسد ما دمت عازباً، إلّا أنّ الإيغال في هذا يجعلني، وربّما جعلني فعلاً، دونجواناً، وربما ينظر الآخرون إليّ الآن على هذا الأساس، إنّما، صدقيني، إنّ دور الدونجوان لا يصلح لي، وعليّ أن أنفيه من خلال السلوك العمليّ، لا من خلال النوايا الحسنة، التي تبقى، في هذه الحال، نوايا حسنة وساذجة! إن ما يليق بي هو المطابقة بين السلوك والقول، بقدر المستطاع، وهذا ما أنا مصمّم عليه، منذ اليوم.

قالت مارلين:

- انتبه، يا حبيبي، إلى عقدة تعذيب النفس، لا تدعها تنمو حتى لا تصاب بالمازوخية... أريدك سليماً، معافى، صادقاً، شريفاً، مناضلاً، كما أنت الآن، وانتظر بصبر نافذ أن تندمل جروحك، كي نتعمّد معاً بزرقة البحر، ونسأل هذه الزرقة أن تباركنا، وما أشكّ في أنّها ستفعل، ما دمنا، أنت وأنا، على صدق مع أنفسنا ومع الآخرين، وهذا الكلام الذي قلته جعلني أعرفك، وأفهمك أكثر، وأحبّك أكثر، ولكم كان جميلاً قولك «المرأة ليست جزءاً من القضية، إنّها القضية كلّها» فهذا تعبير جيّد، بل هو رائع، لم أسمعـه من قبل، ولم أقرأه في كل الأدبيّات التي طالعتها، لكنك تسرف على نفسك، أكثر من ذلك، تتشدد في القسوة عليها، لأنك تعمل دائماً، بغير كلل، وحتى خلال إجازتك هذه، وتقدم مساعدة طيبة، ومعتزفاً بها، لبناء الصين الجديدة، وهذا هو الحقل الوحيد المتاح، الآن، للنضال، فاقنع

به، وصدقني أُنّني غير أنانيّة، ولا أطلب منك الرهينة في علاقتنا، ففي وسعك، مع هذا الجهد البالغ، أن تتسلى كما قال جورج ديمتروف، هذا القائد النادر في الحياة الحزبيّة والسياسية، والذي تعذب أكثر من كل قادة الأحزاب الآخرين، فلما تحررت بلغاريا، لم يهنأ طويلاً في رئاستها، لأنّه كان تعباً ونام.. نعم! نام ديمتروف على هناة النصر، وأمل أن يكون، في حياته قد تسلى قليلاً، كما أوصانا، وكما شرحت أنت وصيته بذلك وعمق، ولي طلب واحد: أن تبقى إلى جانبي، وألا تحرمني متعة حبك، إذا ما كنت أنت غير قادر على الحب، بسبب تلك الكرة الزجاجية في الجانب الأيسر من صدرك، وأن تكون مؤقتاً، وبغير حد، أنني سعيدة معك، فلا حاجة إلى استئجار الغش، أو الخداع، أو هذه الكلمة المروعة: النذالة، ولا حاجة كذلك إلى معاقبة نفسك، والعودة، مرة بعد أخرى، إلى محاسبة هذه النفس، ومحاكمتها، ومعاقبتها، وأخذها ببراعتها، فالهم، الآن ماذا نفعل، في الورطة التي أنا فيها؟

سألها زبيد:

- هل تحسّنت حالة يدك، وخفّ ألم الالتهاب فيها؟

- هناك ألم خفيف.

- سيزول كلياً، ما دامت الحروق لم تحدث فقاعات، سأتي بالمطهر، والمرهم، والشاش، وأعالجها كما عالجت جروحي!

ضحكت مارلين وقالت:

- لا! لا تعالجي كما عالجت جروحك، التي لم تشف نهائياً حتّى الآن، أيها الطبيب الشعبيّ الجوّال،...

قاطعها زبيد:

- الدجّال!

أغرقت مارلين في الضحك وقالت:

- الدجّال قليلاً!

- إذن اخلي هذا الفستان، لأعالجك بغير دجل!

- ساعدني على خلعه، أرجوك.

ساعدها على خلع فستانها، بهره بياض صدرها وعنقها وكتفيتها

وظهرها، راها، اليوم، أشدَّ جمالاً وفتنة، من كل ما سبق، اشتهاها، كبت شهوته، طهر البقع الحمراء في يدها، مرّحها بالمرهم، لَقَّها بشاش ناصع البياض، قال لها:

- انتهت المعالجة! الأجرة مئة يُونَ...
قالت:

- سأدفع ولكن بعد الشفاء.

- بأيّ عملة؟

- بالعملة التي هي قطع نادر، ودون انتظار الشفاء.

- مجنونة!

- حبيبي!

- ماذا أفعل بك؟

- ما تشاء!

- هذا ليس جواباً.

- تحبّني قليلاً إذن.

قال زبيد:

- ليس هذا وقتاً للحب! هذا وقت للتفكير في كيفية خروجك من عندي، ووصولك، دون لفت انتباه أحد، إلى بيتك.

- ووجبة العشاء؟

- تفكّر في العشاء وأنت على هذه الحال؟ ماذا يقولون عنك في المطعم؟

- كل خير.. نجلس هكذا، أو نستلقي هكذا، ونتناول وجبتنا!

قالت مارلين ذلك واستلقت على السرير، نظر إليها بدهش تبعه ابتسام، تأمل جسمها مفكراً في إبليس، متسائلاً عن الغواية التي راودته وردعها، عندما خلعت فستانها عنها، مستغرباً ألا يفهم، هو الذي يدّعي الخبرة، امرأة مقروءة كصفحة كتاب، يعرف كلّ كلمة فيها، ويحفظها تماماً، والآن يجد نفسه وكأنّ كل ما قرأه في هذه الصفحة، هو السطور وليس ما بينها، وحتى لو قرأ ما بينها لظنّ هناك ما بينها أيضاً، إلاّ أنّه مكتوب بالحبر السريّ، ويحتاج إلى تظهير بحبر آخر، لم يظنّ كنهه، ولا يملكه، فهذه

الشابة الصغيرة، قياسًا إلى عمره، شابة تملك من التجربة ما يفوق فهمه،
وإنه غبيّ إذ نسي أن في صُلْبها، من ثعلبة أفعى الجحيم، عقب المراوغة
التي لا يدركها الرجل بالسهولة المتصورة، مهما ادّعى هذا الرجل من فهمٍ
للمرأة.

كان زبيد يفكر، وكانت مارلين تنده:

- تعال! لا تفوت عليّ وجبة العشاء.

راح ينظر إليها صامتًا، يتأرجح بين التلبية والتأبّي، يرى إلى جسمها
الأبيض الورديّ، تتشهى رغبته، تنزلق فوق قوامها المرمري، المصبوب في
قالب فني، في استداراته كلها، خاصة الصدر، البطن، السرة الشهاء،
الحوض، الساقين، القدمين، صعودًا إلى الشعر العسليّ، الوجه الجميل،
النهدين العاريين، الكتفين المكثمتين، ونداء مارلين يتواصل:

- تعال!

ويتكرّر:

- تعال حبّني قليلًا!

ويعلو:

- تعال حتى لا يطول انتظاري وعذابي.

ويفتح:

- ماذا بك؟ ماذا تنتظر؟ ماذا جرى؟ أين رغبتك، شبقك، عنفك؟!

- ألا تريدني؟ قل إنك لا تريدني، قل إنك تعاقبني، قل إنك تنوي قتلي
خزيًا وعارًا، لماذا لا تجيب؟ لماذا لا تتكلّم؟ قل أيّ شيء، أيّ كلام، كفّ عن
هذا الصمت فقط، اللعنة! حقوق ولا فائدة! حقوق بأكثّر ممّا كنت أتصوّر،
أنا ذاهبة، ذاهبة ولن أعود، اطمئن!

قفزت مارلين من السرير مستثارة، لقد أهينت، المرأة تفضل الموت على
الإهانة، مارلين امرأة، امرأة محبّة، امرأة بذلت كل ما في وسعها لإرضاء
زبيد، وهو، زبيد، جامد كالصنم، في حال غير طبيعيّة، ليس معقولاً أن
يكون طبيعيًا، عليها أن تفعل أيّ شيء لمساعدته، لإسعافه، مارلين هدأت،
مارلين تبدّلت، مارلين نسيت، سامحت، جرعت، انقلب موقفها، استيقظ
حنان الأنثى فيها، حنان الأم، الأخت، الصديقة، الحبيبة، العشيقة، كل ما

فكرت فيه وهي في السرير، كل ما قالتة وهي متألّة، كل الثأر الذي صممت عليه، كل هذا زال، أمّحى، تصفّى، العكر ترسب في القاع، طفا على السطح ما هو صافٍ، شفاف، رقيق رقّة الحرير، ناعم كالمخمل، نقي كالثلج، في الذروة الشمّاء، لجبل عالٍ عالٍ فوق التصوّر!

فتحت مارلين ذراعيها، احتضنت زبيد، قادتة إلى كرسي المكتب، رشت الماء البارد على وجهه، جاءت بزجاجة الكولونيا، أدنتها من أنفه قائلة:
- تنشّق يا حبيبي، افعل هذا لأجلي، تنشّق بأعمق ما تستطيع، بعمق أشدّ، ألا تشعر بالانتعاش؟ ماذا في وسعي أن أفعل؟

قال زبيد بوهن:

- لا شيء!

أضاف يوتّي:

- تحسّن وضعي قليلاً، إنني بخير، شكرًا يا مارلين، يا عزيزتي! أرغب بكأس من الكونياك فقط!

سألتة:

- مع القهوة؟

ابتسم وقال:

- لا! مع أنّك ماهرة في إعدادها!

ضحكت وقالت:

- كم أنا بلهاء! كل ما حدث سببه مهارتي في إعداد القهوة!

قال زبيد وهو يمسد شعرها:

- السبب ليس القهوة، صدّقيني!

- اذن الإرهاق.

- هذا هو.. لم أنم ليلة أمس، اشتغلت حتى الصباح، وكان عليّ أن أستريح، أن أنام بعد الظهر، لا بأس! كيف حال يدك؟ هل هناك ألم التهابيّ بعد؟

قالت مارلين واجفة:

- إنني بخير، لكنني لا أريد أن تُستغل أكثر، أنت في إجازة، وهم

يَلْحُون عليك بالعمل، غير مكثرين بصحتك، وهذا لا يجوز، صارحهم بذلك، قل لهم: كفى! قل لهم: تعبت، أسمع؟

ابتسم زييد وسأل:

- خفت علي يا مارلين؟ الشقي يكون طويل العمر عادة، إرهابي ليس في الجسد، إنه في الرُّوح!

- وهل هذا بسبب الانفعال؟

- الانفعال عنصر وارد، لكنه غير الأساس، التعب الروحي هو الأساس، تحسبيني سعيداً بما أتنعم به، بينما الشعب الصيني يعاني؟ الزمن المبهظ ينمو في روعي وأنا أعيش مرفهاً، الزمن يتسرطن في هذه الرُّوح يا مارلين، لا بسبب الخلاف الذي تعرفين، وأثره الفاجع، على نضال الشعوب في العالم الثالث تخصيصاً، وإنما لأن الصين تمر بأزمة اقتصادية حادة، أزمة غذاء بسبب الجفاف الذي أثر في المحاصيل، وفي رأسها محصول القمح، والشعب الصيني يشد الأحزمة، يكافح كفاحاً بطولياً دون هوادة، في تصميم عنيد للخروج من الأزمة، وسيخرج أكيداً، ولكن متى؟ بعد سنوات على الأرجح، إنني أعرف، يا مارلين، أكثر مما تعرفين، وإعجابي بصبر الإنسان الصيني لا يحد.

- وصبرك على هذا العمل المتواصل؟

- إنه الواجب!

- لم تقل جيداً علي يا زييد، الواجب نعم، والصحة!؟

- صحتي جيدة.. ما أصابني إرهاب عابر، بسبب قلة النوم.

- وبسببي أيضاً، لكن الحق، بعد كل شيء، على مَنْ؟ لماذا طلبت

حضورى؟ ولماذا لم توجّل الصدمة الكهربائية التي أعطيتني إيّاها إلى الغد؟ كان عليك أن تنام، لا أن ترفّ الي بشرى رغبتك في الابتعاد عني، وأن تنفعل من ردّي الذي أهاجك! هل كنت تريد، أو تأمل، أن بشراك ستسعدني؟ إنني امرأة محبة، وباخلاص، وكان علي أن أدافع عن حبي وقد فعلت، فاعذرني إذن، تجاوز كل ما قلته لك من اتهامات غير صحيحة، غير مبررة، دافعها كان الصدمة التي رجّنتني رجاً، وأنا أسمع أنك ستنفصل عني، ستتركني بذريعة واهية، هي أنك لا تحبني، ولا تريد أن

تغشيتي، وأن يكون الحب بيننا من طرف واحد، طرفي أنا، وهذا جيد منك، هذا من الاستقامة، من الأمانة، من الشرف، إلا أنه من تحصيل الحاصل بالنسبة إليّ، ولأنه كذلك فإنه ليس غشاً، إنه واقع أرتضيه، فقد أحببتك باختياري، وكنت صريحاً معي فازداد حبّي لك، أمنت أنك تريد خيري، وأنك ترغب في سعادتي مع من يبادلني الحب، وفي هذا ابراء لذمتك.. حسناً! أنت بريء الذمة، وأنا أحبك رغم أنك غير قادر على أن تحبني، وهذا ليس هَبْلاً مني، وإنما ثقة، أو أمل، في أن كرة الزجاج التي في صدرك ستزول، عندما تؤمن بعمق، وبعد الاختبار والتجربة، أنني مخلصة في حبك، وأن هذا الإخلاص يعطيني الحق في إبقائك إلى جانبي بائئة وسيلة.

قال زبيد:

– ما رأيك في أن تقفزي إلى السرير، مرة أخرى، وتستلقي على ظهرك أيتها اليمامة الوديعه؟

قالت مارلين:

– ولماذا أفعل ذلك يا طيبي العزيز؟

– كي أعاين يدك، واطمنن إلى حسن معالجتني لها!

– يدي أم سرّتي؟

– لا فرق ما دام الكشف الطبّي سيكون كاملاً... وشاملاً أيضاً!

– الكشف الطبي مؤجل إلى وقت آخر بالنسبة إليّ.. أنا لست مريضة، أنت هو المريض، فاقفز، كالغزال، إلى السرير، ودعني أرى جروحك، بصفتي طبيبة، واسمي لودميلا التي تخصصت في معالجتك، وهذا، كما في الدروجبا، من المشاكسة، لأنّ الطبّ الصيني لا يلائم مزاجك المتقلب!

– وكذلك الطب السوفيّاتي!

– وأي طب، إذن، يريحك؟

– الطب الإنكليزي! إنني، يا عزيزتي، مغرم بجودة الإنتاج الإنكليزي، وأنت هو النموذج، أنت إنتاج زواج سعيد، إنتاج مشغول على مهل، وبصياغة غاية في الإتقان، أنت لديّ أفضل من امبراطوريتك العجوز، أيتها القطعة الفولاذية المخروطة بمهارة، ووفق الطلب، طلبي أنا، والمفصلة حسب مواصفات دفتر الشروط، الذي وضعته أفضل مؤسسة للدراسات

الصناعية في طوكيو، وقد تسلّمتك، بعد المعاينة الفنية، الدقيقة، سالمة، وأجريت عليك، وفيك، بعض التعديلات.. أمّا الإنتاج الصناعي السوفياتي غير الثقيل، فبأنّه متخلّف قليلاً، ولم أجريّه أبداً، لأنني أفرّق بين الصداقة والسرير.. والآن حان وقت خروجك، وبفستانك نفسه، لأنّ أحداً لن يرى لطخات القهوة عليه، بعد أن هطل الليل... اذهبي، خذي حماماً فاتراً، تشيكي، تعالي إلى المطعم، حيث أكون في انتظارك، وعلى استعداد لتحمل بعض الغلاطات، من جيفرسون أو سواه!

اليوميّة الثالثة والعشرون ٥ كانون الثاني ١٩٦١

ركبني العناد، هل العناد أنثى؟ ربما، في هذه الحال، أنا الخاسر، أنا المركوب، يحدث هذا أحياناً، فالفرس يطيب لها، وهذا من حقّها، أن ترمح على صدر الحصان، و«العتيق الأصيل»، الذي يأنف شوطاً مع غير «العتيق الأصيل» يرضخ للفرس، حتى غير الأصيلة، لأنّها أنثى، وللأنثى حقوق الاعتبار، فإذا أدّيت، طالبت بحقوق الاحترام، ونالته عنة، برغم الذكر!

لم أتوقّف كثيراً، في عنادي، حول هذه النقطة، لم أعد إلى مرحي، إلى نزّهاتي المسائية حول الدروجبا، انشغلت، وهذا من حظي، في اصلاح الكتاب الذي حمله إليّ هادي، مع تحيات الرفيق الصيني، مدير مؤسسة النشر باللغات الأجنبية، التي يترجمها رفاق عرب، عن إحدى اللغات الحيّة إلى العربيّة، يجري عليها السبر، وفق النص الصيني، من قبل رفاق صينيّين، تخرّجوا من القسم العربي في جامعة بكين، ويشرف على هذا القسم المستشرق الصيني الأستاذ مكين، الذي يجيد اللغة العربيّة، وأنا، المدرّس في هذا القسم، الرافض تدريس مواد فيها هجوم على الاتحاد السوفياتي، استعد للرحيل، لا يهمّ إلى أين، ما إن يُبتّ في أمري، ويرضخ الرفيق ليو، المسؤول الحزبي في الجامعة، أو أرضخ أنا، ومن المشكوك فيه أن يقبل الصينيون، الذين تحدّوا الاتحاد السوفياتي، والمنظومة الاشتراكية والأحزاب الشيوعية كلها، تحدّي مدرّس مثلي، موجود في الصين نفسها، أي في بلدهم، وتحت إمّرتهم، من ناحية العمل فقط، ومن ظروفه القاسية المعروفة من قبلهم جيّداً.

الأمور، إذن، على حد الحد: مع أو ضد، وأنا لا مع ولا ضد، إلا أنّ
تدريس ما فيه قدح بالاتحاد السوفياتي، وبهذه اللهجة العنيفة، لا يتفق مع
صداقتي، وصداقة حزبي للاتحاد السوفياتي، بلد الاشتراكية الأول،
صديق العرب الاستراتيجي... ومع أن منظمة حزبي في الصين طردتني،
وحرمتني من شرف العضوية، فقد أخذت عهداً على نفسي أن ألزم
مواقف هذا الحزب، وما يتصل منها بصداقة موسكو خصوصاً، دون
تبديل في اقتناعي القائم على أنّ الطرفين المختلفين، المتعادين، يحملان
وزر هذا الخلاف، وأضراره، بالتساوي، وأنّ من غير المقبول أن تحمل
الصين وحدها هذا الوزر.. ولم يقلع عبد القادر، الذي لا يربط ولا يحلّ،
في إقناعي بالعودة إلى التدريس، وفق شروط الجامعة، المرفوض بعضها
رفضاً باتاً، لا عودة عنه... ولأنّ الأيّام تمرّ، ووضعني لم يبتّ به، ولم يهتم
أحد بأمر، أو يطلب خروجي من الصين إلى بلد اشتراكيّ آخر، كما طلب
من رفاقي، فإنّ حزني الدفين، أخذ منسوبه يرتفع، مع سفر كلّ رفيق عربي
آخر، جاءه الطلب بمغادرة الصين، وبين هؤلاء أياد أبو المجد، الذي كان
آخر المغادرين، وبعده بقيت، أنا، الرفيق العربي الوحيد في الصين،
أتأرجح في فضاء من انعدام الوزن، مترقباً، كلّ يوم، أن أوضع على
الحدود، لأنني لا أملك جواز سفر، أو أيّة وثيقة تثبت شخصيتي، بعد أن
فقدتُ إذن السفر، الذي خرجت به من لبنان، صلاحيتّه، وفوق ذلك ضاع، أو
تسلّمه رئيس الفرقة الحزبية وأخفاه، انتقاماً من «تمرد» المفترض، التمرد
الذي لا يتجاوز الخلاف في وجهات النظر، وكان هذا، في تلك الأيّام من
بداية الستينات، من الكباطر، ومن الأخطاء التي لا تُغتفر!

بقيت وحيداً، منبوذاً، محاصراً، مهدّداً، بسبب من عنادي، وكبي أجد من
أنس إليّ، هتفت إلى العمّ قره بيت العجوز، وزرته في بيته، متفقداً أحواله،
مستمعاً إلى رايه، في هذا الذي جرى ويجري! ولشدّ ما أنعش روحي
استقباله الحارّ، عناقه، أسفه للوضع الذي أنا فيه، تشجيعه، صراحته،
طيّبه، دموعه، لأن أرمينيا صارت ثانية، بعد هذا الخلاف المدمر.

قلت له باللغة التركية:

- كيف حالك يا عم قره بيت؟

قال:

- حالي، يا بني، سيئٌ جدًّا، جسديًا ونفسيًا... قررتُ ألا أخرج من البيت إلا إلى القبر، أو إلى حيث لا أدري، إذا ما طُردنا من الصين... مثلك تمامًا!

دهشت! من نقل إليه أخباري؟ من قال له إنني مهتد بالطرد من الصين، إلى حيث لا أدري؟

أضاف العم قره بيت بعد نوبة سعال:

- ابني، جاك، هو الذي أخبرني بالخلاف بينك وبين حبيبك، وبينك وبين الصينيين. دنيا! من كان يصدق؟ ابني جاك وزوجته يشتغلان في الإذاعة، في القسم التركي، تأمل! نحن أرمن لا أتراك، ولكن ماذا نفعل إذا لم يكن هناك قسم، في الإذاعة، للغة الأرمنية؟ يبدو أنهم، هنا، لا يرون الخرائط جيدًا، أو أن أرمنيا أمحت من هذه الخرائط، تأمل!

قلت مداريًا مشاعر عجوز أرمني، يرى العالم كله من خلال أرمنيا، التي كان يأمل السفر إليها، والاستقرار فيها، إلى أن يضمه تراها:

- أرمنيا، يا عم قره بيت، مأخوذة كما يبدو، كجمهورية سوفياتية، لا لذاتها!

ضرب بعضاه الأرض بقوة وأجاب:

- هنا البلية! أرمنيا تابعة، وييريفان ملحقة بموسكو، تأمل أيضًا!

- وماذا تريد أنت؟

- لا أريد شيئًا، لأن أحدًا لم يخبرني بين ييريفان ونيويورك.

- ولو خيروك؟

- متى؟ عندما أرى نجوم الظهر؟

- أقصد خيروك افتراضًا.

- كيف افتراضًا؟ هل أنا مخبل؟

- حاشاك! سؤالي، يا عم قره بيت، من باب التمني!

ضحك وقال:

- أو من باب البسطرمة! تذكر حديثنا في الأيام الأولى لوصولك إلى

الصين؟

ضحكت وقلت:

- اذكره تمامًا، ولكن ماذا حشر البسطومة في السياسة؟
- الذي حشر السكر بالسّمك، هنا يأكلون السمك المغطس بقطر
السكر، تأمل مرة أخرى!
- هل ذقته أنت؟

- هذا القرف؟ لا والحمد لله! طعامي هو الأكل المصنوع على الطريقة
العربية أو الإيرانية،
- والطعام الصيني المشهور؟

- هذا يحبه، ويفضله، ابني جاك وزوجته، عجوزي تطبخ لي طعاماً
أرمنياً أحياناً، وهي بيني وبينك، تجيد الطبخ، لكنّها، مثلي، شاخت، أو
تتظاهر بذلك حتى لا أقترّب من فراشها، ما رأيك؟ هل لديك عجوز أنت
الأخر؟

قال ذلك العم قره بيت، وهو يغمز بعينه اليمنى ويضحك، كأنه نسي
حزنه «لأن أرمنيا صارت بعيدة!» فلمّا عدنا إلى الكلام عليها، تنهّد بحرقّة
وقال:

- أنت تتحدث عن نيويورك، وأنا أتحدّث عن بيريفان، ألا ترى أن
المقارنة تدعو إلى العجب؟ هناك، يا بني، رب واحد، وبيريفان واحدة، هل
تفهمني؟
- أفهمك!

- كيف؟

- بيريفان تساوي الدنيا كلها، وتزيد، والمقارنة بينها وبين باريس أو
نيويورك غير واردة!

ضحك العم قره بيت وقال:

- لا! هذا كثير! عمك يا بني يعرف ما يقول، ولكن ما رأيك؟ يطردوننا؟
- إذا رفضنا التعامل مع منطق إعلامهم!
- وأين هذا الإعلام؟ الكلام في الإذاعة «صب بيطون»! (اسمنت)
- وفي غير الإذاعة؟
- الحال من بعضه!

- وما ترى أن نفعل؟

- الذي فعله غيرنا! لقد رحلوا، استدعتهم أحزابهم، ولكن نحن أرمن، فأين الحزب الأرمني الذي يستدعينا؟ عشنا في اسطنبول، كنت عضواً في الحزب الشيوعي التركي، وكان الحزب سرّياً، وظروفنا شاقّة، ولما كبر ابني انضمّ إلى هذا الحزب أيضاً، وهو الذي أرسلنا إلى هنا، لكنه، الآن، في وضع صعب، لا يستطيع أن يفعل لأجلنا شيئاً، والعودة إلى تركيا تعني العودة إلى السجن، هل نفعلها، بعد هذا العمر، هل أموت كالكلب في إحدى الرنانات؟ قل أنت!

تأثرت جداً. «وكل غريب للغريب نسيب»، نحن أنسباء، العم قره بيت أبي، زوجته أمي، ابنه أخي، وفي الوضع الذي نحن فيه، نحس جميعاً، بالعلاقة الإنسانية الحميمة، وقد أحنّني هذا العجوز الضاحك، الساخر رغم المصاعب، الشاعر، مثلي، بتراجيدية وضعنا، دون أن يكون في وسعنا أن نفعل شيئاً إذا ما طردنا، وخاصة أنا، الذي لا يحمل ورقة واحدة، يستخدمها في تخطّي حدود الصين، ولا يستطيع أن يلجأ إلى سفارة بلاده، الهارب منها في هذا المنفى الاضطراري الذي يعيشه في الصين. قلت للعم قره بيت:

- أنت لك أرمينيا، وعلى جاك أن يسعى للذهاب إلى هناك، عن طريق السفارة السوفياتية!

أجابني:

- هذا ما نسعى له، والأمل الوحيد الباقي يتمثّل في نجاح هذا المسعى.. وأنت؟!

- لم يبتؤا في أمري بعد، وضعي صعب جداً! لا أملك أيّة وثيقة تثبت شخصيّتي، القدر يلعب لعبته المعروفة معي، لكنني لا أبالي، هناك مثلاً عربي يقول: «أنا الغريق فما خوفي من اللبل!»

وضع العجوز قره بيت ذقنه على مقبض عصاه، فكّر قليلاً، تجهّم وجهه، قال بنبرة غضب:

- نعم يا بني، نحن، جميعاً غرقى، ولكننا لا نستحقّ أبداً هذه العقوبة، بعد هذا النضال الطويل الشاق.. لست بخائف، وممّ أخاف؟ إلا أنّ العقوق

حكم جانر، هل تعرف من عَلم الآخرين، في الشرق والغرب، الاشتراكية؟
نحن الأرمن!

- أعرف هذا، بالنسبة إلينا، في سورية ولبنان، الرفاق الأرمن، في
اسكندرونة وبيروت، كانوا الأوائل، ولهم فضل كبير، من الجحود نكرانه.
- وكذلك الأمر في فلسطين، وحتى مصر والعراق، ولا تنسَ تركيا
وإيران، الأرمن منْ نُقِل، وبشَر، بأفكار ماركس وانجلز، في كل هذه البلاد،
وفي روسيا ذاتها، قبل ثورة اكتوبر!

لم أقتنع بهذا التعميم. لا أنكر أحقيّة الرفاق الأرمن الأوائل، إلّا أنّ
مبالغة العجز دافعها الاعتداد، ومن الإنصاف، والإشفاق أيضاً، الا
أسلبه بعض هذا الاعتداد، وهو عزّاه الوحيد في شيخوخته. وعندما
نهضت مودعاً، طلب مني البقاء لناكل معاً، وأصرّ على ذلك، فقبلته، في
وجهه ويديه، وكان هذا آخر العهد به، فقد كنت معتكفاً في بيتي، وقيل لي
إنّ عائلة العم قره بيت سافرت فجأة إلى موسكو، وسررت لذلك سروراً
بالغاً، لأنّ الطريق إلى يريفان يمر بالعاصمة السوفياتية! هكذا، بعد
رحيلهم بقيت وحيداً، إلّا أنّ المصادفة، أو رحمة السماء، أنقذتني من
وحدتي، فقد التقيت، في النادي، بشابّ يلعب البليارد بشكل بارع، يتكلّم
اللغة الفارسية، مع رفيق له، ولما انصرف الذي كان يلاعبه، التفت اليّ
وقال بالروسية:

- هل تلعب؟

أجبتة بالعربية:

- لا أتقن هذه اللعبة!

ردّ عليّ بالعربية، مع لكنة واضحة:

- أنت عربيّ؟ هذا جيّد! من أيّ بلد؟

- من الشام!

- شام شريف؟! أهلاً فسهلاً...

- وأنت؟

- من إيران، مدينتي تبريز!

تصافحنا، ترك عصا البليارد وقال:

- تعال! اسمي حسن، حسن بيجاري، وأنت؟
- زبيد!
- أهلاً وسهلاً بأمة العرب، ما رأيك بكأس من الفودكا؟
- موافق!
- شرب كأسه دفعة واحدة، وبعد ذلك جرعة قليلاً من البيرة، سألني:
- لماذا لم تسافر مع الرفاق العرب؟
- أسافر إلى أين؟
- كيف هذا «إلى أين» يا أخي؟ إلى البلد الذي يختاره لك حزبك.
- أنا مطرود من الحزب!
- لماذا؟

شرحت له وضعي بأمانة، اصغى إليّ وهو يشرب الفودكا ومعها البيرة، كان لطيفاً، شهماً، أخبرني أنه من الحزب الشيوعي الإيراني، وأنه كان ضابطاً في الجيش برتبة نقيب، فلما وقع الانقلاب على مصدق، ذبح الجنرال رازمارا، قائد الانقلاب، مئة وخمسين ضابطاً، أما هو فقد نجا بالهرب إلى باكو، ومعه زميله ورفيقه الذي كان يلعب معه، واسمه فهمي جهانكينز، وكان ضابطاً أيضاً، وأضاف أنه انتقل من باكو إلى موسكو، وحصل على الدكتوراه في علم الاجتماع، وهو يجيد الروسية والتركية، وكذلك صديقه فهمي، وعقب تحرير الصين، أوفدهما الحزب إلى بكين، حيث يدرّسان، هو وفهمي، اللغة التركية، وقال إنه أعزب، أما فهمي فإنه متزوج، وينادونه «أبو بابك» على اسم ابنه البكر، وأن من الضروري أن نتعارف، وقد سافر بعض رفاقه الإيرانيين، بناء على طلب الحزب، والباقيون ينتظرون أن يُسحبوا بدورهم. وقبل أن نفترق، أعطاني رقم سكنه، وهاتفه، وقال لي، همساً:

- أنت، يا أخي، غير مخطئ... أنا كنت في الاتحاد السوفياتي وأعرف! أجبت:

- لكنني، أنا، لست ضد الاتحاد السوفياتي، ولست ضد الصين.

- أفهم! أنت في وضع صعب، وأنا أحب أمة العرب، لذلك أنت رفيقي وصديقي، تعال، في العصر، إلى المسبح، ساكون هناك، وكذلك فهمي، هل تحب الطعام الإيراني؟

- أنا أكل في المطعم الصغير، قرب بيتي، وأعمل في إصلاح ترجمة كتاب نظري، لذلك نادراً ما أخرج من بيتي!
- اللعنة على البيت يا أخي، في المسيح جميلات أجنبيات، هل عندك صديقة؟
- لا!

- ولماذا؟! المرأة، يا أخي «ضرورية» للرجل الأعزب مثلك، هل أنت قوي؟ طبعاً! كيف يعيش الرجل القوي من غير امرأة؟ اشرب الفودكا، ألا تحب الفودكا؟
- أفضل الكونياك!

- جيد، وهل تتكلم الانكليزية؟
- والفرنسية أيضاً، وقليلاً من اللغة التركية!
- أنت، يا أخي، «كوزال كنج» (شاب جميل) وتعرف كل هذه اللغات، وتنام وحدك؟ اسمع! سادعوك إلى بيتي، وأعرفك ببعض النساء.. «قورقُما» (لا تخف) «بطالٌ أولما» (لا تكن عبثاً!) أمة العرب بخير، وأيضاً الأمة الفارسية، رغم الذي أصابنا.

- لكنني، يا رفيق حسن، سأرحل قريباً، وقد شرحت لك وضعي.
- هذا، يا أخي، لا يهم! «بودنيا فاني دنيا» (هذه الدنيا دنيا فانية) كن، كيف أقول؟ جسارة!
ضحكت وقلت:
- كن جسوراً!

- هذا هو! لك قلب جسور؟ إذن كل شيء جيد.. تعال إلى المسيح.. إلى اللقاء!

رجعت إلى البيت أكثر ارتياحاً مما خرجت منه، هناك رفاق طيّبون، وقد نصبح أصدقاء حميمين، ومن يدري؟ حسن هذا شجاع، يعيش حياته كما ينبغي، تفهم موقفه، قال إنه مثلي، ليس ضد الصينيين، إلا أنه حزبي ملتزم، وكان في الاتحاد السوفياتي ويعرف.. يعرف ماذا؟ يعرف أشياء لا أعرفها، هذا مؤكد، إنه عاش التجربة هناك، ربما كان على حق، دعاني إلى الجسارة، فهذه الدنيا فانية، لا تستحق أن نأبه بها، أن نخاف منها، أن

نكون مائعين فيها، وقد أصغيت إليه بانتباه، لم أقل كلمة واحدة حول هذه الأمور، التي هي بعض صفاتي مع الأسف! لكننا في الشتاء، فماذا في المسبح؟ القاعة الرياضية الشتوية؟ الصونا؟ وماذا أيضاً؟

تذوّقت، لأوّل مرة، الطعام على الطريقة الإيرانية، في المطعم الكبير، كان قريباً من الطعام العربي. إنه سانغ. شربت الفودكا مع البيرة، انتعشت، اعتدل مزاجي، طلبت نفسي المرأة، قرّرت ان أتصل بالسيدة بورجرون، تردّدت، الغيت قرارتي، لو كانت بشوق إليّ، لاتصلت هي، ما جرى بيننا كان نزوة، نزوة لا أكثر، وأنا راحل، فما قيمة العلاقة إذا كانت عابرة؟ إذا كانت مع إنسان راحل؟ لا! «لم يبق من العمر أكثر مما مضى» وهذا الباقي لي، في العمر وفي الصين، لا يستحقّ عناء الارتباط بأحد، حتى لو كانت السيدة بورجرون نفسها.

ذهبت إلى المسبح، دخلت قاعة الرياضة الشتوية، كان حسن هناك، بدا منسجماً مع الجوّ، يمارس رمي الكرة الحديدية، رفع الأثقال، وبعد ذلك الصونا! عرفني إلى صديقه فهمي جهانكين، كان هذا، أيضاً، يعرف اللغة العربية قليلاً، يلفظها باللهجة الإيرانية، وقد راق لي «أبو بابك» الذي احتفى بي، وقال بالتركية:

- لماذا، يا صاحبي، تركوك وحدك، قليلو الأدب هؤلاء؟

أضاف:

- الرفيق حسن قال لي كلّ شيء، اعتبرني صديقك، هل تحب الفودكا؟

- اليوم شربتها مع البيرة، تناولت الطعام الإيراني، إنّه لذيذ، يشبه الطعام العربي.

- هل تحب النساء؟

فأجاني السؤال، ارتبكت، ضحك بطريقة خاصة وقال:

- إلى جهنم بكل شيء.. اشرب الفودكا، انكح الجميلات، لماذا أنت

خجول؟

«ماذا أقول له؟»

- هل تراني خجولاً؟

- بعظ (بعض) الشيء!

- اذن أنت، أيها الصاحب، لا تعرفني، لدينا مثل يقول: «الرجل يختبئ في ثيابه!» كم مرة دخلت انت السجن؟
- ولا مرة، كنت ضابطاً، لكن لماذا تسأل؟
- هكذا، ربما لأنني أريد معرفة القمع في إيران، بعد الانقلاب على «مصدق»!

- ما معنى كلمة قمع؟ ها! فهمت، هذه الكلمة في التركية، لها أكثر من معنى.. كانت الملاحقة، والسجن، والاعدام، بعد الانقلاب، شديدة جداً يومياً تقريباً، «رازمارا» كان جلاًداً، أنزل ضربة قاتلة بحزينا، لكنني، أنا، نجوت بالهرب إلى باكو، مع الرفيق حسن بيجاري.. القصة طويلة جداً، ما جرى للرفيق حسن جرى لي، وازداد وضعي صعوبة لأنني متزوج، ولأن عائلتي لحقت بي إلى باكو! نحن مشردون، وأنتم؟
- خسرنّا، في السنوات الأخيرة، بعض أفضل رفاقنا، من المناضلين الأشداء، ومنهم القائد الشيوعي البارز فرج الله الحلو، فقد مات تحت التعذيب، وذوّبوا جسمه بالأسيد! أما أنا فقد نجوت بطريق المصادفة، ووصلت منذ حوالى العام إلى الصين.
- اهلاً فسهلاً!

قال ذلك «ابو بابك» وعانقني بحرارة. دعاني إلى شرب قدح من الفودكا معه فاعتذرت، قلت له:
- لديّ شغل مستعجل، تحيّاتي إلى العائلة، وإلى الرفيق حسن.. بعد الرياضة «الصونا» تصبح ضرورية ومفيدة جداً.. إلى اللقاء.
عندما عدت إلى البيت، هيات فنجاناً من القهوة وكأساً من الكونياك، عملت حتى الفجر في إصلاح ترجمة الكتاب النظري، كانت الترجمة سيئة جداً، أخطاء فاحشة في المعنى وفي اللغة، لكنني وعدت، وكان عليّ الوفاء بوعدتي، وقد وفيت، فبعد إنجاز الكتاب، وهو صغير نسبياً، سحبت «فيش» الهاتف، اطفأت النور، سادت الظلمة لأن الستائر مسدلة، نمت نوماً عميقاً إلى الظهر، بقيت مستلقياً في فراشي، مسترجعاً أقوال الرفيقين الإيرانيين، حسن وفهمي، حمدت الله لأنهما نجوا من الإعدام، أه كم هي فادحة خسائر الشعوب، في كفاحها لأجل التحرر، لأجل التقدم، لأجل

الحرية، وتحقيق العدالة الاجتماعية! تذكرت عبارة لمارلو يقول فيها: «أندركون ما معنى أن يستمر الإنسان في الوجود، برغم كلّ عذابه، برغم (الغابة والليل والكون)؟! معناه، تمامًا، أن يستمر الإنسان في الوجود برغم الموت، ويبدو لي أحيانًا أنني أراهن على نفسي من ساعتى هذه...» هذا الكلام، في الحالة التي أنا فيها، ينطبق عليّ بشدة! إنني أعيش - فكرت - رغم الموت، وفي نوع من التحدي الدائم له، لكن إلى متى؟ إن «متى» هذه، هي الشعور بالضيق، بالملل، بالإحباط، وحين يكون علينا أن نواصل الكفاح، يكون علينا، بدقّة الكلمة، أن ننسى «متى» هذه، أو نحذفها من قاموسنا، وهذا ما فعله الرفاق السوفييات حتّى كانت ثورة اوكتوبر، وهذا ما فعله الرفاق الصينيون حتى تتوّجت المسيرة الكبرى، المدعّمة بنضال العمال العنيد في المدن، بالنصر الكامل، بعد التحرير الكامل، ثم التوحيد الكامل، لكل المقاطعات الصينية، التي كانت متباعدة متفرقة، متناحرة، يحكمها أمراء الحرب... وقد أدّى الفلاحون، الدور الرئيسي في المسيرة الكبرى، حتى ليتمكن القول، إنّ تحرير الصين قام به الفلاحون بدور رئيسي، رئيسي جدًّا، بينما كانت الماركسية - اللينينية، تؤكد أن دور الفلاحين، في النضال لأجل الاشتراكية، دور ثانوي، وحتى هامشي جدًّا! ولدينا، في سورية، مثال انطباعي، فبعض الأحزاب اليسارية نجح، حين اعتمد على الفلاحين، كسند رئيسي، وكان ذلك، تحديدًا، قبل تحرير الصين، والإفادة من تجربتها الثورية، لأنه ليس في سورية، البلد الزراعي، طبقة عاملة مثلما هي الحال في البلاد الصناعية الكبرى، وهذه حقيقة جعلنا نعيد النظر، نحن الذين في بلدان العالم الثالث، بالمقولة النظرية السانجة حول دور الفلاحين، والانتقاص منه!.

تعبت، حاولت، بصعوبة، كبّح حركة دماغي، فلو بقيت مستقلّيًا لبقيت متأملاً، في تداعيات ليست هنيئة، وليست بهيجة كلها، لذلك قفزت من السرير، تدوّشت، أعددت القهوة، ألقيت نفسي، كعود الند في مجمرة اللامبالاة العذبة، ولأنّه لم يكن ثمة بخور، فقد كنت أنا البخور، أتلاشى في دوائر سحب الرماذية، أطيّر على بساط هنا، مغزولة من الوهم، هذا الأجل، الأمتع، لأنّه وهم، ولأنّه منحني شعورًا، كذاك الذي كان يستشعره امرؤ القيس، حين قال: «اليوم خمر وغدًا أمر!» أخذًا الدنيا، من حولي،

مأخذ الذي يستلقي على طوف من خشب، تاركًا للريح والموج ان يتلاعبا به على هواهما! إلا أن هناعتي لم تطل، فقد هتف عبد القادر، يسألني ما إذا كان لدي وقت للحديث معه ومع الرفيق هادي، رئيس القسم العربي في دار النشر باللغات الأجنبية، حول مسألة مهمة! «مهمة؟!» أية أهمية هذه لرفيقين صينيين، ما إن تتكلم حتى يردّا: «سنبلغ القيادة» وهذه القيادة تعرف رأيي، موقفي، وضعي، رافضة أن تبت في مصيري، فكأنما ترغب في قتلي صبرًا؟! مع ذلك، وبسبب من إلحاح عبد القادر، وافقت على استقبالهما، دونما أدنى اكتراث، «بالمهمة العاجلة» التي هي إحدى مبالغات عبد القادر.

الرفيق هادي كان هادئًا كعادته، إلا أن عبد القادر، الضاحك قبل أن يضحك، داهمني بحفنة من الاسئلة العادية، حول الصحة، والسرور، والعمل، نثرها بلهوجة، وكحبات الارز رشها عليّ، دون أن يتمهل لسماع ردودي... قلت له:

- اسمع يا عبد القادر! ادخل في الموضوع رأسًا، دع الرفيق هادي يتكلم، وترجم أنت فقط.. ما هي هذه «المسألة المهمة» التي جاء لإبلاغي اياها؟
قال هادي:

- ليست هناك مسألة مهمة، نحن في وضع صعب، في دار النشر، لذلك نطلب مساعدتك، هذا كل ما هنالك!
سألته:

- لماذا لم يأت معك الرفيق سميح، من دار النشر، وهو يجيد الترجمة، بينما عبد القادر تابع للقسم العربي في الجامعة، ولا دخل له في مسألة النشر؟

قال هادي:

- عبد القادر هو الرفيق المكلف بكل ما يتعلق بك، وهو رفيق طيب، يمكن الاعتماد عليه.

- من الناحية الحزبية؟ أنا لم تعد لي علاقة بأي حزب، وموقفي، بخصوص التدريس في الجامعة، هو ذاته، اذن الكلام على ذلك لا ضرورة له!

قال عبد القادر:

- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ أنت مدرس في الجامعة، وأنا أحمل لك راتبك الشهري.

قال ذلك وناولني مغلفاً، رفضت قبوله، أصرّ، ارتطم إصراره بعنادي، قال وهو يضحك، ضارباً كفّاً بكفّ كعادته.

- ولكن كيف هذا يا أستاذ، أنت مدرّس، وهذا أجرك، فلماذا ترفضه؟

- لأنني لا أدرّس، ولا أستحقّ هذا الأجر، وأنا هنا لأداء عمل، لا لقبول المساعدة كما يتصور الرفيق ليو.. قل له ذلك بالحرف الواحد عن لساني.

تكلم هادي مع عبد القادر مطولاً، أعاد عبد القادر مغلف النقود إلى جيبه، بدا وكأنه صدم، قال هادي:

- نحن في وضع صعب، فقد سافر الخبراء العرب، من الأحزاب الشيوعية، ووصل بعض الخبراء غير الحزبيين، والمشكلة أنهم لا يجيدون الترجمة، وهم مبتدئون في هذه المسألة، لذلك لجأنا إليك، رفيق زبيد، لإصلاح الترجمات، وخاصة ترجمة مجلة «الصين» وبناء الصين، وبعض الكتب، المقررة في الخطة، وقد أوفدني، الرفيق تشن، مدير الدار، كي أشكرك على جهدك، وأطلب منك مساعدتنا، بشكل مضاعف، إلى أن يتم تجاوز بعض المصاعب، فما هو جوابك؟ نأمل أن يكون إيجابياً.

قال عبد القادر:

- ولكن هذا لا يحتاج إلى جواب، ولماذا، إذن، الرفيق زبيد في الصين؟

عبست: هذا ليس كلاماً يقال كيفما اتفق، نعم! أنا في الصين، وليس من حاجة إلى تذكيري بذلك، وأنا مدرّس في الجامعة، مُنقطع عن التدريس في الوقت الحاضر، وإصلاح ترجمات الآخرين مساعدة مني، لا فرضاً عليّ، وهذا الإصلاح أصعب من الترجمة ذاتها، ومباشرة، عن النص الإنكليزي أو الفرنسي، فماذا يظنّ عبد القادر هذا؟ ولماذا مصادرة حقّي في الرفض؟ وهل أنا باق في الصين لإصلاح ترجمات الآخرين، ودون حاجة إلى جواب، أو موافقة؟

ترجم عبد القادر هذا الكلام، وخبّص، كعادته، في الترجمة، إلا أنّ هادي يعرف الإنكليزية قليلاً، فكانت أتمدخل، عند اللزوم، لإفهامه بعض ما

استغلق عليه، وقد اعتذر عن الكلام الذي قاله عبد القادر، دون مراعاة لللياقة اللازمة، فأوضح أسفًا:

- موافقتك رفيق زبيد ضرورية ومطلوبة، ومن حقا أن يكون جوابك سلبياً لا إيجابياً!

قلت وقد قبلت الاعتذار:

- لا أريد أن أكون بديلاً عن رفاقي الذين سافروا، لأن هذا من الانتهازية.

قال هادي:

- كنت تساعدنا في إصلاح بعض الترجمات، قبل أن يسافر الرفاق العرب، ونرغب في أن تستمر المساعدة.

- ترجمات الرفاق العرب كانت جيدة، ولم يكن إصلاحها عسيراً، أما الآن، فقد تغير الوضع، إصلاح الكتاب النظري الذي انتهى أمس، عذبي كثيراً، وكان من الأفضل لي، لو ترجمته أنا مباشرة.

قلت ذلك وناولته الكتاب، مع إصلاح ترجمته العربية، فنظر فيها وراح يبتسم، وبعد عدة هزات من رأسه قال:

- أنت محق في ما تقول، علينا أن ننتبه بعد الآن، فلا نرهقك، غير أن مواد مجلتي «الصين» و«بناء الصين» في شكلهما الحالي، غير صالحة للنشر، ونأمل مساعدتك.. المواد معي، ما رأيك؟

- الترجمة عن أي لغة؟

- الإنكليزية!

- هذا يزيد في صعوبة الإصلاح، مع ذلك هاتها، تحياتي إلى الرفيق مدير الدار.

شكرني هادي، انصرف مع عبد القادر، وجددني معتكراً قليلاً، لا أدري ما السبب، ربما كان في اللاشعور، إحساس بتفاهة الحياة وعقمها، وبصعوبة حياتي في الصين من الآن وصاعداً، فالذين يأتون للعمل هنا، خليط من المغامرين والمرتزة، الذين يستغلون الخلاف بين بكين وموسكو، كي يأتوا بدائل عن الذين رحلوا، بدائل عن أصحاب المبادئ، هؤلاء الأعزاء الذين فارقتهم وفي القلب حسرة، رغم الخلاف بيني وبين بعضهم، لأن

الفكر الواحد، والموقف الواحد، والالتزام الواحد، كان يجمعنا، بخلاف المتملتقين الذين لا يؤمنون بأيّ مبدء، وليس لهم أي موقف والذين يتظاهرون، أو بعضهم على الأقل، أنّهم مع الصين وهم مع مصالحهم فقط، ولا يهتمّ بناء الصين في شيء، وقد تحدّثت مع أحدهم، وهو إيطالي يدعى أنجيلو فقال لي:

- أنا رجل مغامر، كنت سكران فدخلت بسيّارتي في الجدار، تحطمت السيارة كلها جنّت إلى هنا لأجمع ثمن سيارة جديدة، لأجمع بعض المال، من تجارة التحف، قيل لي إنك من هواة التحف الصينية، وإنك مطلع على تاريخ الصين، خاصة أسرة مينغ، فساعدني قليلاً، أرجوك، أريد تحفًا من أسرة مينغ!

ضحكت وأنا أشرب معه البيرة في النادي، كان طريقاً أنجيلو هذا. أرضتني صراحته؛ لم يقل إنه صاحب مبدء، لم يقل إنه جاء، كما يدعي غيره، للمساعدة في بناء الصين، جاء ليجمع المال، ليسكر، ليتذوق الطعام الصيني، وقد أسف لعدم وجود الزيت والزيتون والليمون الحامض في الصين، قال لي:

- لا بأس، يا صديقي المتوسّطي أنت، نستغني عن الزيت والزيتون وخلافه، لكن تحف أسرة مينغ ثروة حقيقية، قرأت عنها في مجلة إيطالية متخصصة بالآثار، فكيف أحصل عليها؟

قلت له بجديّة:

- الحصول على هذه التحف بسيط جدّاً!

صاح فرحاً:

- كيف؟!

- إمّا بشرائها من المتحف الوطني، أو بسرقتها، وبما أنّ المتحف لا يبيع التحف الثمينة، خاصة تحف أسرة مينغ، التي حكمت الصين قبل ٥٠٠ سنة، فلم يبق سوى سرقتها، إلّا أنّ المتحف الوطني محروس حراسة مشددة، وإذا وقع السارق في يد الشرطة الصينية، كان عقابه الجلوس على الخازوق!

غضب أنجيلو، ضرب الطاولة بقبضة يده! اهتزّ ما عليها من زجاجات

وكؤوس، وقعت منفضة السكائر الزجاجية، تكسّرت، فرقعت، ركض الكرسون الصيني وقد ظن ان هناك شجاراً، فطوّقنا الحادث بلطف، وقلت لانجيلو:
- يا صديقي المتوسطي، حسب تعبيرك، العريضة في الصين ممنوعة، والسكر ممنوع، والتحرّش بامرأة صينية ممنوع أيضاً، وعقابه السجن لمدة ١٥ عاماً على الأقل! هل تعرف هذه الأمور؟

امتقع لونه، سأل وهو يشرب نصف زجاجة بيّرة دفعة واحدة:

- وما هو المسموح اذن؟

- أن تتبول في سروالك!

- اللعنة! هل تمزح ونحن نتحدث في أمر مهم؟! كيف حصلت على التحف الصينية التي من أسرة مينغ؟
- سرقتها!

أطلق ضحكة مدوّية وهو يقول:

- وكيف لم يقبضوا عليك؟! تريد أن تمزح على حسابي؟ أن تجعلني اتخوّق؟ أنت، يا صديقي زبيد، لست إنساناً شريراً، أليس كذلك؟
- أحياناً؟

- كيف أحياناً هذه؟! الإنسان شرير أو غير شرير، هذه هي المسألة!

- أنا شرير ومغامر مثلك، ومع ذلك لم أفرّ بأيّة تحفة من أسرة المينغ!

- والعصا المينغية التي في بيتك؟

- هذه إشاعة، اطلقتها للتندر، فصدقها الآخرون.. لا بأس! سأعاونك في الحصول على تحف قديمة ذات قيمة أيضاً، لكن انتبه! حصولك على التحفة لا يعني أنّها صارت ملكك، بشكل قطعي!

- ملكٌ منّ إذن؟!

- ملكك ما دمت في الصين، أما عند المغادرة فهناك الرقابة الشديدة، وغالباً ما تمنع اخراج بعض التحف!

- يا للشيطان! ألسنت حرّاً بالتصرّف بملكي؟ بما اشتريته بنقودي؟! قل الحقيقة قبل أن يخرج عقلي من رأسي، اشرح لي هذه الشربوكة، حلّ عقدتها قبل أن أحطّم كل ما على هذه الطاولة! اسمع! أنا لست من هواة

حل الكلمات المتقاطعة! لنشرب، بعد، زجاجة أخرى، ما دمتنا أصدقاء، ومتوسطين أيضاً.

ضحكت، طريف جداً انجيلو هذا، لكنه لا يعرف أنني في ورطة، وأنهم قد يطردونني قبل أن أساعده في الحصول على التحف الصينية، وأنّ خبرتي بهذه التحف إشاعة مضخمة، بسبب تلك العصا الملعونة، وكى أختصر قلت له:

- التحفة ملكك ما دمت في الصين، فإذا أردت المغادرة يأتي العاملون في توضيب أغراضك ومعهم خبراء، لحاهم البيضاء تصل إلى سرتهم. وهؤلاء يعاينون كل قطعة معاينة دقيقة، فإذا وضعوا «الفتى» على قطعة ما، لوحة ما، طاولة خشبية ما، فمعنى هذا أن إخراجها من الصين غير مسموح به، ولو بلعت ماء بحرك المتوسط كله!

قال مهموماً:

- وما العمل؟ سبق وشرحت لك وضعي، ساعدني!
قلت:

- سأساعدك، سأدلك على طريق جمع الثروة التي تطمح إليها، ولكن في غير هذا المكان العام، في بيتك، أو بيتي، مثلاً، مفهوم؟
- مفهوم!

نهض متعتفاً، أحمر الوجه، ثقل اللسان، قبّلني وقال:
- مفهوم جداً يا صديقي، فكّر في مشكلتي، ساعدني على حلها!
غادرت النادي، كنت مسروراً وغير مسرور، كنت في حال ملتبسة، أقول في نفسي:

- «أه لو تعلم يا انجيلو! أيها المتوسطي الرائع، إنّ صديقك الذي تطلب منه حل مشكلتك، يبحث عمّن يحلّ مشكلته وهي عويصة جداً، رغم أنها لا تتعلق بالثروة، بل بمكان يرحل إليه، فقط لا غير!».

لم يجد زبيد، بعد خروج مارلين من عنده، رغبة في النوم، قرر أن يتعشى معها في المطعم، ويستأذنها بالرجوع إلى بيته، كي ينام في ضجعة كالتي تحدث عنها أبو العلاء المعري، ضجعة طويلة جداً، لأنه، حقيقة، مرهق جداً، يتمنى أن يغمض عينيه فلا يفتحهما أبداً.. ما جرى معه اليوم، كافٍ لتحذيره من مغبة السهر والعمل المتواصل، إضافة إلى تحذير مارلين وغيرها، إلا أن زبيد يشتغل عارفاً لماذا يشتغل وحياته، كإنسان، حقيقة بمقدار هذه المعرفة، التي معها وحدها يستشعر أن كرامته، كمناضل، تؤكد ذاتها، تصبح ممكنة في مياسرته إلى إفهام الصينيين، أنه جدير بصفة رفيق، التي حام حولها الشك، في بدء عمله في الصين، وما قيل، تصريحاً أو تلميحاً، عن الترسيات البورجوازية التي يحملها، رغم إدراكه، وإيمانه أنه ليس ثمة إيديولوجية صافية، نقية، في أيما إنسان، بسبب من اختلاط ترسيات الماضي، مع تأثيرات الحاضر، في النفس البشرية، ويتجلى هذا الاختلاط في الإبداع، أدباً وفناً، وكذلك في السلوك اليومي، قولاً وفعلاً، مع الاحتفاظ، إن أمكن، بالصفاء المنشود، الصفاء الثمين، العذب، الموجود لدى الصينيين، من خلال نكران ذواتهم في العمل، نكران الشعور بالفردة، ونبذ الفردانية في الحياة الجماعية التي يحيونها.

«أنا مثخن بالجروح من الداخل والخارج، ويمكن، بالدواء معالجة الجروح الخارجية، أما الجروح الداخلية، في الروح المعذبة، في هذه الغربة، فبأي دواء تعالج؟ يروني ضاحكاً، مرحاً، دون أن يدروا أن هذا الضحك ستارة لنزيف الأسى في الداخل» أضاف زبيد، وهو يتكلم مع ذاته بغير صوت: «ليس لأحد أن يحاسبني، لكنني، أنا، أعرف أن أحاسب

نفسى جيداً، أن أضع حداً لكل شيء: اللهو، الضحك، البكاء، الحياة، عندما أجد ذلك ضرورياً، بسبب من تفاهة العيش، حين لا أكون نافعا لأحد سوى نفسى، وحين يجرفني تيار ما إلى الضفة الأخرى، ضفة المتعة وحدها، والرفاهية على حساب تقشّف الآخرين، رفاقي الصينيين، رفاقي في كل بقعة من هذا العالم، هؤلاء الذين أنا سجين مع السجناء منهم، المعذب مع الذين يخضعون للتعذيب منهم، المحكوم بالإعدام، بالموت، مع الذين ينفذ حكم الإعدام فيهم كل فجر، وكذلك حين لا أحسن، بضمير حي، أن أحوّل ألمي الخاصّ إلى ألم عامّ، ألم الإنسانية المعذبة، التي حبها العظيم يضخه قلبي في شراييني كل ثانية، كل لحظة، فيكون هو الدورة الدموية في جسمي، وهو هذا الحب، بغير حدود، يرشح من مسامّ جلدي!»

انتفض زبيد فجأة، رفع رأسه المطرق، المُسند براحتيه، رجع من رحلة تأملاته التي صارت زاداً يومياً، في سفره الشاق الذي يتحول إلى اغتراب، سوف يصبح معه، الأصح أصبح معه، مغامراً، نهايته مفتوحة على كل الاحتمالات، منها التشرّد، الجنون، الانتحار، أو الارتفاع إلى الأعلى، ليصبح ذا مكانة مرموقة، وهذه الأخيرة خارج دائرة اهتمامه، ما دام يؤدي واجبه بأمانة وشرف وصمت، وأداء هذا الواجب هو الوحيد والممكن في غربته هذه، سواء اقنع الصينيين بأنه مناضل في سبيل الاشتراكية، أو لم يُقنع، ما دام، عند نفسه، راضياً عن سلوكه، الذي ليس إلى النسك، وليس إلى التهنّك، ليس إلى الزهد بمتاع الدنيا، وليس، أيضاً، إلى الطمع، مثل انجيلو، في جمع أية ثروة، كبيرة كانت أم صغيرة، فالأمران، ههنا، سيّان، وإذا ما كان يربح، الأمر لا يتعلّق بالخط، وإنّما بالعمل، بسهر الليالي، وبقدر ما يكسب ينفق، وهذا يصنع له بهجة، إطارها التمتع دون إسراف، ودون تقتير أيضاً!

دخل المطبخ ليعاين آثار فعلة مارلين، ضحك من التلوث الذي أحدثه فوران القهوة. وجد من الصعب جداً أن ينظّف السخّانة الكهربائية، الأرض، والجدار، أشعل السخّانة وأطفأها، رائحة احتراق البن لا تطاق، غداً صباحاً يأتي من ينظّف، حسب العادة، كل ما هو ملوث، إذن إلى الغد شربُ فنجان من القهوة ولن يقول لمارلين أية كلمة، مارلين العزيزة، التي تندى قلبه حناناً لما بذلته لإرضائه، بعد صدمة شديدة، غير منتظرة، تلقّتها

منه في غير أوانها، وقد كان عليه أن يجزي على الجميل جميلاً، فإذا به يعقّها، هي والحب الذي تكّنه له، وهذا ليس من الكياسة، ومن الأخلاق أيضاً.

وبينما كان يغسل يديه ووجهه، رنّ جرس الباب، خشي أن يكون هذا جيفرسون، تلكأ في فتح الباب، رنّ الجرس بقوة، مرة ومرة، فاضطر، والمنشفة على كتفه، أن يفتح، وإذا السيدة نلسون تبسم، ملتمة الشفتين، وتدلف إلى الداخل قائلة:

- هلو ماي دير» (مرحباً يا عزيزي) لماذا هذا الاعتصام وبيتك ليس بقلعة؟ هل لديك أحد؟ اشم رائحة أنوثة، عطر أنوثة، فإذا كانت لديك امرأة، كائنة من كانت، أنسحب، لأن هذا من اللياقة!

ابتسم زبيد وقال:

- حاسة الشم قوية لديك يا سيدتي، قد تكون هناك رائحة عطر، ولكن غير نسائي، تفضلي إلى الداخل، لا أحد هناك!
قالت السيدة نلسون:

- شكراً زبيد، عزيزي، على هذا الترحيب، لكن السيد نلسون، وأنت تعرف، يغار جداً، لذلك لن تكون زيارتي طويلة.. أما مسألة العطر فلا تجادل فيها، أنصحك كصديقة، وكصديقة اعترف: حب المرأة يعني تكريمها، فإذا لم يكرّم الرجل المرأة، يكون متخلفاً من الناحية الحضارية، وأنت إنسان متحضر.

قال زبيد وهو يشير إلى مقعد قرب مكتبه:

- أرجوك، عزيزتي، خذي مكانك، دخني من أي صنف ترغبين، ريثما أسرّح شعري، خلال ثوان!
- خذ وقتك، أنا هنا في بيتي، يقال إنّ لديك مجموعة من التحف، سألقي عليها نظرة سريعة، إذا سمحت.
- تفضلي!

قال ذلك من غرفة نومه، أسرع في تمشيط شعره، رتب بذلته، وضع قليلاً من الكولونيا على يديه، مسح بها وجهه، عاد إلى الصالون وهو يقول:

- تحف عادية جداً، سيّدة نلسون، ليس في بيتاخو أي محل لبيع التحف كما في بكين.

- ومن أين حصلت على هذه التحف الرائعة، التي تقول إنها عادية جداً؟

- من بعض المخازن العتيقة.. أي تحفة راقتك؟

- كلّها زبيد، عزيزي، غير أنني لا أكرّث بالتحف.. ولا بأوبرا بكين!

قالت ذلك وغمزت بعينها، انتقى زبيد تحفة قدّمها لها قائلاً:

- تذكّر مني! لا علاقة له بأوبرا بكين، التي لا أفهم منها شيئاً، مع أنها فن صيني راقٍ، فالتصنّم ثلاث ساعات، في مقعدي، يضجرني جداً، والمترجم لا يفيدني في معرفة ما يقال على المسرح، وهذا يزيد في ضجري، أحسب أنهم سيختصرون هذه الأوبرا مستقبلاً، وقد فاتحتهم في ذلك، وأخذوا ملاحظتي بجديّة واهتمام.. ما رأيك في كأس صغيرة من الكونياك؟

- جدّية؟ اهتمام؟ مستقبل؟ هذا كله لا يعنيني، أعيش يومي كما ينبغي، وهذا يكفي، أما هذه التحفة فإنها أكثر من تذكّر، أحس، من خلالها، إحساساً سعيداً، كأنني على موعد مع حدث كبير في حياتي، يتعلّق بك أيضاً، بدلالة هذه الهدية الثمينة..

- هذه لا شيء سيّدة نلسون، لنشرب على شرف صداقتنا!

- الراهنة أم المستقبل؟

- الاثنان!

- إذن أشرب هذا النخب بكل حبور، وأتقبّل الهدية الرائعة شاكرة، لكنني، يا صديقي، أحذرك من السيدة الأويس، هذه العجوز الشقراء المتصايبة.

- لا علاقة لي معها!

- مع ذلك، عزيزي زبيد، الحذر ضروري، حتى يبقى.. أوه! لا يحق لي، بعد، أن أقول تلك الكلمة، هل لي بقليل من الكونياك بعد؟

سكب لها كأساً، ومثلها لنفسه، ابتسم لها وهي ترفع أصابعها الجميلة، في حركة أوبرالية متقنة، قال:

- إنني مصغ إليك، سيدتي!

- هذه العائبة، السيدة الأويس، تحاول التقرب منك.. إنني لاحظ ذلك، لكنك، أنت لا تهتم بها، وهذا من الحس السليم، أنت، زبيد، صديقي وحدي، اليس كذلك يا عزيزي؟ قل أنت على حق..

- أنت على حق..

- إذن إليك هذا الخبر: انغرين، ابنتها، صديقة الدو الايطالي، هذه النازية تليق بهذا الفاشي! ماوتسي تونغ نفسه، كما أخبرتني سابقاً، يهتم شخصياً بالشبيبة الصينية، ولديه تساؤل حولها، حول تنشئتها ومستقبلها.

- تماماً!

- أمام يقظة كهذه، من الرئيس ماو، قائد الصين الشعبية إلى النصر، لا أهمية لكل ما يصدر عن انغرين والدو.

- هذا صحيح!

- لكن المسألة، عزيزي زبيد، ليست هنا! أنا لم أت لأتكم على سخافات مخلوقات منحرفة كهذه.. جئت لأتكم في موضوع جيفرسون، الذي يذوب كالشمعة، بسبب حبه لمارلين، ويهدد حتى بالانتحار، إذا لم تتزوج، وقد أدمن، بسببها، على السكر، والسهر، والبكاء، فكيف نساعد؟ كيف ننقذه قبل فوات الأوان؟ كيف نمد له الحبل ونرفعه من بئر الشيطان؟ أنت تحب، وتعرف عذاب المحبين، وأنا مثلك، فماذا نفعل؟

تنهد زبيد، رغب عن الكلام، هذا الذي تقوله السيدة نلسون، قالتها كثيراً دون جدوى، فما الفائدة من التكرار؟ مارلين تكره جيفرسون، تخافه، تتقزز منه، وهو، زبيد، عاجز عن اقناعها بالزواج من جيفرسون، ولن يقول لها: «أذهبى ونامي معه كيلا يجن أو ينتحرا» فماذا بعد؟ ولماذا تريد السيدة نلسون تصديق رأسه بترهاتها، التي هي ترهات تنفي نفسها بنفسها؟! أو ترهات تخلقها، لتخلق بها، كي تكون هي ذاتها؟!!

قال زبيد:

- ما هو المطلوب مني سيدة نلسون، غير الذي تعرفينه؟

- أوه عزيزي زبيد، كيف تقول هذا وببذك كل شيء؟

- ليس في يدي إلا أن أصير قوَّادًا لجيفرسون، وهذا ما أرفضه حتى الموت، إنَّني، في الصين، كي أعمل، وكي أعمل فقط، وفي وسعك أنت، صديقة الطرفين، أن تقومي بما لا أريد القيام به أنا، قولاً واحداً!

- والحبل والبئر؟

- والمشنقة والأنشودة؟

- أنا لا أفهمك عزيزي زبيد!

- أنت، عزيزتي، تفهمين جيداً، فأنا لا أعرف عذاب الحب، لأنني لم أحب عمري كله، ولست معنياً بجمع رأسين على وسادة واحدة، فهذا دور الخاطبة، كما يقولون عندنا، والتهديد بالانتحار معناه اللانتمحار، لأنَّ من يُقدم على فعلة كهذه، كمن يُقدم على القيام بثورة، فهل سمعت يوماً بإعلان يقول فيه صاحبه، إنَّني سأقوم بثورة؟! لنكن منطقيين قليلاً، ولندع الغزل على مغزل مكسور!

- وكيف نحقق إنسانيتنا؟

- بأن ندع الناس يعيشون حياتهم وفق أمرجتهم!

- أقول لك إن جيفرسون في بئر، وإن علينا أن نرفعه بحبل، فتسخر مني بقولك «المشنقة والأنشودة» كيف تفسر هذا؟

- تفسيره يسير سيِّدة تلسون، من يرفع الناس بحبل، هو من يفك حبل الأنشودة، أي يكون صاحب سلطة، في الرفع والحل. ولست بصاحب سلطة من أي نوع. والأهم أن لا سلطة لي على أحد، ولا على مارلين نفسها، وأحسب أنَّ كلامي واضح!

- هل تدعوني، هذا المساء، للعشاء معك؟ لاحظ أنَّني أهين نفسي بطلب كهذا، ولم يسبق لي أن فعلت مثله أبداً، إلا أنَّ زبيد، عزيزي، يفهمني كصديق مخلص، لا أجد حرجاً من أي نوع، معه.

- هذا يسعدني جداً، إذا ما كان الأمر بعيداً عن جيفرسون، وعن تصرفاته الرعناء!

قالت السيدة تلسون:

- ولكن جيفرسون يموت، ويستحق زيارة منك، كرمي لخاطري.. علينا أن نخرجه من البيت، وأن نشعره ببعض الحنان، ألسنت معي؟

- معك تمامًا، إذا ما كانت زيارتي له مفيدة، بأي شكل.
- مفيدة جدًا، وهو الذي طلبها بنفسه.. أقول لك إنه يذوب كالشمعة،
ولا يقوى على شيء لشدة هزاله، وأعرفك طبيبًا ورحيمًا، هيا بنا إليه.
ذهبنا إلى جيفرسون، كان الباب مفتوحًا، وكان هو مستلقيًا على فراشه
وفي فمه سيكارة مشتعلة، وقد دهش زبيد من الهزال الذي اعتراه، ومن
ذقنه الطويلة الشعر، على غير المعتاد، وعينيه الغائرتين، وزجاجات الفودكا
الفارغة، المتناثرة هنا وهناك، والفوضى في كل ركن، كل مكان: المدخل،
المكتب، الثياب، الأوراق، سواء في الصالون أو غرفة النوم، لأنه لا يسمح
للمكلفين بتنظيف البيوت، وترتيبها، بالدخول إلى بيته، ولا يذهب إلى المطعم
أو يطلب طعامًا، ولا أحد يدري من يأتيه بالفودكا، وكم يشرب منها في
اليوم الواحد، وقد عرف زبيد كل هذا منه، حين أجاب عن بعض أسئلته،
بعضها فقط، وهو ينظر إليه بانكسار، بحياء، وينوع من التوسل، كأنه
يقول: «أنقذني!»

عزَّ على زبيد، فعلاً، هذا المنحدر الذي صار إليه جيفرسون، هذا الذبول
لغرسه شباب يانع، بادهها عاصف سموم من العشق، لا شفاء منه إلا به،
وقد شفى الوجد جيفرسون حتى صيَّره خيالاً، والدواء قريب بعيد، في
المتناول، وفي النائي، كالسراب الذي تخال نفسك ادركته، وحين تمضي
للقياه، والظلم يشوي حلقك، تجده قد ابتعد، في لعبة إغراء، لعبة استجرار
إلى الموت، وأنت، في تيه البید، لا رجاء لك في الخلاص من هذا التيه إلا
بالماء، إلا بقطرة من السماء أو ري من الأرض، والسماء ممسكة، شحيحة،
ضئيلة بهذه القطرة المحيية، المميته، كريمة بشمسها الساطعة، التي يربو
قرصها، كالعين النارية المدورة، حرارة تعالجك بالكي الحارق، كما تعالجك
البیداء برملها المتحرك، الملتهب، المتجمَّر، وأنت تمشي في حقل من هذا
الجمر إلى غاية هي لا غاية، هي السراب يناديك إلى الضياع الأبدي.

فكر زبيد: «جيفرسون دخل لعبة السراب، منذ دخل لعبة الحب
المستحيل، جيفرسون ضاع، أو هو على وشك الضياع، وأنت إنسان تود،
لو تستطيع، أن تفتدي إنسانًا يموت بين يديك، إلا أن الفدية ليست في
حوزتك، إنها عند نسل أفعى، تراوغ، تفج، تنتقم لضعفها الذي هو دهر

من القهر الذكوري، وهي بنت حواء، تأخذ ثأرها متسللاً إلى جدتها الأولى، وكل محاولة لاستدراار عطفها، لانعاش حس الإشفاق فيها، تبدو باطلة، لأنها، الأفعى، كما قُتلت مصممة على القتل، وهي، في استثارة عدوانيتها، إنما تدفع عن نفسها، تقتل الصل الذي استنزف دمها طويلاً، وسيظل يستنزفه إلى أن يقتلها، وفي تحصنها ضد هذا المصير، لا تبالي، قصداً، وعمداً، بمصير الآخر، عدوها!»

انسحب زبيد من غرفة النوم إلى الصالون، كي يدخن، يفكر، يبحث في دماغه عن وسيلة لإنقاذ جيفرسون، وقد لحقت به، بعد قليل، السيّدّة نلسون، بكت وهي تقول له:

- هل رأيت؟

أجاب زبيد بتأثر واضح:

- نعم! رأيت!

- هذه جناية من؟

رد زبيد بجفاء:

- أنتِ أدرى!

قالت السيّدّة نلسون وهي تبكي وتدخن:

- جنايتك!

نبض عرق الغضب بين حاجبي زبيد، قال بقسوة:

- سيّدّة نلسون! تُغلّقين فمك أو أغادر هذا البيت؟ كنتُ، دائماً، لطيفاً معك، ويبدو أنني كنت مخطئاً في لطفي، ما تقولينه سخف، وما كنت، يوماً، مبالياً بسخف الآخرين!

حاولت السيّدّة نلسون إصلاح هفوتها فقالت:

- أوه! عزيزي زبيد، ألا ترى دموعي؟

- لا شأن لي بدموعك، فريتك تتطلب الاعتذار!

- إذن أعتذر، لم أقصد!

- بلى! أنت تقصدين، وانت كذلك، تعرفين جناية من هذه، فلماذا تتهمين إنساناً عدوك صديقة، واحترمك على هذا الأساس؟! إن نسكر فليس معنى هذا أن نهذي، كوني عاقلة، فكري قبل أن تتكلمي وليس العكس!

سألت السيدة نلسون، وقد أعادتها قسوة زبيد إلى حالة الصحو:
 - لماذا ردة الفعل هذه كلها، هل أستحق، عزيزي زبيد، هذا الكلام الجارح؟ قل أنت!
 أجاب زبيد:
 - ردة الفعل تكون على قدر الفعل، والحال ذاته في الكلام والردّ عليه..
 تحسبين أنّ هذا الافتراء يهمني في شيء؟ أنت لا تعرفيني إذن!
 - أعرفك، صدقني أعرفك، أنت نبيل، كريم، مخلص، لا تؤذي أحداً، لكنك تردّ الأذى عن الآخرين، بطريقة ليست صائبة دائماً!
 - ومن هذا الذي رددت الأذى عنه بطريقة غير صائبة!
 - مارلين!
 - وماذا فعلت مارلين؟
 - إنها الجانية، وبقسوة رهيبة، رحمتك يا رب!
 - الرب الرحيم مع الحق، والحق، في كل هذا الذي جرى، ويجري، على مَنْ؟
 - على مارلين! إنها تحبك أنت، لذلك تكره جيفرسون! هذه هي الحقيقة، عزيزي زبيد!
 أشعل زبيد سيكارة، قال بهدوء:
 - أرجوك، سيدة نلسون، أن تصغي إليّ.. أنت سيدة مجتمع، وأنت فنانة مشهورة، ولك، كما للآخرين، تجاربك الخاصة، فهل حدث، في أي وقت، أن أرغمتِ على الحب؟
 - أبداً! هذا منافٍ لطبيعة الحياة، وللحس السليم!
 - وهل حاول أحد، وأنت في الشباب، أن يفعل معك، كما يفعل جيفرسون مع مارلين؟
 - نعم! حاول كثيرون، وصددتهم.
 - فإذا لم يراعوا عن ملاحظتك، أو عن التهالك عليك، فماذا يكون موقفك؟
 - الصّدّ بقسوة، وباحتقار شديد!

- لماذا، إذن، لا تقيسين الأمور على نفسك؟ وماذا لو جاء أحد وقال
عنك إنك جانية، بسبب صدودك؟

- اوه! عزيزي زبيد، كفى تقريع! أعرف جيداً إلى أين تريد أن تصل،
لكن الحب ليس معادلة رياضية، يحلها الأبرع.. الحب، عزيزي، مسألة
أخرى، لا يقاس عليها بمقياس واحد، في كل مكان وكل زمان، فإذا لم تكن
أنت الجاني، وهذا مؤكد، وإذا لم تكن مارلين الجانية، فمن الجاني إذن؟
قال زبيد بحسم:

- جيفرسون نفسه!

- وماذا يفعل إذا كان يحب مارلين؟

- وماذا تفعل مارلين إذا كانت لا تحبه؟

قالت السيدة نلسون:

- رجعنا إلى الحلقة المفرغة؟

قال زبيد:

- والخروج من هذه الحلقة بسيط، إذا ما كان جيفرسون في صحة
عقلية تامة..

- كيف؟

- أن يتماسك، أن يحاول، ويقوة، أن يحفظ كرامته، أن يُحرر إرادته من
ارتهانها لشهوته، فليس من عيب يلحق بالإنسان، أفدح، وأخطر، من ترك
شهوته تستعبده، وقد ترك جيفرسون شهوته تستعبده، ولم يعرف، في
الوقت المناسب، أن يدوس على جرحه القلبي، فكانت النتيجة كما ترى..
صاحت السيدة نلسون فجأة:

- زبيد! انظر! الدخان يتصاعد من غرفة جيفرسون.. يا للهول! يا
للمصيبة! ماذا نفعل!

ركضاً إلى غرفة جيفرسون، كان الدخان يتصاعد من القميص، من
الفراش، والدخان يملأ الغرفة، فبادر زبيد بإلقاء حرام على موضع النار،
وبعد أن نجح بإطفائها، هتف إلى الإدارة أن تبعث فوراً بسيارة الإطفاء، لأن
حريقاً شَبَّ في البناية رقم ١١، وبعد ثوانٍ سُمع زعيق سيارة الإطفاء، وتبعثها
سيارة إسعاف، وكان الدخان لا يزال يتصاعد من الفرّاش، لأنَّ ثَمَّة ناراً تعسَّ

في القطن، فنقلوا جيفرسون من غرفته إلى الصالون، وسلطوا خرطوم الماء على مكان النسيب، وجاء ممرضان بنقالة، وضعا عليها جيفرسون، وحملاه إلى سيارة الإسعاف، وراح الزعيق يدوي، إلى أن بلغت السيارة المستشفى وأدخل جيفرسون إلى قسم معالجة الحروق، ووضع، بعد الإسعاف الأولي، في غرفة العناية المشددة، وأبلغ زبيد، من قبل مدير المستشفى، أن حروق جيفرسون من الدرجة التي لا تشكل أي خطر على حياته.

اليومية الرابعة والعشرون ١٢ كانون الثاني ١٩٦١

«هل أفكر في مكان أرحل إليه» هذا هو، ولا شيء غيره! خابت الآمال يا زبيد، قد كنت عزيزاً بأمالك، فكن عزيزاً أيضاً بخيبتها، فالرجل، في الفرج، يظل غير ممتحن، أما الرجل في الشدة، فإنه ممتحن، والنجاح يأتي على قدر الصمود، وانت صامد، إذن ضع رجلك في الأرض، أمناً جميعاً، اغرزها عميقاً وبقوة، وعندئذ، كما في الأسطورة، لا تُقتلع، لا تُغلب، رغم أن سلاحك، في هذه المعركة اللامتكافئة، سلاح مفلول، حتى لكأنك أعزل وهم مدججون، ولم يتبق لك إلا الصبر، وصبرت، صابرت، بقدر ما في وسعك، والجواب، من القيادة، لم يأت، وقد لا يأتي، فماذا أنت صانع؟ «العدو من أمامك، والبحر من ورائك، وليس لك سوى الموت» والموت يأتي مجازياً هذه المرة، قاهرًا، شرسًا، وسفنك كلها احترقت، فكيف تبخر؟ وإلى أين؟ أنت يا زبيد شجرة عارية في الشتاء، وأصابعك التي هي أغصانها، مرفوعة إلى أعلى، ولكن كيف؟! في ضراعة؟! لا! إنها مرفوعة بشموخ من يعرف، ويثق، أن سعد السعود أتر، وفي سعد السعود يجري الماء في العود، حسب المثل الشعبي، وحين يصير ذلك ستخضر أغصانك، أناملك، وستزهر، وتورق، ويكون لك منها ثمر كثير! غداً يأتي الربيع، وويله الصيف، وسيأتي الربيع وويله الصيف كرة أخرى، فعلام العجلة ومعها الندامة؟ لديك زادك من البن، والكونياك، وفي جيبك بعض المال، وتحت فخذك امرأة في سن النضج، وهذا يكفي! نعم يا زبيد، هذا يكفي، والحدود التي سترمي خارجها، لها استدارة قوس قزح، فلا تخش المطر صبيحاً، ولا تأبه للبلل، لأن الأرض، أرض هذا العالم، بحاجة إلى دموع السماء الغزيرة، كي تغتسل، وتطهر!..»

فجأة اندفع زبيد خارج بيته، خارج تأملاته، خارج سجن دائرة الفكر، التي هي ذاته! مشى على مهل، خطأ بثبات، لعلمه أن ذاته معه، داخله، ولا سبيل إلى الخلاص منها أبداً، ومن الجنون أن يركض فتركض معه، ومن العقل أن يحتملها، بغير ضيق بها أو منها، لأنها هي هو، وفي هذا التوحد الجبري، هذا الاتحاد القسري، الذي ينتهي على حافة حفرة ما، لا يدري أين، يكون خلاصه بالموت، وحين ينزلونه في حفرة، يعيش العدم ظلمة مطبقة، ويعطي جسده وليمة للديدان، تنغل فيه إلى أن يصبح هيكلاً عظيماً، إنمّا عليه، هو زبيد، ألا يفكر بهذا الآن، الآن بالذات، وأن يتحمل، بكبرياء صبر، كل آلامه الراهنة!

لسوء حظه، كان النادي، قبيل الظهيرة، خالياً، وفي هذا الخواء الذي صار إليه، بعد رحيل الخبراء السوفييت، ومن تضامن معهم وتبعهم، من خبراء الأحزاب الأخرى، بدا النادي موحشاً، كئيبيّاً، مغلفاً بالصمت، بدا أكبر من حجمه، على سعة حجمه، وقد اغتال، في وحدانيته، ما تبقى من فرح في ضلوع زبيد، رغم أن هذا النادي أصبح ملكه، أضحى له وحده، وفي ميسوره أن يفعل فيه ما يشاء، وكيف يشاء، إذا ما غادره إحساسه الداخلي بأنّه في خرابة، ولأنّ هذا الإحساس لازمه، وتفاقم مع مرور الثواني والدقائق، جرّب أن يتمرن على لعبة البليارد، أن يلعب نفسه، ويعود، كرة أخرى، إلى الكلام مع نفسه، دونما صوت، دونما همس، وفي إسرار، بين العاطفة والعقل، منشئاً من هذا الكلام الذي لا يقال، لا يسمع، عالماً شرنقيّاً، يضيق، ويضيق الخناق عليه، مؤلفاً منه وطناً، هو الذي لا وطن له، إلى أجل غير مسمى!

فُتح، أخيراً، باب النادي الرئيسي، دخل إنسان، اقترب هذا الإنسان من زبيد وهو يقول حقياً:

- السلام على أمة العرب!

رد زبيد:

- وعلى أمة الفرس رحمة الله وبركاته!

قال حسن وهو يصافحه:

- كيف أنت يا أخي؟

- بخير يا صديقي.
- عدت إلى التدريس في الجامعة؟
- لم أعد بعد، وقد لا أعود أبدًا!
- لماذا؟
- اسأل القيادة!
- ضحك حسن وقال:
- ولكن أنا لست رقيقًا صينيًا يا أخي!
- إذن ما رأيك بكأس من الفودكا؟
- إنا لا نشرب قبل الطعام، هذا ليس جيدًا.
- وما هو الجيد؟
- المرأة!
- قبل الطعام؟
- في كل وقت! إذا كنت قويًا كمثلي!
- أنت رياضي، وأنا ضعيف، أعني لست كمثلك!
- ابتسم حسن، ربّت على كتف زبيد وقال:
- يا أخي زبيد! الشيرازي قال: «الماء والخضرة والوجه الحسن!» وفي الدروجبا يوجد الماء والخضراء.. ويبقى الوجه الحسن، وهذا سهل جدًا، تعال إليّ، أعرفك على الوجه الحسن الذي تريد!
- وإذا سافرت مطرودًا من الصين؟
- متى؟
- لا أدري، لكنني أظنّ أن سفري أصبح قريبًا!
- وماذا إذا سافرت يا أخي؟ أنت لن تتزوَّج الآن، على كل حال!
- تقصد أن أتسلّى فقط؟
- نعم! كمثلي، أنت تعرف أنني لم أتزوَّج بعد، فلماذا هذا الرفض للتسلّى؟ ولماذا أنت غير منشراح؟
- لأنني أجهل مصيري!
- أعرف هذا، ولكن أنت، يا أخي، لست من الرهبان البوذيين، والدروجبا ليس فيها دير بوذي!

- في الدروجبا، يا حسن ما هو أقطع من الدير، وأنت تعرف!
- نعم! أعرف، ولكن لماذا «الانضباط» الكثير، كمثل «اليوز باشي»؟
تعال!

- إلى أين؟

- إلى بيتي!

- ولماذا لا نذهب إلى المطعم أولاً؟

- كما تريد، يا أخي، ولكن لماذا أنت خائف؟ «أرگكُ أوّل» كمثلي (كن رجلاً مثلي!)

نظرت إلى حسن، هذا الإيراني الطيب، هذا الضابط السابق، الذي نجا من مذبحه الجنرال رازامارا، قائد الانقلاب على «مصدق»، وتذكرت قول امرئ القيس «وكل غريب للغريب نسيب!» فكدت أعانقه، وأشرح له نفسي، كي يعرف من أنا، إلا أن الحياء منعني من الكلام، فسرت معه إلى بيته، وفي الطريق سألته:

- كيف عرفت أنني خائف يا حسن؟

قال حسن:

- أنت «مفكور» وقليل الكلام!

- وهل الشجاع يكون كثير الكلام؟

توقف حسن ونظر إليّ، قال وهو يربت على كتفي كعادته:

- أنا لم أقصد يا أخي زييد، هل أنت قليل الكلام هكذا دائماً؟

- كم مرة دخلت السجن يا حسن؟

ضحك وقال:

- ولماذا تسأل؟

- لا أدري، خطر لي أن أسأل فسألت، وأعتذر عن فضولي.

- هذا، يا زييد، ليس «فظولاً»: في رأسك فكرة تدور، وأفضل شيء، عندما تكون في رأسنا فكرة مزعجة، فكرة تدور وتدور، أن نوقفها عن الدوران، أن نلقي بها إلى الخارج فنستريح، أنت، يا أخي، تريد أن تعرف ما إذا كنت، يوماً، في السجن، وأنا أجيبك: لم أسجن في إيران، بلدي، سجنتم في أذربيجان، في سجن باكو، لأنني كنت جديداً، وكنت أعتقد، أن

الإنسان، في بلد اشتراكي، يستطيع أن يقول، وأن يتصرف، في جوّ كامل من الديمقراطية، لأنّ هذا ما قاله لنا حزينا الشيوعي في ايران وأنا صدّقت كمثلك!

- والآن؟!

- كما ترى، أنت كمثلي، تعيش في الصين بصفة خبير، فما رأيك؟ ولماذا أنت في البيت؟ لماذا تركت التدريس في جامعة بكين؟ لأنهم هناك كما عندنا في الإذاعة، يريدون أن نقرأ، على المستمعين، البيانات الحزبية، أن نصبّها في أذان الذين يستمعون إلى إذاعتنا، كما يُصبّ «البيطون»... ماذا يقال عن «البيطون» في العربية؟

- الاسمنت؟

ضحك حسن وقال:

- هذه كلمة لطيفة، لشيء غير لطيف، يريدوننا أن نسكب الاسمنت، ونحن نسكبه، وأظنّ أنه لم تبقَ أذن مستمع إلّا وقد سدّها هذا الاسمنت... كيف يُقال للاسمنت مع الحديد؟

- الاسمنت المسلّح!

- نعم! إلّا وسدّها الاسمنت المسلّح بشكل مُحكم! (بإحكام!)، والأمر هكذا في الجامعة أيضاً.. أما لماذا سجنت في باكو، فلأنّ اذربيجان إحدى الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، وباكو، كما تعرف، عاصمتها، وأنا كتبت أنه ليس في باكو ديمقراطية، فطبّقوا الديمقراطية عليّ، ولكن بشكل لطيف كمثلك!

قال حسن ذلك ضاحكاً، فضحكت، بدوري، للمحادثة، ولعبارة «بشكل لطيف كمثلك!» وقلت ونحن نتنزّه في الحديقة المواجهة للنادي:

- ولكن، يا حسن، لماذا لا ترفضون، كمثلي، إذاعة البيانات السياسية، أو تدريسها؟

- لأن حزينا لم يطلب منّا أن نرفض بعد!

- وإذا طلب؟

- نرفض!

- وإذا استدعاكم؟

- نغادر الصين!

- تفعلون ذلك عن قناعة؟

ضحك حسن وقال:

- وهل أنت محقق يا أخي؟ القناعة هنا (وأشار إلى صدره!) وأما ما نقوله فهنا (وأشار إلى فمه!) وأنا كمثلك.. قناعات يوق (غير مقتنع!) لكن الديسبلين (الانضباط) الحزبي، هو الخازوق، وأنت الآن تجلس عليه، فهل تريدنا كمثلك؟!

ضحكت بدوري وقلت:

- لا! لا أريدكم كمثلي، ولكن..

توقّف حسن مقاطعاً:

- .. ولكن أين الجسارة؟ هذا ما تريد أن تقول، وأنا أفهم ما تريد، أفهم إلى أين تريد أن تصل. أفهم أنك غاظم (غاضب!) عليّ لأنني قلت لك: «لا تكن «قورقان» (خويفاً!) وأنا أعتذر، هيا إلى البيت، بسرعة، لديّ موعد! أسرعنا، دخلت بيت حسن للمرة الأولى، أدهشتني التحف الصينية التي فيه، لكنها، وهذا ما أدهشني أيضاً، كانت جديدة كلها، ومن القطع الكبيرة، الصالحة لتأثيث بيت، في مكان آخر غير الصين، وبعد الزواج، ولما صارحت حسن بما فكرت فيه قال مبتسماً:

- هذا صحيح يا أخي! سأتزوّج قريباً، هنا في الصين، ومن فتاة صينية، ستتعرّف إليها بعد قليل!

صحت بعفوية:

- فتاة صينية!!!؟

- ولماذا العجب؟ نعم! فتاة صينية، وبمعرفة الصينيين وموافقتهم، وسيكون عرسنا في النادي.

فجأة طرق الباب، توقّف حسن عن الكلام، كنا نجلس في الصالون، ومن مقعدي فيه، سمعت فتح الباب، وكلاماً باللغة الروسية، فخيّل إليّ أنّها إحدى صديقاته، وأنني سأتعرف إليها، وأنّ «الوجه الحسن» الذي حدثني عنه قد هلّ علينا، فاتخذت الوضع الملائم، إلّا أنّ الوجه الذي أطلّ علينا، كان وجهاً صينياً، وبصوت أنثويّ، عذب، قالت الفتاة:

- اهلاً فسهلاً!

نهضت، صافحتها، تأملتها، كانت بشرتها الصفراء أقرب إلى السمرة، ولها جديلة طويلة، وعيناها السوداوان، الجميلتان، تبتسمان، وقامتها معتدلة، وقال حسن معرّفاً:

- خطيبتي لينا! صديقي زبيد!

قالت لينا وهي تبتسم:

- نيخا! (مرحباً)

- نيخا تونجي (مرحباً رفيقة)!

- «كفاريت روسكي»؟ تتكلم الروسية؟

هزئت برأسي أن لا، جلسنا، سألتني حسن وهو يضع يده على كتفي ويبتسم:

- ما رأيك يا أخي؟

- فتاة رائعة، أهنتك!

- شكراً!

ترجم لها حسن ما قلت فابتسمت، بانث أسنانها البيضاء، الناصعة، ظهرت غمّازتان في خديها وهي تبتسم، كانت تحفة صينية بحق، أطرقت حياءً لأنتي، كما خيل إليّ، جثت في وقت غير ملائم، قلت هذا لحسن فأجاب بشهامة:

- ولماذا يا أخي؟ هذه خطيبتي وأنت صديقي، وقد أردت أن تتعارفا،

فهل أعجبتك؟

- جداً!

ترجم حسن ما قلت، ابتسمت لينا، قالت:

- شي شي ني (شكراً) هل أنت من سورية؟ حدثني عنك حسن، وكذلك

حدثني عنك تشين لاو!

أجفلت! قلت بعد هنية تماسكت خلالها:

- أنا لا أعرف فتاة صينية بهذا الاسم!

أضفت:

- أنا من سورية أدرس اللغة العربية في جامعة بكين..

قاطعتني:

- وأنت الآن منقطع عن التدريس، احتجاجاً على البرنامج الدراسي!

تكلفت الابتسام، سألت:

- كيف عرفت هذا؟ من حسن؟

أجابت:

- ولماذا من حسن؟

- من الرقابة المفروضة عليّ، أنا الخارج على القانون؟

ضحكت لي، ضحك حسن، قال:

- ليـنا صديقة طيبة يا أخي، فلماذا تهاجمها؟

استشعرت حرجاً، رغبت عن الجواب، إلا أن ليـنا أنقذتني، قالت:

- أنت، يا رفيق، تعرف ظروف الصين!

قلت:

- وأقدرها أيضاً، إلا أن الموضوعي يظل موضوعياً.

قالت:

- هذا صحيح، وأنا، كصديقة، ألفت نظرك لا أكثر.. أنت حرّ في

التعامل مع أيّة أجنبية مثلك، إلا أنك غير حرّ في التعامل مع أيّة امرأة صينية.

- وإذا قلت لك إنني لا أتعامل مع أيّة امرأة أجنبية كانت أم صينية؟

- والسيدة بورجرون؟!

فوجئت! هل تكون ليـنا هذه (وهذا ليس اسمها الصيني كما أعتقد) من فرع الرقابة في الدروجبا؟ ولئن كانت كذلك، فهل عليّ الحذر في الكلام معها؟ أن تعرف أن السيدة بورجرون كانت عندي، فهذا سهل، ولكن أن تعرف، هي أيضاً، أن لي علاقة بتشين لاو، فهذا يعني أن الرقابة أشدّ مما كنت أتصوّر، لأنّ تشين لاو لم تهتف إليّ، ولم ألتقها بعد عودتي من مصيف شنتاو، فهل هناك تعميم بما جرى بيننا في البحر؟ وأين تشين لاو الآن؟ لا بأس! من اللياقة أن أنصرف، كيلا أكون عدوياً بين خطيبين... نهضت مودّعاً، قال حسن الذي كان ترجماناً بيني وبين ليـنا:

- لماذا تذهب يا أخي؟ قلت لك إن ليينا صديقة طيبة!
مددت يدي مصافحاً وأنا أقول:
- أثق بليينا، كما أثق بك يا حسن، إلا أن لدي موعداً، أنا الآخر.
قالت ليينا:
- أنا، تونجي زبيد، أعرف عنك كل شيء!
قلت:
- طبعاً!
- ولماذا طبعاً؟
أجبت بصراحة:
- لأن كل رفيق صيني في الدروجبا، يعرف عن كل أجنبي في
الدروجبا كل شيء!
قالت ليينا:
- لن أناقشك في هذا..
قاطعتها:
- النقاش، حول ما قلته، غير مجدٍ. إنني أعرف ما تعرفينه، وربما
أكثر!
أضفت:
- لكنني، بالنسبة إليك، واثق جداً، ومطمئن جداً، لأنك خطيبة صديقي،
ولأنه ليس لدي ما أخاف منه، أو عليه.. سايجين!
رفضت ليينا ترك يدي، قالت:
- أنت رفيق شجاع!
ضحكت، أجبتها:
- قل لي هذا لحسن!
قال حسن:
- ولماذا، يا أخي، تريد تعريفي بما أعرفه؟
- من ليينا؟
ضحك حسن وقال:

- لا! من الرقابة، أنا أيضًا عضو في فريق الرقابة الصيني!

ابتسمت وقلت:

- أنت شهم يا حسن، أنت صديقي لأنك رجل، بصرف النظر عن مدة تعارفنا القصيرة جدًا، وأنا، من تجاربي، أثق بالرجل الشهم، كما أثق بلينا، وأعرض عليها صداقتي، إذا رغبت، دون أن أنسى مراعاة الظروف في الدروجبا بخاصة، وفي الصين بعامة، قل، من فضلك، لينا، إنني رفيق جيد، وإنني، لهذا السبب، أدفع الثمن الآن!

عانقتني حسن، قبلني، تحير الدمع في مقلتي، شعرت، الآن، بدفع المودات، تأثرت لأن لي، في الصين، بعض الرفاق بعد، وأنني لست وحيدًا، وغريبًا، ومنبوذًا، وأن حسن، وكذلك فهمي، يعرفانني، وأنهما دفعا الثمن غالبًا مثلي، إلا أن وضعنا، في الوقت الحاضر، يختلف، فهما عضوان في حزبهما، يتلقيان التوجيهات منه، وهما باقيان في الصين إلى أن يُستدعيا، أما أنا فلست عضوًا في أي حزب، وأن علي أن أوجه نفسي بنفسي، لذلك قلت، وأنا أشد على يد لينا، بحرارة الصديق:

- قد لا نلتقي بعد الآن، شكرًا لعاطفتك الرفاقية تجاهي.

قبلتني لينا كما فعل حسن، قالت:

- سنلتقي كثيرًا تونجي زبيد، أنت ستبقى في الصين، لا لأنهم لا يستغنون عنك، بل لأنهم أيضًا، يقدرون المساعدة التي تقدمها لبناء الصين.. هذا رأيي الخاص، طبعًا!

- شي شي ني، سايجين! (شكرًا، إلى اللقاء!)

لم يكن في مصيف بيتاخو، وفي شوارعها خصوصاً، ازدحام في السير، أو ازدحام بالمشاة، يبرر زعيق سيارة الإسعاف، ومع ذلك أطلق سائقها زعيق بوقها لأنه اعتاد ذلك! سيارة إسعاف بغير زعيق؟! هذا، كما يبدو، يحط من هيبة الإسعاف، ومن رهبة السيارة، وربما، في ذهن سائقي أمثالها، من أهمية المستشفى، ومكانته، وقدره أيضاً! وقد دهش الناس، من المصطافين الأجانب، ومن الصينيين المتواجدين في المصيف، دهشاً بالغاً، لأنهم، جميعاً، لم يألّفوا حالة كهذه، ومن النادر جداً أن تقع حادثة كهذه، إلا أن يكون ثمة غرق، أو سكتة قلبية، أو انفجار في الدماغ، أو ميتة مفاجئة بكل بساطة. لهذا هُرع من سمع زعيق سيارة الإسعاف، أو رآها تنطلق بأقصى سرعتها، إلى المستشفى القريب، يسألون ما هناك، ومن المصاب، أو من الميت، فلمّا علموا أن جيفرسون، حسب الرواية الأولى، قد أحرق نفسه، أكد بعضهم لبعض أنه انتحر، وأشارت أصابع الاتهام إلى زبيد ومارلين، وقالت نغوين، بنت الأويس، لمن حولها:

- جيفرسون حُرّق ولم يحترق! هناك جريمة، فاعلها أحد اثنين: زبيد أو مارلين، وعلى الحراس الصينيين أن يقبضوا على الاثنين، قبل أن يتمكنوا من الهرب!

أيّدها في ذلك، زميلها الإيطالي الدوفقال:

- نغوين على حقّ، الجريمة واضحة، والمجرم معروف: إنّه زبيد! علينا، جميعاً، أن نذهب إلى الإدارة، ونطالب بالقبض عليه فوراً، لينال جزاء فعلته النكراء، وهو الإعدام شنقاً حتى الموت!

السيدة بورجرون، بشجاعتها المعتادة، صاحت في وجه نغوين النازية، والدو الفاشي قائلة:

- المجرم هو أنت يا الدو، أيُّها الفاشي القذر، يا حثالة شوارع روما، الذي خدعت الجميع، بمنّ فيهم رفاقنا الصينيون، وتسَلّلت إلى هنا، إلى هذا البلد الاشتراكي، كي تبث سموم أفكارك الخبيثة، المعادية، لا للاشتراكية وحدها، وإنّما للإنسانية كلّها معها.. أما نغوين، عشيقتك، فهي نازية، تقوم بمهمتك نفسها، وأين؟ في الصين! وسأدعي عليكما، فوراً، ولديّ معلومات لا تدحض ضدكما، وعندي شهود إثبات لإدانتكما، بصفتكما جاسوسين، تجمعان المعلومات عن الصين، لمصلحة المخابرات الإيطالية والألمانية.

أضافت السيدة بورجرون وهي تصرخ:

- اقبضوا عليهما، أو ساعدوني في القبض عليهما، أيُّها الرفاق الأجانب الشرفاء.

قالت ذلك وأمسكت بالفتاة نغوين، بينما توارى الدو، متسللاً بين المحتشدين أمام المستشفى، وعلى الأثر علت الضجّة، وحضر الحراس الصينيون، متدخّلين لتخليص نغوين من أيدي السيدة بورجرون، والطلب من الآخرين، بلطف أن يتفرقوا، أو يذهبوا إلى الإدارة معهم، والأفضل أن يعودوا إلى بيوتهم، أو إلى البحر، أو حيث يشاؤون، لأنّ الأمن العام الصيني ساهر، ويقظ، وهو من يتولّى أمور الرِّفاق الأجانب، موفراً لهم أقصى الطمأنينة.

في هذه اللحظة خرج زبيد، الذي رافق جيفرسون في سيارة الإسعاف، من باب المستشفى الرئيسي، فلمّا رأى تجمهر الناس، وقف على بسطة الدرج، وراح يستعرض الوجوه، واحداً بعد الآخر، متسائلاً، بينه وبين نفسه: «ماذا هناك؟! لماذا هذا الغضب البادي على وجه السيدة بورجرون؟ ولماذا يقف الحراس الصينيون، حائلين بينها وبين نغوين؟ ولماذا يشير إليّ السيد موريس بروك بالعودة إلى داخل المستشفى؟ وهل تحب الآنسة إيتوال بروك جيفرسون حتى تبكي؟! وأين ضحكة السيدة الاويس المعتادة؟ وكيف تأخرت السيدة نلسون، التي قالت لي، وأنا أركب سيارة الإسعاف إلى جانب محفّة جيفرسون، سألحق بك فوراً؟ هناك سوء فهم، هناك دسيسة، هناك حادث ما وقع لمارلين، وهذا هو سبب تخلفها عن

الحضور، أو ربما خافت أذى الآخرين، الذين يكرهونها، وقد يهجمون عليها، أو حتى يضربونها، إذن لا بد من موقف شجاع، ومن الكلام، إيضاحاً للموقف، حتى لا يُستغل إحراق جيفرسون نفسه، وتلقى التهمة على مارلين، التي يعرف الجميع قصتها مع جيفرسون!«.

الصمت الذي لم يتعمده زبيد، وهو يقف متصالب الذراعين على أعلى الدرج، أفاده وأساء إليه، في أن واحد.. بعضهم ظنّه خائفاً، وبعضهم نظر إليه نظرات يمتزج فيها الشر بالاحتقار، وبعضهم الثالث انتظر ما سوف يقول، وحين فتح زبيد، أخيراً، فمه للكلام، وهو يشير بيده طالباً الهدوء، صاحت نغوين:

- هذا هو المجرم، هذا هو الذي أحرق جيفرسون، فاقبضوا عليه حتى لا يهرب.

رد زبيد بهدوء، برياطة جأش، وباللغة الإنكليزية التي يعرف أن الاكثية تفهمها، وخاصة الرفاق والحراس الصينيون:

- في الصين الشعبية الاشتراكية، لا يستطيع أحد أن يهرب يا أنسة نغوين، حتى لو أراد الهرب، حتى لو كان مجرماً، وحتى لو كان جباناً، وأنا لست بالجبان، أو المجرم، أو الذي يفكر في الهرب! أضاف بعد وقفة وهو يتملّى الوجوه:

- أنا هنا، حيث أقف، فليقتضِل من شاء منكم، أن يقبض عليّ، وأعدكم بعدم المقاومة.

صاحت السيدة بورجرون:

- نعم! ها هو المجرم المزعوم، يستسلم للحرس، للرفاق الصينيين، وليس لنازية وعاهرة مثلك يا نغوين! أو لزميلك الفاشي، ألدو الإيطالي، الذي هرب لا ندري إلى أين!

زعقت نغوين بالسيدة بورجرون:

- اخرسي أنتِ، يا خائنة لزوجك، ويا عشيقة هذا السافل!

أشار زبيد بيده داعياً إلى الهدوء، وبصوت طبيعي، دون أثر للانفعال قال:
- لدي كلمة واحدة: جيفرسون بخير، حروقه غير خطيرة، حين يشفى، سيروي لكم ما جرى معه.

قالت السيدة نلسون التي وصلت منذ حين:
- وأنا شاهدة.. كنت عنده، ورأيت الحريق بعيني الاثنتين، فلماذا هذا الصخب كله؟ تعقلي يا أنسة نغوين! كفي شرّك عن الآخرين!
ردّت نغوين:

- أنا لست بشريرة، أنت الشريرة أيّها العجوز المتصايبة.. زبيد هذا هو الذي أحرق جيفرسون، وأنا شاهدة أيضاً.
قالت السيدة نلسون:

- كيف؟ كنت مع جيفرسون في الفراش؟
ضحك بعضهم، همّهم آخرون، نفخ بتشي الألماني فمه وضرب على خده قائلاً:
- هوبّا!

صاحت السيدة الالويس:
- أنت أيضاً أيّها السكير؟! كلّمك ضد ابنتي؟! ضد صغيرتي المسكينة؟!

قالت ذلك وأنشأت تبكي، لكنّ مدير الإدارة الذي وصل توّاً قال:
- تونجي (أيّها الرفاق) نحن، حسب التعليمات المعطاة لنا، لا نتدخل في شؤون أصدقائنا الذين جاؤوا لمساعدتنا.. كلنا رفاق، وكلنا، أجنب وصينيين، نتعاون لبناء الصين.. ما حدث كان سوء فهم وتفاهم، ومع هذا سنحقق، ولن نقبض على أحد، ومن نريد مساعلته نستدعيه، حسب الأصول، إلى الإدارة.. أمل أن يكون الحادث منتهياً، وأن تعودوا، كما نرغب، إلى الحياة الطبيعية، الهانئة، التي تحيونها في بيتاخو، وأن تبتهجوا، سباحة، استجماماً، غناءً، رقصاً، وأن تثقوا بأنّ الأمن مستتبّ، إلى الدرجة القصوى، ليس هنا فقط، بل في الصين كلها، ومن كانت له شكوى، أو كان له مطلب، فإنّ باب الإدارة مفتوح، ليلاً ونهاراً، وللجميع، دون استثناء أو تمييز.. إننا في خدمتكم دائماً.

صفّق الحاضرون، أخذوا يتفرقون، جاء الالويس، عائق زبيد، قبل أحدهما الآخر، تقدمت السيدة نلسون من زبيد، وضعت ذراعها في ذراعه وهي تقول:

- اوه! زبيد! عزيزي! كم كنت رائعاً، أنت عربي أصيل، أنت رفيق عزيز.. قلت إن جيفرسون بخير؟ نعم! أين هو الآن؟
- في العناية المشددة.. حرقه بسيطة، سطحية فقط، في الجلد لا في اللحم، وهذا بفضلك يا سيدتي!
- بفضلنا نحن الاثنين.. من الخير أننا كنا هناك، في بيته، حين وقع الحادث.. ما رأيك أن نتنزه قليلاً، قبل الذهاب إلى المطعم؟ ولكن احذر، كن لطيفاً فقط، السيد نلسون يغار! يا إلهي! لماذا يغار الرجال؟
- لأن نساءهم، أو صديقاتهم، جميلات.. الحق، يا سيدتي على الجمال.. لماذا أنت جميلة؟
- هذا لطف منك عزيزي، ولكن ماذا بشأن مارلين؟ تعتقد أن قلبها يرقّ الآن؟

- اذهبي إليها، سيدة نلسون، واسألها من فضلك.
- أنا أسألك أنت.
- وأنا لست زوجها، أو ولي أمرها، ولا تأثير لي فيها.. ما رأيك بفنجان من القهوة مع الكونياك عندي، في البيت؟
- لا مانع لديّ عزيزي، زبيد، ولكن أن نكون وحدنا، فهذا، والكلام بيننا، يثير الشكوك حولنا، يقتل.. كيف أقول؟ لا بأس! يقتل حبنا الوليد!
توقف زبيد، نظر إليها وهو يحاول ألا يضحك، سألها:
- عن أي حبّ تتحدّث سيدتي؟
- اوه زبيد، حبيبي، لا تكن خجولاً.. قل الأشياء بصراحة، وأعدك أن يبقى ما بيننا سرّاً!

- أي سر هذا سيدة نلسون؟
- السر الذي لا يقال الآن.. وهنا في الشارع.
- أين يقال إذن؟ في الفراش؟
- ليس هكذا زبيد، ليس قبل أن نتذوّق القهوة مع الكونياك.. أنت تفهمني؟
- قليلاً!

- هذا يكفي، زبيد، في الوقت الحاضر.. أما في المستقبل! فعلينا ألا نجرح مشاعر السيد نلسون!

«يا للمصيبة!»

- نجرحها بماذا سيدة نلسون؟

- بتلك «اللعبة الصغيرة» عزيزي.

قال زبيد بجفاء:

- لعبة ماذا؟! ومع مَنْ؟!

- كيف لعبة ماذا؟ ومع مَنْ؟ أنا، زبيد، أعرف ذكائك، وأثق به.. اسمع! على الرجل أن يصرح أولاً.. هذا من اللياقة في مسائل القلب، وكذلك.. لا! كفى، لن أكون البادئة في التصريح!

فطن زبيد، خلال ومضة تذكر، أن السيدة نلسون جاءت متأخرة إلى المستشفى، فأين كانت، هذا الوقت كله، ما دامت لم تسبح، وما دام المطعم مغلقاً؟ هناك احتمالان: أن تكون ذهبت إلى بيتها، وشربت مما هو متيسر لديها، أو بقيت في بيت جيفرسون، فشربت ما تبقى من الفودكا لديه، وهذا هو المرجح! إنّه يعرف هذه السيدة الطيّبة، الفنانة، ورغبتها الدائمة في شيتين: الشرب والغناء، حيثما طاب لها ذلك، ولأنّ الحريق روعها إلى حدّ ما، فإنّها لم تكن بقادرة على نسيانه، سوى بالانتشاء قليلاً، وهذا ما فعلته، بوعي كامل، تجلّى في تصريحها، أمام جميع من كانوا في باحة الباب الرئيسي للمستشفى، أنّها شاهدة على الحريق، لأنّها كانت في بيت جيفرسون، ورأت ما جرى بعينيها الاثنتين، فلما أدلت بهذه الشهادة، اعتبرت أن مهمتها انتهت، وعندئذ أعطت نفسها، كما هي عادتها، لما هو مهمّ في حياتها: الأوبرا، ولم تعد بحاجة إلى الرقابة على نفسها، على تصرفها، على كلامها، لكونها فنانة أوبرا، تتجاهل، بعفوية تامة، ما كانته يوماً، فالألمس ملغى لديها، مكاناً وزماناً، والحاضر هو الماضي ذاته، وفي هذه النقطة توقّف عمرها، وترغب، صادقة، عن كل ما هو غير ذلك، معتقدة، في اللاشعور، أنّ من حق الأوبرا أن تعيشها باستمراراً، لأنّها حياتها كلها، والحياة، لديها، خلقت لكي تعاش، وهي تعيش، بأمانة، ماضيها في حاضرها، وعلى الآخرين أن يفهموا ذلك، وسيأتى لديها فهموا

أم لم يفهموا، لأنه من النافل أن يهتم الفنان بآراء من ليسوا فنانين، باعتبارهم أغبياء، لا يتذوقون الفن، ولا سبيل إلى التفاهم معهم، ومن الأفضل عدم الاكتراث بهم.

لام زبيد نفسه، لنسيانه هذا الاستنتاج الذي كان قد توصل إليه، منذ عرف السيدة نلسون في الدروجبا، وسمعها تغني وهي تمشي في مجازات البناية، ورأى حركات أصابعها، في تشكيلات أوبرالية، كأنما هي على المسرح، دون أن تأبه لأي استغراب قد تلحظه في عيون الآخرين، إذا هي لاحظت ذلك، ومن شبه المؤكد أنها لم تلحظه أبداً، وأنها صادقة في ظننها أن الأيام هي هي، وأن من حقها، كما كانت وهي في سن النضج، أن تحب وأن تُحَب، وأن يكون زبيد، أو غيره، من عشاقها، أو عشاق فنّها على الأقل!

فجأة توقفت السيدة نلسون وسألت:

- أين أنت، زبيد، عزيزي؟

قال زبيد بنبرة تأكيد:

- معك سيدة نلسون!

- وهذا الصمت الطويل؟

- إنه استمتاع قبل الاستمتاع.

- عن طريق الخيال.. أعرف مثل هذه اللذة، أتذوقها بحواسي كلّها، حتى في اللحظة أتصورك، لا! يحسن بي ألا تحدث، أكثر من اللازم، عن تصوراتي بالنسبة إليك، هذا يضع المرأة في موقف صعب، أقله يكشف عن رغباتها التي يجب أن تبقى مستترة، حتى لا يطمع بها كثيرًا الرجل الذي تبادله شرف الهوى!

سأل زبيد بخبث:

- ومن هذا الرجل السعيد الذي تبادلينه شرف الهوى؟

عضت السيدة نلسون على شفتها السفلى، غمزت بعينها اليمنى وهي تقول:

- لماذا، زبيد، تسعى إلى إرغامي على البوح؟ بعض القول لا يقال، يُحسن فقط..

أضافت:

- أعرف أن إحساسنا مشترك، فلماذا الكلام إذن؟
- حتى نرضي حاسة السمع!
- أنت على حق في ذلك، لكنك تتعجل الأمور قليلاً.. ألا تستطيع ضبط اشتهاك حتى نصل؟ أذن لنسرع!
- إلى أين؟
- كيف إلى أين؟ إلى بيتك طبعاً.. اسمع زييد، سنشرب القهوة والكونياك بغير إبطاء.. ثم!
- ثم لا شيء، لأن رفاقاً صينيين من بكين ينتظرونني في البيت، مع مترجمي عبد القادر.

نبرت:

- اللعنة إذن! تهينني لتلك «اللعبة الصغيرة».. تشعل النار في جسدي، كما هي في جسدك، ثم تدلق عليّ، وعلى نفسك، سطلاً من الماء المثلج؟
- قال زييد مازحاً:
- هذا ما يقال له «إطفاء الحريق»!
- هل هذا من التقاليد العربية زييد؟ إنني أكاد لا أصدق! هل من عاقل يشعل النار كي يطفئها؟

- نعم! والسبب، سيدة نلسون، هو التالي: في حال الاحتراق الجسدي، يأتي الانطفاء الجسدي بسرعة، وهذا غير مستحب في رأي أسلافي القدماء، وقد قرأت هذا في كتبهم، وعرفت ذلك من تجاربي! أرجوك! لنؤجل الكلام على هذا الموضوع، لأنه فلسفة جنسية كاملة، ومن الغريب ألا تعرفوها.. إلى اللقاء!

- متى؟

- غداً!

- ومتى غداً؟

- بعد غدا!

- هل هذا تهرب؟

- هذا من شعر أحد شعرائنا الغزليين.. والماجنين أيضاً!

- ولماذا لم تتذكّره إلا الآن؟

- لأنه كان هاجعاً في اللاشعور، واستيقظ الآن..

- ولماذا الآن بالذات؟ ألم يستيقظ فيك شيء آخر؟

- بلى! ولكن «ذلك الشيء» لا أستطيع قوله.. حتى لا أموت خجلاً!

- أنا لم أسمع، زبيد، بإنسان مات خجلاً.. قله ومث، عزيزي، على طريقة الفرسان، في القرون الوسطى!

- نحن في القرن العشرين، سيدتي، عزيزتي، هل نسيت هذا؟ إلى اللقاء، مرة ثانية!

- إذن اللعنة، ثانية وثالثة ورابعة، اذهب إلى تلك العاهرة مارلين!!

- ومن قال لك إنني ذاهب إليها؟

- حدسي!

- بصراحة.. حدسك صادق هذه المرة!

- مستحيل، عزيزي زبيد، مستحيل! أنا لا أصدّق أن رجلاً يحب، يترك المرأة التي يحبها بهذه القسوة.

- وقف زبيد، تأملها، كانت تبكي، عاد إليها، أشفق على بكائها، قال لها حانئاً:

- لماذا، سيدة نلسون لماذا؟ هل يعقل أن أذهب إلى مارلين، وجيفرسون في المستشفى بسببها؟ تعالي! سندهب إلى البيت، نشرب القهوة والكونياك كما اتفقنا!

- قالت من بين دموعها:

- لا تقل هذا زبيد، لا تقله، إنني أرفض الشفقة!

- ومن قال إنَّها شفقة؟

- دموعي!

- ولماذا الدموع وأنا كنت أمزح؟

- لا! لم تكن تمزح، كنت تريد التخلّص مني..

- أضافت:

- الرجل، زبيد، لا يستطيع أن يقدّر ذل المرأة، في موقف كموقفى هذا..
هل تفهمنى؟!

- أفهمك سيدة نلسون أفهمك، لكن الحق، بعد كل شيء، على مَنْ؟
- الحق على زبيد، لأننى فى ساعة ضعف، نسيت فارق العمر بيننا..
إنها نزوة، تقدّر، أنت، معنى النزوة؟ ما أظن، إلا أنك، وتذكر هذا، ستقدرها
مستقبلاً، حين تصبح فى مثل سنّى، وتشتهى امرأة فى مثل سنّك.. هذا
هو جوابى، وإلى اللقاء!

قالت ذلك، أدارت ظهرها، مضت، لم تلتفت إلى الوراء. تسمرّ زبيد فى
مكانه، أدرك، الآن، مدى قسوته عليها، سريله الحياء، حار فى ما يفعل،
سار إلى البيت، هتف، منذ وصوله، إلى السيد نلسون، دعاه والسيدة
نلسون إلى العشاء، لكن هذه رفضت بقوة، فكّر زبيد فى حقارته، استشعر
ندماً موجعاً، لم ينقذه منه سوى قرع على بابه، فتح، كانت هذه السيدة
بورجرون، روت كل ما جرى، كل ما قيل، فى غيابها، أمام المستشفى، اطرق
زبيد مهموماً، وقف، بحركة آلية، ذهب إلى المطبخ، أعدّ القهوة، جاء
بالكونياك، ملا كاسين، شرب كأسه صامتاً، أصغى إلى ما تقوله ضيفته،
كان صوتها خافتاً فى أذنيه، جاءه من بعيد، كما لم يحدث معه من قبل.
رنّ جرس الهاتف، كان مدير الإدارة على الخط، قال له:

- ما رأيك ان نتحدّث قليلاً بعد العشاء، تونجى زبيد؟

سأل زبيد:

- ألا يمكن تأجيل الحديث إلى الغد؟

أجاب المدير:

- يمكن، اذا لم يكن لديك وقت الليلة.

- هل هناك ما هو مستعجل؟

- إلى حدّ ما!

- فى أيّ ساعة تريدنى أن أحضر؟

- فى التاسعة، اذا كان هذا يناسبك.

- يناسبنى تماماً!

- إذن إلى اللقاء..

وضع زبيد سماعة الهاتف، قال للسيدة بورجرون ما دار من حديث بينه وبين مدير الإدارة، ترشّف قهوته، بعد ذلك، دون كلام، سألته السيدة بورجرون:

- ماذا تظن وراء هذه الدعوة؟

- حادث الحريق اليوم!

- لا! أبعد من ذلك.

- وما هو هذا الأبعد؟

- الاتهام الذي وجهته أنا إلى نغوين والدوا!

- ولماذا لم يستدعك أنت؟

- الدهاء!

- أيّ دهاء هذا؟

- سؤالك أولاً، عما قلته أنا، كي لا تثار ضجة ما، غير مرغوب فيها..
ويعد ذلك تطويق الحادث، بدهاء، وذكاء صيني معروف.

قال زبيد:

- وهل أنا عميلهم، كي أسأل أولاً؟

قالت السيدة بورجرون:

- لا تفهمني، يا صديقي، خطأ.. أنت موضع ثقة، بسبب ما تقدّمه من
مساعدة بلغت حدّ إنكار الذات، وبسبب آخر، هو موضوعيتك في تحليل
الأمور، وتقدير نتائجها!

- ولماذا لا تكون الدعوة للتحقيق معي، حول حادث الحريق ثم القبض
عليّ!

- بأيّ تهمة؟

- تهمة أنني أنا المجرم، كما ادّعت نغوين زوراً أمام الجميع!

- وشهادة السيدة نلسون التي كانت حاضرة؟

- وما قيمتها؟! لا شيء.. ثم أرجوك، دعيني من الكلام على السيدة
نلسون!

- لماذا؟

- هكذا!

- تخاف أن تغيّر شهادتها؟

قال زبيد بحسم:

- هذا غير وارد، كما أنْ خوفي غير وارد، أنت تعرفين من أنا.

- أعرف ولكن.. اسمع! إذا ألصقوا التهمة بك، كان هناك السجن الطويل.. هل هناك من لا يخاف السجن ظلماً؟

- أنا!

قالت السيدة بورجرون، وهي تكشف عن فخذها بلا مبالاة:

- أنت، يا صغيري، تصلح لغير السجن.. مع كامل ثقتي بشجاعتك!

نظر إليها زبيد باسمًا وقال:

- أصلح لماذا في رأيك؟

نهضت، خلعت سترتها، قالت وهي تشرب نخبه:

- تصلح للكأس، هذا أولاً!

- وثانيًا؟

- لما هو عنيف!

- كيف! وهذا ثالثًا!

مشت السيدة بورجرون بأبهة نحو السرير وقالت:

- ثالثًا ستعرفه ونحن في الفراش!

اليومية الخامسة والعشرون ١٨ كانون الثاني ١٩٦١

توجهتُ من بيت حسن إلى المطعم الكبير، راق لي، بعد أن تعرفت إلى ليانا، خطيبة حسن، أن أرفقه عن نفسي، أن أخرج من عزلتي، أن ألتقي الناس، وأشرب قليلاً، وأفكر، مع الكأس، طويلاً، عسى أن أفهم، وكذلك أتفهم، بعض ما سمعت من ليانا، وأتفحص نفسي، وما يحيط بي من رقابة، وما غايتها، وهل هي عامة، بالنسبة إلى الجميع، أم هل هي خاصة، مفروضة عليّ وحدي؟

كان ثمة، في المطعم، قليل من الطاعمين، جاؤوا مثلي مبكرًا، كي

يتناولوا غداهم ويذهبوا إلى أشغالهم، التي تبدأ بعد الظهر، أو يأخذوا قيلولتهم المعتادة، بعد عملهم قبل الظهر، وكنت الوحيد، في ما حُيِّل لي، العاقل عن العمل، ولديه وقت فراغ مفتوح، فلا حساب، ولا من يحاسب، وفي وسعي، بعد أن أنجزت إصلاح الترجمات التي كنت مكلفاً بها، أن أفعل ما أريد، وهذا الذي أريده، الآن، أن أشرب، أفكر، استعرض رواد المطعم من زملائي الأجانب الذين لا أعرفهم، أخرج من قمقم عفريت ألف ليلة وليلة، ثم لا أعود إليه أبداً، أعمل بنصيحة حسن، وما قاله شاعره الشيرازي عن «الماء والخضراء والوجه الحسن:» ففي الدروجبا ماء وخضراء ووجوه حسان، قد لا أهتم بها، إلا أن رؤيتها ضرورية، من باب الفضول على الأقل.

انتقيت مائدة صغيرة في الجانب الأيمن لقاعة المطعم الكبيرة، احضرت زجاجة من النبيذ الأبيض المبرّد، طلبت طبقاً من البطاطا المقلية، رحت أشرب متمهلاً، مسترخياً، مترقياً، كأنني أحد الأثرياء الأجانب، الذين يأتون إلى الصين للسياحة لا للعمل، ألعب بمشاعر بهجة طارئة، كمن يلعب بنجوم نزلت إليه، وانقلبت إلى دمي بين يديه، والنبيذ يدب، في خلصة، وتدرّج، مخدراً أحاسيسي على مهل، مشعلاً في جسدي الرغبات، وفي عيني وميض الشوق إلى المبهم من غايات حياة لاهية، بسبب من الفراغ، والكسل، والقدرة على قذف بعض هواجسي إلى اللاشعور، ناسياً، أو متناسياً، الوضع الصعب الذي أنا فيه، والذي كفاني ابتئاساً من أجله، حتى مع دخول السيدة بورجرون إلى عالمي الخاص، العالم الذي هو تأليف كلام من خلال الصمت.

تذكرت، بفعل النبيذ ودبيب، قول أبي نواس: «ولما [...] دبّ دبيبها إلى مكن الأسرار قلت لها قفي!» ابتسمت ونديمي الكأس وحدها، لطرافة هذا الشاعر الماجن، الذي أفضى كل أسرارهِ عن قصد، لأنه «لا خير في اللذات من دونها ستر!»، وبعد ذلك، وإمعاناً في المجون، خاف دبيب الخمرة إلى مكن أسرارهِ! الحمد لله أنني هنا، وربما كنت الوحيد الذي لا أسرار لديه، لأنّ دبيب الرقابة غير المرئية، أسرع من دبيب كل الخمر، والبرهان أن لنا تعرف ما بيني وبين تشين لاء، وتعرف أن السيدة بورجرون زارتني في بيتي، وأنني منقطع عن التدريس في الجامعة، لخلاف حول البرنامج

الدراسي، وقد سرّنتي معرفتها بكل هذا، كي أطلع منها على بعضه، ما دام حسن واثقاً بأنّ خطيبته الصينية طيبة، وأنها صديقة، وهذا مفهوم، إلّا أنّ غير المفهوم، كيف صارت لنا خطيبة حسن، وكيف سمح الصينيون بهذه الخطبة، وقبلها بهذا الحب الذي أدّى إليها؟ هل أشك بحسن؟ أعتبره موالياً للصين ضد الاتحاد السوفيّاتي؟ هو نفسه لا يخفي أنه ليس ضد الصين، لكنه ملتزم بموقف حزبه، وعلى استعداد لترك الصين إذا ما طلب الحزب منه ذلك، إلّا أن حزبه لم يطلب، لم يستدعه، لم يتعجل في سحبه، كما تعجلت الأحزاب العربية في سحب أعضائها، الذين سافروا جميعاً، بمن فيهم أياد أبو المجد، وتركوني وحيداً، يتيماً، حائزاً، بعد سفرهم. قبل أن أنتهي من تناول طعامي، جاءني عبد القادر ضاحكاً كعادته، قال لي مازحاً:

- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟

سألته:

- ما هناك يا عبد القادر؟

- نحن نبحث عنك.

- أين؟ في الجحيم؟

- لا يا أستاذ! لا تقل هذا!

- علّمني ماذا أقول!

ضرب كفّاً بكف وقال ضاحكاً:

- ولكن كيف هذا؟ أنا أعلمك؟

- قل ماذا تريد باختصار.

- هادي ينتظر في مكتب الدروجيا.

- دعه ينتظر!

- إلى متى؟

- إلى أن أعود إلى البيت.

- ومتى تعود؟

- عندما يطلع القمر!

قال ضاحكاً:

- وإذا لم يطلع القمر؟

- لا أعود!

- ولكن كيف هذا؟ أنت تمزحني! (تمازحني)

- ماذا يريد هادي؟

- هل أصلحت الترجمات؟

- سأصلحها بعد سفري من الصين، وأرسلها لكم بالبريد المسجل! مع

السلامة.

نهضت، دفعت الحساب، ذهبت إلى الحديقة، مشى عبد القادر ورائي، لم أكلمه، كنت راغباً عن الكلام «كنت، في سري، ألعن الترجمة، وإصلاح الترجمات وأتساءل: ماذا يظن هؤلاء؟ أنني أبله؟! في الجامعة يستغنون عني، ودار النشر تستغلني، وهؤلاء المرتزقة، الجاهلون، الذين للموهوم كيفما اتفق، يخبسون في الترجمة بشكل فظيع، وعليّ، بعد هذا، أن أصلح ترجماتهم التي يخطئون فيها حتى بالإملاء؟! تناقض! تناقض فاحش، ما كنت أتصور يوماً أنه سيكون على هذه الصورة من الفجاجة وقصر النظر، بسبب الجمود العقائدي، وغياب الديمقراطية، والخوف من اتخاذ الموقف الصحيح، إذا ما كان هذا الموقف يتعارض مع توجيهات القيادة، في تراتبيتها كلها، من القمة إلى القاعدة! ومع اعتقادي الجازم، أن قشور هذه الدوغمائية ستذروها، مستقبلاً، رياح التغيير، فإنه من اللاإنسانية أن يتركوني معلقاً، متأرجحاً في فضاء من انعدام الوزن، وكل ذنبي أنني نابذ، وبشكل قاطع، الممالة، النفاق، الانتهازية، لأنها تتنافى والأخلاق، وتجانف الصدق، وهو أهم ما في أي مبدأ! لقد كنت، وسأبقى، رافضاً الانحياز إلى طرف واحد في هذا الخلاف الناشب، المتفجر أكثر فأكثر، بين موسكو وبكين، لأن كلا الطرفين على خطأ، في هذا الخلاف، أو في بعض نقاطه على الأقل، ولن أغمس قلمي، مهما لقيت من عنت، في دواة الشتائم المتبادلة، تحت ستار من الافتراءات التي يصفونها بوجهات نظر إيديولوجية، وهي بعيدة عن الإيدولوجية المبدئية التي أؤمن بها!»

رأيت، وأنا جالس على مقعد في الحديقة اجتر الأفكار التي تعذبني، عبد القادر وهادي يتقدمان نحوي، خارجين من مكتب الدروجبا، الذي

تسلَّل اليه عبد القادر ليبلغ هادي بما سمع مني. أشعلت سيكارة تعويضاً عن انطفاء اشتعالي الروحي وأنا في بيت حسن، ثم في المطعم وأنا اتذوق النبيذ الأبيض المبرد. حيَّاني هادي، رددت تحيته، صافحته، جلس قربي، من الجانب الأيسر، بينما جلس عبد القادر من الجانب الأيمن، فصرت محشوراً بين الاثنين، وعرق الغضب ينبض بين حاجبي، وهما يتهيَّبان الكلام معي في فورة غضبي، لإحساسهما بأنني موشك على الانفجار! ومع الوقت، والسيكارة تتلو السيكارة، هدأت قليلاً، ومع الهدوء، خلال الصمت المسيطر، تساءلت: «ما ذنب هادي أو عبد القادر؟ إنهما، في آخر المطاف، موظفان، مراسلان بيئي وبين المؤسستين اللتين يعملان فيهما، ومهما كان مزاجي معتكراً، فإنَّ عليَّ أن لا أنسى أنهما رفيقان، رفيقان صينيان ناضلا لأجل التحرير، والآن يناضلان، بحمى من الحماسة الثورية، لأجل بناء الصين، وأنهما مخولان بالكلام معي على المهمة التي جاءا لأجلها، وينقل ما أقوله إلى من أرسلهما، وأن الذين أرسلوهما سينقلون كلامي إلى القيادة بشكل متسلسل، بأمانة قدر الإمكان، فماذا أريد أنا من هذه القيادة في تراتبيتها؟ أن أرحل؟ هذا يسير، وأمره متروك إليَّ، ولكن كيف وإلى أين؟! جدار! دائماً أنتهي في تفكيرتي إلى جدار، وحينئذ يكون الارتطام بجارته الصماء، وتبقى هذه الـ «كيف؟ وإلى أين؟» بغير جواب، والحق في هذا عليَّ وحدي، لكوني أحرقت سفينتي، والإبحار لا يكون بغير سفينة، بغير مركب، أو أنتظر حتى يرمي إليَّ أحد بطوق النجاة، وهذا «الأحد»، في صبره الأيوبي، وعناده الوعلِّي، ودهائه المُعاوي، قادر على إبقائي في الوضع الذي أنا فيه، إلى أن تنفد طاقتي على الاحتمال، فالتمس، وأرجو، وأتضرع إليه أن يساعدني على الخروج من الصين، أو أنزل عند رغبته، والإصرار على أن أقول: نعم! ما دامت «لا» محذوفة هنا من قاموس المفردات، وهذا مؤكد، ومؤيد بألف تجربة وتجربة، سابقة ولاحقة.

سألت الرفيق هادي:

– ما هو المطلوب مني هذه المرة؟!

– لا شيء.. أنا أقدر ظروفك، وأحترم صمتك، وحتى غضبك!

- وبعد؟!

قال عبد القادر:

- الرفيق هادي يجبك يا أستاذ!

- وبماذا ينفعني حبّه أو حبك؟ هناك عمل بيننا، والعمل لا يعترف إلا بذاته.

فكر عبد القادر، عصر دماغه، قال وهو يحاول أن يكون جدّيًا:

- لم أفهم يا أستاذ! هل عبارة «العمل لا يعترف إلا بذاته» فلسفة؟

- قرأت غرامشي يا عبد القادر؟

ضحك وأجاب:

- ولكن كيف هذا؟ أنا لم أسمع بهذا الاسم، من هو غرامشي هذا أيضًا؟!

ضحكت بدوري وقلت:

- انه الطباخ الخاص لموسوليني!

ضحك هادي وقال:

- وهو الذي وضع له السمّ في الطعام!

- ولكن كيف هذا؟ موسوليني مات في الحرب!

قلت جادًا:

- أحسنت يا عبد القادر، موسوليني مات في حرب «السفر برلك»

ودفن في «شَنْقُ قلعة»، وكان، قبل ذلك، «ياور» السلطان عبد الحميد.

ومكلفًا بحراسة «الحرملك» في اسطنبول!

- ماذا فعلوا بغرامشي الذي وضَعَ له السمّ؟

- قطعوا رأسه، وصنعوا منه «شمندورة» لهداية السفن في الدردنيل!..

هيا معي!

سرنا، أعطيت، في البيت، الترجمات المصحّحة لهادي، قلت:

- تحياتي واحتراماتي لمن ترجموا هذه المواد. لم أجد فيها خطيئة

واحدة، تأمل!

قال عبد القادر:

- هذا جيّد جدًّا!

قال هادي وهو يقلّب الأوراق ضاحكًا:

- نعم! جيد جدًا، لأنهم..

نظر عبد القادر في الأوراق، وقال وهو يخفق كفًا بكفّ:

- ولكن كيف هذا؟ ولا كلمة صح!؟ هل يمكن..

قلت ضاحكًا:

- يمكن تقريبًا، تقريبًا فقط! إنهم.. لا بأس.. يتعلمون الحلاقة في

ذقونكم، ومن يدري! فقد يصبحون حلاقين جيدين.. في القرن الحادي والعشرين، إن شاء الله!

ترجم عبد القادر، فقال هادي بأسى:

- ماذا نفعل، تونجي زبيد، إذا كان الرفاق العرب رفضوا البقاء في

الصين؟

نظرت إليه، مباشرة في عينيه، وقلت بنبرة ساخرة:

- ولماذا يبقون، تونجي هادي، هل ليلقوا المعاملة «الحسنة» التي ألقاها

أنا؟!

تنهّد هادي وقال:

- أنت، تونجي زبيد، تلقى معاملة غير حسنة.. أعرف هذا، ولكن..

- سيتغير هذا الوضع في المستقبل.. أنا واثق من ذلك تونجي هادي،

لأن الصين، هذه الدولة العظمى، ستجد طريقها إلى الخلاص من إرث

الماضي الثقيل، لديكم كل ما يلزم لذلك: الحماسة، العمل الجاد المتواصل،

التفاني، وبحكمة أيضًا، وكذلك الجمود العقائدي! إنني أتكلم بصراحة، ولا

مانع لديّ من نقل رأيي هذا إلى القيادة! أنا لست ضد الصين، ولن أكون

ضدها في يوم من الأيام، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي..

هناك أخطاء كبيرة، وهنا أخطاء صغيرة، وصحيح ما يقال عن

البيروقراطية، وعن التبرجز، وعن الجمود، والتحجّر، وقمع الحريات،

وانعدام الديمقراطية في الاتحاد السوفياتي، وعلى الأحزاب الشقيقة أن

تنتقد كل هذا، ما دامت تعرفه، لا أن تسكت بذريعة الأممية! علينا أن نفرّق

بين الأممية والتبعية، وأن نعيّ الحقيقة ونجاهر بها دون خوف.. حزب لينين،

وكذلك حزب ماوتسي تونغ، ليسا معصومين عن الخطأ، ويجب أن نكون

رفاقاً جيدين، حسب تعبيركم، فلا نعطي المعصومية لأحد! من يعمل يخطئ، هذه بدهية، وأنتم تعملون، وهم يعملون، ومع العمل يكون الخطأ الذي يحتاج إلى الإصلاح، وإلى الانتقاد بموضوعية، كي ينبّه إلى هذا الخطأ، ولا بد، إذا تشددنا في الانتقاد، من إصلاح هذا الخطأ كلياً، هل تفهمني؟ كان عبد القادر يترجم، وكنت أكرر العبارة، أوضحها، كي يستوعبها، ويترجمها بشكل قريب، إلى حدّ ما، من الصحة، وهادي يكتب، أو يأخذ ملاحظات، إلى أن قال:

- نحن، في الصين، نتشدد في انتقاد الاتحاد السوفياتي، وبموضوعية، كي ينتبه إلى أخطائه ويصلحها، فلماذا، إذن، ترفض تدريس انتقاداتنا في القسم العربي في الجامعة؟ فكرت، قررت، بعد تفكير وتأنٍ، أن أكون صريحاً، وإلى أبعد حدّ، لذلك سألت هادي:

- وأنتم؟ اليس لكم أخطاء؟ لماذا ترفضون انتقادات الاتحاد السوفياتي، ولا تصلحون أخطاءكم؟ غضب هادي، توشّحت قسماته بحمرة الغضب، قال:

- نحن ليس لدينا أخطاء تناحرية، أخطأنا، حتى لو وجدت، ثانوية، ويمكن تداركها مستقبلاً، وفي الوقت اللازم!

أجبت بجزم:

- بعض أخطائكم، أنتم أيضاً، تناحرية، وأهمها هذا الكبت للحريات، وهذه المبالغة في دور «الكومونات الشعبية» التي ألحقت ضرراً بالغاً بإنتاجكم الزراعي والحيواني، وأيضاً المبالغة في التقليل من أهمية العلم والتكنولوجيا، والذهاب في ذلك بعيداً، وبشكل يقوّس الذاتية، ويؤدي إلى النرجسية، كما في موضوع الحديد والصلب، تحت شعار «السير على قدمين اثنتين» أي أنكم، تصهرون الحديد في أفرانكم، وهذا لا بأس به، هذا هو السير على قدم واحدة، أما إعطاء الحديد، ولو بشكل خردة، إلى كل مؤسسة، وكل ورشة، كي تصهره في أفران بدائية الصنع، فإنّه خطأ، وهذا ما تسمّونه السير على قدم ثانية، وقد كانت النتيجة كارثة، فضاع الحديد ولم يُنتج الفولاذ، وهكذا هبط رقم الإنتاج المحدّد للفولاذ من عشرين طناً إلى تسعة أطنان في الخطة الخمسية، وقد نبّهكم الاتحاد السوفياتي، وانتفدكم،

في الوقت اللازم، فرفضتم انتقاده المبني على العلم والتجربة، اعتبرتم ذلك تدخلاً في شؤونكم الداخلية والإساءة إلى خصوصية بنائكم للاشتراكية، فماذا تسمي هذا يا تونجي هادي؟ إنّه، في رأيي، الإصرار على الخطأ، وفي مقابل هذا الإصرار على الخطأ، كان إصرار الاتحاد السوفياتي على أخطائه، ومن هنا، وكنموذج واحد، وسبب واحد، بدأ الخلاف، ثم تطور إلى النواحي الأخرى، السياسية والنظرية، وبدل النقد الموضوعي، حلّ النقد غير الموضوعي، وهذا أدّى، بدوره، إلى التسرّع، وإلى الانفعال، فارتكبت خروتشوف خطيئة عمره بقوله، هذا المافون: «سأركع الصين» والصين، كما أرى، لن تركع، الآن وفي المستقبل، وقد رددتم على هذا السخف بعنف، فرد خروتشوف بعنف أكبر، وسحب الخبراء السوفييات، وهذه خطيئة عمره الثانية وتحول النقاش الرفاعي إلى نقاش عدائي، ثم كانت، مع التدرّج في الردود الانفعالية، الشتائم المتبادلة، وأنا رفضت، وسأرفض، تدريس الشتائم، أو ترجمتها، ولو كنت في موسكو، كنت سأرفض تدريس الشتائم، أو ترجمتها، كما فعلت في بكين، وهذا هو موقعي، المبني على اقتناع لن أحيده عنه!

قال الرفيق هادي، في محاولة لتغيير الموضوع:
- أنت تدخن كثيراً، تونجي زبيد، وهذا ضار جداً بصحتك.
قلت:

- أعرف تونجي هادي، ولكن ماذا أفعل؟ أصلح الترجمات؟ أصلحتها، وهي بين يديك، وقبل ذلك أصلحت ترجمة الكتاب النظري، وتعبت في ذلك كثيراً، إلا أن الكتاب جيّد، وهو مفيد جداً للقراء العرب، وبالمناسبة، لديكم منظّرون ومفكّرون جيّدون، ولديكم أدباء، ورسّامون، وفنّانون، وحضارة عريقة جداً، وأنا مسحور بكل هذا، لأنني اطّلت عليه، أو على بعضه.
قال هادي:

- الرفيق المسؤول في دار النشر، وبناء على رأي الرفيق مكين الذي يجيد العربية، يشكرك جداً على جهدك الذي بذلته في إصلاح هذا الكتاب، وعلى الدقّة في ضبط الترجمة، لذلك أرسل اليك، هذه التحفة الصينية، وهذا المبلغ الذي هو، كما قال، رمزي لا أكثر.
وضع هادي التحفة ومغلف النقود على المكتب، نهض مودّعاً وقال وهو يشدّ على يدي بحرارة:

- شي شي ني تونجي زبيد (شكرًا يا رفيق زبيد)

أخرج عبد القادر مغلفًا من جيبه وقال:

- وهذا أجرك عن شهرين من الجامعة.

أعدت المغلف إلى عبد القادر وقلت:

- قل للرفيق ليو إنني أشكره، لكنني حين لا اشتغل لا أستحق الأجر.

- ولكن كيف هذا؟! إنه لك، حقك، وأنت تحتاج، لكي تعيش، إلى نقود!

- أعيش بالنقود التي هي مكافأة على تعبي في إصلاح الترجمات.

قال هادي:

- هذه المكافأة، تونجي زبيد، رمزية، ولا تكفي للعيش.

ضحكت وقلت:

- أنا أعيش، تونجي هادي، عيشًا رمزيًا، لأنني من الرمزيين، ولست من الواقعيين.

هز هادي برأسه، تكلم مع عبد القادر، غادرا، ودعتهما عائدًا إلى الداخل، وما إن استلقيت في سريري حتى نمت، ومن شدة الإجهاد، والانفعال، والكلام الكثير، الذي أعرف، وأثق، أنه سينقل، إن لم يكن حرفيًا، ففي شكل إجمالي، وهذا هو أقرب السبل، وأفضل الذرائع لطردني من الصين نهائيًا، وبأسرع ما يمكن.

أفقت في حوالى الثامنة ليلاً، جلست في فراشي بعد إشعال الضوء، أحسست بصداع وخمول، لمت نفسي على سلوكي السيئ، على ثرثرتي، سخفي، لكنني لم أندم على صراحتي الكاملة، حين هدأت وعدت إلى البيت، فما قلته كان يجب أن يقال، إلا أنني، خلال شهرين من انقطاعي عن التدريس، من انحباسي في البيت، من مللي وقرفي، لم أجد الوقت، أو الإنسان، أو المسؤول الذي أقول له ما في قلبي، واليوم، بعد الظهر، حرئت، ثرت، تفجرت كبركان، أحرقت نفسي، التهمت كهشيم، انطفأت مثله، النوم ماء، ماء بارد جدًا، وهذا الماء أطفأ الحريق، في داخلي، في فمي، في أصابعي، وثيابي، مخلفًا بعض الصداع والخمول، وهذا أفضل من الحروق، لماذا، عندما نلتهب، نحترق من الداخل فقط؟ أه لو احترق، بشرارة غضبي، من الداخل والخارج معًا، في هذه الحال أستريح، لا

أعود بحاجة إلى جواز سفر، أنتقل به من تخم إلى تخم، في هذا العالم الواسع الضيق، أو مكان يؤويني بعد رحيلي من هنا، فلا أعود متشرذماً، غائصاً في بئر تشردي، صارخاً دون أن يسمعي أحد!

العلاج! هذا كل ما تبقي، أعالج نفسي بنفسي، وبأيسر الوسائل: القهوة والخمرة! قفزت من السرير، تريّضت قليلاً، هيأت القهوة، الكونياك، جلست، على طريقة بوذا، رافعاً قدمي، متربّعاً، احتراماً للأرض، التي أنا منها وإليها، ومن مجلسي تفرّست بمجموعة بوذا التّحفية التي لديّ: بوذا الضاحك، بوذا المتكى، بوذا السمين، بوذا النحيل، بوذا الطويل الأذنين، بوذا الذي يده اليمنى في جسمه، بوذا المطبق الشفتين، ولكل تشكيل يتخذه بوذا معناه، فهو يحترم الأرض، ينعم بخيرها، يضحك لسعادتها، يصغي بأكثر مما يتكلم، يدخل الزرفانا بجسم نحيل، منذور للطهارة وحدها، لا يسرق، لا يزني، لا يحب امرأة قريبه أو جاره، بكلمة: يطبّق الوصايا العشر على الطريقة البوذية، قبل أن تكتب هذه الوصايا على لوح من رخام.

لم أكن قد عالجت نفسي بعد، ولم أفرغ من تأملاتي حول بوذا والتشكيلات الفنية لتمثيله، حين رنّ جرس الهاتف، وكان حسن على الخط، بكل لطفه وطرافته، ولغته العربية التي أهم ما يميّزها كلمتان: يا أخي، وكمثلي، فسألته:

- ماذا هناك يا صديقي؟ هل من خازوق جديد؟

أجاب:

- نعم! هناك خازوق إنكليزي، ليّنا تعرّفت إلى فتاة إنكليزية، تعمل في الصين كمثّلتا، وجاءت مع ليّنا لتتعرف على الجو الشرقي، الفارسي، وهي لا تتكلّم إلاّ الإنكليزية، فماذا نفعل؟! تعال ترجم لنا!

- وهل هي جميلة؟

- جداً!

- ما اسمها؟

- مارلين! وهي كمثّلك، وحيدة، تعال بسرعة!

ذهبت، لكن دون سرعة، وفي الطريق تساءلت: من هي مارلين هذه؟ ولماذا هي وحيدة؟

في الساعة التاسعة كان زبيد في مبنى الإدارة دخلها متمهلاً، غير مكترث، لمعرفته أن الكلام سيدور حول حادثة حريق بيت جيفرسون، وليس لديه، هو زبيد، سوى قول الحقيقة بكل موضوعية، وكما جرى الحادث تماماً، ولهم، بعد ذلك، أن يصدقوا أو يرتابوا، فالريبة، في مناخ فقدان الديمقراطية تطفو دائماً على السطح، كنقطة الزيت، حتى إنها، في التشكك الدائم، تغدو طغراء حميدية، يمكن أن يُدفع بها أي إنسان، هذه الدمغة، كعلامة الاستفهام، نقش لا يزول، أو هي، في التداول، كالعملة الرديئة، التي تطرد العملة الجيدة، وتسود السوق، لفترة قد تطول، وكل تاجر يسعى إلى التخلص منها، عن طريق الدفع، لتصبح عند تاجر آخر، يسعى، هو أيضاً، للتخلص منها بالطريقة نفسها، وهكذا.

انتظر زبيد في غرفة أمين السر، وراح، من حين إلى آخر، ينظر في ساعته، كاحتجاج صامت على هدر الوقت، وعدم التقيد بالموعد المضروب، مع ملاحظة أن إدارة بيتاخو، هذا المساء، تنعم بيلة الراحة، لأنها وجدت، أخيراً، ما يشغلها، بحدث استثنائي، لا سابق له في هذا المصيف الصيني الجميل، فمن يدخل إلى مدير الإدارة، لا يخرج من حيث دخل، فهناك باب خلفي، يفضي إلى الخارج، أو إلى غرفة العزل، أو غرفة التوقيف، حسب القناعة التي تتشكل، في إطار الريبة، أو الاتهام المسبق، لدى المدير والمحقق، وكلاهما يميلان إلى اعتبار أن كل إنسان متهم حتى تثبت براءته، وفق منطق الحكم التوتاليتاري، وليس العكس، وبرغم أنف البديهة الحقوقية التي تنص على أن كل إنسان بريء حتى تثبت إدانته.

اعتذر سكرتير المدير، ثلاث مرات، لزبيد عن التأخير، وقبل زبيد الاعتذار، لثلاث مرات، دون تذمر، فهما منه لألية الأمور في مثل هذه

المواقف، فهناك تأخير متعمد، كما في جميع إدارات الأمن، في جميع بلاد الحكم الشمولي، والغرض منه الضغط على أعصاب المستدعي للتحقيق، وهناك تأخير، متعمد أيضاً لإشعار المطلوب، صاحب المكانة، الأ مجال هنا لأخذ المكانة بعين الاعتبار، وهناك تأخير لوجه التأخير، لأنّ الداعي يشرب القهوة، أو الشاي، أو يتحدث هاتفياً، أو لأنّه، بكل بساطة، نسي المستدعي المنقوع في الماء الغالي، كالشاي الأخضر، حتى يتخمّر على مهل!

مهما يكن، فقد أدخل زبيد إلى غرفة المدير في الساعة العاشرة، وقد نهض المدير مبتسماً، غير معتذر، ونهض شخص آخر، يجلس إلى جانبه، معفّر الوجه بعبوس مصطنع، وجلس دون مصافحة، وهذه علامة على جدية الموقف، وعلى إبقاء مسافة ما، بينه وبين الآخر، المطلوب لأمر غير سار غالباً.. ولأنّ زبيد مجرّب، بحكم القدم في الصين، جلس غير مبال بالابتساماة أو التكتشيرة، ومنذ فتح الكاتب، الجالس في الزاوية قرب المترجم، دفتره لتدوين الإفادة، قال زبيد، بهدوء إنسانٍ محصّنٍ ضد الانزعاج أو الانفعال:

- بأي صفة أنا هنا؟

قال المدير:

- بصفة ضيف!

ردّ زبيد:

- الضيف لا تدوّن أقواله، حتى لو سُجّلت سرّاً!

قال المحقّق المغفل الاسم:

- أنت، تونجي زبيد، متّهم بحرق المدعو جيفرسون، نعم أم لا؟

رد زبيد متحدّياً:

- نعم إذا كان التحقيق بهذه الطريق المبتسرة جداً، والمخالفة جداً لكل الأصول، ودون أن يكون مع المتهم الذي هو أنا محاميه.. هيّا، ضع القيد في يدي يا سيّدي المحقّق، ويعد ذلك إلى السجن ثم المشنقة!

نهض المحقّق، دار حول زبيد كما في فيلم سينمائي، وقال بغلظة:

- تأدّب في الكلام وإلّا..

- وإلّا ماذا؟ أنا لم أصل إلى هنا من قصر في إمارة موناكو، وصلت

إلى هنا قادمًا من بيروت، حيث كان البوليس يطاردني لأجل المبدأ، لأجل الاشتراكية، ولأجل صداقة الصين، البلد الاشتراكي الذي يقول لي فيه محقق معادٍ للاشتراكية: تأدّب!

صاح المحقق وقد رفع يده:

- أخرس أيها السفيفه!

قبض زبيد على ذراع المحقق وقال:

- وإذا لم أخرس؟ وإذا لم أتكلم إلا بحضور محام عني؟ وإذا قلت لك إن جورج ديمتروف، الذي اتهم بحرق الرايخشتاغ إبّان الحكم النازي، أُعطي فرصة للدفاع عن نفسه، قبل أن يخيّر بين كلمتي: نعم أم لا؟! إنني أحتفظ بحقي في الادّعاء عليك، والتونجي المدير سيكون الشاهد في هذه الدعوى!
قال مدير الإدارة:

- تونجي زبيد، لا حاجة للانفعال أو القسوة في الكلام، أعرفك هادئًا، ورفيقًا جيدًا، وصديقًا وفياً للصين، وخبيرًا يقدّم مساعدةً فوق طاقته أحيانًا، لبناء بلدنا الاشتراكي.. أمل أن يتوقّف الاستجواب إلى ما بعد ردّي على الهاتف في الغرفة المجاورة، تفضّل اجلس، أرجوك!
قال زبيد:

- وأنا أرجوك، أيّها الرفيق المدير، أن تلاحظ أنّه لم يكن هناك استجواب، بل حكم اعتباطي مرفوض!
لم يجب مدير الإدارة، فتح بابًا غاب وراءه، وبعد دقائق دخل سكرتيهه ليقول للمحقق:

- الهاتف لك تونجي!

نهض المحقق الشاب، المفعم بثوريتّه الشديدة، غير المبررة شكلاً ومضمونًا، كأنّه أت رأسًا من المسيرة الكبرى، أو كأنّه تشوته، وزير الدفاع الصيني نفسه، أو أنّ تحرّر الصين قد تم بفضل ثوريتّه الفليعة! وعندما فتح الباب وتوارى خلفه، جلس زبيد وأشعل سيكارة، واضعًا رجلًا على رجل، في حركة عفوية، فيها قدر من التحديّ أضحك المترجم وكاتب المحضر، اللذين تكلموا مطولًا، واختصر المترجم كل هذا الكلام الطويل بعبارة واحدة: «المسألة بسيطة!» إلا أن زبيد، الذي كان ينفث دخان

سيكارتته إلى أعلى، قال بحسم: «لا! المسألة غير بسيطة!».
عاد مدير الإدارة والمحقق، جلس كل منهما في مقعده، حاول المحقق،
الذي عرّفه المدير باسم «تونجي تن بو» أن يمسح غبار صفراويته المرضية،
المنبعثة من حقه المكنوم، دون كبير نجاح، فأنجده المدير بقوله:
- تونجي زبيد! هل تقبل، إذا تكلمنا كرفاق، أن تروي لنا تفصيلات
الحادث؟

قال زبيد:
- هناك، في العادة، سين وجيم، مع أمثالي من المتهمين، فما هو
السؤال الأول؟
أجاب المدير:

- أنت لست متهمًا، تونجي زبيد، ولا حاجة إلى محضر، كل ما يطلبه
الرفيق المحقق، أن يسمع رواية الحادث منك، وبعد ذلك، وإذا كانت هناك
ضرورة، يطرح عليك بعض الأسئلة، ويستمع منك إلى بعض الأجوبة.. ما
رأيك؟

قال زبيد:
- في هذه الحال، لا مانع لدي! ولتسجّل أقوالي، كلمة كلمة، فهذا
لمصلحتي!

بعد ذلك روى زبيد الحادث، بهدوء، وبشكل إملائي، وختم قائلاً:
- لو لم أكن حاضراً، وبالمصادفة، لاحترق الرفيق جيفرسون، وغداً
تسمعون هذه الحقيقة منه، لأنني كنت معه في سيارة الإسعاف، وفي
المستشفى، ولم أغادر إلا بعد الاطمئنان على سلامته.

تبادل المدير والمحقق النظرات، وبعد صمت قصير قال تن بو:

- تونجي، زبيد، هل جيفرسون صديقك؟

- نعم!

- وهل أنت متأكد من هذه الصداقة؟ وهل هي متبادلة؟

- بالنسبة إليّ، صداقتي لجيفرسون مؤكّدة، وقد أكرمته، وحميته،
ودافعت عنه هنا، في هذه المديرية، وهذه الغرفة، وأمام الرفيق المدير، مرات
عديدة، وكان، في كل مرة، يفتري عليّ، متذرّعاً بالأكاذيب!

- مثل ماذا؟

- مثل أنني خطفت خطيبته مارلين منه، أو أنني لا أتنازل له عنها، أو أنه يريد أن أرغمها، أنا، على أن تكون عشيقته، أو زوجته، وبالقوة! وكثيراً ما بكى بين ذراعيّ، طالباً مني أن أتيح له فرصة التحدّث إلى مارلين، خلال وجودنا في المطعم، وكنت أفعل، وأبتسم وهو يعلن أنني صديقه الوفيّ، وأنه يريد أن يقبّل يد مارلين، أو خدها، وكانت مارلين ترفض باشمئزاز، وعندئذ كان يسكر ويعريد، ويحاول تحطيم كل شيء.. هذا، في نظري، معروف من الرفيق المدير، ومن الرفيق مدير المطعم، ولا حاجة لتفصيل أكثر.. وفي وسعكم أن تسألوا جيفرسون نفسه، في حال الصحو، وأنا على يقين من أنه لن ينكر.

قال المحقق تن بو:

- وإذا قلت لك إن جيفرسون أنكر؟

- يكون عديم الشرف، كرفيق يعمل في بلد اشتراكي!

- وإذا قلت لك إنه اتهمك بمحاولة إحراقه؟

- يكون نذلاً!

- هل تقول هذا إذا ما أجرينا مواجهة بينكما؟

- أقوله كله، وبالأدلة والشهود!

قال المحقق تن بو:

- كلامك عن الحادث، تونجي زبيد، يتطابق مع شهادة السيّد نلسون، التي كانت حاضرة معك في بيته، عندما سقطت سيارته وأشعلت الحريق.. شكراً، وأمل أن تلاحظ أنني محقق، وإنّ من واجبي أن أباغت الذي أحقق معه، وأعطيه نوعاً من الصدمة، في بادئ الأمر!

قال زبيد:

- وهذا ما فعلته معي أيضاً!

- كنت مضطراً بحكم المهنة!

- وأنا أجبت بحكم المهنة أيضاً!

- أه! هل درست الحقوق؟

- نعم، ولكن في السجون، دفاعاً عن المبدأ!
- يدرسون الحقوق، عندكم، في السجون؟
- نعم! ولكن بوسائل أخرى، أشدّ قسوة ممّا تتصوّر.. لا بأس! أعذرک
تونجي تن بو، لأنك قادم من معركة ضد تشيانغ كاي شيك إلى هذه القاعة
مباشرة!

غضب تن بو وقال:

- أرفض هذا التشبيه، انتبه!

قال زبيد:

- أنا منتبه إلى حماسك الثوري اللاهب، وأعرف أساليب التحقيق، مثل
المباغطة والصدمة وغيرهما، وأعذرک لأنك شاب، وقد نوّه الرفيق ماو، في
كتبه وأحاديثه، بقلقه حول مستقبل الشباب، لأنهم بحاجة إلى رعاية
خاصة، وطرائق ملائمة في التوجيه.. والآن؟ انتهى التحقيق؟ إذن ضعوا
القيد في يدي حتى لا أهرب من الصين!

احتدّ تن بو وأجاب:

- لا أحد يهرب من الصين!

نظر إليه زبيد وقال:

- هذا صحيح، وأعرفه قبل أن أعمل في الصين، وعرفته مرة أخرى
بعد أن عملت فيها، لكنني، وثق بما أقول، أعرف أيضاً أن لا أحد يُعذّب
نفسياً أو جسدياً، أو يُظلم، أو تُساء معاملته، من الرفاق الأجانب في
الصين.. العدالة فوق الجميع، والحق يعلو ولا يُعلى عليه، وهذه من بدهيات
علم القانون، لذلك أضع نفسي في خدمة العدالة.. مع احتفاظ بحق الادّعاء
عليك، إذا ما ثبتت براءتي، لأنك حاولت تعذيبني نفسياً، لانتزاع اعتراف
كاذب مني! بقي لديّ سؤال واحد: من هنا إلى أين؟

قال تن بو بعصبية:

- إلى البيت! أو تبقى موقوفاً لدينا! اسمع! ذهابك إلى البيت لا يعني

أنك بريء..

- ولماذا إلى البيت؟ من الأفضل أن أبقى «ضيفاً» عليكم.. أين هي غرفة
التوقيف؟ أو ما رأيك أن أساق إلى السجن مباشرة؟ أنا، تونجي تن بو،

قَنَاصَ تجارب، وأرغب، صادقاً، أن أقنص تجربة السجن في الصين،
أوتكرّموا بها عليّ، وعندئذ أشكركم، وأقدم فروض الولاء والطاعة!
صاح المحقّق تن بو:

- تعرف ما معنى هذا الكلام؟ إنّه تحقير للقضاء في الصين! وهو،
أيضاً، تهجّم وقح على ممثل هذا القضاء بشخصي كمحقّق رسمي في
هذه القضية.. تحسب نفسك شاطرًا؟! سأريك نتيجة هذه الشطارة!
قال ذلك ورنّ الجرس، دخل شرطي مدني فقال له:

- ضع القيد في يديه، وخذه إلى سجن الخطرين في بيتاخو البلد.

أدّى الشرطي التحية، وضع القيد في يدي زبيد، ساقه إلى سيارة
مغلقة، نقلته إلى سجن الخطرين، حيث أوقف، وهو يقول في نفسه:
«بالأمس اتّهمت بأنّي لا أؤمن بالطب الصيني، واليوم اتّهم بتحقير القضاء
الصيني، وغداً؟! إنّها، يا زبيد، مغامرتك الأخيرة، وبعد ذلك إلى الجحيم،
مقرّ الأشقياء أمثالك!» ولأنّه كان مستعدّاً نفسياً، ويعرف أجواء السجون
والقواويرش، وقف وراء القضبان الحديدية المألوفة دون ندم أو أسف، رغم
أنّه، في الحوار الأخير بينه وبين المحقّق، كان متدخلًا في شأن لا يعنيه،
كان يريد نقد أسلوب التحقيق، المنبثق، بدوره، عن أسلوب اشتراكي لم
يقصّر في انتقاده، خلال وجوده في الصين، وكان هذا يورطه في مشاكل
صغيرة، ما كان يظنّ أنها ستؤدّي، في تطوّرها، إلى مشاكل كبيرة،
كمشكلته مع المستشفى الذي هرب منه، ومشكلته الآن مع المحقّق تن بو،
غير أنّ الماء المسفوح لا يُلْتَقَط بالأصابع، والريح لا تقف لمجرد رغبتنا في
أن تقف، وزبيد الذي يريد تقويم ما يعتقدّه اعوجاجاً، نسي، أو تناسى، أن
هذا الاعوجاج في صلب معمار النظام الاشتراكي البيروقراطي، وجموده
العقائدي، وتشدّده في القمع، تحت ذريعة الخوف على هذا المعمار، الذي
لم تترسّخ ركائزه بعد، أن ينهار تحت ضربات «الانتقاد غير البناء» حتى
لو كان هذا الانتقاد بناءً، ويملك صدقيته في ما جرّيات الواقع.

وقد فوجئ الموقوفون الصينيون، بوجود موقوف غير صيني بينهم،
وككلّ الحالات، في كل السجون، كان لا بد من طرح الأسئلة على هذا
«الزميل» الجديد، لمعرفة جنسيّته، قضيته، وهل هو شجاع أم خوّاف؟

وماذا يحمل معه من سكاثر أو نقود؟ وما هي الوسيلة الفضلى للاستيلاء على كل، أو بعض، ما معه، خاصة وأنه يبدو على شيء من وجهة؟ وكما في كل قاووش، داخل أي سجن، لا بد من وجود أمر من بين السجناء، لا بد، في هذا القاووش أيضاً، من وجود موقوف متنقذ، بقوة ساعده أو قوة إجرامه، يتولى الكلام، بالشكل المناسب، مع الموقوف الجديد.. زييد يعرف هذا من تجاربه، وقد توقعه، في هذا القاووش القذر إلى حد مخيف، النتن، العفن، ذي الرائحة الكريهة، المزدحم بالموقوفين والمحكومين، حليقي الرؤوس، مبطنني الأعين، عراة الأجسام، إلا ممّا يستر العورات، الفقراء، المعدمين، ضامري الأجسام، على نتوء بارز في عظام الضلوع، والكتفين، وألواح الظهور، وفي نظراتهم شرّ، ضراعة، توسل، استجداء لكل ما يمكن استجداؤه، أو أخذه عنوة، بالعنف الذي لا يرحم.

كان الحرّ شديداً، والرطوبة مرتفعة، لزجة، تجعل الثياب تلتصق بالجسم، كما تلتصق الخرقة بالدبق، ولاحظ زييد أن أحد الموقوفين يدور حوله، يتفرّسه، يسبر غوره، قبل أن يأتي ويسأله السؤال المعتاد عن جنسيّته، عن أصله وفصله، وقد حدث هذا فعلاً، وفوراً، فلما علم الرجل السجين المتنقذ أنه عربي، قال للآخرين، الذين وراءه:

- تونجي البو (الرفيق عربي).

تعالّت الأصوات، تداخلت، تقاطعت، وكثر اللغط، دون أن يفهم زييد شيئاً مما يقال، وبعد قليل تقدّم منه موقوف، رنّبقيّ النظرات، مبلوع عظم الذقن، ناحل الجسم كالريشة، تدلّ هيئته على أنه لص، فسأله:

- تعرف الإنكليزية؟

أجاب زييد:

- قليلاً!

- وأنا أعرفها قليلاً أيضاً، كنت مستخدماً في إحدى السفارات الأجنبية في بكين.

- ولماذا أنت هنا؟

- وهل تحقّق معي؟

- أريد أن أعرف شيئاً عنك، وهذا لمصلحتك.

قال الموقف بخبث:

- ولماذا تريد أن تعرف؟ وأي مصلحة لي بتعريفك بنفسي؟ أعطني سيكارة
ثم نتحدث، فاقول لك كل شيء، بعد أن تقول لي كل شيء أنت أيضًا.

تدخل الرجل المتنقذ في القياوش قائلًا، وهو يمسك عنق المستخدم
السابق، لا يدري زبيد في أي سفارة:

- تونجي ألبو نيخا(الرفيق العربي مرحبًا)!

ردّ زبيد:

- نيخا!

قال الموقف المتنقذ، مشددًا على عنق المترجم اللص:

- ماذا تعمل في الصين؟

- أعمل أستاذًا في جامعة بكين، القسم العربي.

ترجم اللص، بلغة إنكليزية مفككة، بعض ما قاله زبيد، مؤدّيًا المعنى
بصعوبة، مستعينًا على ذلك بإشارات من يديه، والموقف المتنقذ يحاول أن
يفهم، وأن يفهم، دون نجاح، إلا أن زبيد بادر إلى تقديم سيكارة له،
أشعلها بعد أن أشعل سيكارة لنفسه، وقدم سيكارة ثالثة إلى المترجم
اللص، وعندئذ هجم الموقفون الآخرون، متزاحمين، متدافعين، وامتدت
الأيدي، كغابة من الأغصان اليابسة، محاولة الاستيلاء على ما يمكن
الاستيلاء عليه، وفجأة لمع حد سكين، وهدر صوت المتنقذ صائحًا بهم:

- إلى وراء! كلكم إلى وراء! أتعرفون من هذا؟!

علت بعض الأصوات:

- لا نعرف، ولا نريد أن نعرف، ولا يهمنا أن نعرف يافون تو!

قال فون تو:

- تكلموا، يا أولاد العاهرة، واحدًا واحدًا!

قال ذلك، بصوت أمر، ممسكًا بأقرب موقف منه، موجّهًا إليه الصفعة

بعد الأخرى، حتى سال الدم من فمه، وهو يصرخ:

- لا تضرب أكثر يا فون تو، ارحمني! سأراجع إلى الورا، إلى

الجدار.. سامحني، سامحني، أريد سيكارة فقط، سيكارة واحدة اقتلني
بعدها...

قال زبيد لفون تو:

- هل هناك من يشتري لنا سيكارات؟

- اذا وُجِدَت النقود نعم!

أخرج زبيد عشرة يُونَّات، أعطاهما لفون تو قائلاً:

- اشترُوا سيكارات بها كلها.

لَوَّحَ فون تو بالنقود، شتم وقال:

- نشترى، لهذه الليلة، بخمسة يُونَّات فقط، ومن النوع الذي نشره هنا

لا أكثر! ألم أقل لكم إن هذا الرفيق عربيّ، وهو من غير صنفكم يا أوغاد؟

علينا، نحن الصينيين، ومهما يكن وضعنا، أن نحترم ضيفنا، إنه، بعد كل

شيء، معلم مدرسة في بكين!

قال موقوف:

- كلامك واضح يا فون تو، يا بغل سيتشوانى، لكننا، هنا، نحتاج إلى

خبز..

قاطعه آخر:

- خبز وسيكارات!

قال ثالث:

المسألة، يا سفلة، ليست مسألة خبز وسيكارات..

قاطعه أصوات:

- مسألة ماذا اذن؟

- مسألة نقود. ضيفنا لا يبخل علينا.. أتركوا فون تو يتفاهم معه،

وأنت، يا زو، ترجم جيّداً، قل له إننا نشكره على السيكارات، ولكن ماذا

بشأن الخبز؟ بشأن قليل من الأرز؟ قل له، يا زو، أن يكون كريماً أكثر، أن

يعطينا بالرضى كل ما معه من النقود، حتى لا نأخذها بالقوة، نعم! بالقوة،

ولكن ليس الآن..

تعالَت الأصوات:

- ومتى إذن؟

- عندما يغادرنا إلى مدرسته في بكين، وليس قبل ذلك.. هذا من

الدوق، ومن الواجب أيضاً.. انظروا! جاءت علب السيكارات.. وزّع يا فون

تو! وزّع بعدل، بانصاف، كما لو أنك توزّع الخبز، والأرز، والبيتساي، مع المرق الكثير.. أمّا اللحم فقد نسينا طعمه، لذلك لا نطالب به، وقل يا زو، لمعلم المدرسة هذا، إنهم يعطوننا بعض الطعام، للشحم فقط.. هل يكفي شحم الطعام فقط لكي نبقى أحياء؟

صاح به فون تو:

- كفى! كفى أيّها الثرثار، اخجل من ضيقنا، ماذا سيقول عنا غداً عندما يغادر الصين؟ ثم لماذا أنت هنا؟ لأنك مجرم، وهل تنتظر منهم أن يدعوك، أنت القاتل، إلى وليمة في قصر الشعب؟

- وأنت؟!

- أنا شيء آخر!

- أنت هارب من السجن، لكن إلى أين؟ يد السلطة طويلة، بطول عنقك الذي سيضعون فيه الحبل عند إعدامك.. أم نسيت أنك محكومٌ بالإعدام؟
سأله فون تو:

- وأخيراً؟! تسكت أم أبعث بك إلى...؟!

- أسكت! أسكت احتراماً للضيف، ولكن الضيف لن يتكلم علينا بسوء.. أكل من خبزنا وملحنا، وهو كمعلم بوذي، يحترم الخبز والملح.
قال زو المترجم:

- ولكن ضيفنا المعلم ليس بوذيًا!

- كيف؟! وهل في الدنيا غير البوذية؟ عجيب! هل انتهيت، يا فون تو من عدّ السكان لتوزيعها؟ أسرع، إنني في المرق الأخير..
قال زو:

- ولماذا لا تموت فنوفر حصتك؟ ساعده، يا فون تو، على طلوع روحه، وبذلك نرتاح من ابن الكلب هذا.. ما رأيك يا معلم المدرسة؟ ولكن ما اسمك أولاً؟

- زبيد، تونجي زبيد! وزع يا أخي فون تو السيكاارات بسرعة.. دعهم يدخنوا، اخوتي هؤلاء! أمّا أنا فأعديكم، أعدكم وعد شرف، ألا أتكلّم بسوء عنكم أو عن الصين، لأنني أكلت من خبزكم وملحكم، وماذا بعد الخبز والملح؟

وَرَّعَ فون تو السكائر، ساد الهدوء، انصرفوا إلى التدخين، غام الجو في كل أنحاء القاوش، اشعل زبيد، بدوره، سيكارة، راح يتنشق الهواء خلل القضببان، فكر: «ماذا يفعل الرفيق ماو، لإشباع كل هذه البطون الجائعة؟ وماذا يفعل لإخراجهم من الظلمة إلى النور؟ وهل يدرك الذين هم خارج الصين، أيُّه أعجوبة تجترحها الكلمة، لكي تبقي على شرارة الحماسة في قلوب الذين يشدون الأحزمة تقشفًا، ويتابعون البناء بهذه الوتيرة العالية؟!»

مد يده إلى جيبه، أخرج كل ما معه من نقود، قدمها إلى فون تو وقال:
- هذا كل ما أملك يا رفيق، اشتر به خبزًا وأرزًا، ووزعه بعد، على الجميع، أنت إنسان طيب، وأنا أعرف.

قال فون تو وهو يبيكي:

- وأنت؟ تطعمنا وتبقى جائعًا؟ ليتني لم أعرفك!

- لماذا؟

- لأنك.. ماذا أقول؟ وحدك الذي اكتشف أنني إنسان طيب، وأن في قلبي الأسود، أنا المجرم، بقعة غير سوداء، شكرًا، لأنَّ الكلمة.. لا بأس! اطمئن! أقول لك اطمئن، وماذا لدي غير ذلك؟!

اليومية السادسة والعشرون ١ شباط ١٩٦١

الدروجبا برج بابل من حيث اللغات، ففي وسعك أن تسمع فيها، لا اللغات الحية فقط، بل اللغات التي هي منسية تقريبًا، من الأوردية إلى المنغولية، ومن لغة التبت إلى لغة التتر، ومن الشيشانية إلى الغجرية، ما عدا اللغة العبرية، المستبعدة تمامًا، لأنَّ الصين الشعبية لا تعترف بإسرائيل، وتعادي الصهيونية كحركة عنصرية. أطفال الدروجبا وحدهم، من كلِّ الجنسيات والقوميات، يتكلمون اللغة الصينية بطلاقة، لا تدري كيف وأين تعلموها، إنما تعجب لأنها اللغة المشتركة بينهم، دون مدرسة أو مدرِّسين، وقد قال لي أحد الرِّفاق العرب الذين غادروا الصين، إن ابنته الصغيرة، كانت الترجمان بينه وبين بعض الصينيين، وكانت تقول له: «أعرف ما يقوله التونجي، لكنني، بالعربية، لا أعرف كيف أقول» ومرة

سألته: «ماذا يتكلم الناس في بلاد العرب؟» فضرب على رأسه وقال:
«ضاعت البنت!»، وعجل، بعد ذلك، بالرحيل!

حسن يتكلم الفارسية، وهي لغته الأصلية، ويتكلم أيضاً الروسية والتركية، واللغتين العربية والفرنسية قليلاً، إلا أن مارلين تتكلم الإنكليزية فحسب، ولهذا استدعاني ليعرف ما تريد، فلمّا دخلت بيته حيّيت بالصينية، فردّت لي، وضحك هو قائلاً:

- دورك اليوم، يا أخي زبيد، الترجمة فقط، لكن الصيد في نهر اليانغتسي (النهر الأصفر) وليس في بيتي!
صافحتُ مارلين وجلست، قلتُ لحسن:

- أنا، يا حسن، سأصطاد في نهر الميسيسيبي، لأنني مسافر إلى هناك، وسأخذ، إذا استطعت هذه الحساء معي، ما قولك؟

ترجم حسن ما قلته للينا، فضحكت وقالت:

- من الأفضل أن تأخذها من الآن، حتى لا تخطف حسن مني، تعرف ماذا قال لي منذ رآها؟ إنه سيتعلّم اللغة الإنكليزية!

- هذا كلام فارغ يا لينا، أنت أجمل من مارلين، وإذا تركك حسن فسأخطبك أنا، ما رأيك؟

قال حسن:

- يا ملعون! أنت أخي، وكمثلي، فلماذا تفعل هكذا؟! أنا لا أترجم هذا الكلام يا صديقي، لأنني أريد أن أجمع بين الاثنين، وبالحلال، لأنّ الإيرانيين، وفاء للقومية الفارسية، يتزوجون أربع نساء، دفعة واحدة!

سألت مارلين باللغة الانكليزية، واللهجة اللندنية المحبّبة:

- ماذا يقول الرفيقان؟ وهل لينا زوجة حسن، وكيف؟!

أجبتها:

- لينا خطيبة حسن لا زوجته، أما «كيف»؟ هذه فلا أدري! هل أنت في الدروجبا حديثاً؟

- منذ شهر وبضعة أيّام فقط، لكنني عرفت، خلال هذه المدة القصيرة، أموراً كثيرة، ومنها أن الأجنبي لا يجوز أن يحب صينية، فكيف اذا خطبها؟!

- قلت لك إن هذه الـ «كيف؟» لا أعرف عنها شيئاً، ما تبقى أنت فيه على حق، وأنا فيه على حق أيضاً، لأنهم حذروني من حب أي صينية، وأنا حذر جداً من هذه الناحية!

سألت مارلين:

- وماذا إذا أحببت الأجنبية رجلاً صينياً؟ أفلا يتساهلون من هذه الناحية؟

قلت ضاحكاً:

- جريبي!

- وما هو ثمن تجربة كهذه؟

- الشك، بكل بساطة، وهذا لا شيء!

- الشك في من؟

- في الحبيبة والحبيب معاً!

- وماذا ينتج عن هذا الشك؟

- سأجيبك عن هذا السؤال بعد دراسة قانون الأحوال المدنية في الصين!

- أنا أسأل من الناحية السياسية!

- الرفيقة باي لي تجيبك عن هذا السؤال.. إنما احذري أن تفهمك خطأ، لأنها لا تفهم إلا خطأ، بسبب من أنها «جميلة» جداً، ودوغمائية جداً، وتنقل ما تسمع إلى قيادة الدروجبا نقلاً «أميناً» جداً، تعرفين لماذا؟ لأنها عانس، وهنا الإشكالية!

- نعم! كما تقول، عرفت باي لي ولم أرتح إليها.. إنها تدس أنفها في ما لا يعنيها!

قال حسن:

- يا أخي زبيد، أنت جئت للترجمة، أم للحديث مع الضيفة؟ لطفاً! اسألها ماذا تريد أن تشرب؟

سألت مارلين فأجابت ضاحكة:

- كوكا كولا!

ضحكنا لهذه النكتة التي تدل على «خفة دم» مع أن الإنكليز مترمّتون،

ودمهم غير خفيف أبدًا، وخوفًا من أن تستاء لينا من حديثي المطول مع مارلين، قلت لها:

- ما رأيك بالماء الساخن يا مارلين؟

أجابت:

- شكرًا. لدي، كما لديكم جميعًا، «ترمس» مليء منه!

- والماء الساخن مع الشاي الأخضر؟

- لا بأس، ما دام ليس هناك غيره!

قال حسن:

- لدينا غيره الكثير: الفودكا والماوتاي والنيبذ... وأنا!

قالت مارلين:

- فقط!؟

- وماذا تريد غير؟

- أن ألقى نظرة على التحف الفارسية!

قلت:

- وأنا يا حسن أرغب في رؤية هذه التحف.

ضحك حسن وقال:

- من التحف الفارسية لا يوجد سواي؟

قالت مارلين:

- وماذا أفعل بك أنت؟

- كل شيء!

- أنت لا تنفعني في شيء، لديك خطيبتك لينا، وهي صديقتي، أريد

شيئًا آخر!

- مثل ماذا؟

- سجادة عجمية مثلاً!

في الترجمة أبدلت كلمة عجمية بكلمة فارسية، لعلمي بأن الإيراني، حتى لو كان رقيقًا، لا يرتاح إلى كلمة عجمية، لأنها، في نظره، معيبة، وقد ضحك حسن لطلب مارلين وقال:

- سجادة فارسية فقط؟! وهنا في الصين؟!

قلت من عندي:

- سجادة فارسية وتبريزية أيضاً!

- تبريزية؟! ودفعة واحدة؟! من أين علمت، هذه الحسنة، أنني تاجر

سجاد؟!!

قالت مارلين:

- من رفيق وزميل إيطالي، يعمل في الصين، ويسكن معنا في

الدروجيا!!

سألت:

- مَنْ؟ أنجيلو؟

- وهل تعرفه؟

- لا أعرف إنساناً طريفاً ومجنوناً غيره!

ضحكنا، ليانا وحسن وأنا، لأنني كنت قد رويت لهما قصة هذا المغامر،

الجاهل، المهووس بالتحف الصينية.. والآن التحف الفارسية أيضاً! ولأن

مارلين استغربت ضحكنا، سألت:

- هل أنا مخطئة؟

قال حسن:

- أنت غير مخطئة، وأنجيلو «خبير» بالتحف، قلبي له إن عندي سجادة

تبريزية، لأنني أنا من تبريز، وأرغب ببيع هذه السجادة على شرط: أن

يكون تسليمها عند مغادرتي الصين!

سألت مارلين بسذاجة:

- تبيعها له أم لي؟

قال حسن:

- له بشرط، ولك بشرط آخر!

- وما هو هذا الشرط بالنسبة إلي؟

وضع حسن يده على فمه ليخفي ابتسامته، كان شرطه أن تكون

مارلين له، فهمت هذا فوراً، قلت له: «لا تكن خبيثاً يا حسن!» قال: «ولماذا

يا اخي؟ أنا إنسان مؤمن، كمثلك، والله هو الذي أرسل لي هذا الرزق، فلماذا تريد أنت، اللعنة عليك، أن تحرمني منه؟»

سألت مارلين:

- ماذا يقول الأرفيق حسن؟

اتخذتُ سمة الجد، قلت لها:

- سيفكر في الأمر.. أنا ذاهب إلى المطعم!

نهضتُ وقالت:

- وأنا أيضًا! متى أخذ الجواب؟

ضحكنا، ضحكت لينا أيضًا، سألت مارلين ونحن نغادر:

- لماذا تضحكون:

قلت:

- لأن السجادة اشتريتها أنا!

- وأين هي الآن؟

- في تبريز!

- وهل أستطيع أن أراها؟

- سنتحدث حولها ونحن نأكل. هل تقبلين دعوتي إلى الغداء؟

- وماذا أقول لانييلو؟

- قللي له، بعد الغداء، تفاهم مع زبيد حول هذه السجادة!

- هل هذا معقول؟

- هذا وحده المعقول

- تبيعه إياها؟

- بعد أن أصطادها!

- وهل هي سمكة؟

نظرت إلى مارلين بإشفاق، رغم ذلك تابعت اللعبة، وجدتها مسلية، حسن يبحث عن الرزق، وأنا أبحث عن التسلية، ماذا في ذلك؟ أنسى محنتي قليلًا، أجد موضوعًا آخر، غير الجامعة والتدريس وإصلاح الترجمات، التسلية بريئة، لكنّها صغيرة، عليّ، وأنا أرحل عن الصين، أن

أكون مفيداً، أن أفتح عيني هذه الأنسة الإنكليزية، هذه «التونجي» الغربية مثلي، على حقيقة وهم نعيشه جميعاً: التحف! ثم التحف! عصا «المينغ» التي لدي، صدق حكايتها كل الذين سمعوا بها، بعضهم رغب في شرائها، دفع سعراً جيداً، رفضت! الغش كذب، و«الكذب رأس المعاصي»، فلماذا ارتكب معصية من هذا النوع، دون اضطرار إليها؟ في دمشق قال لي رفيق، بين جد وهزل «كلما جاءنا الفرج، أغلق بابه المبدأ!» ظنني أن هذا الرفيق، الذي فتح له باب السجن بدل باب الفرج، يجلس الآن في زاوية القاوش، مفكراً، متحسراً، أسيفاً، لأنه وقع هو وأفلت أنا، سيقول في نفسه: «حظ المبدأ يلاحقني، وهذه نعمته الصغرى، أما نعمته الكبرى فأتية دون ريب»، نجاة أمثال هذا المخلوق لا تكون إلا بالخلاص من المبدأ، ولكن كيف؟! اسمه هناك، في «الفيش»، كأسمائنا جميعاً، وما يدخل «فيش» الأمن لا يخرج منه أبداً، فأين المفر؟! وإلى أين؟! إلى آخر الدنيا؟! الصين آخر الصين، وما أنا مثل ذلك الرفيق، حتى في الصين نفسها، إذن لا بأس ببعض التسلية كما قال ديمتروف، وقد تسليت بحكاية عصا «المينغ» فلماذا لا أتسلى بحكاية «السجادة التبريزية»؟

كنت أشرب، بانتظار عودة مارلين التي قبلت الدعوة إلى الغداء، لكنّها استأذنت لمدة خمس دقائق، ريثما تبدّل فستانها، ولمعرفتي الجيدة بدقائق الأنثى الخمس، ريثما تتشيك، فقد شغلت نفسي بالشرب، تحدثت إلى الكأس، الكأس «نعم الجليس ونعم الأنيس!» كالكتاب، وفي وسع الذي ينتظر أنثى، أن يتحدث طويلاً إلى كأسه، أو إلى الكتابة، أو إلى نفسه، لا فرق، المهم الأكثر من التلفت إلى الجهة التي ستأتي منها هذه الأنثى، وأن ينسى «دقائقها الخمس»، ويتأمل الأرض وما عليها، وهو في سفر على جناح فكره، أو في ركوب متن خياله، أو الإبحار في المحيطات على شراع تخيله!

أخيراً جاءت مارلين بأبهى حلّة، فكان بهاؤها عزائي، ومن حسن الحظ أنها شاركتني في شرب النبيذ الأبيض، المبرد، فكان هذا نقطة التقاء أولى، بين مزاجينا نحن الاثنين، إلا أنّها سرعان ما كررت سؤالها:
- هل السجادة سمكة حتى تصطادها؟

قلت:

- كل تحفة، يا أنستي، أو يا سيدتي، هي سمكة، لا بدّ من دربة ومن صبر لاصطيادها!

- أنا أفضل عدم استعمال الألقاب، اسمي المجرد، مارلين، يكفي! هل هذا ما قصدته بالصيد؟

- هذا ما قصدته تمامًا، اسمي زبيد، والاسم المجرد من الألقاب، حسب اقتراحك، يسعدني، فلا حاجة إلى سيد، أو أستاذ، أو رفيق، وخاصة رفيق، أو تونجي، الذي نسمعه، في النهار الواحد، عشرات المرات، وكى لا أفهم خطأ، فإنني أكره الكلمات المكررة، المستهلكة، المتهرئة من كثرة الاستعمال، مثل شكرًا، عفواً، أرجوك، من فضلك، إذا تلطّفت، إذا تكرّمت، إذا راق لك هذا..

قاطعتني ضاحكة:

- كفى! تكاد تلغي كلمات القاموس كلها!

- وأتمنى لو تلغى القواميس كلها، مرة وإلى الأبد!

- لماذا؟

- حتى لا ننبش جثث الكلمات الميتة، أو نعلق، بدل الأحجار الكريمة، جثث الكلمات المحنطة في أعناقنا!

- أنت طريف، أو أنني أفترض ذلك، ولكن كيف نخترع الكلمات البديلة.. نصطادها كالتحف أيضاً؟

- تمامًا!!

- كيف؟ ماذا نقول بدل كلمة عزيزي، صديقي، رفيقي إلخ..؟!

- هذا ما أفكر فيه، دون نجاح حتى الآن، ومن أجل هذا التفكير سيطردوني من الصين، ولأنني سأوضع على الحدود قريباً، فإنني سأبيع تلك السجادة اللعينة، بالسعر المناسب طبعاً، أقول السعر المناسب لأنها سجادة فارسية، وتبريزية خصوصاً! وأنت، يا مارلين، لا تملكين ثمن سجادة - تحفة بكل المعايير، ولا لبعثك إيّاها!

- وما أدراك أنني لا أملك هذا الثمن؟

- علم الفراسة.. لدينا، نحن العرب، علم خاص ومستقل، اسمه علم الفراسة، ولديكم مثله، أنتم أيضاً، كجزء من علم النفس.. ماذا تاكلين؟
- الكافيار كمقبلات، مع الزبدة والخبز الأبيض، المحمص، المورّد، دون احتراق... انتبه!

دون احتراق!

- ومن أين أتيت بالكافيار والبسمات يا سيدتي الكونتيسة؟

- من عند التونجي الميتر، يا سيدي اللورد!

- وإذا كنت لا أملك ما يكفي من النقود؟

- أعطيك أنا، شرط أن ترهن السجادة اللعينة، حسب تعبيرك، عندي!

- ومن يحرر لنا عقد الرهن؟

- أنا!

- وماذا نفعل بأنجيلو؟

- نعيده إلى إيطاليا!

- دون تحف؟

- وما حاجته إلى التحف؟

- ولماذا جاء إلى الصين إذن؟

- كي يضع كتاباً عن دياناتها القديمة.. أي ما قبل الكونفوشية والبوذية!

نظرت إليها، انفجرنا بضحك مكتوم، أشعلت سيكارة لها، وأخرى لنفسي، شربنا نخباً طيباً، نهضت، أحضرت زجاجة نبيذ أخرى، قالت وهي مسرورة كما بدا لي:

- لماذا سيطردونك من الصين؟

- لأنّ لساني أطول من اللازم، فهل تتكرمين بقص قطعة منه؟

قالت مارلين:

- هذا سبب وجيه للطرْد.. هل انتقدت النظام الاشتراكي في الصين؟

قلت:

- انتقدت تطبيق النظام الاشتراكي في الصين، مع احترامي

لخصوصية الصين، وأي بلد آخر، في فهم الاشتراكية، وتطبيقها وفق هذه الخصوصية، شريطة ألا تكون هناك دوغمائية!

- صارحت الرفاق الصينيين برأيك هذا؟

- صارحت العزيزة «باي لي» فقط، ومن أجل هذا طردوني من الفرقة الحزبية، ورفضت تدريس البيانات والمقالات السياسية ضد الاتحاد السوفياتي، فأوقفوني عن التدريس، ولأنني لا أحمل جواز سفر، فرضوا عليّ الإقامة الجبرية في الدروجبا، وهكذا فأنا أتاُرجع، معلقًا بذيل طائرة ورقية، للصين فضل السبق في اختراعها!

- هل أنت جاد؟

- كيف ترينني؟

- مزاحًا!

- إلّا في أسباب النقمة عليّ!

- وماذا بعد النقمة؟

- انتظار قرار القيادة الصينية منذ شهرين!

أضفت بنبرة جدّ وأسى:

- صبر الرفاق الصينيين طويل، كليل العاشق، هل جربته؟

- الصبر أم العشق؟

- كلاهما!

- في الصين لم أجرب الاثنين بعد!

- لديك متسع من الوقت للتجريب.. ولا أحسدك على ذلك.. لنشرب، وننّس، فهذا أفضل ما يفعله إنسان مثلي، مطرود من البلاد الرأسمالية، وغير مقبول في البلاد الاشتراكية، ولم يبق له إلّا أن يلقي بنفسه من فوق سور الصين العظيم!

فكرت مارلين وقالت:

- ياه! أنت في هذا الوضع وتضحك؟

- لدينا مثل يقول: «شر البلية ما يضحك!»

- ولدينا مثل شبيه به.. لكن ماذا في وسعي أن أفعل لأجلك؟

- أن تشتري تلك السجادة اللعينة بسعر مناسب كما قلت لك.

- ليس معي من النقود ما يكفي ثمنًا لها.. ولكن كيف عرفت ذلك؟

- هذا لا يحتاج إلى نبوءة! الراتب، في الصين، يكفي للطعام والشراب... وشراء تحفة ما، صغيرة، رخيصة، من البورسلين الأزرق والأبيض، رغم صفة «خبير»، التي ليس فيها إلا القليل من الخبرة، في حقلي التعليم والترجمة والعلوم الإنسانية.. صفة خبير الحقيقية، كانت تنطبق على الرفاق السوفييات وبعض الرفاق الأجانب، هؤلاء الذين بنوا المحطات الكهربائية، والكهرمائية، والسدود، وأنشأوا المعامل، ذات الصناعات الثقيلة، وأفران معالجة الحديد والفولاذ، وبنوا الجسور، ومدّوا، عبر الجبال والأودية، الشبكات ذات التوتر العالي، وبلغ عددهم، منذ تحررت الصين عام ١٩٤٩، حوالى عشرة آلاف خبير سوفيائي، والآن رحلوا جميعًا.. سحبهم خروتشوف، زعيم الكرملين، الخفيف العقل إلى حدّ ما، لأنّهم، الخبراء هؤلاء، بنوا الصين، وهو يريد، بسبب الخلاف بين موسكو وبكين، أن يهدم ما بنوه، وبلغ من أفضاله، هذا الخروتشوف، أنّه وضع حذاه على منبر الأمم المتحدة، كجواب صامت على الذين انتقدوا بلاده، ونصح زعماء العالم الثالث باستعمال المواد الكيماوية في الزراعة، كما فعل هو في الاتحاد السوفيائي، لمنافسة الزراعة في الغرب، وأميركا خصوصًا، فضاع السماد الكيماوي، ولم تنجح زراعته، لأنّ كثرة السماد أحرقتها، كما نصّح قادة الأحزاب الشيوعية العربية، بحل أحزابهم التي لا حاجة إليها، ما دام الحكّام يبنون الاشتراكية بأنفسهم، وفق شعار «الطريق اللارأسمالي» وقد حلّت بعض هذه الأحزاب نفسها، أخذًا بنصيحته «النظرية السورالية» التي هي تطوير للماركسية اللينينية «بشكل خلاق»! وقد قال، خروتشوف هذا، إذا لم تخن الذاكرة، إنه خير من يقتل الذئاب، لأنّه، في الماضي، كان راعيًا، أو مزارعًا، أو مسقولاً عن الزراعة، ويتقن مهنة صيد الذئاب، وحذّر، من هذا المنطلق، ذئاب الرأسمالية، وهدّد بقرض سلاطنتها إلى خامس جد.. وأشياء أخرى من هذا القبيل!

هتفت مارلين:

- ياه! كم أنت لاذع اللسان!

- وطويله أيضًا، لهذا طلبت منك، وأكرّر الطلب مع الرجاء، قص قطعة من لساني، وعندئذ أعود إلى صوابي، أو يعود صوابي إليّ، أو يعود أحدنا إلى الآخر، حسب أسلوب عميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين، سواء بالكتابة، أو الكلام الشفهي، مع أننا، جميعًا، نتلمذنا عليه، ونكنّ له الاحترام، بالجديّة اللازمة، بسبب نبوغه، وشجاعته، ودراساته النقدية، الديكارتية، وما تحمل من أذى للرجعية، هذا الأزهري الضريع.

سألت مارلين:

- أنت لا تمزح.. اليس كذلك؟

قلت جازمًا:

- ولا بأي شكل يا مارلين، إنني أقول وقائع موضوعية، سمعتها، قراتها، فكرت فيها، وجاهرت بها في منفاي بלבنان، قبل أن أصل إلى منفاي في الصين، لكنّ أحدًا، من الرفاق القادة، لم يصنع إليّ، وهذا مؤسف جدًّا!

- وبسببه طردت هنا من الفرقة الحزبية؟

- إلى حدّ ما..

- إذن أنت مع الصين وضد الصين، ومع الاتحاد السوفياتي وضده في أن واحد.. كيف تفسّر هذا التناقض؟

- بالجنون! إنني، يا مارلين، نصف عاقل، نصف مجنون، وقد قلت مرارًا، إنني أحب نصفي المجنون أكثر! ما رأيك في نزهة قصيرة، بعد أن فرغنا من تناول غدائنا؟

- ولماذا نزهة قصيرة، مع أنني راغبة في سماع المزيد من أقوالك الجديدة عليّ؟

- لأنّ عليّ أن أعمل، وعليك أن تستريح!

ابتسمت مارلين وقالت:

- تريد الصراحة؟ كنت أظنّ أنّك ستدعوني إلى بيتك بعد الغداء..

- وكنت سترفضين!

- طبعًا!!

تأثر زبيد جداً، وفي أذنيه تترجّع كلمات السجين فون تو، عن «البقعة البيضاء في قلبه الأسود!» تسأل وهو يمسك بقضبان الحديد في النظارة: «هل حقاً، أنا زبيد، من جعل المجرم فون تو يكتشف البقعة البيضاء في قلبه الأسود؟ وهل قلبه أسود كما يظن، لمجرد أنه قتل، ولأنه محكوم بالإعدام؟ ثمة، في هذه الحياة، قتلة آخرون، يرتكبون جرائم أشدّ، في حق الإنسانية، ولا يبالون، لأنّ جرائمهم مخفية، تحت أسماء وصفات مختلفة، وكذلك دوافع مختلفة، وهؤلاء لا يطالهم القانون، فلماذا؟ سادة وعبيد، هذا هو المجتمع الطبقيّ، عودة إلى نظام الرق؟ ممّوه بطلاء من الديمقراطية، إذا حككته قليلاً، تكشف عن بشاعة السيّد والمسود، الظالم والمظلوم، ما دام الحق للقوّة، ودامت قوة الملكية هي «الحق المستتر» في كف رأس المال، وكل تشريع، مهما ارتقى، إعادة انتاج لهذا «الحق» الذي هو السلطة الفعلية، وفي آلية مستناتها تتمزّق لحوم الذين لا يملكون سوى قوّة الساعد أو الدماغ! مع ذلك تبقى هناك حريات، حتى دون وسائل ممارستها، يمكن الإفادة منها في النقد، في الاحتجاج، في الإضراب، في اللجوء إلى المحاكم، حيث للقضاء نوع من الاستقلالية النسبية، وهذا أفضل من الحكم الشمولي، المزخرف بشكلاية ديمقراطية، تدّعي ما ليس لها، في استلابها حريات مواطنيها في أن ينتقدوا، وأن يحتجوا، وأن يلجأوا إلى سلاح الإضراب، أخيراً!».

تابع زبيد، وهو في موقفه وراء القضبان: «هذا التفكير قد أكون مبالغاً فيه، وربما كان خطأ مصدره أنني، الآن، أستشعر ظلماً في ما حدث لي، وبدافع من هذا الشعور، أرى الأشياء معكوسة، فالصين تمر، في ثورتها الدائمة كما يعلن الرفيق ماو، في ضيق شديد، وهي ماضية في عملية

البناء، ولأجل النجاح تكرر كل طاقاتها، وتستنهض، بل وتستنفّر، كل هذه الطاقات، دفعة واحدة! إنها في حالة حرب بغير سلاح، وفي الحرب يكون الشعار: «كل شيء لأجل المعركة» وإذن، في البناء «كل شيء لأجل البناء» وهذا هو المغزى، والجوهر، أيضاً، للثورة الدائمة، ومن يقف في طريقها تزحّه، ومن يجرّم تعدمه، لكن إلى متى؟ لا جواب! ليس في إمكان أيّ منظر أن يقدّم جواباً محدّداً، أو تقريبياً، فالمدى، وهنا، غير منظور، وربما كان التكيّف أفضل نظرية في هذا المجال، فهل تتكيّف الصين، مستقبلاً، مع كل مرحلة، حسب مقتضياتها؟ لا أحد يدري، لا أحد يملك سوى الظن، وظني أنّ الصين، في شفافيتها ستكون هذه الدولة الاشتراكية المتكيفة، مع كل مرحلة قادمة و...».

وفجأة انقطع الخيط العنكبوتي لتفكير زبيد، فقد كان، من خارج القضبان، المترجم عبد القادر يلث وهو يهتف:

– ما هذا يا أستاذ! أين أنت؟!!

ابتسم زبيد، دهش، قليلاً، لرؤية عبد القادر، عجب للسرية التي أحيط توقيفه بها، ولنزق المحقّق تن بو، وتهوره غير اللائق برجل القانون، أجاب:

– هذا ما ترى يا عبد القادر، أما أين أنا فهذا ما تعرفه، أو يجب أن تعرفه، أنت قبل الآخرين، لأنك المسؤول عني!

– نعم! نعم يا أستاذ، ولكن كيف هذا؟

ابتسم زبيد بغير اكتراث، تجمّع حوله بعض الموقوفين، كان فون تو الأقرب إليه، قال لعبد القادر:

– ماذا فعلتم، يا أولاد الكلب، بهذا الرفيق الطيّب؟

ردّ عبد القادر:

– ولكن هذا لا يجوز، لماذا تشتمنا أنت؟

صاح فون تو:

– ألا تعرف لماذا أشتكم يا غبي؟! ما هذا الذي لا يجوز؟!

– أن يوقف الرفيق زبيد!

– نعيمًا! الذي لا يجوز، يا أبله، جان، وانتهى الأمر.. أه لولم أكن موقوفًا، إذن..

قال فون تو ذلك، مع شتيمة مقذعة، وهو يهرّ قضببان القاوش محاولاً ليّها أو تحطيمها، ثم مدّ يده من خلالها، محاولاً الإمساك بعبد القادر، وعندئذ صاح به الحارس:

- ارجع إلى وراء! أرجع يا فون تو، أيّها المجرم، وتذكّر..

فنجر فون تو عينيه الحمراوين، قاطعه وهو يزعق:

- أتذكّر ماذا يا ابن العاهرة، يا حثالة البشر! المشنقة؟! إنني أبصق على مشانقكم كلها!

قال زبيد لعبد القادر:

- فون تو محكوم بالإعدام، ويقول إنّ جريمة القتل التي ارتكبها كانت دفاعاً عن النفس، وكلامه، الآن، وشتائمه، هما رد فعل للشعور بالظلم، لذلك دعه وشأنه، شكراً على الزيارة، لا تقل شيئاً عن وجودي هنا للخبراء الأجانب، لا أطلب أي شيء خاص، مع السلامة!

بدا عبد القادر حزينا، مرتبكاً، غير قادر على التعبير عما يفكر فيه، يتألّم لما جرى، إلا أن المسألة ليست إدارية كي يستطيع حلّها، فالقضاء، في الصين، له استقلاليتته، نزاهته، في الحدود الممكنة، وزبيد أوقف، دون أن تكون هناك مذكرة توقيف، ودون أن يُعرض على النيابة العامة، وهذا خرق للأصول الإجرائية، وسيقول هذا غداً أو بعده، للمرجع القضائي المختص، لأنّه لا فائدة من قوله لعبد القادر.. ولأنّه أعطى كل ما معه من نقود لفون تو، فقد اكتفى بطلب واحد: أن يحضر له عبد القادر كل ما تبقى في درج مكتبه من نقود، وأن يحافظ على مفتاح الدرج، الذي فيه يومياته، وهي عزيزة عليه أكثر من المال.

قال عبد القادر:

- لن أتركك وحيداً، سأبقى إلى جانبك، أمّا نقودك التي أحضرتها، فقد استولى عليها الذين معك في النظارة.. وبالقوة!

أضاف متوجّهاً بالكلام إلى الموقوفين:

- الذي فعلتموه لا يجوز، ومع من؟ مع رفيق جاء من بعيد للمساعدة

في بناء الصين!

رد فون تو:

- وماذا فعلنا، أيُّها الإنسان المشوَّه أنت؟

- سلَّحتم تونجي زييد نقوده؟

قال زييد:

- لم يشلَّحني أيُّ زميل من الموقوفين شيئاً!

ضحك عبد القادر وهو يقول:

- لا! لا يا أستاذ، هذا لا يجوز، الموقوفون زملاؤك؟ كيف هذا!!

أجاب زييد:

- نعم يا عبد القادر، زملائي بحكم الواقع، ولأفماذا؟ كلنا هنا، وراء

القضبان، من طينة واحدة، طينة بشرية، هل تفهم ما أقول؟!

- لكن الأسباب، يا أستاذ، ليست واحدة.. هؤلاء مجرمون! انتبه!

احذر!

قال الحارس:

- مجرمون وخطرون، قد يقتلونك بعد الاستيلاء على ما معك من نقود؟

تعرف لماذا؟ كيلا تشي بهم، أو تقرّ بأنهم سلبوك هذه النقود!

كان فون تو يسمع ما يدور من حديث، فالسجين الذي كان يعمل في

إحدى السفارات ترجم له ذلك، ولو بشكل سيئ، فقال باستياء شديد، بعد

أن فهم، تقريباً، الموضوع:

- اسمع أنت، يا رأس القرد، ما أقوله بشكل جيّد: أنا، فون تو، ذاهب

للإعدام، الليلة أو غداً، إذن لم يبق ما أخاف منه أو عليه، وقد كنت أنوي،

فعلأ، أن أسلب هذا الرفيق الغريب نقوده، لأنني جائع، وماذا يفعل

الجائع، حتى لو كان مثلي؟ أنت، وهذا الحارس الذي إلى جانبك، وكل

الحراس الذين يطوقون هذا القاوش في السجن، أغبياء وسفلة بشكل

معيب، وكلمة تونجي، لا تشرفكم، ولن تشرفكم أبداً، كما تظنون! هناك

دائماً أخطاء، وأحد هذه الأخطاء الفاحشة، إطلاق كلمة تونجي على

الجميع، وتسبّر الجميع بها، وأنتم منهم.. أنكم تتسبّرون بهذا اللقب

الفارغ، وترتكبون النذالات باسمه!! أنا أيضاً كنت مثلكم، بل كنت أشرف

منكم، لأنني اشتركت في المسيرة الكبرى، وحادث القتل، الذي من أجله

حكمت بالإعدام، كان رداً لاعتداء وقع عليّ، إلا أن المحكمة لم تأخذ هذا في

اعتبارها، وحكمت عليّ حكمًا قاسيًا، أشعر معه بالظلم المرير، إلا أنّ هذا الرفيق العربي، الذي لا أعرف قصته، أو سبب توقيفه، تصرّف معنا بشهامة، وكرم، وبتقدير للدوافع التي من أجلها نحن هنا، وهو الذي اشترى كمية من علب السكاكر، وفوّضني بتوزيعها، أنا المجرم في نظركم، وبعد ذلك أعطانا كل ما معه من نقود، لشراء الخبز والأرز، وفوّضني أنا أيضًا، أنا الذي سينفد فيه حكم الإعدام، ربما الليلة، بتسلم النقود، وشراء الطعام، وتوزيعه، كما وزعت السكاكر، بعدل تامّ، فلماذا فعل هذا؟ فكروا أنتم، فكروا يا أوغاد! إنّ هذا الرفيق الطيّب، الذي يستحقّ لقب الرفيق بجدارة، جعلني أكتشف البقعة البيضاء في قلبي الأسود، الأسود لا من شعور بالذنب، بل من شعور بالظلم!»

صفّق السجناء، هلّلوا، هتفوا تحية لفون تو، قال أحدهم وهو يقترب من الشبك، الذي يلي القضبان الحديدية، بأعلى صوته الجهوري:

- وروح بوذا حرام أن يعدم فون تو، لأنه قاتل لأجل التحرير، وكان رفيقًا شجاعًا!

قال سجين آخر:

- وأنا، أيضًا، أقسم باسم بوذا ونعمته، أن فون تو مظلوم، لأنّه بريّ، ومعتدّي عليه، ومن العدل إعادة محاكمته!

صاح ثالث من أقصى القاوش:

- أقسم، مثلكم يا رفاقي، بقداسة «كوشي ين»، سيدتنا، ان فون تو لم يحكم بالإعدام لأنّه قتل دفاعًا عن نفسه، وإنّما لأنّه طويل اللسان، وقد انتقد بحقّ، أولئك الذين لا يجوز انتقادهم! هل لأجل هذا ناضلنا، نحن عمّال شانغهاي وبحارته، وقدمنا تضحيات من دم، في الظروف السريّة، وفي حربنا ضد تشيانغ كاي شيك؟! قولوا أنتم، أيّها الطيّبون، اصرخوا، احتجّوا، كيلا يعدم رفيقنا فون تو، الفلاحّ الستشواني الذي قطع ألف ميل في المسيرة الكبرى!

- كفى!

صاح فون تو مرعدًا، وعندما هدا الصخب، ونامت الضوضاء قال:

- شكرًا لكم جميعًا، أنتم الذين في هذا القاوش وخارجته، شكرًا

لعواطفكم، وكلماتكم، ومحبتكم، فقد كان بيني وبينكم ملح وبيتساي، وهذا،
في ستشوان، لا ينسى، ولو قدر لي أن أعيش فلن أنساكم أبداً!
أضاف والدمع يسيل على خديه:

- إنني، ويشهد بوذا علي، لا أبكي من جزع، أو من خوف، وإنما من
تأثر بالغ بهذا الذي سمعته، الليلة، منكم، وسمعته، أيضاً وقبلأ، من هذا
الرفيق العربي الطيب، الذي قال، بطيبة، ونقاء قلب، وشهامة رجل، إنه
زميلنا، ونحن زملاؤه! هذا وحده يجعلني أموت مرتاحاً! لكنني، قبل الموت،
أريد أن أقول للأوغاد الذين في خارج هذا القاوش: هل أزعجكم أن يقول
رفيقنا العربي هذا إنه زميل لنا؟! وهل أغضبكم لأنه بادلنا الاحترام، نحن
الذين من فئة المجرمين كما قال أحدكم؟! ولماذا إصراركم على أننا شلحناه
نقوده؟! وكيف لا تفهمون المروءة التي دفعتني إلى تقديم ما معه من نقود لنا
نحن الجياع؟! ولماذا استكبرتم أن يقدم هذه النقود لي، أنا المحكوم
بالإعدام، والموصوم بالمجرم؟! بوذا قال: «هنيئاً للمعذبين، الأبرياء، الذين
قلوبهم بيضاء كالفضة!» فمن كان يقصد بهذا الكلام؟ كان يقصدنا نحن،
المعذبين الأبرياء، بسبب الحاجة، والرفيق ماو، الذي شاركنا في القتال،
وفي الألم، وفي الجوع، خلال المسيرة الكبرى، والذي أصر، رغم الحمى،
أن يسير على قدميه، كي يعطي بغله لرفيق جريح، كان يفهم، هو قائد
المسيرة، أن على الكبير أن يتواضع، لأجل رفاقه الصغار، وبذلك يستحق
أن يكون كبيراً بينهم، وهذا الرفيق العربي الذي بيننا، كان كبيراً لأنه
ضحى، وعمل، وساعد في بناء الصين الجديدة، وكان كبيراً، مرة أخرى،
لأنه لم يميز نفسه عنّا، نحن إخوته في الإنسانية كما قال، وبذلك ارتفع،
بينما سقطتم أنتم، يا أنذال، وافترتتم علينا، دون حق، ولجرد أننا سجناء
وأنتم طلقاء، وأنهمتمونا بسلبه نقوده، نقوده هذه، التي أرميها في
وجوهكم، فخذوها واللعنة عليكم!

قال ذلك فون تو، ورمى من فجوة في الشبك الحديدي، النقود خارج
القاوش، رماها للريح، والجشع، والطمع، واستدار فغاب بين السجنا،
وراح ينشج كطفل، لأنه، كما قال، أهين، وديست كرامته، ولم يستطع أن
يثأّر لنفسه من الذين أهانوه، وداسوا على هذه الكرامة، وقد تأثر زبيد،
لهذا المشهد، وعندما جمع الحراس النقود، وتخاطفوها، قال لعبد القادر:

- اذهب الآن، وأحضر لي، غداً، ما تبقى من نقودي كما أوصيتك!
قال عبد القادر:

- ولكن كيف هذا! تعطي نقودك لفون تو، وفون تو يلقي بها خارجاً،
فيتخاطفها الحرّاس، وأنت ساكت!
سأل زبيد وهو يبتسم:

- وماذا أقول يا عبد القادر؟ أطلب إعادة نقودي إليّ؟ وهل ترضى أنت
بذلك؟

- أنا لا أفهمك يا أستاذ.. كيف تتصرّف بهذا الشكل؟
- أتصرّف كما اعتدت أن أتصرّف!
- ولكنك لم تكن في السجن قبل الآن؟
- في الصين نعم! أما قبل ذلك فقد كنت في السجن، وأعرف
المساجين، وأحبّهم، لذلك تراني، الآن، غير مبالٍ...
أضاف زبيد:

- هيّا يا عبد القادر، اذهب واعمل كما أوصيتك.
- غداً سأعمل كما أوصيتني، أما الليلة فسأبقى.. كيف هذا يا أستاذ؟
أتركك وحيداً؟ وبين هؤلاء المجرمين؟ صدقت أنّهم بوزيون، وأنهم يؤمنون
ببوذا؟

قال زبيد:

- وأنت يا عبد القادر، هل تصدّق أن البوذية انتهت، بمثل هذه
السهولة؟!

قال عبد القادر:

- كيف هذا يا أستاذ؟ حرّية العبادة مكفولة بالدستور، لكن الناس،
عندنا، لا يذهبون إلى المعابد كما عندكم.. المعابد موجودة، وفيها رهبان
وراهبات، وهم يمارسون طقوسهم بحرّية.. نحن لا نتدخل في مسألة الأديان.
- هذا مفهوم يا عبد القادر، ولكنّ الناس، عند الشدّة، يستيقظ فيهم
شعور الإيمان بقوة، وهذا طبيعي، كي لا ييأسوا يأساً نهائياً، وكي يبقى
لهم بعض من أمل.. إلّا أنّ الكلام على هذا يطول، وليس هذا مجاله،
فأذهب كما أوصيتك، وعد غداً صباحاً ومعك النقود والمفتاح.

- سأبقى إلى جانبك، وغداً صباحاً أحضر النقود... لماذا لا تتقدم بشكوى إلى رئيس الحرس، وتطلب استعادة نقودك من الحراس، كما هي الأصول!

قال زبيد بهدوء:

- أعرفك طيّب النفس، محباً، ساهراً على راحتي، ولكنّ هذا يكون خارج السجن، في الدروجبا أو بيتاخو، وليس هنا.. أنت تراني، وقد تحدثت معي، وسمعت ما دار من حديث، فهل تخاف عليّ، بعد هذا كله يا عبد القادر؟ أرجوك، اذهب ونمّ، لأنني، أنا أيضاً، سأنام بطريقة ما، واقفاً أو جالساً، فالجسم يتطلب النوم ليلاً، وخاصة عند التعب الشديد، وقد تعب كلانا، وصرنا بحاجة إلى النوم، اذهب يا صديقي، ارتح ولو لم تنم، وإلا فماذا يحلّ بك غداً؟

عاند عبد القادر، قال بجزم:

- لن أذهب، ولن أرتاح، وسأبقى في مكاني، لا لخوفي عليك، ولكن لأنني أحبّك، مهما كان راك فيّ، وهذه كلمتي الأخيرة!
- وكلمتي أنا؟

- أسمعها، أطيعها، وأنت خارج السجن، أما وأنت داخله فلا. المحقّق تنّ بو سينال جزاءه، أوكد لك.

قال زبيد:

- بالنسبة إليّ، تنّ بو كان على حقّ في الخطأ، فقد وفّر لي فرصة غالية، كي أعرف تجربة السجن في الصين.. وفّر لها عندما ارتكب هذه الحماقّة، ولولاها لظلّت تجاربي ناقصة، فالإنسان، يا عبد القادر، حين يكون صاحب مبدأ، يسير نحو هدفه وهو يعرف مصيره، وأحياناً مصيره الدامي، دون تراجع، دون تردد، لأنّه يأخذ الألم لحسابه، كما فعل الرفيق ماو في المسيرة الكبرى، وقد عرفت ذلك من تصحيح ترجمة كتاب هذه المسيرة، ألا تذكر؟

ضحك عبد القادر وقال:

- ولكن كيف هذا؟ كيف أنسى، ولماذا أنا هنا؟ استرح يا أستاذ، أنت متعب، وتحتاج إلى الراحة، وأنا باق معك لأنّه واجبي، واجب رفيق صيني،

تجاه رفيق عربي، يسهر الليالي ليقدم مساعدة هي، كما رأيت بعينيّ
الاثنين، فوق طاقتهم.. الرفاق في الجامعة، ودار النشر، وإدارة الدروجا،
يعرفون هذا كله، وقد حدث، اليوم، خطأ لا يغتفر خاصة مع رفيق مثلك.
قال زبيد:

- أنا غفرت هذا الخطأ، فلماذا تتشددون أنتم في أمره؟ كفى! تعبت،
سأحاول أن أنام جالساً، في أيّ موضع يتاح لي الجلوس فيه.
ظل عبد القادر خارج الشبك الحديديّ، تابع زبيد بنظره إلى أن غاب،
نهائياً، في زحمة السجناء، اطمأن، عندئذ، إلى أنه وجد مكاناً للجلوس،
وأهّ سيستريح الآن، وقد يغفو قليلاً، وهذا مناسب له، لكنّه سأل، مع هذا،
أحد السجناء، فذهب وعاد ليخبره أن الرفيق العربيّ نام، وأن أكثر من
سجين أخلى له مكاناً للجلوس، وأنهم، في القاوش، كانوا يشفقون عليه
من التعب والسهو، وأنهم لزموا الصمت، كيلا يوقظوه، فقال عبد القادر:
- شكراً لكم!

قال السجين:

- على ماذا؟ الرفيق العربيّ ضيف، ونحن، مهما تكن جرائمنا، لدينا
بقية من نخوة، تكفي كي نعامل ضيفنا بمودة.. لكن أنتم، الذين في
الخارج، أين ذهبتم بالنقود التي رماها فون تو؟ إنني أطالب بها، نيابة عن
زملائي، وحين أطالب بحق، لا بدّ أن أسترده، مهما يكن الثمن!
قال عبد القادر:

- أنا لم أمسّ النقود التي طيرتها الريح، الحراس هم الذين تخاطفوها،
حقك، حقكم، عند الحراس وليس عندي!

- إذن نأمر لنا رئيس الحرس!

قال الحارس المناوب:

- رئيس الحرس نائم.

صاح السجين:

- أيقظوه!

- لا نستطيع!

- كيف لا تستطيعون؟ هل هو أحد أباطرة الصين؟ زمن الأباطرة ولى،
أيقظوه قبل أن نقيم القاوش ونقعه على رؤوسكم!
تجَمّع عند الشبك الحديديّ بضعة سجناء، سمعوا الحوار بين زميلهم
والحرس، أثارتهم كلمة نقود، أغضبهم حتى الجنون أن يستولي عليها
الحراس، أن يتخاطفوهم ويتركوهم جياعاً، اندفعوا كأنّ إحصاراً مشى
بهم، أمسكوا بالقضبان الحديدية، وراء الشبك، وراحوا يصيحون بصوت
واحد، وهم يهزّون القضبان، ويحاولون ليّها، اقتلاعها، تحطيمها:
- أعيديا لنا نقودنا يا أولاد العاهرات، أعيدها فوراً وإلاّ أشعلنا النار
في القاوش، وحطّمنا كل شيء، وهدمنا الجدران نفسها، إنّنا جياع، وهذه
النقود لنا، لنا، لنا!

أسرع رئيس الحرس لتهذئة الوضع، سأل:
- من أين جاعكم هذه النقود التي تدّعون أنّها لكم؟
- من كيس أمك يا ابن الزانية! أسرع بإعادتها إلينا وإلاّ..
- تهدّدون؟!
- وممّ نخاف؟ منك؟ من جنودك؟ من سلاحك؟ من دولتك؟
- ماذا؟ تقولون دولتي، وصلت الوقاحة بكم، يا رعاع، إلى الدولة؟ هل
جننتم؟ تشتمون الدولة وهي دولتكم، دولة العمّال والفلاحين، الدولة التي
حلمنا بها عمرنا كله؟ هل فقدتم صوابكم؟
ردّوا مسعورين:

- دولتنا؟! دولة العمال والفلاحين، بينما نحن، العمال والفلاحين، نموت
جوعاً؟ أسأل رؤساءك عن الذين ناضلوا، قاتلوا، ماتوا، في سبيل هذه
الدولة، وعندئذ تخجل، لو كنت تخجل، يا عديم الشرف أنت، يا لص، يا
مجرم، يا ابن القحبة، يا من كان يبول في ثيابه، عندما كنا نحن نحمل
السلاح، وفي الخطوط الأمامية نقاتل! أرجع لنا نقودنا التي استولى عليها
حراسك، وإلا نفدّنا تهديدنا، وفوراً!
صاح بهم فن يان، رئيس الحرس:

- اخرسوا، يا مجرمين، وإلا قطعتم السننكم! تسرقين، تشلّحون،
تقطعون الطرق، تقتلون، ثم تزعمون أنّكم من العمال والفلاحين؟ العمال

والفلاحون بريئون منكم يا أولاد الكلب، نحن الذين كنا نقاتل في الصفوف الأمامية، بينما كنتم أنتم ترتكبون الجرائم في المؤخرة.. سجلاتكم عندي، ومصيركم الإعدام، بغير شفقة، لأن من بنى هذه الدولة يعرف كيف يحميها، موسكو نفسها لم تستطع إركاع بكين، وأنتم عملاء موسكو، لا أكثر ولا أقل!

صاح سجين:

- اسمع يا خرع أنت: نحن حاربنا للخلاص من تهمة العمالة، التي كانت كل سلاح تشيانغ كاي شيك، وها نحن كما كنا، نسمع النغمة ذاتها، والانتهاكات ذاتها، والقمع ذاته، فلماذا حاربنا إذن؟

ردّ فن يان:

- لو كنتم تتفقدون سياسياً لعرفتُم!

ردّ السجين المثقف إيّاه:

- نحن، يا رئيس الحرس، يا حضرة النقيب المبجل، بشمنا من تثقيفكم السياسي، أوقفوه رحمة بنا، خذوه هدية منا إليكم، انقعوه واشربوا ماءه، كلوه يا أولاد الزنى، خلصونا من صحفكم وبياناتكم المتشابهة، المملة، التي وجهها مثل قفاها، والتي لا تنفع ولا تضر، لأنها تمّ تمّ تمّ، وكل يوم، كل ساعة، كل دقيقة، نسمع اللحن نفسه، على الطبل نفسه، وقد انفلقنا من الحانكم، وأقوالكم، وجعجاتكم كلّها.. نحن جياع، نقول لكم نحن جياع، فيأتي جوابكم: تتفقدوا سياسياً!

صاح النقيب فن يان بجنوده:

- سلاحك تنكّب!

رفعت البنادق بحركة واحدة، ركّزت على الصدور، صويت فوهاتنا إلى المساجين، ساد وجوم، خيّمته رهبة، تقدّم رئيس الحرس من الشبك الحديدي، حدّق إلى المساجين، قال حقوداً:

- والآن؟! تسدّون أفواهكم وإلا أفنيكم كلّكم، وأخلص الناس من شروركم؟ اختاروا، بأنفسكم، بين أمرين لا ثالث لهما: السكوت أو الموت!! أمّا أنت، يا فصيح، يا عرص، يا من تشتم الدولة والحزب، وتهزأ بالتثقيف السياسي، وتسخر من الصحف والبيانات، وترفض أن ترى، يا أعمى،

الضائقة التي تمر بها الصين، وتتجاهل كوننا، جميعاً، نشدّ الأحزمة على بطوننا، أمّا أنت فإنك رأس الفتنة، وأنا أعرفك يا تان كو، أيّها الذي بدأ مجرمًا سياسيًا، ثم تحول مجرمًا عاديًا، قذراً، سافلاً، فإن لي معك حساباً آخر، عند حبل المشنقة!

أضاف فن يان رئيس الحرس:

- تطلبون نقودكم، فأني نقود هذه؟ ومن أين جاءتكم؟

تقدم زبيد وقال:

- أنا الذي تبرع بها، وأنا المسؤول عنها، وفي وسعك أن تشنقني، أن تصلبني، لا فرق، لكنني، أنا الرفيق العربي الغريب، لي رجاء واحد، أن تامر، يا حضرة النقيب، بإعادة السلاح إلى مكانه، مقابل ضمان كافٍ، هو إسكات زملائي السجناء!

ترجم عبد القادر كلام زبيد، تحدّث طويلاً مع النقيب، أصدر هذا أوامره بإرجاع السلاح إلى مكانه، تفرس في زبيد، قال:

- أن تكون رفيقاً عربياً وغريباً، يتطلب منك أن تكون أديباً، وإذا لم تكن أديباً توليت بنفسني تأديبك، أنت، الآن، متهم بإثارة الفتنة، إضافة إلى التهمة الأخرى، التي سجنّت لأجلها، تأكل خبزنا وتعض يدنا، تنفق النقود التي نعطيك إياها، في رشوة السجناء وتحريضهم ضدّنا، هل هذه هي المساعدة التي تقدمها لنا، انتظر ترا!

اليوميّة السابعة والعشرون ٢٩ أيار ١٩٦١

عدت إلى بيتي الصامت، الموحش، ولديّ إحساس بأنّ الزمن، في بطئه القاتل، قد انشرخ دولابه لأمر أجهله. فكرت في هذا الدولاب الزمني الدائر بتكاسل، بوئى، بتعب، من التكرار في دورة هي ذاتها منذ بدء الخليقة، فأحسست بالإشفاق على الزمن، وبالحقد عليه، مستغنياً نسياني له على مدى حياتي، وتذكّره هنا في الصين، بهذا الإلحاح الذي يبلغ حدّ السيطرة الذهنيّة، على جميع حواسّي، والإبهاظ الرصاصيّ على روحي التي تنن، في مكان ما من ذهني، أو مكان ما من شعوري، كأنّ دودة قارضة، قد استيقظت في داخلي، وأخذت ترعى في كبدي وقلبي، دون قدرة لي على

إيقافها، زجرها، ترجيها كي تكفّ عن إتلافي، بهذا الزحف الانتشاري،
المؤلم، في كل أحشائي!

باردة الأيام هنا، جائعة، نهاشة، تبتلع، كالأفعى، فريستها، وكالبحر
يحطم سفينة العمر، يغيبها في القاع، يفككها بنزق، مسلطاً عليها الصدا،
والطحلب، والرمل القاعي الذي يتراكم عليها، ليخفيها عن أعين الغواصين
الشرهة، ويتفرد بها، في تاكل دؤوب، ينخرها حتى العظم، في حديدتها
والخشب، بينما ربّانها المسكين، يتسكع حزينا على رصيف الشاطئ المهجور،
دون أمل، دون عزاء، وظلال الأيام السعيدة تتراجع إلى وراء، لتتقدّم، زاحفة،
أشباح الرؤى الأكثر بشاعة، لأيام الحاضر البائس، في الاغتراب، والوحدة،
والنبذ الذي هو عزل تام، يرتتهن، دون مقابل، أحاسيس حيّة، فيميتها صبرا،
إلى أن تتساوى والعدم، أو تجد، بين الخرائب، أطلالها الدوارس.

لقد دام هذا العزل، في زنزانة انفرادية، هي بيتي الذي تصفر فيه ريح
الكآبة، أربعة أشهر، وستة أيام، وسبع دقائق، وخمسين ثانية، عشتها
كلها، دون أن أدونها، أو أنظر في التقويم الإحصائي لها، أو أراقب عقارب
الساعة التي تمشي شائلة بالزمن، وهي تخبئ في أذني، معطية تكتكة
مفجعة، استشعرها تأبين، أو دقائق ناقوس مرحبة، كما في المقابر،
بالرفات المحمول إليها، الرفات الذي لم يمت، ومع ذلك صندوقه في نعش،
وشيعوه، وتلا الصلاة عليه، وأنزلوه، بوساطة حبل ثخين، في الحفرة
العميقة المعدة له، بعد أن تسابقوا، نفاقاً، في تجويد التأبين والمرائي
لمناقبه، كما فعلوا، ويفعلون كلّ يوم، وفي كلّ البلدان، وجميع الأنظمة، لا
لشيء سوى الطقوس، واجبة الاحترام، لازمة الاعتبار، في النقلة بين طرفي
شجرة الحياة والموت، وبعد ذلك يكون العرس والماتم، وفي كليهما تتعالى
الزغاريد والمناحات، دون أن يهتم أحد بالمصير السعيد أو التعيس،
للعرس أو الميت، أو يتأمل أحد في نوع العيش الذي عاشه ذاك أو هذا!

النسمة الوحيدة، الرهوة، المنعشة، كانت صداقة حسن وفهمي، هذين
الرفيقين الإيرانيين اللذين كانا، في الحرمة الرفاقية، يُغليان هذه الحرمة،
يعزّانها، يمنحانني إياها بكرم ونبل، فكنت أجد في معرّتهما بعض
السلوى، وفي بيتيهما الملاذ الأمين، الدافئ، في المودة السابغة، المتبادلة،
بيننا نحن الثلاثة، ولأنّ حسن كان أعزب، كان وقت فراغه أكبر، وبسماحة

نفس كريمة، راح يخصص لي أكثر هذا الفراغ، وكذلك تفعل خطيبته لي،نا،
وكنت، وربما بقيت، في أرجوحة سؤال حيرني: كيف سمح الصينيون
لحسن بأن يخطب صينية، مع كل تشددهم الحاسم في موضوع كهذا، مع
كل الأجانب الذين كانوا يعملون في الصين؟ ولماذا يبعدون تشين لاو عني،
كلما توهمت أنها تقترب مني؟ هل هذا لأنني على خلاف معهم؟ وهل وقفي
عن التدريس في الجامعة، ينسرح على حبي تالياً؟ أنا لست حسن، ولن
أخطب تشين لاو أو أتزوجها، وفي رهافة الحس الصيني، ربما أدرك
الرفاق الصينيون، في قيادة الدوجبا، أن ما بيني وبين تشين لاو لا يعدو
الرغبة، الشهوة، التسلية، العلاقة العابرة، ولهذا، ودون تنبيه أو تحذير،
أفهموني، من خلال المراقبة الدقيقة، والمواقف المتشددة مع تشين لاو، أن
ما أبتغيه غير مسموح به، وأن علي أن أكف عنه أو أذهب ضحيته، وكان
حسن يعرف هذا، ومن أجله سألني:

- هل تحب تشين لاو فعلاً يا أخي زبيد؟

أجبت:

- لم أفكر في هذا، بعد، يا حسن!

- ومتى تفكر أيها الملعون؟ افعل كمثلي!

- لا أستطيع!

- ولماذا؟!

- لأنني راحل عن الصين، غداً أو بعده، أو بعده، أو بعده..

ضحك حسن وقال:

- بعده وبعده وبعده! ما هذا الكلام يا خوجا نصر الدين (جحا)؟

- هذا الكلام يا حسن هو كلام القيادة، الذي يأتي ولا يأتي، وأنا معلق

في السقف أنتظر!

- كيف معلق في السقف؟ تريد أن تنتحر؟!

- لا! لا أفكر في الانتحار، أنا في مرجوحة، تذهب بي وتجيء، فقط،

هل فهمت؟

- ليس كثيراً، ومع ذلك، يا أخي زبيد، الانتظار طال جداً، فلماذا لا

تطلب مقابلة أي رفيق صيني في القيادة؟ افعل هذا كمثلي!

- أنا لست، يا حسن، عضواً في حزب كمثلك، ولا يحقّ لي أن أتحدّث مع القيادة كرفيق!

- وماذا تريد أن تفعل إذن؟ أنت تنتظر، تتعذّب، وهذا ما يريده الصينيون، كي تفهم أنّهم أعند منك، يا أخي، يعاندون الاتحاد السوفياتي، والحركة الشيوعية كلها، وأنت تعاندهم في الصين نفسها، فكيف هذا؟ وهل هذا معقول؟ فكّر قليلاً تجد أنّك مخطئ، ثم لماذا لا تتكلم مع العرب الذين هم في الدروجبا؟ ولماذا رفضت مصافحة الرفيق جردق المرزوقي، بعد أن نهض عن الطاولة في المطعم، وجاء إليك يمدّ يده للمصافحة؟ «رذيل أولاً قردشم»! (لا تكن رذيلاً يا أخي!) الحياة، في الصين، وفي الاتحاد السوفياتي، وفي كل العالم، الشرقي والغربي، تحتاج إلى الحركة.. لا! ليس إلى الحركة، كيف تقول؟

- المرونة!

- نعم! المرونة، لينين نفسه كان عنده مرونة، وأنت يابس الرأس كمثّل الحجر، لماذا؟

نظرت إلى حسن، تأملته، فغرّرت، أطلت التفكير، فضحك حسن وقال:

- هل أعجبتك يا ابن أمة العرب؟

ضحكت وقلت:

- وجهك أعجبنى، ولكن كلامك لا!

- وماذا في كلامي حتى لا يعجبك؟

- فيه أنه لا يعجبني!

- قرناص أولاً ياه... و! (لا تكن متصلباً!)

قلت:

- اسمع يا حسن، يا صديقي، لكل إنسان طريقه، وموقفه، في هذه الحياة، وأنا، أيضاً، لي طريقي وموقفي، فهل أنا مخطئ؟

- كثيراً يا أخي، طريقك هي طريقي، وطريق فهمي، وطريق العرب

الذين في الدروجبا، فهل أنت على حق، ونحن جميعاً على خطأ؟

ابتسمت، عانقت حسن، ودّعته قائلاً:

- الكلام، في هذا الموضوع، طويل جداً يا أخي، أنتم، جميعاً، على

حق، وأنا وحدي على خطأ، لكنني راضٍ بخطأي، فاعذرنِي، ولكن، دائماً،
الرفيق الطيب، كما عرفتكَ.. أنت وفهمي أفضل أصدقاء عرفتَهُم، فلنبق
أصدقاء وهذا يكفي!

- وماذا بشأن تشين لاو؟

- صديقة صينية جيدة، وهذا كل شيء!

- والحب؟

- ما هو لونه؟

- أخضر!

- أنا أفضل الأحمر، وفي كل شيء... إلى اللقاء يا حسن، يا صديقي
العزیز جداً.

رجعت إلى بيتي الموحش، ارتب في افكاري الموحشة، مسترجعاً، بنوع
من أسي، ما قاله حسن بيجاري، حول سلوكي العام، من فقدان المرونة،
إلى معاندة الصين وأنا في الصين، إلى رفضي مصافحة جردق المرزوقي،
إلى مقاطعتي العاملين العرب في الصين، مع أنهم يسكنون، مثلي، في
الدورجبا، ويأكلون، مثلي أيضاً، في مطعم واحد، وقبح هذا السلوك كبير،
من ناحية اللباقة، التي عليّ أن اتحلّى بها، ثم تشين لاو، وهل أحبّها، وإذا
كنت أحبّها فلماذا لا أخطبها، أو أتزوجها، كما يفعل هو مع لينا؟

كنت، وأنا اتساءل، عن هذا كله، أسمع صوتي من حنجرتي، وكان
صوتي، في معاناتي، يبدو غريباً عليّ، قبيحاً إلى درجة لا تطاق، كما لو
أني أسمع مسجلاً على شريط. هذه ليست نوبة كدر، تُغسل بصابون
العتاب، بيني وبين نفسي. إنّها نابعة من الجفوة، في سياق اللأرضى عن
تشكلي الخلفي، بين ما أنا فيه، وبين ما كنت أطمح إليه من كياسة، مُنحت،
قدراً، للغير دوني، وإذا ما كنت، رغم هذا العيب الخلفي، أنال بعضاً من
حظوة، عند هذه المرأة أو تلك، فذلك لسبب أجهله تماماً، وأعجب له عجباً
غير قليل، من غير أن يتسبب هذا الجهل، أو هذا العجب، في عقدة نفسية
عندي، لأنّ عيشي متروك على رسله، وأخذني الحياة مقترن بالعفوية، التي
معها لا أبالي بأيّ أخذ وردّ، ولا أدخل، حول أية قضية، في مهاترات
ليست من طبعي وأحسب أنّني أمجّها، وأنأى بحالي عنها.

حسن صديقي، لكنني صديق الحقيقة بقدر أكبر، حسب تعبير سقراط، وإذا كان حسن يرى رأيًا غير رأيي، فهذا حقّه، لكنني غير ملزم، حتى مع الصداقة، أن أشرح له، لماذا أقف هذا الموقف من هؤلاء المرتزقة، الذين ليس لهم مبدأ، والذين استغلّوا الخلاف الصيني – السوفياتي، ليتظاهروا أنّهم مع الصين، وأنّهم أصحاب مبدأ! إنني أحتقر مثل هذا السلوك في المسائل المبدئية، وحين أحتقر أنبذ الذي أحتقره، وهذا هو التطابق الذي أحرص عليه، بين قولي والفعل، ولن أحيّد عنه أبدًا. أما المرزوقي، هذا الأفاق الذي يستغل رفاقه الصينيين، ويذهب إلى الندوات والمؤتمرات، كآسيوي اللسان، صيني التمويل، وكل مهمته أن يشتم الاتحاد السوفياتي، فأبني أربأ بنفسي، ترفعًا، أن أرد له التحية، أو ألوث كفّي النظيفة بمصافحة كفّه القذرة! هؤلاء ليسوا عربيًا، وإن كانت جنسيّاتهم عربيّة، فالوفاء شيمة الوفي، وليس من الوفاء في شيء أن نشتم الاتحاد السوفياتي، أن نعضّ اليد التي تمتدّ لنا بالمساعدات، ومن كل الأنواع، وعلى مدى أعوام طوال، وكذلك ليس من الإنصاف، أن نجدد مواقف الصين معنا، في كل المحافل الدولية، وأن نرمي على منكبيها، كل عار الخلاف وأخطائه، فالصين، كما الاتحاد السوفياتي، مخطئة في أشياء، وعلى صواب في أشياء، وهنا، في هذه النقطة، يتجلّى الحكم المبدئي، والموقف المبدئي، لمن هم في الصين، وليسوا خارجها.

تعبت حنجرتي من صوتي، نهضت أدور في فراغ الصمت، ألوب، اتخبّط، أمشي، في خط مستقيم، بين جدار وجدار من بيتي، وعندما أعياني التجهم من الداخل والخارج، وجدت الأبد من الدواء، وكان دوائي معروفًا لديّ: القهوة والكونياك! وعندما بدأ مزاجي يطيب، رنّ جرس الهاتف، وكانت المتكلّمة السيدة بورجرون، تسأل عن حالي، وعمّا إذا كنت وحيدًا، وما إذا كنت على استعداد لاستقبالها، فأجبتها بعبارة واحدة: - تعالي، أنا في انتظارك.

بعد ذلك عدت أسمع صوتي من حنجرتي: «لا بدّ للواحد من آخر، لا بدّ للإنسان من إنسان، لا بدّ للصدر من الضلع الذي قدّمه، السيدة بورجرون حواء، وأنا زبيد الشجري آدم، وقد حملت حوائي تفاحتها، فلنقتسمها إذن، ولنكن خطيئة اللذة، سيدة الخطايا، فبها وحدها تبرعم

شجرة الحياة المباركة، وتورق، وتزهو، ويكون منها ثمر كثير، لنا وللذرياري على السواء، وهكذا، دون الزواج ومؤسسته المتعبة، تكون الصيرورة، يكون لي، من هذا اللقاح، امتداد في المستقبل، ولئن لم يفلح التلقيح، مع هذه الكونتيسة الفرنسية البهيّة، فإنه سيفلح، من غير شك، وبارادتها الحرة، مع الدوقة الإنكليزيّة الرائعة مارلين، وبقايا النار، بقايا اللظى، في راحتي والفم، كافية للأخذ بثأر جميع العنّين، في هذا العالم المجنون، العالم السكّير كبنيّه، أو كابنه الذي هو أنا، ولتخرق العفة، والفضيلة، والطهارة، من جهاتها الأربع، نكاية بها، أو تحدّيًا لها، ولنمت، في نشوة اللذة الشّهاء، كي نحيا في مهد غلمتها، وبذلك نجدد، ونتجدد، عبر الموت والولادة نحن وكل خلايانا، وبذلك ننقذ الحياة من دمار العيب، الذي لم يكن في البدء، لأنّ الحب كان في البدء، والحب في بدنه والختام، في أزله وأبده، هو التاج الذي يوضع على رأس العروسين، كي يمارسا الحب، وبعده الخيانة، في طمأنينة وهناءة!..

جاءت السيدة بورجرون تتهادى، مدركة أن ثمة وليمة لائقة بها، وأنّ الدم القاني، العربي والفرنسي، سيمتزجان في غيبوبة الافتراع، محوّمين صعودًا روحياً ثنائياً، ينبثق عن رعشة جسدين، هي الرعشة الأمتع، المتوقّزة بالقلق، والحرام، والخطيئة، وهي لذیذة بقدر ما هي متوقّزة، لم يعرف شبقها، عنفها، فحيحها، سرير الزوجية في أيّ يوم، لانتفاء الطمأنينة خارجة، وتخميمها، ببلادة مزهقة، داخله، ولأنّ، في هذا السرير الزوجي الذي لا يثن من شكاة، يكون الفصل فيه قيامًا بواجب، ومع هذا الواجب المفروض اجتماعيًا، لا يرهز السرير، لا يشكو، لا يخمر، لا يسمع، كأنّما به وقر، هو، في طبيعة البركة، يفتقر إلى اللعنة، وهذه دونها لا يغلي ماء في الصلب ولا يفور!

انحنيت، قبلت يد السيدة بورجرون كتعبير عن الاحترام، أدارت لي خدها، تعبيرًا عن المودة، فقبلته أيضًا، خلعت جاكنتها المخملية، البنيّة، الباريسيّة الصنّع، فتناولتها وعلقتّها على مشجب مدخل الصالون، قالت لي ضاحكة:

- أعرفك جنتلمانًا، ولكن ليس على الطريقة الإنكليزية التقليديّة!

قلت وأنا أدعوها إلى أخذ مكانها في صدر الصالون:
- هذه الطريقة، يا سيدتي الكونتيسة، تعلمتها من الدوقة مارلين تشارلز، وأمل أن تكون قد أرضتكم، رغم تقليديتها.. هل لك بسيكارة!
تناولت سيكارة من التبغ الصيني الفاخر، أشعلتها لها، فعلت مثلها، راقبتها وهي ترفع رأسها إلى أعلى، نافثة الدخان الرمادي، على شكل حلقات حلزونية، ترتفع إلى أعلى، تنفلش، تتبدد، تتلاشى في الفضاء لتصير منه، تتخذ لونه، بانتظار تواصل حبل الحلقات الدخانية، بانتظام، مع تواصل النفثات من الفم القرمزي، ذي الشفتين الشهوانيتين، بينما الرأس يرتفع، ينخفض، يتحول، متخذاً وضعية تأمل عصبي، راقبته خفية، ولم استغربه، لأنني أعده، وأتعده بصبر وأناة، لا بدّ منهما في مثل هذه المواقف!
سألتُ:

- هل هذا الصمت، هذا التأمل، هذه الوداعة البوذية، مدخل إلى النرفانا؟

ابتسمت السيدة بورجرون، نفضت رماد سيكارتها بسبابة رخصة، تتناسب، وتتناسق، مع أصابع الكف الأرستقراطية، الملكية، ذات البياض المشرب باللون الوردي، كأنما هي على مسرح التياترو الكبير في باريس، في حركاتها والدلال. ومجارة لها، ابتسمت بوذ، واضعاً رجلاً على رجل، في صمت ساخر إلى حد ما، متوقعاً هبوب العاصفة في كل لحظة! غير أن العاصفة لم تهب، لأنّ السيدة بورجرون، في محاولة للضغط على أعصابها، تقمّصت دور مايا، أم بوذا، التي تتصف، في الفلسفة الهندوسية، بصفات كثيرة، منها معرفة الغيب، في سحر الوهم، والتصعيد به إلى أعلى، لبلوغ درجة الألوهية كما عند الاغريقين، أو هذا ما استنتجته تقريباً، من بعض قراءاتي. لذلك أجبت عن سؤال، فيه سخرية مبطنة، حول ما اذا كنت أعرف معنى النرفانا، التي زعمت، على نحو ما، أن السيدة بورجرون تكاد تدخل فيها، قلت:

- هل هذا امتحان؟

قالت بورجرون:

- على المرء أن يكتسب المعرفة من العارفين أمثالك.

قلت ضاحكاً:

- قبل قليل خيل إليّ أنك دخلت النرفانا وخرجت منها، متقمّصةً شخصية مايا، أمّ بوذا المبجل! أمّا أنني من العارفين، فهذه نكتة مقبولة منك، ومنك فقط، وبحسب علمي أن النرفانا، كما عرفها هرمان هسه، الكاتب الألماني الشهير، هي الهدف الأسمى من التأمل، ولعلمك، وكذلك للأمانة، أنا لا أعرف اللغة الألمانية، وقد قرأت هذا الكتاب، الذي عنوانه «سدهارتا» باللغة الفرنسية، وترجمة ركيكة إليها، أو غير واضحة، أو أنني لا أفهم ما أقرأ، لا فرق، وفي هذا الكتاب، إضافة إلى ما قلته عن النرفانا، يقول الكاتب: إن النرفانا هي التجاوز، وحالة الانتشاء القصوى، وبها يتم تخطي الوجد بغير الجسم وكبح الشهوة^(١).

قالت السيّد بورجون:

- مع أنني لم أفهم جيّداً، ومثلك تماماً، فإنني أحبّ أن أعرف شيئاً عن مايا، أم بوذا، إذا أردت.

- بطيبة خاطر سيدتي، إلّا أنني، مع الأسف، لا أعرف عن مايا هذه، سوى التحليق في ضباب الوهم، ومع أنها حلّقت عالياً جداً، فهذا لم يمنعها أن تكون على الأرض، وأن تعطي نفسها، ككل امرأة، كي تحبل وتلد.. ما رأيك أن نجرب، نحن أيضاً؟

- التحليق؟

- ثم الهبوط، والاستلقاء، وإعطاء النفس بوقار ومهابة عظيمين.

- فاسق!

- هذا هو.. فهل تأذنين، لفاسقك العزيز، أن يعدّ القهوة والكونياك؟

- أنت فاسق، لكنك لست فاسقي، ولست عزيزي، ولست وفيّاً لحبي، أو مقدراً لعاطفتي.. أنت بصراحة، ذكر يريد أن يلهو، أن يتسلّى، بالأنثى، لا فرق لديه إن كان اسمها مارغريت أو مارلين أو سوزان.. وهذا عيب كبير فيك، عيب عليك أن تخجل منه.

١ - تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية، في ما بعد، ترجمة جيّدة من قبل الشاعر ممدوح عدوان، وعنه أخذت هذه المقتطفات.

قلت:

- سأخجل، هذا وعد، وبسبب خجلي لن أعض كتفك البضتين، مع أنني مولع بذلك، ولن أترك عليهما، أو على أي مكان من جسمك، أية بقعة زرقاء، فهذا الجسم الذي خلق، في تكوينه البديع، للفرجة لا للاستهلاك، سيخرج من السرير سليماً، كأنه لم يمس، على شرط ألا تكوني عنيفة، أو تعضني، لأنني سأتعري، غداً، أمام المحكمين، في مباراة لجمال الأجساد... مرة أخرى أستاذن في إعداد القهوة والكونياك، ما دامت التهيئة لا تتم دونهما.

- أعرف طقوسك في التهيئة، لكنني لا احتاجها، لأنني غير مريضة، نفسياً، أو مصابة بالبرود الجنسي، مثل تلك الإنكليزية العاهرة مارلين.
- أنت على خطأ، يا سيدة بورجرون، فالإنكليزيات باردات خارج الفراش، دافئات جداً، بل ناريات، في الفراش، وهذا ليس رأيي وحده، إنه رأي الكثيرين، ومنهم بلزك، هل تقرّين بلزك؟ إنه رائع، أوصيك بقراءة «الأب غوريو» وغيره.

- سأفعل، كرمي لك، وليس لأجل معرفة ما يقوله بلزك، أو غيره، عن الإنكليزيات، هذا امر لا يهمني في شيء، ولست مغرمةً بعلم الأجناس أو السلالات!

أعددت، بشكل متقن، القهوة، أتيت بالكونياك، وبكأسين غير فاخرتين، مثل كل شيء في شخصي أو بيتي.. جلست قرب ضيفتي المشعة، في نضج أنوثتها، إشعاع النضارة المطيبة بعطر باريس يفرح، يتضوّع، يستعجل من يشمه، إلى لثم العنق، الصدر، في مجرى النهدين، وما يليه، وبعد أن شربنا القهوة، وتذوّقنا الكونياك، سألتني:

- يُقال إنك ستغادر الصين، لأنك متصلّب في موقفك من تدريس البرنامج الجامعي، هل هذا صحيح؟

- هو وحده الصحيح، والمسألة، في جوهرها، ليست التصلّب، وإنما التمسك بوجهة نظر حيادية، في الخلاف المعروف، لا يرتاح لها الرفاق الصينيون، وهذا، في رأيي، تشدّد لا مبرر له، لو كان هناك مجال للحوار، للنقاش، للتعددية، ولو أن النظام التوتاليتاري، في شموليته الصارمة،

يفسح، أو يتساهل قليلاً جداً، بتنفس الفرد، المواطن، نسمة ما، غير ملوثة، من رنتيه لا من سرته.

- هل أفهم من هذا، أنك تريد التنفّس من رنتيك لا من سرك كما يريدون هم؟

- في هذا السؤال، على سخريته، بعض من حقيقة، أنا أنتفّس من سرّي، وأتكلّم من حنجرتي، دون صوت، وكل ما أريده، أن أنتفّس من رنتي، وأتكلّم بصوتي، وبحرية الحبال الصوتية، كما هو الشأن في النظام غير الشمولي، هذا الشمولي النمطي، المقلوب، كما هي الحال هنا، ولكي لا أفهم خطأ، أحب لك أن تبخّثي، عن الموقف مني، في غير أطر الأنظمة، فلست أنا، ولا أنت، ولا أي أجنبيّ يعمل في الصين، يبيح لنفسه أن يحشرها في موضوع النظام، وهل هو شمولي أو تعدديّ، وفي المقابل فإنّ هذا النظام، هنا، لا ينبغي أن يُرغم أمثالي على تدريس، أو ترجمة، شتائم ضد الاتحاد السوفياتي.. هل عرفت، الآن، لماذا سأرحل عن الصين، ولماذا لا أرحل، بانتظار تعليمات القيادة؟ الجواب بسيط: لا جواز سفر لديّ، ولا أيّة وثيقة، تثبت شخصيتي، وفي وسعك أن تتصوّري طيراً بغير جناحين، وأن تضعيني مكان هذا الطير.. يكفي، يا مارغو، كلامٌ حول هذا الموضوع، فالقهوة تكاد تبرد، والكونياك، في كأسينا، يتثاّب، وهذا يجعل لقائنا غير بهيج، بأيّ معيار.. لنشرب، لنكن قريبين، أحدهما من الآخر، سواء مارسنا الحب أو لم نمارسه!

شربنا، كل ما في كأسينا، جرعة واحدة، ملأت الكأسين من جديد، وضعت ذراعي على كتفيها، جذبتها نحوي، رفعت فستانها، بانت الركبة، الفخذ، الساق، بان البهاء، قلت:

- جميلة أنت يا مارغو، وحق «سان اندريه»، و«سان جورج» أيضاً!

- تقول هذا لمجرد أن انكشف لك جزء من فخذي.. لماذا تعطي الساق، والركبة، والفخذ، كل هذه الأهميّة؟

فكرت، تردّدت، بحثت، في صمتي، عن دليل، قلت:

- ولماذا أمّنت أفا غاردنر، على ساقها، بمبلغ كبير، كان مثار دهنش

هوليود؟

ضحكت وقالت:

- لو كان في الصين شركة تأمين، لأمّنت على ساقَيّ أنا الأخرى، الا
تستحقان؟

- كل الاستحقاق، ولا بدّ أن يكون في الصين شركة تأمين، لكنني لا
أدري ما إذا كانت تؤمّن على السيقان، وعلى كل فإنّ السيد جاك، زوجك
العزیز، شركة تأمين قائمة بذاتها، ولأ كان مغفلاً!

- جاك ليس المغفّل، لكنّ الجمال لا يُرى عن قرب.

- أنا معك في هذا، الجمال في البعيد يكون دائماً، وقد عبرت عن هذه
القناعة مرات عديدة، وأخطأت في ذلك مرات عديدة، لأنّه، كما قيل «على
المراء الا يرمي بدرره إلى الخنازير»! وبعض الرجال، الذين لا يكتشفون من
ساقِي المرأة تناسق جسمها، هم خنازير فعلاً، تصوّري أن بعضهم لا
يلتفت إلى مكن الجمال هذا، مع أنّ قدم المرأة، ساقها، فخذها، مراء
جمالها، حتى إنّ شاعراً كبيراً، مثل ناظم حكمت، تنبّه إلى هذا، فقال
لزوجته وحبيبته بيراييه، في قصيدة من أجمل قصائده: «قدماك اللتان
تمشيان على روحي»!

قالت السيدة بورجرون، ظاهرة البهجة:

- كم أنت قوي الملاحظة يا حبيبي، اسمعك وأكاد لا أصدق، فليس ثمة
سواك من لفتني إلى هذا، وليس سواك، بين كل الرّجال الذين التقيتهم، من
فطن إلى جمال ساقِي، وقدمي..

وتوقفت عن الكلام، متحرّجة، فابتسمتُ وقلت:

- وجمال فخذيك؟

قالت:

- هل هما جميلتان أيضاً؟

- اسألني السيد جاك!

- لا تكن خبيثاً، دع جاك خارج اللعبة!

- إذا كان فعلاً خارج اللعبة، فالسؤال يصبح نافلاً، لكنّه مشترك في
اللعبة، بطريقة شرعية تماماً، وهو، إذن، سعيد مثل سعادتك.. ألسنت مع
الشرعية الزوجية؟

- لتذهب إلى مجاري نهر السين.

تناولت قذحها بعصبية، كرعته كاملاً، قالت بنزق:
- لماذا تصادر اللحظة الجميلة في حياتي؟ أنا لست مع الشرعية
الزوجية، إنني أكرهها، أمقتها، أغتالها بالخروج عليها، هل تفهمني؟ مجرد
وجودي هنا، كافٍ كي تعرف كل هذا دون أن يُقال!
وجمت أمام النزق غير المبرر، قلت مشاكساً:
- أعرف، نعم أعرف، كل هذا دون أن يقال..
قاطعتني بانفعال أكبر:
- ماذا إذن؟ تريد أن تمتحنني؟ أن تطبق عليّ تحليلاتك النفسية؟
أجبت بهدوء:
- لا هذا ولا ذاك، ما أُرغب فيه هو: لماذا الأزواج لا يرون جمالات
بعضهم بعضاً، بعد الزواج؟
صاحت:

- وهذا تعرفه، أنا متأكدة مما أقول، إنّه من ألف باء الثقافة!
أمعنت في سخرיתי، كأنما ركبني قرد الشمبانزي، قلتُ وأنا أهرُجُ
رجلي الموضوععة على الرجل الأخرى:
- الثقافة الجنسية؟!
أضفت:

- اذا كنت تقصدين هذه الثقافة بعينها، فأسف أن أخبرك، أو
أصارحك، بأنني جاهل بها، والسبب أن المدارس الثانوية، وحتى
الجامعات، في بلادنا الشرقية، لا تدرّس، بل لا تسمح، بالكلام على هذه
الثقافة، رغم أن هناك، تحت وسائد الطلاب، كتاباً اسمه «رجوع الشيخ
إلى صباه» وهو، لعلمك، كتاب بذيء جداً، ومقرّف أيضاً! بينما أنتم، في
الغرب، مقرّرون عليكم الجنس، كمادة دراسية!
نظرت اليّ شزراً وقالت:

- قد يكون صحيحاً ما تقول، لكنك، أنت، لا تجهل هذه الثقافة، وكلامك
على الشرعيّة الزوجية، وتأكيدك بأن جاك زوجي، داخل اللعبة، لهما غرض
واضح: تذكيري بأنني أخون هذه الشرعيّة، أخون زوجي، وأن زوجي على
علم، ورضى بهذه الخيانة، وأن مارلين تشارلز، هذه الإنكليزيّة المصقعة،

تنقلب إلى نار في الفراش، وأنتك تتمتع بها، وتحترق، نشوان، بنارها، ولا تعد تهتكها خيانة من أي نوع، لأنها غير متزوجة، ولا تخرق الشرعية الزوجية بخلافي!! كف عن هزّ رجلك، لا مبالياً، ففي حضور المرأة، لا يهزّ الرجل المتحضر رجله، ولا يأتي بحركة تنم عن قلة في الذوق! أمعنت في عدم الاكتراث، قلت:

- ذهبت، يا مارغريت، بعيداً في شكوكك، وفي تأويل كلامي، وفي تحقيري المرفوض بشدة، وكذلك في الكشف عن غيرتك، وممن؟ من مارلين تشارلز! هذه «المصقعة» حسب تعبيرك، وهي ليست كذلك، وكان عليّ أن أصحح مفهومك حول المرأة الإنكليزية، وقد فعلت ذلك بموضوعية تامة، فإذا بك تثورين فجأة، دون وجه حق، فلماذا؟ أعترف: نحن لا نتلقى ثقافة جنسية، في مدارسنا والجامعات، وهذا نقص، له ثمن مدفوع، لا مجال للإفاضة فيه، الآن، وقد شرحت لك، ما تعرفينه دون شك، عن جمال القدمين والساقين عند المرأة، واستعلان تناسق جسمها، من خلال هذا الجمال، وكان خليقاً بك أن تسعدي، في قرارك على الأقل، بملاحظتي حول جمال قدميك، وساقيك، لو أنك على شيء من راحة العقل..

قاطعتني مارغريت، التي كانت تصغي إليّ، وتدخن وتشرب بشراهة:

- هل وصل بك السفه إلى الانتقاص من راحة عقلي؟ وهل أنا، في نظرك، قليلة العقل؟! وكيف تتناول عليّ بهذا الشكل، لجرّد أنني، في لحظة ضعف، أو لحظة طيش، وكنزوة لا أكثر، أسلمتك نفسي؟! المرأة، أيها المتحذلق، أوفر عقلاً، وأكثر رشداً، من الرجل، وبما لا يقاس، أفهم هذا، واحفظه جيداً.

نهضت، ملأت كأسي، عدت إلى مقعدي، أشعلت سيكارة وقلت:

- لا أرغب، يا مارغريت، في دخول مماحكة، معك أو مع غيرك..

نبرت مقاطعة كلامي:

- أنا لست مماحكة، بأية حال!

- لكنك مراوغة، كسائر النساء، في الدنيا..

قهقهت السيدة مارغريت بورجرون وقالت ساخرة:

- مراوغة؟! أنا مراوغة؟ وسائر النساء، في الدنيا، مراوغات أيضاً؟!

كنت أحسب أن سطل أنثاماتك التافهة قد فرغ، وأنتك دلقتة عليّ واسترحت، فإذا حسابي في غير موضعه، ما هي التهمة الجديدة؟

قلت محافظاً، قدر الإمكان، على هدوني:

- أنت على حق، في قولك إن لدي سطلاً من الاتهامات، واجب أن أطمئك إلى أن هذا السطل..

- دلقتة عليّ واسترحت، أليس كذلك؟

- مهما يكن الأمر، فإن سطل أنثاماتي قد فرغ، ولم يبق لدي سوى شرح بسيط..

- فيزيولوجي أم سيكولوجي؟

- تاريخي اجتماعي..

- وتفهم بالتاريخ والاجتماع، والفلسفة والعلوم الإنسانية وغيرها؟! أنت، إذن، موسوعة كاملة، متنقلة، سخية، مفتوحة الصفحات، لمن يريد أن يطلع وأن يتثقف!

- هذا هو يا عزيزتي، إذا كان اعترافي يرضيك!

- وهل أنت حريص على إرضائي؟ ومنذ متى يا سيدي العلامة؟

- منذ هدونك قليلاً، كي أشرح لك رأيي في المرأة.

- المرأة المراوغة؟

- أحياناً!

- ولماذا أحياناً، فقط؟

- دائماً!

- إذا كنت أفهم ما تقول، فأنتي، في رأيك، امرأة مراوغة!

- نعم! مراوغة المرأة سببها تاريخها الاجتماعي.

- أنت تهينني أم تهين المرأة؟ وهل هذا لأنني جئت بنفسني إليك؟

- أفهميها كما تشائين!

تناولت منفضة السكاثر وقذفتني بها، لم يكن تسديدها جيداً، لم أصب، تحطمت المنفضة الزجاجية وتناثرت شظاياها على البلاط من حولي، تنمّرت عليّ، ارتدت جاكيتها، اتجهت نحو الباب، خرجت، أغلقته بأشد ما تستطيع من قوة، دوى اصطفاق الباب، انداح، تلاشى رويداً، رويداً، رويداً!

الإنسان الوحيد الذي لا تستطيع أن تهدّده بالسجن هو السجين ذاته. النقيب فن يان، رئيس حرس السجن، لم يكن ممن يدركون حالة نفسيّة كهذه، وإلّا لما قال لزبيد: «انتظر ترا!» يرى ماذا؟ تهمة «إثارة الفتنة»؟ كان السجناء جوعاً، وكانت مع زبيد نقود، فأعطاهم إيّاها كي ياكلوا، فأين أركان الجريمة في هذا التصرف؟ وعلى فرض أن التهمة هذه تشكّل جرماً، فما الحكم فيها؟ السجن؟ زبيد سجين بطبيعة الحال، إنه مبلّل الثياب، فما خشيته من البلل؟ ولئن كان راكباً بحر المخاطر، «فمن يركب البحر لا يخشى من الغرق!» وهذا ما لم يفهمه «التونجي» النقيب، حين قال قولاً غيبياً، قابله زبيد بالهزء، بينما اغتاز عبد القادر، لقولة هذا النقيب «الفتنة» هذه هي المساعدة التي جئت لتساعدنا بها؟! «لا! فكر عبد القادر، مساعدة الأستاذ زبيد، مساعدة فعلية، غير عادية، وهو كريم، ومشفق، وقد أشفق على السجناء فأعطاهم نقوده، وهذا عمل يستحق الشكر عليه، لا توجيه تهمة ملفقة له! عريضة السجناء، في طلب المال الذي استولى عليه الحراس، مصدرها النعمة، وهم في نعمتهم على حق، فقد لا حظ الرفيق ماو، في بعض مقالاته «أن الثورة الصينيّة أيقظت ملايين الصينيين، فانفضوا من رقادر دام ثلاثين قرناً، ولن يعودوا إليه أبداً!»

سأل زبيد عبد القادر:

- فيم تفكر؟ ولماذا تفكر، وتسهر، وتصر على البقاء معي، ولا تذهب كي تستريح كما طلبت منك، يا رفيق عبد القادر؟
كرّر عبد القادر لازمته المعتادة قائلاً:

- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ أنا مرافقك بأمر من قيادة الحزب في الجامعة، فكيف أتركك؟

- وماذا ينفعني بقاؤك؟
 - ينفعني أنا!
 - تخاف لأنك لم تبلغ القيادة في بكين، بخبر سجنني؟
 ضحك عبد القادر في العتمة وقال:
 - ولكن كيف هذا؟ أبلغت القيادة، في بيتاخو بكين، وسيأتي، في قطار الليل، محقق آخر، للنظر في قضيتك!
 - وهل صارت هناك قضية خاصة بي؟!
 - لا بأس! لا بأس!
 - لا بأس بماذا؟
 - بأن تكون لك قضية، وأن يُعاد التحقيق فيها، هناك سوء تفاهم!
 قال زبيد بنبرة حاسمة:
 - ليس هناك سوء تفاهم، هناك خطأ، خطأ فظيع!
 قال السجين تان كو:
 - أشم رائحة، رائحة غريبة، رائحة موت!
 - عن أي رائحة، وأي موت تتحدث أنت يا أرنب؟
 قال ذلك سجين يقف على الشبك الحديدي بقربه، فأجابه تان كو:
 - أنفي لا يخطئ، وعيناي تريان في الظلام، أنا لست بأرنب، لكنني أشم مثله..
 أضاف السجين تان كو:
 - إذا كنت خائفًا يا فأرة، فارجع إلى وراء، وادخل هناك وكرك حتى لا ترى!
 - أرى ماذا؟
 - عملية الشنق!
 ترجم عبد القادر لزبيد ما قاله السجينان، ثم غاب قليلاً وعاد صامتاً، عاد خائفاً، لأنه لم ير عملية إعدام قبل هذه الليلة، فأدرك زبيد، من صمت عبد القادر، أن ما قاله تان كو صحيح، أن هذا الأرنب الشمام يعرف، من تجاربه، ومما رأى في السجون، أن عملية شنق ستتم، إلا أنه لم يقل من هو الذي سيشنق، وعندما سألته، قال تان كو:

- يا صاحبي، أُنْهَا الرقيق العربي الغريب، أنت سيئ الحظ!
وبعد أن شتم السجن، والسجّانين، والسلطة، ربّت على كتف زبيد
قائلاً:

- ارجع إلى وراء، أرجوك، لا أريد أن ترى عملية وحشية كهذه، أما من
هو الذي سيُشنق فلا أعرف، ففي هذا القاوش، الذي نسميه «قاوش
الموت»، عشرة محكومين بالإعدام على الأقل، فلماذا أتوا بك إلى هناك؟
أرجح أنهم يريدون إرهابك، أو الانتقام منك، فالذي أمر بهذا ابن عاهرة!
نعم! صدّقني، ابن عاهرة! إنني، أنا تان كو، الذي كان يعمل في إحدى
السفارات، وهناك تعلّم الانكليزية قليلاً، محكوم بالإعدام أيضاً، لأنني متهم
بالسرقة، كما سبق وقلت لك، ومتهم بالقتل، ولقلبك الطيب أقول، الآن: إنني
لص، لص لا قاتل، إلا أنّ القدر شاء، أو المحكمة الظالمة شاءت، بذريعة
توفر الأدلة، وشهود الإثبات، أن تحكم عليّ بالإعدام، وهذا من حسن
حظي، تعرف لماذا؟ أنا أقول لك: أن أموت مرة واحدة، أفضل من أن أموت
كل يوم مرة، على مدى عشرين عاماً مثلاً، ولو أبدلوا حكم الإعدام
بالسجن المؤبد، لكانت الكارثة، إنني أؤمن، بخلاف الآخرين، بالتقمّص، هل
تؤمن بالتقمّص أنت؟ لا!؟ جيّد، التقمّص، وهو السبيل إلى الحياة ثانية،
يمنحني السعادة، والشجاعة، والرغبة في الموت، لعلي، في حياتي الأخرى،
أكون إنساناً آخر، غنياً، أو عالماً، أو وزيراً، أو موظفاً كبيراً، وعندئذ أنعم
بالمسرّات، التي حرمت منها في حياتي هذه، عندئذ أكون سيّداً لا عبداً،
أكون حاكماً لا محكوماً، ما رأيك؟ لا رأي لك؟ إذن أنت خامة طيبة، قابلة
للإيمان بما أؤمن به أنا، وحين تؤمن، وهذا ما أدعوك إليه، تصبح سعيداً
مثلي، يتساوى عندك الموت والحياة!

تابع تان كو بعد أن أعطاه زبيد سيكارة وأشعلها له:

- اسمع يا صديقي، أنا بوذي في الأصل، والبوذية تدعو إلى نكران
الذات، إلى الزهد والتقشّف، أي إلى لا شيء، لمن هم أمثالي، من الفقراء
والمعدمين والمنبوذين، لأننا، في عيشنا الراهن.. انتظروا! عليّ أن أبحث عن
الكلمة المعبرة - في عيشنا الراهن، نحن فقراء ومعدمون ومنبوذون خلقاً،
فلماذا الإيمان، إذن، بما نحن فيه؟ البوذية، والهندوسية، تبشّر بالسلام

السمائيّ، طيّب! والسلام الأرضي! لماذا ينسون السلام الأرضي؟! قل أنت، لماذا ينسون أننا بحاجة إلى الطعام والشراب والكساء والصحة والمسرة، أننا بحاجة إلى عيش فيه كفايتنا على الأقل؟ وماذا ينفعني إذا كان، على الأرض، حقل من «البيتساي» لغيري، وأنا محروم من «بيتساية» واحدة في بيتي؟ وبماذا أفادتني الكونفوشية، في وعدها بأن تكون لي، في السماء، عشرة رؤوس من الحمير، أو من الأبقار أو الخراف، وأنا أفضل عليها، في هذه الدنيا، حماراً واحداً، أو بقرة واحدة؟! قلت هذا، في أحد السجون، فضريني المساجين! ضريني الذين يتعلّقون بحبال الوهم السماوي، لأنّ بوذا وعدهم بهذا، وعدهم بالوهم، بينما هم بحاجة إلى الحقيقة، وما هي الحقيقة التي يحتاجونها؟ إطلاق سراحهم، تمتّعهم بالحرية، توفر الأرز والخبز والرداء والحذاء لهم، هؤلاء الحيوانات الذين ضرّبوني، وسوّحوا دمي، لذلك، ومن أجل النكاية وحدها، رويت لهم الحكاية التالية: بالقرب من أحد الخنادق العميقة، في معبد بوذيّ ناءٍ، كانت ثلاثة تماثيل خشبيّة لـ «بوذا» تقف في شموخ وكبرياء.. وكان رجلان قد جاءا إلى مكان الخندق، قرب المعبد، ولم يستطيعا العبور، ففكّرا طويلاً، إلى أن هدهما التفكير إلى إقامة جسر على الخندق، ولم يجدا سوى التماثيل التي أوحى إليهما بفكرة جديدة.. صاح السجناء:

ـ ما هذه الفكرة يا تان كو؟!

«قلت لهم:

ـ أعطوني سيكارة أولاً، ودعوني أتذكّر بقيّة الحكاية.

هاجوا، ماجوا، زعقوا:

ـ يا ابن الخائبة، تروي لنا حكاية، وعند العقدة تريد أن تتذكّر؟ ماذا

نفعل إذا كنت قد نسيت؟

أجبتهم متخابثاً:

ـ فعلاً نسيت!

ـ وأعجوبة بوذا؟ أعجوبة بوذا العظيم التي تريد أن تتناساها، تذكر

ولاً حطّمنا رأسك بأحذيتنا يا ابن العاهرة!

ضحكت في سروالي، قلت لهم:

- أنتم تعرفون رأيي في التقمُّص، أي في الحياة الثانية التي اشتاقها،
فاذا كنتم جادّين في تهديدكم بقتلي، فنفذوا كي تسعدوني، ومن أجل
إرغامكم على التنفيذ، فأُنتي لن أروي لكم بقية الحكاية!
صرخوا:

- وأعجوبة بوذا العظيم يا كافر؟

- ما دمت كافرًا فلن أحدثكم عن هذه الأعجوبة!

عندئذ همدوا، تصاغروا، توسلّوا قائلين، أيديهم مضمومة على
الطريقة البوذية.

- نعتذر إليك يا تان كو، سامحنا على تصرّفنا معك، وليسامحنا بوذا
الطيب، لأنّنا خالفنا وصاياه وهددناك بالقتل، وهذا، في ذاته، ذنب كبير،
لن نستحق من أجله السلام السماوي، اذا لم تسامحنا، هيا، قل: «إنّني
سامحتكم» وأكمل بقية الحكاية.

عبست، تجهّمت، أظهرت انزعاجي، أبديت استيائي الشديد، قلت:
- لا أستطيع أن أسامحكم يا إخواني، فاعذروني، إنّني أشعر بالبرد،
وبالجوع، وليس لديّ شيء، بينما أنتم لديكم الكثير، وتدخلون عليّ بما
يستر جسمي، ويسدّ رمقي، ويعيد إليّ صفائي، كمذمّن على التدخين، ولا
سكائر لديّ!

نظر السجناء بعضهم إلى بعض، وجدوا أنّني على حق، وأن
مسامحتهم لا تتمّ إلّا باتباع طريق بوذا، بالعطف على المساكين أمثالي،
وبعد ذلك بال عليّ بوذا، صاحب القلب الشفيق، وكان بولّه قمصانًا،
وسراويل، وسكائر، وقصعة من الأرز، وأخرى من حساء البيتساي، فاكلت،
وشربت، واكتسيت، ودخّنت، وبقيت صامتًا، إمعانًا في تعذيبهم، وتشويقًا
لهم، وراحوا هم، أولاد الزنى، ينتظرون بقية الحكاية، لمعرفة الأعجوبة
العظيمة، التي صنعها بوذاهم العظيم، وأنا أتأثّر، متظاهرًا بعصر دماغي،
لتذكّر ما نسيته، إلى أن شفيت قلبي تمامًا منهم، وعندئذ تنحنحت وقلت:

- تذكرت، يا اخوتي، بقية الحكاية، فاسمعوا!

صفّقوا، التّفّوا حولي، لزموا الصمت، فخيم السكون، وطابت نفسي
فسألتهم:

- إلى أين وصلت بالحكاية؟

- إلى أعجوبة بوذا العظيم!

- لا! ليس إلى الأعجوبة، بوذا العظيم لا يستعجل مثلكم في صنع
أعاجيبه، افهموا هذا، صلّوا، اركعوا، ضمّوا أيديكم؛ ابتهلوا إلى بوذا أن
يمنحكم نعمة سلامه السماوي!

صاح أحدهم:

- وسلامه الأرضي أيضاً!

قلت:

- سلامه الأرضي أيضاً، وهكذا تنعمون بالسلامين، إذا ما كانت
قلوبكم مملوءة بالإيمان، أيّها الاخوة المحسنون!

ركعوا، ضمّوا أكفهم، تمتّعوا بالصلاة، وبالدُّعاء، ابتهلوا إلى بوذا
العظيم، أن يتعطّف عليهم، ويمنحهم بركته، نعمته، عذوبته، محبته، وأخيراً
سلامه السماوي، ويعد أن قاموا بالطقوس المعتادة، المقدّسة، وحلت عليهم
السكينة، قلت لهم:

- لماذا لم تحلقوا رؤوسكم، كرهبان بوذا، ومريديه؟

أجابوا:

- سنحلقها!

- ولماذا لم تدعوا لي؟

- سندعوا!

- ولماذا لم تقبلوا الأرض المباركة؟

- سنقبلها!

- لماذا..

قاطعني أحدهم صائحاً بغضب:

- ويعد؟!!

قلت:

- السكينة التامة، في الجو من حولكم، في القلوب داخل صدوركم، في
الضمائر والمشاعر في سرائركم!

قال:

- السكينة التامة، في كل ما ذكرت، وبعد؟

- السكينة!

ردد:

- السكينة!

- ثم السكينة!

- ثم السكينة!

- ثم السكينة!

- ثم السكينة!

قلت:

- الآن أنصتوا جيدًا..

أنصتوا خاشعين، كدت، للحظة، أن أضحك، كتمت ضحكي بصعوبة،
عضضت على شفتي لمنع لساني أن يخرج من فمي، اتخذت سمة الجد
الشديد، مسدت ذقني، تخللتها بأصابعي، رفعت رأسي، تفرست في
الوجوه من حولي، أطرقت، أطلت الإطراق، انتشرت الرهبة من حولي، حان
الوقت، حانت المنيّة، تدافعت خوفاً وقلت:

- الفكرة الجديدة، التي طرأت على الرجلين، وهما يحدقان إلى الخندق
العميق أمامهم، وإلى تماثيل بوذا الثلاثة إلى جانبهم، هي معرفة أيّ تمثال،
من التماثيل الثلاثة، يصلح لأن يكون جسراً، سواء من ناحية الطول أو
المتانة.. لذلك دققا النظر في المنحوتات الخشبية للتماثيل، فوجدا أن
التمثال الأول، ذا الوجه الأخضر، والأسنان الطويلة، يقف شامخاً، كأنه
يعبر عن قوة بوذا وجبروته، ووجدا أن التمثال الثاني ينتصب غضوباً،
والشرر يتطاير من عينيه، لذلك لم يجرؤ الرجلان على لمس التمثالين!

صاح أحد السجناء:

- المجد لبوذا العظيم يا إخوتي!

ردد الآخرون بصوت واحد:

- المجد لبوذا العظيم!

صاح آخر:

- طوبى لبوذا، كلّي الاحترام!

ردد الآخرون:

- طوبى لبوذا، كلّي الاحترام!

رفعت يدي، أمرًا بالصمت، فانتصروا جميعًا، وصمتوا بغير نأمة، عدت أتفرّس في الوجوه فوجدتها مشرقة، متهلّلة، مستعدة لتلقّي النبأ العظيم، نبأ الأعجوبة، التي لا قبلها ولا بعدها، لأنها من صنع إرادة تعلو على إرادة البشر، فقلت متابعًا الحكاية:

- بقي التمثال الثالث، وكان يبدو عطوفًا، رحيماً، تعلو وجهه ابتسامة وادعة، طيبة، ومن النظرة الأولى، تأكد أن هذا التمثال هو الأنسب للقيام بدور الجسر، لأنه على الأقل، بوذا الطيّب، المتسامح، الذي سيعفو عنهما، فحملنا التمثال خارج المعبد، ووضعاه بين حافتي الخندق، ثم عبرا عليه إلى الناحية الثانية بسلام، وأمان، وشكر جزيل، وفي هذه اللحظة، راح بوذا المستلقي بيكي، قائلاً: «يا لها من أيّام تلك التي مكنت أمثال أولئك الرّجال من أن يحكموا ويتحكّموا، في الأرض، ويا لها من أيّام تلك التي حرمتني من القدرة على ردّ الإهانة، لمجرد أن لي قلبًا رحيماً، ووجهًا عذبًا، طيّبًا، تشعّ منه روح السماح الذي لا يستحقّه الجاحدون.. انتهت الحكاية!»^(١)

صرخ السجناء البوذيّون:

- وأين أعجوبة بوذا يا ابن القحبة؟

قلت:

- الأعجوبة العظمى هي في التواضع، تواضع بوذا العظيم، الذي جعل من جسمه جسراً، يمر عليه الرجلان إلى التخم الثاني للخندق، هاتوا لي أعجوبة إنسانية أكثر نبلاً من هذه الأعجوبة، وأنا أنحني احتراماً لكم.

فكر السجناء، تأمّلوا في أعجوبة بوذا، سألوها:

- هل التواضع أعجوبة يا تان كو؟

قلت وأنا أظاهر بالاندھاش من السؤال:

١ - لا أنكر أين قرأت هذه الحكاية أو ما هو شبيه بها كنواة.

- هل تمازجونني؟! وحول من؟! حول بوذا العظيم؟! هذا عجيب، هذا لا يصدق، هذا يجعل بوذا يأسف لأنكم لم تفهموا تعاليمه، لم تفهموا ديانتته المقدسة، التي جوهرها التواضع، ثم التواضع.. اخجلوا إذن.. التواضع، يا أحبائي، جوهر المسلك الإنساني، وخاصة في هذا الزمن، زمن التكبر، والتجبر، والتبجح، وما يلي ذلك من أنانية، ومن نرجسية، إذا لم أقل الأدنى، والتسديد، والاستبداد! إذن التواضع هو قدس الأقداس، هل تفهمون؟ لا تسألوا سؤالاً بهذه السذاجة، حتى لا تخرجوا على تعاليم بوذا العظيم، وحتى لا أزعل منكم أنا!

قال السجناء:

- لا! لا تزعل، نحن نسأل فقط، وقد أجبتنا إجابة قاطعة، مانعة، نشكرك عليها، ونطلب منك السماح.

أطرقت وأنا أتمتم، راسماً على وجهي، وفي قسماته، صورة للامتعاض، فقال السجناء:

- ماذا جرى يا تان كو؟ قبل قليل ناديتنا بكلمة «إخوتي!» وهذه كلمة من كلمات بوذا العظيم، والآن تزعل لمجرد أن طرحنا عليك سؤالاً كي تطمئن قلوبنا؟! قلت:

- أنا لا أزعل، ولا يمكن أن أزعل من إخوتي، ضعوا هذا في اعتباركم كبوذيين مؤمنين، بينكم وبين السلام السماوي مسافة لا يؤبه لها! لأنكم، مثلي، مظلومون جداً، في هذا الحبس المظلم، الرطب، والقاتل!

قال السجناء:

- ألا يمكن تحديد هذه المسافة يا تان كو، أنت العليم في مسائل الدين البوذي، الذي نؤمن به، دون أن نتبحر في تعاليمه؟! أجبتهم:

- لو كنت، أنا المريد المؤمن، أعرف هذه المسافة، لكنك، الآن، أنعم بالسلام السماوي، حتى وأنا في هذا السجن الذي تعيش فيه العفونة، وتتاكل، من جرأتها، عظامنا، وتتفتت أعصابنا! دعوني، أرجوكم، أنفرغ لعبادتي.

انحنى السجناء، انحناء الشكر والعرفان، وأيديهم تؤدّي التحية البوذية، وتراجعوا إلى وراء دون استدارة، حتى لا يعطوني ظهورهم، من فرط الاحترام والتبجيل، إلا أن أحدهم، وقف فجأة وقال:

- هذا الرجل المحتال، يا اخوتي، يستغيبكم، يضحك عليكم، يقلب الأسود أبيض، بدهاء ثعلبي، قفوا في أماكنكم، أو تقدّموا حتى يكون في متناولكم، واسمعوا جيداً إلى ما أقول: الحكاية التي رواها هذا الكافر، قد دسّها علينا، أعني على البوذية، أعداء الدّاء، وكان علينا، عليكم، أن نكتشفوا ذلك، فلو كان بوذا صنع أعجوبة، لأشار بيده فانتصب جسر، من خشب أو حديد، فوق الخندق، فعبر عليه الرجلان، أما أن يُنزع بوذا من مكانه في المعبد، ويصبح جسراً يدوس عليه الرجلان بأقدامهما، فهذا تحقير لبوذا، والدليل على ذلك من الحكاية نفسها، وقد سمعتم، من هذا الدجّال، أن بوذا المستلقي، حين رأى تمثال بوذا يتخذ جسراً، ومداساً للأقدام، بكى قائلاً: «يا لها من أيام، تلك التي مكّنت أمثال أولئك الرّجال، من أن يحكموا، ويتحكّموا، في الأرض، ويا لها من أيام، تلك التي حرمتني من القدرة على ردّ الإهانة!» اذن كانت هناك إهانة، وباعتراف بوذا المستلقي، الباكي من ألم أو حزن، فأين الأعجوبة؟ فكروا قليلاً، أنتم، وقولوا لي، أين الأعجوبة؟ هناك، أيها البوذيون الطيّبون، إهانة، إهانة فقط، قلبها تان كو، بخبثه، ودهائه، إلى تواضع، وأنتم صدقتم تلفيقة التواضع هذه، وتراجعتم إلى وراء، دون أن تفكّروا، ولو قليلاً، في الفرق بين التواضع والإهانة، إنّنا، نحن البوذيّين، متواضعون، إلا أنّنا لا نقبل، إلا إذا كنا مغفّلين، أن يدوس أحد علينا وعلى تواضعنا.. اقبضوا على هذا المحتال، واضربوه حتى يكفّر عن خطيئته، عن إهانتته التي لا تُغتفر، بحق بوذا، والدّين البوذي، يا اخوتي!

ضحك زبيد من هذه الحكاية العجيبة، التي عاون عبد القادر في ترجمتها، عندما كانت إنكليزيّة تان كو الضعيفة تعجز عن التعبير عن تفصيلاتها، أو لا تجد الكلمات الإنكليزيّة الملائمة لذلك، وسأل، زبيد قائلاً:

- ماذا حل بك يا تان كو، عندما اكتشف السجناء البوذيون احتيالك، ودجلك؟

قال تان كو وهو يضحك:

- ضربوني بأيديهم، ركلوني بأرجلهم، داسوا عليّ بأحذيتهم، حتى أشرفت على الموت، ولم ينقذني منهم سوى انتقالي من ذلك السجن إلى سجن آخر، وما أنا بينكم، في هذا السجن اللعين، في مدينة بيتاخو، التي تبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة، عن مصيف بيتاخو، حيث تنتعمون أنتم، ونشقى نحن، في «قاووش الموت» هذا!

قال زبيد:

- ولكنتي، يا تان كو، أنا أيضاً من هؤلاء المتنعمين في مصيف بيتاخو، على شاطئ الباسيفيكي، والذين تحسدهم على حياتهم، ورفاهيتهم، وكل هذا لم يمنع أن أكون معك، في قاووش واحد، «قاووش الموت» دون أن أعرف ذنبي أو مصيري!

قال تان كو:

- مهما يكن! مهما يكن! أنت، أيها الرفيق الغريب، لست مثلنا، وغداً يُفْرَج عنك، بينما أكون أنا في العالم الآخر، لأنني محكوم بالإعدام، كالآخرين، وربما استجاب الله لدعائي، ووقعت القرعة عليّ، فنُفذ حكم الإعدام بي، كي اتقمص، في الحياة الثانية، إنساناً آخر.. ألم تكن حكايتي مسلية؟

- مسلية جداً، لم نشعر معها بمرور الوقت، فشكراً لك، وبالتوفيق في رحلتك.

ضحك تان كو وهو يتناول سيكارة من زبيد، ويسحب منها بقوة، فيخرج الدخان من أنفه، كما يخرج من مدخنة مصنع، وبعد أن طلب سيكارة أخرى، كزاد إضافي، أو كزاد احتياطي، قال:

- عن أي خط، وأية رحلة تتحدث أنت؟ أقول لك إن حكم الإعدام قد يُنْفَذ بي، بعد ساعة على الأكثر، وتقول لي: «شكراً وبالتوفيق؟» أي توفيق هذا؟ اليست هذه نكتة مثل حكايتي؟ انظر هناك، إلى بعيد، إنهم ينصبون المشنقة، ألا تراهم؟

كان الفجر على وشك الطلوع، نظر زبيد إلى المكان الذي أشار إليه تان كو، فرأى بعض الجنود من الحرس، منهمكين في نصب المشنقة فعلاً،

ورأى عبد القادر ذلك، فراح يلح على زبيد قائلاً:

- أرجع إلى وراء يا أستاذ، أرجع إلى وراء أرجوك، أنا ذاهب إلى البيت، لأنني خائف، وأعصابي لا تحتمل رؤية إنسان يشنق.
قال زبيد:

- اذهب يا عبد القادر، اذهب أيها الرفيق الطيب، اذهب ودعني في مكاني، فهذا المنظر ليس غريباً عليّ، لأنني رأيت مثله في السجون التي تكرمتُ فاستضافتني، بين عام وآخر!

ذهب عبد القادر، أشعل زبيد سيكارة، أمسك بالقضبان الحديدية، راح الفجر يتشقق، والنور الصباحي يبين، أكثر فأكثر، وراح هو يحدّق إلى المشنقة، ويتذكّر الذين أعدموا، ممن يعرف أو لا يعرف، من الرجال الذين أجرموا، لدوافع مختلفة، اجتماعية وطبقية، فشنعوا، والرجال أصحاب المبادئ، من رفاقه، الذين أعدموا شنقاً، من فهد ورفاقه في العراق، إلى محمد محبوب ورفاقه في السودان، إلى العاملين النقابيين، اللذين شنقا في مصر، عند بداية ثورة يوليو إلى جميع أصحاب المبادئ، في العالم كله، الذين ماتوا، وخاصة في صين تشيانغ كاي شيك، دفاعاً عن مبادئهم، وفي سبيل الاشتراكية، أو حتى العدالة الاجتماعية فقط.

فجأة تقدم بعض الحرس، شاكي السلاح، من بوابة «قاووش الموت»، وطلبوا من السجناء أن يتراجعوا إلى وراء، ونادى أحدهم:

- فون تو!

ردّت بعض الأصوات:

- إنه نائم!

وقال صوت ساخر من بين السجناء:

- ويحلم أحلاماً وردية!

صاح عريف الحرس:

- اخرس يا كلب! سأوقظه بنفسي، ولكن على حلم أسود! أما أنت فان

دورك أت.

صاح تان كو:

- ودوري؟ متى يأتي دوري؟! يا فون تو، يا أخي في الإنسانية، أفق،

انهض، القطار وُضع على سكوته، فسفرًا سعيدًا، وإلى لقاء قريب، يا صاحب الحظ الطيب!

أفاق فون تو مذعورًا، فرك عينيه، سأل:

- ماذا يجري؟ ما هذا الصباح؟

قال تان كو:

- لا شيء! حفلة وداع صغيرة، وتمنياتنا القلبية، بسفر سعيد!

- إلى أين؟

قال العريف:

- إلى مكتب رئيس الحرس، كن مطمئنًا!

وبعد أن وضع القيد في يديه ورجليه، قال له:

- دقت ساعتك يا فون تو، يا عزيزي الذي يعزُّ علينا فراقه!

طلب فون تو سيطرة من تان كو، وضعها هذا في فمه، أشعلها له، قبله، قال له:

- لا تخف! كنت أتمنى لو أكون بديلاً عنك.

نتر فون تو السيكرة من فمه وقال بصوت عالٍ، كي يسمعه الجميع:

- لست بخائف، فون تو لا يخاف المشنقة، فون تو يبصق على المشانق

والذين اخترعوها، وفون تو، يا إخوتي، لا يريد بديلاً، شكرًا لك يا تان كو،

الشكر لكم جميعًا، هذه كلمة وداع، لكنني أبحث عن رجل بينكم، رجل فتح

عينني، منحني الرؤية، جعلني، أنا المجرم، أخًا له في الإنسانية، وأراني،

بلطف، البقعة البيضاء في قلبي الأسود، كما قلت له هذه الليلة، فإذا كان

ذلك الرفيق الغريب، قد أطلق سراحه، فهذا يدعوني، في هذه اللحظات غير

العادية، إلى الراحة، وإذا كان موجودًا، فأبغى أن أقبلك، نيابة

عنكم كلكم!

قال تان كو:

- إنه موجود، إنه هناك، عند الشبك الحديدي...

مشى فون تو مشية هادئة، بخطى واثقة، لكنّه، عندما اقترب من زبيد،

عانقه والقيد في يديه، قبله، بكى! قال وهو يخرج إلى الموت:

- هذه الدمعة، هي دمعة عرفان الجميل، وبعد، لا دمع أبداً! أبداً أبداً
هل تسمعون؟!
أجابوا بصوت واحد
- نسمع!
فقال زبيد، في نفسه، متأثراً جداً: هذا إنسان لا ينسى!

اليومية الثامنة والعشرون ٥ كانون الثاني ١٩٦٢

كنا، مارلين وأنا، نشرب الكونياك في بيتي كما اعتدنا، فجأة قلت لها،
لا أدري لماذا:

- اسمعي، يا مارلين، هذه الحكاية البوذية الطريفة: تعرفين أن القرش
كان أكثر الحيوانات البحرية وحشية وشراسة وأيضاً، أشدها فتكاً،
يقضي معظم أوقاته في مطاردة الأسماك الصغيرة وابتلاعها.. وفي
اللحظة نفسها، أو في الوقت نفسه، كانت هذه الأسماك تهرب خائفة كلما
رآته، أو شممت رائحته، قادماً من بعيد. وعلى عكس القرش، كان الحوت،
يبدو وديعاً، شفوفاً على الاسماك الخائفة، فيفتح لها فمه، كي تدخل فيه
أمنة من خطر القرش، وكان هذا لا يجروء على مواجهة الحوت، وعندما
يراه يهرب منه، وكانت سلحفاة كبيرة (ترسة) ترقب ما يجري، قائلة في
ذاتها: الحوت ينقذ الأسماك الصغيرة، إلا أنها تدخل فمه، وهناك تبقى!!!
سألت مارلين:

- أين سمعت هذه الحكاية، وممن؟

قال زبيد:

- من مرافقي عبد القادر، وكذلك من الصحف.. الحكايات الصينية،
وأغلبها له صلة ما بالبوذية، رائعة، وذات مغزى إيماني، بعيد المدى.

- وما هو المغزى الذي استخلصته أنت؟

- إنني هربت من القرش، وها أنا في بطن الحوت!

- وماذا تفعل فيه؟

- أفكر في الفارق بين القرش والحوت!

- وإلى أين قادك تفكيرك؟

- إلى أن الحوت سيكون رحيماً معي، وأنتي سأخرج من بطنه سالماً،
وللحوت سابقة في هذا المجال، أي مجال حماية الإنسان، وهو في بطنه،
وإبقائه سالماً، وإيصاله إلى البر.
قالت مارلين:

- لنتكلم بواقعية ونترك الترميز، أنت، كما أفهم، تفضل أن تكون هنا،
في بطن الحوت الاشتراكي، على أن تكون هناك، مطاردًا من القرش،
الراسمالي، لماذا هذا التفضيل، والخطر عليك مائل في الحالين؟
قال زبيد:

- لأنني، هنا، أقوم بعمل ما نافع للمبدأ الذي أعتنقه، سواء في بناء
الصين، أو في تنوير الأذهان في بلادنا العربية، من خلال الترجمات، أو
إصلاح الترجمات الموجهة إلى الإنسان العربي، هل تعرفين مقولة
غرامشي، أو أحد الفلاسفة الاشتراكيين، حول مكر التاريخ، وحول نقض
المنطق الذي يقول إن التاريخ يسير بشكل مستقيم؟! للتاريخ يا مارلين
الكثير من التعرجات، والانعطافات في سيره إلى أمام! وهذا ما ينبغي
علينا أن نعرفه، ونتذكره دائماً.
قالت مارلين:

- أعرف شيئاً ما عن هذا، لكن إلى أين تريد أن تصل؟
- إلى قول واحد، بسيط وغير بسيط في آن، وهذا القول هو: الطريق في
الصين غير مسدود، ولن يصل، رغم كل ما ترين من جمود عقائدي، إلى
طريق مسدود، مهما يتطاوّل الزمن.. ستكون هناك تعرجات وانعطافات،
وتأخر، إلا أن الطريق سيظل مفتوحاً، ويتابع التاريخ مسيره إلى أمام!
- ولكن متى؟ بعد كم من الأعوام، أو العقود، أو القرون؟
قال زبيد مبتسماً من إشفاق:

- المناضل الحقيقي لا ينظر في ساعته ويعدّ الدقائق، ولا يظل مسمرًا
في مكانه وأمامه الروتامة، إنه يرى إلى بعيد، إلى بعيد جداً، إلى زمن
يستغرق عقوداً، أو قرنًا، وربما أكثر، من يستعجل النصر يفقده، على
الصعيد الشخصي، والصعيد التاريخي أيضاً! ما رأيك، يا مارلين، بكأس
أخرى من الكونياك؟

- ولماذا، زبيد، الكونيك دائماً؟
- لا تفسير لديّ سوى اللذة، ما رأيك في كأس من النبيذ؟
- واللذة؟
- في النبيذ لذة مماثلة!
قالت مارلين:

- ما دمت قد بدأت بالكونيك، ومعك أنت، يا عاشق الكونيك،
فسأكمل.. املأ الكأس من فضلك، واسمع هذه الحكاية الصينية - البوذية
الصغيرة: «اشترى رجل دمية جميلة لابنه، ولأنه يعمل في مكان بعيد عن
بلدته، طلب من صديق له، أن يقوم بتوصيل الدمية نيابة عنه، وعندما سأل
الصديق: «لمن أعطي هذه الدمية؟» أجابه الرجل باعتداد: لأجمل وأذكى
طفل في البلدة!»

سافر الصديق ومعه الدمية، وبعد مدة، عاد الرجل، صاحب الدمية،
إلى بلدته، فاكتشف أن ابنه لم يتسلمها أبداً، فراح يبحث عن صديقه، ولما
عثر عليه سألته: «لماذا لم توصّل الدمية إلى ابني، كما طلبت منك؟» أجاب
الصديق مستغرياً: «ألم تطلب مني، يا صديقي، أن أعطيها لأجمل وأذكى
طفل في القرية؟» قال الرجل: «نعم!» فقال الصديق: «وأنا أعطيتها لابني!».
سأل زبيد:

- وماذا قصدت، يا مارلين، بهذه الحكاية العذبة؟
قالت مارلين:

- إذا وجدت من هي أجمل، وأكثر وفاء مني، فأعطيها «الدمية»!
تأملها زبيد، أطال التأمل، دحّنا، شرباً المزيد من الكونيك، مدّ يديه،
أعطته يدها، أخذها بين كفيه، مسّها، كانت حارة، قلب اليد، قبل راحتها،
اشتّم فيها كل أنوثتها، قال:
- ما أسرع الزمن يا مارلين، تذكرين بداية تعارفنا؟
قالت ضاحكة:

- أنكرها وأذكر قصة السجادة التبريزية.. كنت يومها ساذجة، صدقت
حكاية السجادة، وكان حسن وزوجته يضحكان، أنت من أنقذني من ورطة
الغفلة التي وقعت فيها، وبعد ذلك، ومع الأيام، وبمساعدتك، عرفت رأسي

من قدمي، تعلّمت ألا استعجل، وأن عالم الصين، ذا الحضارة العريقة، عالم عجيب، غريب، وأن هذه الرّمانة، من الصعب معرفة ما في داخلها قبل كسرها، وكى نكسرها، أو نقطعها بسكين حادة، لا بدّ من الصبر، لأنّها رمانة رقيقة القشرة، تكاد تشفّ عمّا في جوفها، فإذا حاولت، وجدتها صلبة، عسوية من الداخل، بأكثر ممّا هي من الخارج، وأن لكل واحدة من حباتها، قصة تتشعب إلى قصص، وليس في وسع أحد، من غير أهل الصين، أن يزعم أنّه يعرف الصين، وأنّه قرأ هذا «الكتاب» وختمه، ألسنت على حق؟

ضحك زبيد، رفع كأسه وقال:

- في صحتك أيتها الصغيرة الشاطرة، يا ابنة بوذا الضاحك!

قالت مارلين:

- يسرّني هذا الإطراء، معناه أنّني بدأت أقرأ الأبجدية الاجتماعية الصينية.

قرع زبيد كأسه بكأس مارلين وقال ضاحكاً:

-... والأبجدية النفسية والحضارية والسياسية والتاريخية أيضاً.. لكنّ هذا ليس كل شيء! ما بقي، يا عزيزتي، هو الأهم: الثورة الصينية! كي ندرك، وبعمق، الحماسة الصينية في البناء، يحسن بنا أن نلّم بظروف النضال الدامي، الذي خاضه الشعب الصيني حتى حقّق النصر. أضاف زبيد:

- في زيارة قمت بها لمسقط رأس ماوتسي تونغ، رأيت جدران هذه البلدة المتواضعة محنّة بالدم، وفي البيت الذي ولد فيه الرفيق ماو، والذي تحولّ متحفاً الآن، رأيت الكثير والكثير من صور شهداء النضال السريّ، الذين أُعدموا شتّى، أو ماتوا تحت التعذيب، وكان هؤلاء الشهداء ممن عملوا مع الرئيس ماو، وفي محيط منطقته فقط.. متحف الشهداء هذا، يا مارلين، يكاد يكون موجوداً في كل منطقة، إذا لم نقل في كل بيت.. لقد كان غالباً ثمن تحرير الصين، وكذلك ثمن وحدتها، هي التي كانت محكومة، في مناطقها المتباعدة والمتنافرة، من قبل أمراء الحرب، وزعماء الكومنتانغ، وتوحّدت، لأول مرة في تاريخ الصين، بعد انتصار الثورة الصينية.. هذا ما قلته مراراً، وأعدته الآن، ربما بغير سبب أو مبرر!

قالت مارلين:

- لماذا دون مبرر؟ هذا ما كنت أجهله، تقريباً، قبل أن تقوله، ولكم فكرت في حماسة الشيبيبة الصينية، وتساءلت: إلى متى؟ وما هو الباعث؟ والآن، بعد شرحك الجيد لأسباب هذه الحماسة، أتذكر أن رفيقاً صينياً، يعمل معنا في قسم اللغة الإنكليزية، قال لي: «منذ ثلاث سنوات لم أر زوجتي!» فلما استغربت أوضح لي، ببساطة، أن الواجب اقتضى ذلك، وأن زوجته تعمل أيضاً، كمهندسة، في مكان بعيد عن بكين، وأنهما سعيدان، رغم هذا البعد، لأن بناء الصين تطلب ذلك!

أضافت مارلين:

- لم أستطع فهم هذا المنطق! أكثر من ذلك، رفضته، فقد كان، في تصوّرِي «احتقاناً ثوريّاً مصطنعاً!» إذ كيف يفترق زوجان، بعد عرسهما مباشرة، طول هذه المدة، بذريعة الواجب؟! وأين الحب في هذا الزواج؟! وكيف يصبر أحدهما على هذا البعد، ولو من أجل بناء الصين؟! صحيح هناك إجازة ما في السنة، وهناك الأعياد والعطلات الرسمية، لكن هذا لا يكفي، لا يبرّر ابتعاد عريس عن عروسه وهما في فورة الشباب، وهما أنت، يا زبيد، تشرح ظروف الصين الشعبية، ذات الخصوصية الفريدة، وتفسّر، بنوع من العقلانية، هذا «الاحتقان الثوري»، وأنا معك في هذا التفسير، وأرغب في الاقتناع به، لو لم تضع «الواجب» في تعارض مع «الحب»، وهذا غريب عن الطبيعة البشرية!

قال زبيد مازحاً:

- أنت على حق يا مارلين! ولكنك، عملياً، تعيشين نوعاً من «الاحتقان الثوري» المضحك، أرغب في الاقتناع به دون جدوى! لنشرب بغير فلسفة، وندخّن بغير فلسفة، ونعش حياتنا في الصين بغير فلسفة أيضاً! هذا أدعى إلى الراحة، يا فيلسوفتي الصغيرة والجميلة!

قالت مارلين نزقة:

- أن نشرب يا صديقي فهذا جيد، والآن نتفلسف فهذا جيد أيضاً، لكنني، وبخلاف ما تدّعي، غير مصابة بأي نوع من «الاحتقان الثوري»، والمضحك منه خصوصاً!

قال زبيد:

- بلى! أنت، يا مارلين، محققة ثورياً، دون أن تدري!
- تعني أنني غبية، أو مغفلة؟ هذا ليس من اللياقة يا زبيد.. أتهام
الأخر، الأخرى، سهل، إلا أن إثباته صعب، صعب جداً.
- من قال إنه صعب؟

- أنا!

- ولماذا أنت في الصين؟
- ليس من أجل المال أو الثُحف كما تتوهم!
- من أجل ماذا إذن؟

نبرت مارلين:

- هذا استدراج سيئ! أنت لست محققاً، وأنا لست متهمة، فكيف فاتك
هذا؟!

ضحك زبيد، قبل يدها، سقاها جرعة من الكونياك، عاد إلى الضحك،
أشعل لها سيكارة، تابع ضحكه العفوي، أغاظها ضحكه لبرهة، بعد ذلك
ضحكت بدورها وهي تقول:
- هذا ما يسمونه..

قاطعها زبيد:

- قلّة أدب!

- نعم! أنت قلت!

- وإذا أثبت لك أنه من الأدب، ومن الأدب الرفيع أيضاً؟ أنت، يا
مارلين، مثلي ومثل كل الآخرين، فنحن، جميعاً، نزعم أننا جننا إلى الصين
قياماً بواجب، ولأننا كذلك، ابتعدنا عمّن نحب في بلدنا رغماً عنا، وهذه
حال ذلك الرفيق الصيني الذي ابتعد عن زوجته، فأين الغرابة؟ وأين
التناقض؟ وأين التعارض بين الحب والواجب؟ نعم! هناك «احتقان ثوري»
ولكن بالمعنى الطيّب، ليت جميع الناس، في جميع البلدان، يصابون به،
وعندئذ تتحقّق الاشتراكية بسهولة.. ودون فلسفة!

ضحكت مارلين وقالت:

- أنت خبيث يا زبيد، ولكن بالمعنى الطيّب كما قلت... ما رأيك أن أعقد
صلحاً بينك وبين الفلسفة؟

قال زبيد:

- أكون شاكراً لو تمّ ذلك!

- وما سبب عدائك للفلسفة؟

- لأنّها زوجتي!

- وتريد الطلاق منها؟

- بالثلاثة كما يقولون عندنا!

- ومن تتزوّج بعد طلاقك منها؟

- مارلين!

- مارلين أم تلك الصينية تشين لاو؟

- مارلين لأجل الحبّ، وتشين لاو لاكتساب الجنسية الصينية!

أضاف زبيد جاداً:

- تعرفين يا مارلين أنّني، الآن، بلا جنسيّة، أي لا وطن لي ولا هوية،

فهل يرضيك أن أبقى كذلك؟

- طبعاً لا!

- إذن ما العمل؟

- تتزوّج السيدة بورجرون فتأخذ الجنسيّة الفرنسيّة!

- أنا أرغب في الجنسيّة الإنكليزيّة!

- أنت لا تسعى جاداً لنيل أيّة جنسيّة، وإذا كان لا يزعلك قلبي، فإنّك

تتسلّى، كأنّه لا قلب لك..

- هذا صحيح!

- وأنت تريد أن تجمع بين السيدة بورجرون وبين تشين لاو!

- هذا صحيح أيضاً!

- وأنك ابن عاهرة!

- هذا صحيح أيضاً وأيضاً!

- وأين الوفاء في كل هذا؟

- في «الجبل العطري»!
 - الذي زرتة مع السيدة بورجرون؟
 - زرتة عدة مرات، فأني مرّة تقصدين؟
 - المرّة التي رأيت فيها بوذا الضاحك!
 قال زبيد:
 - وكنت أنت معي!
 قالت مارلين:
 - أنا لم أكن معك في «الجبل العطري» أبداً، مع أنك قلت لي، اليوم،
 إنني ابنة بوذا الضاحك، فماذا تقصد بذلك؟
 - وضاعة وجهك، نضارته، فتننته، وهذا الشعر الأشقر، المتهدّل على
 كتفك، وعلى صفحة وجهك، وهذا المفرق، فوق الجبين، الذي يذكّرني
 بصورة امرأة فائقة الجمال، لا أذكر في أيّة مجلة رأيته!
 سألت مارلين راغبة في استشارته:
 - هل تعشق صورة المرأة في المجلة فقط؟
 - ولماذا في المجلة فقط؟
 - لأنك، في الحياة، لا تعشق أبداً كما تدّعي!
 - هذا ليس ادّعاء! إنّه حالة، ربما تكون نفسية، وأنا شقيّ بهذه الحالة
 أكثر ممّا تظنّين، ثم هناك الصدق، فالحب يكون صادقاً أو لا يكون، وهذا
 الحب الصادق، أنا محروم منه لا أدري لماذا، ربما تعلّق الأمر بوضعي غير
 المستقر.. إنني، كما تعلمين، مهدّد بالطرد من الصين، وما إبقائي فيها إلا
 بسبب الحاجة، إنهم بحاجة إليّ، فأنا أترجم، وأصلح الترجمات، وأتعذّب
 في هذا الإصلاح إلى درجة الإرهاق، وبعد ذلك يأتي القرف، كنتيجة وليس
 كسبب، لكنني، وبحكم الجدلية لا غير، أفيد من عملي معرفة ورزقاً، وإلاّ
 فكيف أعيش؟ لا شكوى لديّ يا مارلين، لا أطلب شيئاً، وفي عدم الطلب
 هذا تكمن قوتي، وتكمن، كذلك، في عدم اكتراثي بالبقاء أو الرحيل، ولو
 كانت لديّ أوراق ثبوتية، كجواز سفر مثلاً، لرحلت غير أسف، لأنّ
 إقصائي عن الجامعة كان عقاباً متعمداً على حيادي في الخلاف الناشب،
 والمتفجّر بصورة أشدّ كل يوم، بين بكين وموسكو، وأحسب ان هذا قول

نافل، يعرفه الجميع، في الدروجبا وبين الصينيين خارجها.. لنشرب يا مارلين، يا صديقتي الطيبة، «فقليل من الخمر يفرح قلب الإنسان»!
قالت مارلين بعد أن شربت جرعة من الكونياك، وتذوّقت القهوة - أنت، يا زبيد، في وضع معقّد حقيقيّة، لكنك، مع ذلك، تتفق بسخاء مجنون، غير منطقي، فهل تفعل هذا نكاية؟
أجاب زبيد:

- في هذا بعض المبالغة يا مارلين، ما عدا ذلك فإنه طبع، أما النكاية فغير واردة، ولماذا اقترفتها؟ ضدّ من؟ الصينيون يبيعون لي مرتبي الشهريّ كمدرّس في الجامعة، وفي هذا إهانة، لذلك أرفض.. أرفض بإصرار لأنّه حسنة، ومتى كان الإنسان الشريف يقبل الحسنة، إلّا إذا كان فقيراً إلى درجة الجوع؟! سأفترض أنّ الصين تبني الاشتراكية، وهذه قضية خلافية، وشعار الاشتراكية، كما تعلمين «من كل إنسان حسب طاقته، ولكل إنسان حسب عمله» أنا لا أعمل في الجامعة، فكيف انتقاضى أجراً منها؟ قل لي أنت!

فكرت مارلين وقالت:

- لكنك، في هذا الذي تقوله، تشكّك في أنّ الصين تبني الاشتراكية أصلاً، وهذا غير مقبول من أحد، لأنّه هرطقة، وتردّاد لما يقوله الاتحاد السوفياتي عن حرق المراحل في الصين!!!
- وماذا إذا قلت لك إن «هرطقتي» تطال الاتحاد السوفياتي نفسه؟! وماذا إذا اتّهمت النظام السوفياتي نفسه؟

أجفلت مارلين وصاحت:

- إلى هذا الحدّ؟

قلت:

- وإلى أبعد منه! الاتحاد السوفياتي قفز عن المرحلة الرأسمالية إلى الاشتراكية رأساً، وهو يتّهم الصين بأنّها تقفز عن الاشتراكية إلى الشيوعية رأساً، وفي حدود رأيي أن كلّ منهما على خطأ! هناك، كما هنا، حرق مراحل خطير!
ابتسمت مارلين وقالت:

- وبعد أيها المنظر العظيم؟
- أن نشرب وأن ننسى! أو، على الأقل، نتعلم النسيان، ونتعلم، كذلك،
محو ما في رؤوسنا من لغو لا فائدة من تذكره، ولا فائدة من الاحتفاظ به.
قالت مارلين:
- ألا تلاحظ أنك تنصب نفسك دياناً بالنسبة إلى البلدين؟
قلت ضاحكاً:
- وماذا يفعل المهرطق غير هذا؟
- يصمت إذا كان كلامه غير موثوق به، وإذا كان، فوق ذلك، يزعم
الآخرين!
- وهل أزعجتك؟
- أخفتني! أنت مجنون حقيقي!
تأملتها ملياً وقلت ودوداً:
- نعم يا مارلين.. أنا مجنون حقيقي!

ادّعى المحقق تن بو أن زبيد أهانه، وبإهانته أهان العدالة، لذلك أمر بسجنه في بلدة بيتاخو، ولديه شهود على ذلك، من بينهم مدير الإدارة في مصيف بيتاخو والمترجم والحرس، وأن زبيد، كما علم، لا يؤمن بالطب الصيني، لذلك هرب من المستشفى، وهو، زبيد، لا يؤمن بالقضاء الصيني تاليًا، وهذه إساءة جزاؤها السجن، وقد نال، هذا المعادي للصين، جزاءه. تأمل المفتش العدلي سن يو، بنظرة هادئة، متفحّصة، المحقّق تن بو، وسأله:

- هل أنت واثق بما تقول؟

أجاب تن بو:

- كل الثقة!

- ما رأيك في محضر التحقيق؟

- إنه دقيق ونظامي.

- محضر التحقيق يفيد أنك استعملت مع الرفيق زبيد أسلوب

الصدمة، أي توجيه التهمة قبل التحقيق، وهذا غير جائز، فماذا تجيب؟

- ربما وقع هذا، لكنّه أسلوب معروف في التحقيق، وفي قانون أصول

المحاكمات أيضًا!

قال المفتش العدلي سن يو بنبرة غضب:

- معروف نعم، ولكن متى؟! عندما تكون التهمة ثابتة، وعندما يُقبض

على الجاني بالجرم المشهود، وتتوافر أدلّة الإثبات، بكل عناصرها، ومنها

أداة الجريمة، أما قبل ذلك فلا، تعرف هذا يا رفيق تن بو؟

- أعرفه طبعًا.

- إذن بأيّ جرم مشهود قبضت على الخبير زبيد؟

- بجرم إحراق جيفرسون!
- والأدلة؟
- زبيد كان في بيت جيفرسون عندما حدث الحريق.
- وحده؟
- معه السيدة نلسون!
- وبماذا أفادت هذه السيدة؟
- قالت إنها كانت مع زبيد في الصالون، وكان جيفرسون يستلقي في فراشه في غرفة النوم، وفي فمه سيكارة مشتعلة!
- إذن أين الجرم المشهود؟ وأين الاعتراف؟ ولماذا أسلوب الصدمة؟
- لأن جيفرسون اتهم زبيد بجرم الحريق، وتبين في التحقيق أن بينهما عداوة، وأن زبيد هو المعتدي، بدليل اغتصاب المدعوة مارلين، خطيبة جيفرسون، وهذا ما ثبت لدى التحقيق، رغم إنكار زبيد، وإهانته لي، أنا ممثل القضاء الصيني.. إن التوقيف، أيها الرفيق المفتش، كان بسبب الإهانة وليس بسبب ثبوت التهمة، وهذا واضح في المحضر.
- في المحضر واضح العكس!
- وكيف هذا؟
- بإخضاع زبيد للتحقيق تجنيًا، مع أن السيدة نلسون شهدت لمصلحته، وكان يجب أخذ شهادتها في الاعتبار.
- واتهام جيفرسون؟
- دافعه العداء لزبيد، بشهادة مدير إدارة المصيف، ومدير المطعم، ومدير المستشفى وآخرين.. ما رأيك يا رفيق تن بو؟ ثم لماذا لم تسأل رجال الإطفاء، كانوا شهودًا، في الحادث؟ لقد سألتهم أنا، فهل تعرف بماذا أجابوا؟ أنا أقول لك: أفادوا أن إنسانًا ما أطفأ الحريق قبل وصولهم، وبذلك أنقذ جيفرسون من الموت، وهذا الإنسان هو زبيد، بشهادة السيدة نلسون التي كانت معه في البيت، فكيف فاتك كل هذا؟ تزعم أن المتهم زبيد أهان القضاء الصيني في شخصك، وتنسى أن القضاء الصيني، في شخصك، لم يكن عادلاً، فكيف توفق بين كل هذه المتناقضات؟
- قال ذلك المفتش العدلي سن يو، وأملى على كاتب الضبط ما يلي: يطلق

سراح الرفيق زبيد الشجري، العامل في الصين بصفة خبير، إذا لم يكن موقوفاً لجرم آخر، ويحال الرفيق تن بو، المحقق في هذه القضية، إلى التحقيق حسب الأصول.. انتهت الجلسة.

كان هناك اعتذار طبعاً، لكن زبيد الذي أطلق سراحه، لم يأنه للاعتذار، ولم يبتهج لإطلاق سراحه.. كل ما فعله وهو يخرج من «قاووش الموت» كان بسيطاً، فقد رفع يديه محيياً زملاءه الموقوفين، دون أن يقول كلمة واحدة لهم، وفي السيارة التي أقلته من السجن إلى بيته، وخلال نصف ساعة كاملة، لزم الصمت التام، وقبل أن يغلق الباب وراء عبد القادر قال له:

- اسمع يا رفيق عبد القادر، إنني أطلب شيئاً واحداً منك: أن تقول إنني كنت، خلال هذا الغياب القصير، في رحلة بحرية نظمتها لي إدارة المصيف.

قال عبد القادر ضاحكاً كعادته:

- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟! إنهم يعرفون..

رد زبيد بنبرة جزم:

- دعهم يعرفوا.. قل ما أوصيتك به، واترك الباقي علي.. سايجين!

أعد، بعد ذلك، ركوة كاملة من القهوة، جلس إلى مكتبه هادئاً، راح يستعرض ما مرَّ معه، كمن يستفيق من حلم مشوش، محاولاً أن يلملم بقاياها، كي تكتمل له صورة ما رأى في الحلم، دون أن يوفق في محاولته، ودون أن يستاء من عدم التوفيق هذا، لكونه في النقطة الميتة، كنقالات السرعة في سيارة، أو ابرة الميزان عند درجة الصفر..! الآن، أصبح زبيد، مثل كل أن، حين يفكر ولا يفكر، حين يصبح عقله في حالة سديمية، وأفكاره تنزلق على حصاة ملساء من شعوره المتماهي مع لا شعوره، أو حين يتبدل إحساسه في لزوجة لامبالاته. ثمة وعي ولا وعي، زبيد لا يعرف، ولا يهتم بأن يعرف، فضاء المكان أو حركة الزمان.. كل دنياه تناثرت شظايا، أجزاء شظايا، ثم تداخلت الشظايا وأجزاؤها في كل واحد، صغير صغير يتحدد بفتحة فنجان القهوة أمامه! لقد غامت الرؤى، في تخايل الحلقات الحلزونية، لدخان سيكارته الذي يرتفع ليتبدد، بغير اهتمام منه لارتفاعه أو تبدده، كأنما لا شيء يعنيه في كل ما حوله، وكل ما في داخله،

وكل التقابلات الناتجة عن تقاطع ما بين الداخل والخارج، من ذاته التائهة في رمال البعيد تارة، وصحارى المحيطات تارة أخرى، ذاته المتروكة وشأنها، الهائمة كما الريح في تسيارها المسوق بإرادة غير منظورة، من أي راء مفتح العينين معشي البصر.

قهوة، تبغ، كونيكا، إنسان! عالم خاص، مشرنق، ودودة قرز مئنة في شرنقة! جسد، ثياب، قمل، ديبب! سكينه، كسل، جمود، رضى! وقت يمر، هاتف صامت، بيت خاو، صوت مبهم! مشنقة، رجل يتدلّى من مشنقة، هتفة «لا دمع بعد»! خروج من حياة، دخول في حياة، عين زجاجية، فم مطبق! زبيد، راحة نفسية، قرف متبئر، وجدان يئن، وهذا كل شيء!

قال زبيد وهو ينهض:

- نعم! هذا كل شيء، في الوقت الحاضر على الأقل!

رددت الجدران:

- في الوقت الحاضر على الأقل!

- ثم ماذا؟

قالت صورته التي على الجدار:

- صحيح.. ثم ماذا؟

قال زبيد:

- لا أدري!

وقالت زجاجة الكونياك:

- حسناً تفعل!

خلع ثيابه كلها، وضعها في كيس. ربط الكيس، رماه في سلة الزبالة. جاء بمرهم مبيد للحشرات، طلى جسمه كله، تفحص أثر الرطوبة على جروحه، انتظر، انتظر، دخل الحمام، اغتسل، ارتدى ثياباً نظيفة، تمدد على سريره، السيكاارة المشتعلة في فمه، عيناه تقرأن مقاطع صينية مرسومة على السقف، عتم، ظلمة، ثم نوم!

أفاق زبيد، في صبيحة اليوم التالي، على قرع متواصل على الباب. تجاهل القرع، توقّف القرع، نهض فأعد قهوته، جلس، كما أمس، إلى مكتبه، دخن، ارتدى ثيابه، غادر البيت إلى المطعم، جلس إلى طاولة

منفردة، قصيَّة، في المطعم، كان جائعاً، أكل إلى أن توقَّف الم الجوع، لوَّحت له الأيدي، من بعض الطاعمين، في هذا الركن أو ذاك، ردَّ بِلتويحة من يده، نهض، دار حول صالة المطعم، خرج، وضع يده في جيب بنطاله، صَفَّر لحنًا، تنزَّه، أخذ ما يكفي من الشمس، عاد إلى بيته، طَهَّر جروحه، مرَّهمها احتياطاً، أعدَّ قهوته، مرة أخرى، فتح زجاجة الكونياك، مرة أخرى، جلس إلى مكتبه، مرة أخرى، وصل الهاتف، أخرج كتبه والأوراق، انكبَّ على العمل، كأنما يستأنف ما توقَّف عنه منذ قليل، منذ قليل فقط!

بعد ساعة رنَّ جرس الهاتف، كان هذا عبد القادر، سأل:

- لماذا الهاتف مقطوع يا أستاذ؟

- لأنه مقطوع يا عبد القادر!

- ولماذا لا تفتح الباب؟

- لأنني لا أفتح الباب!

ضحك عبد القادر وقال:

- ولكن كيف هذا؟ مدير الإدارة يريد أن يكلمك!

- أهلاً وسهلاً!

قال مدير الإدارة بالإنكليزية:

- كيف حال تونجي زبيد؟

- على أحسن ما يكون!

- كنت متعباً أمس، لذلك لم أزعجك.

- بعد الرحلة البحرية يكون المرء متعباً أحياناً.

- أيّ رحلة بحرية هذه؟

- الرحلة التي كنت فيها!

- هل تمزح؟

- أتكلم بمنتهى الجدِّية!

- ولكنك..

- كنت في رحلة بحرية!

- وكيف تقنع الآخرين؟

- هذا بسيط جداً! كنت في رحلة بحرية وعدت منها سالمًا.
- نحن نعتذر، وفي وسعك أن تقول ما تريد، أن تقول الحقيقة كاملة.
- الحقيقة الكاملة أنني كنت في رحلة بحرية!
- والذين رأوك في الإدارة؟
- رأوا شبيهي لا أنا!
- لن يصدقوا!
- هذا شأنهم!
- وإذا استأقوا منك؟
- لن أذرف الدمع بسبب استيائهم!
- أنت مصرّ على أنك كنت في رحلة بحرية؟
- كل الإصرار!
- أنت رفيق جيّد!
- أنا رفيق عربي!
- ما جرى كان حادثاً فردياً!
- لذلك كان عادياً جداً.
- رحلنا جيفرسون إلى بكين!
- لم يكن هذا ضرورياً.
- كيف؟
- جيفرسون ليس سيئاً، وليس مسؤولاً لأنه عاشق! وماذا تنتظرون من عاشق خائب؟
- عاشق خائب أم مجنون؟
- كل العشاق مجانين.
- وأنت؟
- أنا محروم من هذه النعمة!
- نعمة الجنون؟
- ولم لا؟
- ضحك مدير الإدارة وقال:

- أنت طريف يا رفيق، شكرًا لموقفك النبيل.. عليك، الآن، أن تستريح.
- علي، الآن، أن أعمل، بل إنني أعمل فعلاً، الرفاق في بكين ينتظرون
كما تعلم.

- وماذا إذا انتظروا؟

- ولماذا أنا في الصين؟

- لا أدري ما أقول!

- ما قلته أسعدني، وهذا يكفي، شكرًا وإلى اللقاء.

وضع زبيد سماعة الهاتف وتساءل: «هل كنت في رحلة بحرية فعلاً؟»
أشعل سيكارة، ففكر، أجاب نفسه بنفسه: «يبدو أنني كنت في رحلة بحرية
فعلاً!» أضاف: «يا لها من رحلة ممتعة، وبكل المعاني، علي أن أشكر
الحقّق تن بو، فقد جعلني أعرف الإنسان الصيني معرفة أوثق وأعمق «إنه
إنسان لا يُنسى!» ولكن لمن قلت ذلك قبل الآن؟ ظني أنني قتلها، نعم قتلها،
وبعد ذلك بكيت في قلبي!».

المزيد من القهوة، ومن الكونيك، ومن العمل، كذلك الانتصار! أزاح
زبيد الأوراق جانباً، بعد أن فرغ من إصلاح ترجمتها، ثم نهض فتريّض
مسروراً، لأنه، ليلة أمس، كان يظن أن العمل سيكون صعباً عليه بعد الآن،
وها هو يعمل، ويذل ما هو صعب، وينتصر، لذلك قال في نفسه:
«الانتصار لا يكون إلا مع ما هو صعب! ليت جميع المكتسبين في هذه
الدنيا، يتوصلون إلى هذا الاستنتاج.. ويعملون به أيضاً!».

حكة ما، تحت الإبط الأيسر، أوقفت منولوجه الداخلي، خلع زبيد
قميصه، تفحص، أمام المرأة، ما تحت الإبط، خوفاً من أن تكون ثمة قملة
ما، لم يقتلها الدواء المبيد، لم يجد شيئاً، ابتسم ساخراً من توهّمه، إلا أنه،
مع ذلك، قرر إزالة الشعر الزائد من جسمه، وزيادة في الحيلة، دهن بدنه
كله، وخاصة الرأس، بالمرهم المطهر، قوي الفاعلية، الذي أعطته إياه
الطبيبة لودميلا، يوم زارها في المستوصف. فعل ذلك بعد أن أقفل الباب،
وسحب «فيش» التلفون، وأغلق النوافذ، وراح يدور في البيت، متأملاً
نفسه، من حين إلى آخر، في المرأة، وهو يضحك من منظره البشع،
المقرف، قائلاً بغير صوت: «أنا الآن قرد حقيقي، قرد بغير شعر أيضاً،

يتخفى عن أعين الناس، لأن الإنسان، إذا كان وحيداً، يأتي بحركات غريبة، فطرية إلى حد ما، لا يستطيعها، أو لا يقوم بها، إلا إذا كان وحيداً، أمناً، ويدافع فطرياً أيضاً، كأنما يعود إلى طبيعته الأولى! «أضاف: «أنا الآن حرّ كما لم أكن في أيّ يوم من حياتي، بعد أن فقدت براعتي الطفلية، حر إلى درجة تفوق حرّيّة الذين يأخذون بمبدأ العري، لأن هؤلاء، في النوادي المخصصة للعراة، يجدون أنفسهم تحت رقابة بعضهم بعضاً، فلا يأتون بحركات عفوية، مضحكة، تجانب اللياقة السلوكية للبشر!».

تصور زبيد، بعد هذا الاستبطان، الأوضاع التي يكون عليها من يمارسون الحب، ومن يمارسون الشذوذ، وكذلك العادات السرية، وتذكر حكاية مكسيم غوركي، عن الرجل الأصلع، الجالس وحيداً في ضوء القمر، والذي راح يحاول، دون جدوى، أن يمسك هذا الضوء على صلعته بقبعته، كما تذكر حكاية رجل ذي لحية طويلة، كبيرة، سأل أحدهم: «أين تضع لحيتك عند النوم، فوق الغطاء أم تحته؟» فتذكر الرجل السؤال ليلاً، وارتبك من جرائه، في وضع لحيته، تحت الغطاء أو فوقه، وضحك زبيد قائلاً: «ماذا لو رأني الناس عارياً، مطلباً، ضاحكاً، وحدي، دونما سبب ظاهر؟! ولم تزايله مثل هذه التصورات الهزلية، إلا بعد أن استحم، وارتدى ثيابه، وأعدّ قهوته، وجلس يستعرض حياته خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية، بكل ما فيها من خير أو شر، وبكل تجربتها الفريدة والنادرة، مستغرباً أن يكون، في السجن وبعده، على مثل هذا الصفاء النفسي، كأنما دفع جزية التطهر فتطهر، وما هو جديد في كل شيء، وعلى مزاج حسن، قلما تمتّع بمثله، حتى في اللحظات السعيدة من أيامه في الصين.

قال لعبد القادر، الذي قرع الباب ووقف على عتبته ضاحكاً، بعد أن فتح له زبيد:

- ماذا هناك يا عبد القادر؟ هل يطلبونني إلى الإدارة اليوم أيضاً؟

قال عبد القادر:

- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ لماذا يطلبونك في الإدارة؟

- كي نشرب الماوتاي!

رفع عبد القادر إبهامه على طريقة الصينيين وقال:
- معنى هذا أنك سعيد! جيد يا أستاذ جيد، كن سعيداً دائماً، الرفيق،
مدير الإدارة، قال لي: «الرفيق زبيد رائع!» ماذا قلت له في الهاتف؟
- كما قلت لك يا عبد القادر في غير الهاتف: كنت في رحلة بحرية!
- ولكنّه يعرف!

قال زبيد وهو يدعو عبد القادر إلى الجلوس قبالة:
- وأنا أيضاً أعرف.. كنت في رحلة بحرية، وكنت نشيطاً، أنجزت
ترجمة كتاب: «الثلج يحوم في الفضاء» وما هو، خذه وأرسله إلى دار
النشر في بكين، مع تحياتي للرفيق تشوتن، مدير الدار.
خفق عبد القادر كفاً بكف وقال ضاحكاً:
- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ أنا كنت معك، هل نسيت؟
قال زبيد:

- كنت معي في الحلم يا عبد القادر!
- ولكن أنا لست مجنوناً!
- وأنا، يا عبد القادر، لست مجنوناً.. خذ الكتاب والترجمة كما طلبت
منك.

- ونقودك التي أعطيتها للسجناء؟
- نقودي في درج مكتبي.. انظر!
فتح زبيد الدرج، أخرج النقود وقال:
- ها هي نقودي.. مع السلامة يا عبد القادر، أيها الرفيق الطيب جداً،
هل سألك أحد عني؟ وبم أجبت؟ قلت: لا أعرف؟ هذا جيد أيضاً! قل لا
أعرف، وهذا أسهل عليك، أما أنا فلدي عمل، عليّ إصلاح ترجمة بعض
المقالات، وكذلك شرب القهوة، والكونياك، وتناول الغداء في المطعم،
كالعادة، وربما كانت معي.. السيدة تلسون!

انهل عبد القادر، ففكر، ضحك، أخذ الكتاب والترجمة، نهض وقال:
- مع السلامة.

قال زبيد:

- سايجين!

أغلق الباب، عاد إلى مكتبه منشراحًا، فكر: «الكذبة صارت حقيقة!»
أضاف: «ولماذا لا تكون حقيقة، ما دمت أريدها أن تكون حقيقة؟ حين
يقول، صاحب العلاقة، ويصر على قوله، فإنَّ على سامعيه أن يصدّقوا، أو
لا يصدّقوا، فهذا ليس مهمًّا، وعندما لا يقول، ويصر على عدم القول، فإنَّ
على الآخرين أن يكفّوا عن طرح الأسئلة، لأنَّ ذلك يعدّ حشرية مرذولة،
المهم أن يبقى السر سرًّا، عند صاحب العلاقة نفسه، فكلمته هي المعوّل
عليها، إيجابًا أو سلبيًّا، وما تبقى لا قيمة له، لأنَّه يدخل في باب التخمينات
التي تفتقر إلى مصداقية الاعتراف، وصدقية الأدلة، لذلك تفضّل المرأة
الرجل الصموت، الكتوم، على الرجل الثرثار، المتبيّج!»

بعد قليل رنّ جرس الهاتف، تناول زبيد السماعة وقال بنبرة تبرُّم:
- نعم!

- أنا مارغريت!

- أهلاً سيّدة مارغريت.

- أين كنت؟

- في البيت!

- وقبل البيت؟

- في رحلة بحرية!

- ماذا!!!؟

- في رحلة بحرية!

- هل أستطيع المجيء؟

- بأبي مفتوح للضيوف!

- وهل أنا ضيفة؟!؟

- أنت السيّدة بورجرون العزيزة.. وبعد؟!؟

- ولماذا أنت جافّ كبلوطة يابسة؟

- تحقيق؟!؟ وعلى الهاتف؟!؟ إنني أعمل، وأنت تعرفين مزاجي حين أكون

أعمل! مع ذلك، ولأجلك، لأجلك فقط، سيّدتى الجميلة، سأترك العمل،
واتفرّغ لك، وللقهوة، والكونياك.. ولشيء آخر، لا يقال في الهاتف، اتّفقنا؟

- ومتى اختلفنا، زبيد؟ إنني قادمة، وفوراً!

جاءت السيدة بورجرون، بعد دقائق، كانت مشوقة، أو هذا ما قالتها لللمعة في عينيها، وكانت متشيكة، كأنها تستعد للخروج، ونضرة الابتسامة، كأنها على موعد غرامي، وحارة، حارة، كأنها كانت تبكي، وكان زبيد يعرف هذا كله، ويحبه، ويلذ له، إنما بغير ثرثرة، بغير إسراف في الأسئلة، ودون غيرة، دون عتاب، ودون أخذ ورد، عما إذا كان يحبها أو لا يحبها، فقد ملّ هذا المنطق العقلاني، ومجّ التعرّض المشروط، منها أو من غيرها، يكفي أن تكون، وأن يكون، وأن يرسو مركبه في مينائها، وأن يكون الميناء شديد الاهتياج، صخّاب الموج، عنيفاً كعنف العاصفة في فراش، إلا أنّ السيدة بورجرون كانت امرأة، وكانت طلعة، وكانت مراوغة، والأهم أنّها كانت تريد أن تعرف كل شيء، وهذا ما لا يطيقه زبيد!

أخذته، طبعاً، بين ذراعيها، احتوته، احتواها، تبادلوا القبل، في الخد، في العنق، في الفم، ونزّت الشفاه، لا دماً بل اغتلاماً، وعندما تمّت طقوس اللقاء الاشتياقي، وهدأت الدورة الدموية، بفعل إرادة غلابة، أجّلت ما يجب، إلى ما بعد الوجود، أشعلت السيدة بورجرون سيكارة، وقالت:

- أخبرني بدقة، وبالتفاصيل الممكنة، أين كنت، وماذا جرى معك؟!

ابتسم زبيد، ملا كأسها، شرب نخبها، قال متثدداً:

- وأين أكون؟ ثم لماذا كل هذه اللهجة؟ ولماذا التكرار؟ خذي، سيدتي، راحتك، اشربي من «ماء الحياة» المحيي هذا، الحقي بي كي يكون ثمّة تعادل بيننا في النشوة، ودعي ما عدا ذلك، لأنّه ناقل!

- ناقل؟!

- طبعاً! المكرور يكون ناقلًا دائماً، قلت لك، على الهاتف، إنني كنت في رحلة بحرية، فلماذا السؤال، ولماذا الإلحاح فيه، إذا ما كنتُ، كما تعرفين جيداً، أقول قولاً واحداً، حول أمر واحد؟

- وتريدني أن أصدق؟

قال زبيد بحسم:

- هذا عائد لك وحدك!

قالت السيدة بورجرون:

- وخوفي، خوفنا جميعاً، عليك، الأ قيمة له في نظرك؟

رد زبيد:

- لا قيمة له اذا كان حُلبيّاً!

ركزت عينها في عينيه وقالت:

- هل أنت خائف؟

- مم؟

- من قول الحقيقة؟

ضحك زبيد وقال:

- أنا خائف من شيء واحد: أن يفوتنا موعد الغداء! أنت والسيد

بورجرون ضيوقي اليوم، إذا لم يكن هناك مانع! هذا، عزيزتي، كل ما

عندي لهذه اللحظة، نعم أم لا؟ نعم طبعاً، إذن نكتفي، الآن، بالنشوة

الصغرى، ونؤجل النشوة الكبرى إلى ما بعد الغداء.. في صحتك!

قرعت كأسها بكأسه وقالت:

- في صحة حبيبي المجنون! حبيبي الذي لا يحبني، لأنه مجنون،

ومجنون، ومجنون!!!

اليومية التاسعة والعشرون ١١ ايلول ١٩٦٢

لامارتين قال في قصيدته البحيرة: «نطوي الحياة وليل الموت يطوينا!»

طويتُ شهوراً منذ اليومية الأخيرة، ولم أكتب، في هذا الدفتر، كلمة واحدة.

لم اكن لاهياً، أو يانساً، أو عبثياً، كنت أعيش حياة الغربة، قطرة قطرة من

عمري، وكانت الالتزامات لا تترك لي وقتاً للراحة، للتأمل، للنظر إلى وراء،

أو التفكير في ما هو أت. للغربة قانونها، وللغربة أخلاقياتها، وللغربة

فسادها وفسادها أيضاً، وقد سرت بين هذه الدوائر الغريبة باناة،

وحذر، وجد، مكافحاً، قدر الإمكان، كيلا أقع في شرك أية دائرة منها،

وفي وسعي القول إنني نجحت بعلامة تؤهلني لمتابعة طريقي، دون ارتهان،

دون تعلق، دون استغزاز، ودون ارتكاب خطيئة الخروج عن اقتناعاتي،

سياسياً واجتماعياً أو سلوكياً. ليس معنى هذا أنني راضٍ، أو أن المغريات

جرفتني مع المياه التي سالت من تحت الجسور، كما ليس معناه أنني برم

بالعيش، منكد لأكثر من سبب، فالمسألة أبسط من هذا بكثير، وهي، في آخر المطاف، القناعة مع الطموح، العيش بكبرياء الصبر، الابتعاد عن تذكر الزمن وعن نسيانه! لماذا عليّ، وأنا لست فلكيًا، أن أرصد دوران الفلك؟ وما الفائدة من عدّ النجوم أو نخل الرمل؟ وما الغاية من التشوّق في غير موضعه؟ ولماذا المعاندة لوجه الشيطان، إذا كان الطرف الآخر، الصيني، راعى ظروفه، ورغب في أن يفيد مني، بما لا يخرجني عن الحيرة التي التزمتها في الخلاف بين بكين وموسكو؟

انتقلت من بيتي في الطرف الشرقي للدوجبا، إلى بيت في الطابق الأرضي من المبنى الرئيسي في هذه «المدينة الصغيرة» الخاصة بالخبراء الأجانب. الطلاب العرب اقترحوا عليّ ذلك، نصحوني بالسكن في البيت الصغير القريب من المدخل الخلفي للبناء، حيث لا رقيب على من يزورني، ولا حاجة إلى المصعد، ولا ضرورة للعلالي، ما دام البيت مشمسًا، صحيًا، مريحًا، بعيدًا عن الضجيج، ملائمًا للهدوء والكتابة، بعد أن توصلت إلى حل مع الجامعة، بتدريس الطلاب المتخرجين من القسم العربي، مادة الحديث الشفهي لإغناء المفردات، وتصويب النطق، وحفظ الاصطلاحات الدبلوماسية، اللازمة لهم في عملهم خارج الصين.. كذلك واصلت، بدأب، ترجمة بعض الكتب الأدبية الصينية، وإصلاح ترجمات الآخرين، لجلتي «الصين» و«بناء الصين» الصادرتين باللّغة العربية، والخاليتين من البيانات أو المقالات السياسية، لأنهما الطبعة العربية، وبشكل حرفي، للطبعة الصينية، المترجمة إلى عدة لغات في وقت واحد.

أعترف. كنت متمزّمًا على نحو ما. رفضت التعرّف، أو الكلام، أو حتى تبادل السلام، مع الخبراء العرب، الذين حلّوا محل الرفاق العرب، الذين سحبتهم أحزابهم من الصين. كنت مخطئًا في حساباتي أن هؤلاء الجدد همّ مرتزقة كلهم، فقد كان بينهم بعض الطيّبين، الذين انحازوا إلى الصّين، في خلافها مع الاتحاد السوفياتي، عن اقتناع.. اكتشفت ذلك في ما بعد، أمّا قبل ذلك، فقد كانت قطيعتي معهم كاملة، لذلك اضطررت إلى التكلّم بالفرنسيّة والإنكليزيّة فقط، خاصة بعد سفر الطلاب العرب، مع الرفاق من الخبراء الأجانب، وتوثقت صلاتي مع الرفيقيين الإيرانيين حسن بيجاري وفهمي جيهانكينز، اللذين بادلاني المودة، والروح الرفاقية، وفتحوا لي

منزليهما، كأثني فرد في عائلتيهما، مقدّمين لي النصّح في كثير من الأمور، وحتى الخاصة منها.

كان الرفيق حسن بيجاري نزهياً، يعرف الينابيع في «الجبل العطري»، كما يعرف المعابد البوذية، وكان يصرّ على المشاركة في الرحلات الجماعية، وعلى اصطحابي في هذه الرحلات، وبعد أن تزوّج الرفيقة الصينية لي ناي، في عرس فخم في الصالة الكبيرة للنادي، أصبحنا، هو وزوجته وأنا، لا نكاد نفترق، وهذا ما جعل لقائي بالرفيقة تشين لاو ممكناً، لا بحكم عملها في العلاقات العامة فحسب، وأنما لأنها صديقة لي ناي أيضاً. ومن حين لآخر، كانت تشين لاو تُكَلِّفُ بمرافقة هذه الرحلة أو تلك، إلى هذا الموقع أو ذاك، وكنت أعلم، مسبقاً، أنّها مكلفة بالمرافقة أم لا، وعندئذ أقرر، بدوري، الاشتراك بالرحلة أو الاعتذار، وأضع في حسابي، بشكل دقيق، أن الرقابة ظلّ، وأنه ليس من السهل التخلّص من هذه الظلّ، إلا بالمداورة، أو المناورة، وبأخذ أقصى الحيلة والحذر، كأن أجلس بعيداً عن المكان الذي تجلس فيه، طول الرحلة، في الباص الكبير، متجنّباً، بإصرار، الالتفات نحوها، أو توجيه أيّ سؤال إليها كما يفعل الآخرون، والأهم ألاّ تلتقي عيناها بعينيها، حتى من طرف خفي، والأشدّ أهمية أن أصرف المرافق عبد القادر، بذريعة أنني لست بحاجة إليه، ما دام كل من في الرحلة يعرف اللّغة الإنكليزية!

غير أن المشاركة في رحلة واحدة، مع تشين لاو، لم تكن ناجحة في كلّ مرة، كان الإخفاق من نصيبي في أكثر الأحيان، وعندئذ أعود إلى الدروجبا خائباً، أتداوى بالشرب، أو أذهب إلى حسن، لنلعب البليارد في قاعة النادي الكبيرة، دون أن أتوصّل إلى مهارته في هذه اللعبة، بسبب من دقّة تسديده وقوّة ساعده، وبعد اللعب نشرب الفودكا، وحسن يسألني، بفراسسته المعهودة:

- ماذا هناك يا رفيق زبيد؟

- لا شيء يا حسن!

- كيف هذا؟! أنا كمتلك يا أخي، كنت أنجح مرة وأفشل مرات! هذا

يحدث كثيراً في العشق!

- عندما يكون هناك عشق!
 - وماذا هناك إذن؟
 - هزيمة في البليارد!
 - هذا تقوله لعبد القادر، وليس لإنسان مجرّب مثلي.. اللعنة عليك وعلى الشيرازي!
 - ولماذا الشيرازي؟
 - لأنه يقول «العشق لذيق، وآخره مشكلة»
 - أنا لا مشكلة لدي من هذا النوع.
 - ومن أي نوع إذن؟ أنت لست مفلساً كمثلي، ولست متزوّجاً كمثلي، ولست صبوراً كمثلي، أنت تريد أن تنكح على الطريقة الفرنسية، وهذا خطأ يا أخي، تشين لا وليست السيّد بورجرون، والتسرّع في أكل التفّاحة، لا يكون كمثّل التسرّع في أكل الهواء..
 - وكيف يؤكل الهواء يا حسن؟
 - بفتح الفم، كمثّل جدّنا آدم، وانتظار سقوط الثمرة فيه.
 - جدّنا آدم كان رجلاً طيباً!
 - وبسبب طيبته ها نحن على الأرض!! اسمع يا زبيد «في التائي السلامة وفي العجلة الندامة» لا تتعجل يا أخي، السمكة لا تأكل الطعام، من أول صنارة.. كن كمثلي، اصطد على مهل، تشين لا وسمكة صينية، تذكر هذا!

أودّع حسن وأذهب إلى البيت، ما يقوله صحيح «تشين لا وسمكة صينية!» عليّ أن أتعلّم صيد السمك الصيني، ولكن كيف يكون صيد مثل هذا السمك؟ كيف اصطاد حسن سمكته الصينية «لي ناي»؟ بالحب؟ أنا لا أحب! بالزواج؟ أنا لا أرغب في الزواج! بالصبر؟ صبري نفذ، إذن لم يبق سوى الكونيك، وسوى مارلين، وسوى السيدة بورجرون، وعليّ أن أترك تشين لا وحالها، فهذا الحصرم لن يكون عنباً بالطريقة التي أريدها، ولكن المسألة لا تتوقّف على العنب، أيّ عنب، فأنّا، من باب التدوّق، أرغب في العنب الصيني.. ولمرة واحدة، لمرة واحدة فقط، ثم لتأمر صالوما بقطع رأس يوحنا، وترقص به وهو محمول في يدها على طبق، زيادة في الانتقام!

هكذا، مع الأيام، أدركت بعمق مقولة الرفيق ماو: «إخفاق، ثم نجاح، ثم إخفاق، ثم نجاح» وهذا هو المبدأ الأزلي الأبدى للفكاح، وعلى جميع الأصعدة، وبينها صعيد الحب أيضاً. إلا أن تشين لاو كانت هي المكافحة لا أنا! تشين لاو العزيزة كانت الأجرأ، كانت حواء، بينما كنت أنا آدم، الذي يفتح فمه ليأكل الهواء كما قال حسن، وعندما، في إحدى الرحلات إلى «الجبل العطري»، فاجأتني بدس ورقة صغيرة في يدي، ارتبكت للوهلة الأولى. كانت الورقة تحمل، بالإنكليزية، العبارة التالية: «انتظرنى، وقت الغداء، في معبد بوذا» ولأن المعابد، في «الجبل العطري» كثيرة، احترت في أي معبد منها أنتظرها، وزاد في حيرتي توتر أعصابي، بسبب من أن الرقابة شديدة، وغيابي عن جماعة الرحلة، من الزملاء الأجانب، سيلفت النظر، وقد يتعقبني أحد الرفاق الصينيين ممن يرافقون الخبراء، فلم يبق إذن إلا التدرع بحجة ما، يحسن بي أن أفكر فيها جيداً، لتكون محبوبة ومقنعة.

كنا قد زرنا، قبل الظهر، معبدين بوذيين، يمثلان بوذا متكئاً ومتربعاً، وكان بوذا المتكى ممثلاً، باسمًا، سعيداً، يمسك بإحدى يديه غصناً ينتهي بثمرة بلوط، وإلى قربه ضفدع وسلحفاة، وقد فهمت الرمز فوراً، فالبلوط شجر مبارك عند البوذيين، يُشوى ثمره ويؤكل كالخسثناء، والضفدع يبشر، من خلال نقيقه، بهطول المطر، والسلحفاة مقدسة كالبراقة، لأنها تحمل بيتها على ظهرها، وليس لها من متاع الدنيا سواه، وفي هذا من الزهد، والاكتفاء الذاتي، ما يجعل التقشُّف سبيلاً إلى نبذ الشهوات، وكبتها، وصولاً إلى السلام السماوي.. أما السمنة فهي رمز للوفرة، التي تأتي مع خصب المواسم، وبوذا المتربع يصالب رجليه، جاعلاً أخصم القدمين إلى الأعلى، احتراماً لظهارة الأرض، وعدم تدنيسها بالوطء عليها، كما أن الأذنين الكبيرتين، ترمزان إلى حكمة الإصغاء، طريقاً إلى اكتساب المعرفة، وفي هذا ما يشبه المثل العربي «إذا كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب» وقد شرحتُ لمن حولي دلالات هذه الرموز، التي قرأتها، أو قرأت عنها، في بعض الكتب البوذية، وعندما سألتني سيّدة إنكليزية عجزت إلى حد ما:

- هل يمكن تسجيل هذه الشروح؟

أجبتها:

- طبعاً، وبكل سرور.

قال رجل:

- هل الرفيق من هواة التحف الصينية؟

سأله

- لماذا خطر لك ذلك؟

ردّ

- من المستحيل الظفر بأية تحفة صينية قيّمة، دون الاطلاع، بشكل ما، على التعاليم البوذية.

قلت:

- هذا صحيح جداً!

- وهل تكتب يوميات تدوّن فيها دفتر ما، وفيها أمثال هذه المعلومات؟

- نعم، ولكنني أكتبها باللغة العربية، لأنني عربيّ من سورية.

- هذا جيد، لكنه يحرمني متعة قراءتها!

أضاف:

- أمل أن أقرأها مترجمة إلى الإنكليزية.

- قد يحدث هذا.

تجوّلنا، بعد ذلك، في غابات «الجبيل العطري»، زرنا بعض الأماكن الأثرية، توقفنا وشربنا من الينابيع، ثم عدنا إلى الباص الذي حملنا إلى فسحة في الغابة، فيها بيوت واكشاك، وفيها مواقد فحم حجري مشتعل، وقالت تشين لاو:

- هنا، أيّها الرفاق، سنتناول طعام الغداء، ونستريح على بعض المقاعد الموجودة، ويمكن شراء بعض التذكارات من الاكشاك، وبعد ساعتين من الآن، نركب الباص عائدين إلى الدروجبا.. خذوا حريّكم الكاملة، وشهيةً طيبة!

أضافت فوراً، وبصورة متعمدة:

- المذكرة يا رفاق، سأبدي ملاحظة من باب الاحتياط: لا تتجولوا بين

الأشجار والادغال المحيطة بنا، خذوا حذرکم من الوحوش البریة، ومن الزواحف، خاصة الافاعي!

صلّبت العجوز الإنكليزيّة على صدرها وهي تتمتم:

- نعم! الملاحظة في محلها... لنكن حذرين!

قالت تشين لاو:

- لكن ليس إلى درجة الخوف!

قالت العجوز:

- بل إلى درجة الخوف.. نحن في الصين للعمل لا للقيام بمغامرات.

قلت:

- لنجمع، يا سيدتي، بين الاثنين، وهذا أفضل!

قالت بنبرة حسم:

- الجمع بين الاثنين خطراً! إياك أن تفعل هذا أيُّها الديك البوذي أنت!

قلت ضاحكاً:

- أنا فرّوج بوذي، لا أكثر، يا سيدتي!

- أنت تغامر لجمع المعلومات عن البوذية، وهذا ليس سيئاً في ذاته،

أنا، في شبابي، كنت أغامر مثلك.. المعرفة لها ثمن!

- ما رأيك أن نغامر معاً؟

ضحك الذين حولنا وهم يقضمون سندويشاتهم، سأل رجل منهم

بدعابة خبيثة:

- أي نوع من المغامرة تقصد؟

- النوع الطيب، اطمئن!

قالت العجوز:

- غامر، أيُّها السيد، وحدك وبحذر، أنا لم أعد صالحة حتى للمغامرة

الطيبة، التي يقصدها ستيفن!

قال ستيفن:

- أنا لم أقصد شيئاً، ومع ذلك التجربة ممتعة يا سيدة كراو!

قالت العجوز كراو:

- شكرًا على هذه النصيحة يا ستيفن، سأدخل في «التجربة الممتعة»
كما تقول، لكن في الدروجبا وليس في الغابة.. السيد سيذهب الآن، وفي
طريق العودة يقص عليّ ما رأى!

- والملاحظات؟

- هذه يقولها لي على انفراد، وفي جو حميمي، مع كأس مثلاً..
للتسخين!

- ولماذا التسخين؟ هل ستلعبان كرة القدم؟

قالت العجوز كراو:

- أنت سخيف يا ستيفن، وقليل التجربة مع النساء! أقول لك للتسخين،
يعني للتهيئة، وتقول لي: «هل ستلعبان كرة القدم؟» حمار!
ضحك الجميع، بدأت التعليقات، نظرتُ حولي فلم أجِد صينيًا واحدًا،
كانوا يأكلون في المطعم الصغير، على انفراد، ولم تكن تشين لاو موجودة،
نهضت وأنا أقول:

- إلى اللقاء قريبًا، هنا في الساحة!

قال ستيفن:

- هذا إذا عدت سالمًا!

ردت العجوز:

- ولماذا لا يعود سالمًا؟ إنّه شجاع، مغامر، هذا الرفيق العربي، ولا
يبوّل في سرواله مثلك يا ستيفن!

قال ستيفن:

- أنا لا أبوّل في سروالي يا سيدة كراو!

قالت السيدة كراو:

- هذا صحيح، فبعد هذا العمر، يا ستيفن، يبول الإنسان في جواربه،
بعد أن كان، زمن الشباب، يبوّل على ربطة عنقه.. إنه حكم الزمن، يا
ستيفن، ولا فائدة من التحسّر أو البكاء، الأفضل أن تخلع جوربك وتنشره
في الشمس، حتى يجفّ على مهل!

قهقه الحاضرون، وقال ستيفن:

- الرحمة يا رب، لسانك عقرب يا سيدة كراو، ومن النوع السامّ جدًّا!

إلى اللقاء، أيُّها الرفيق المغامر، وعد سالمًا، لأنَّ هناك من ينتظرك مرفوع
الرجلين إلى أعلى!

عادت القهقهة، ممزوجة بمرح صحَّاب، ابتعدتُ فلم أسمع جواب
السيدة كراو، إلاَّ أنَّها كانت متوفزة، مثل القنفذ الهرم، تلوك سندويشتها
بما تبقى في فمها من أسنان، وربما كانت، في قرارة نفسها، تحلم بشيء
ما، كما يحلم إبليس بالجنة، وهذا من حقها، فإن يتوقف الإنسان عن
الحلم، في آية مرحلة من العمر، يكن قد انتهى، وأنا واثق بأنَّها كانت، في
شبابها الغابر مغامرةً في طلب ما تريد، كما أغامر أنا اليوم، مغامرة
طائشة في طلب ما أريد، في طلب تشين لاو، التي تنتظر لا أدري في أي
معبد، أن أسير إليها كما يسير العاشق إلى مواعده، وفي ذاته تساؤل، عمَّا
إذا كانت المعشوقة ستوافيه فعلاً، أم يحول بينها وبين هذه الموافاة عائق،
وعندئذ يحصد خيبته بمنجل مثلوم!

توغَّلت في الغابة! إنَّني أحب الغابات، البكر خصوصًا، كما غابات
افريقيا، إلاَّ أنَّ لقائي تشين لاو، في بحر شنتاو، وعند الشبك الحديدي،
كان ممتعًا اقصى الإمتاع، رغم أنَّها تمنَّعت عليَّ، بحسم رادع، وهذا ما
سوف يكون الآن، لسبب بسيط، هو أنَّ تشين لاو صينية، وأنا أجنبي،
والنظام، في الصين، صارم في هذا المجال، والتُّهمة الجاهزة هي
الاغتصاب، وعقابه السجن الطويل، بغير رحمة، دون مبررات، دون مراعاة
للاسباب المخفِّفة، ودون اعتبار، بأيِّ شكل، للحبِّ، لأنَّه، هنا، غير معترف
به، في مرحلة البناء، والاندفاع الثوري، الحارق للأخضر واليابس على
السواء. «قالت لي السيدة كراو: «أذهب غامر، ولكن احذرا!» ترى كانت
تحدس نوع مغامرتي؟ كانت تشفق عليَّ منها؟ وهل كان سستيفن، هذا
الكهل المرح، يخاف عليَّ من أفعى أم من حواء؟ وما الفرق بين الأفعى
وحواء؟ هذه من أصلاص تلك، وكلتاها مباركتان، كما في كل الكتب، إلاَّ
في كتاب الثورة الصينية، الثورة التي، كما قال الرفيق ماو، جاءت لتردَّ
للصينيين كرامتهم، بعد أن امتهنها طويلاً المحتلون الأجانب، ولتبني لهم
إرادة حرة، محررة، هي الأقوى بين جميع الإرادات، لأنَّها إرادة صينيَّة،
إرادة دولة عظمى، لأمة هي الأعظم بين الأمم كلَّها!

كنت أسير وأفكّر، أسير مستنفر الحواسِّ الخمس، بين رجاء وخوف،

بين إقدام وتردد، مدرّكاً أنّني أطرق المجهول، في محاولة طائشة لاختراقه، مقدّراً الخطر بحجمه تماماً، لا من وحشٍ أو أفعى، فهذا وارد، بل أن يكون أحد الصينيين يتبعني متخفياً، لينقضّ عليّ فجأة، وهذا وارد أيضاً، وإذا يُلقِي القبض عليّ، بالجرم المشهود، تكون التهلكة في انتظاري، والجرم هذا واسع القوس، غير محدد المعالم، شامل كل حركة، كل نامة، من اللقاء المنفرد، إلى الإمساك باليد، من النظرة النشوى، إلى ملامسة الخنصر، من الصمت إلى الكلام، من الوقوف وجهاً إلى وجه، إلى الجلوس جنباً إلى جنب، ففي كل هذه الحالات عناصر جرم، والعنصر الجرمي موجود لمجرد التشبيهة، ويصرف النظر عن عقوبته المعجلة أم المؤجلة، فإنه جرم، عليه إشارة في إضبارة «المجرم» المفترض، لأنّه مس الكرامة الصينية، هذه النقيّة، الطاهرة، ناصعة البياض كالثلج، المغذاة بحقن دائم من شوفينيّة الدولة الكبرى، من خلال كل وسائل الإعلام غير المنظورة.

توقفت عن السير بعد أن توغلت في الغابة. نظرت في الجهات الأربع، ارتطم نظري بجدران من الخضرة الدكناء، الفاتحة، الرصاصية اللون غالباً، حاولت معرفة أين أنا من الساحة التي انطلقت منها، تلفتُ إلى وراء، بحثت عن منفذ، عن درب، عن شِعْبٍ في الجبل، بغير جدوى، استشعرت قلقاً على مصيري، وبدرجة أقلّ على مصير تشين لار، وفي هذا المأزق الذي وجدت نفسي فيه، جاءني نبأ في حجر، سقط الحجر، الذي على شكل حصاة، قريباً مني، التقطته متفرّساً فيه، فإذا حجر آخر يسقط، إلى أمام هذه المرأة، تقدّمت وجلأً، وتوقّفت، فإذا حجر ثالث، إلى أمام أيضاً، تقدّمت بضع خطوات أخرى، توقّفت، تلفتُ، قررت، وأنا في قلب المغامرة، أن أمضي في مغامرتي، أن أسير في الاتجاه الذي سلكته، مهما تكن النتائج، وكأنّنا من كان الذي يترصدني، ما دام الحجر رسالة، والرسالة وصلت، ولا يهم، بعد، أكانت رسالة خير أم رسالة شر، فراكب البحر لا يخشى من الغرق، وعليّ أن لا أخشى من «بحر» الغابة في سكينته الباعثة على الخشوع والرعب معاً.

نظرت في ساعتِي، كانت وحدها التي تتكّك، منتهكة سكيّة ما حولي، دون مبالاة بمرور الوقت، هذا المعبّد لمن هو خارجه، أو خارج الدائرة المرقمة، والعقارب المتحركة، الناطقة والصماء معاً، فالوقت، بالنسبة إلى

المعدن، لا وقت، إلا أنه بالنسبة إليّ وقت، وكل دقيقة تمرّ، تخلف تأثيراً مزدوجاً: أحدهما سكين تقطع حبل الأمل، وثانيهما كف تصل ما انقطع من هذا الحبل، في تناوب مرهق للأعصاب، من النوع الذي لم أعرفه من قبل، أنا الذي يزعم أنه يعرف، عن تجربة، كل أنواع الإرهاقات، وأنه صمد لها، وانتصر عليها، بأناة من ينسج قطع الخيزران الصغيرة، سترة من خيوط تنتظم مخارم تلك القطع الدقيقة، صانعاً من هذا الحبل الغريب تحفة فنية، لأميرة أو ثرية، مقابل تفاهة من عطاء الأرض الذي لا يذكر، إلا أنه ضروري لحفظ الحياة!

بغثة اهتزّت أغصان شجرة من فصيلة الصنوبريات. توقفت، نظرت إلى أعلى، لم أر شيئاً، مع أنني سمعت اصطفاق جناحين قويّين. لطيت وراء دغل، تحرك جسم ما في الدغل، رجعت إلى وراء، نظرت فإذا صلّ أسود، يبلع على مهل، جرذاً رمادي اللون، والصلّ قد تكوّر على شكل كعكة، في وضع استرخاء، بعد أن فاز بصيده، وراح يتلذّذ بابتلاعه، والجرذ يطلق صياحات زاعقة، خافتة، كمن يستنجد، أو يستغيث، بقبيلة الجرذان، وهو يكافح، للبقاء، منهزماً، مستسلماً لمصيره البائس، رويداً رويداً! جفلت للوهلة الأولى، أشحت بوجهي عن الصلّ، لم أخف منه قدر خوفاً من الأفعى، لعلمي أن الصلّ غير مؤذٍ مثلها، وأنه، الصلّ، يبتلع عدة جرذان، إذا توفّق في اصطيادها، وكى يهضمها لا بدّ أن يقيل إلى دغل، أو حجر، وفي هذه الحال، لا خطر منه، لأنّه «بالع» حسب الحكايات، لا قوّة له على خفة الحركة، أو الانسياب بسهولة، وعدوّه، في مثل هذه الحال، النسر، أو الشوكة، أو الغراب، وظنّي أنّ الطائر الذي صفّق بجناحيه بقوة، كان غراباً، يرى إلى فريسته من موقفه على غصن، متحيّناً الفرصة للانقضاض، وفي هذا تتوازن الطبيعة، فلولا الأفاعي لما بقيت أشجار وغابات، ولقرضت الجرذان جميع الجذوع، ولولا الطيور الكاسرة لامتلأت الجبال بالأفاعي، وانقرضت العصافير والحشرات الصغيرة، وفي انقراض العصافير والحشرات، موت للزروع، التي تفتك بها الديدان، وقد شنتّ الصين، بملايينها من البشر، حملة على عصافير الدوريّ حتى أبادتها، فكان أن تكاثرت أنواع الديدان وأتت على حقول القمح والحبوب، لذلك أوقفت الصين حملتها على هذه العصافير، مانعة صيدها حتى تتكاثر من جديد.

ولئن كان لكل أمر سبب، فإن رؤية الصل كانت سبباً في وقوفي، وكان وقوفي سبباً في تفادي رؤية رجل صيني، لا أدري من أين نبق، حاملاً بارودة صيد، وهو يجول في الغابة، وما إن ابتعد حتى خرجت من وراء الدغل، فإذا معبد بوذي أمامي، على مسافة أمتار قليلة، وفي هذا المعبد كانت تشين لاو تنتظر، متوارية خلف ستار خشبي، عليه رسوم وزخارف، وكان قلب تشين لاو يخفق بشدة، إلى درجة أنها مدت إلي يديها، وجذبتني إلى قربها، دون أن تقول كلمة واحدة، ثم أومأت لي برأسها فتبعتها، خارجين من الباب الخلفي للمعبد، إلى أن بلغنا ما يشبه الخميلة من خضرة نضرة، نستطيع من خلال أغصانها المتشابكة، أن نرى كل أحد، دون أن يرانا أحد. وما إن توقفنا حتى فتح لنا ذراعي، ودهشت لأنها ارتمت بينهما، كأنما لتحتمي بي، في وقت كنت محتاجاً فيه إلى حمايتها، هي بالذات... سألتني:

- لماذا تأخرت؟

قلت وأنا أضمها إلى صدري دهشاً:

- وهل تأخرت؟!

نظرت في ساعتها وضحكت، قالت:

- مضى نصف الوقت تقريباً، وأنا مضطربة، يا إلهي كم أنا مضطربة!

- من خوف؟

- من خوف عليك ومنك.. إنها المرة الأولى، المرة الأولى يا زبيد، وانت

تقدّر ما تعني المرة الأولى!

قلت:

- أقدر! أقدر يا تشين لاو، تعالي إلى صدري، إلى قلبي، ادخلي قلبي

وابقي فيه، وهكذا نبقى معاً، طول العمر.

أضفت:

- هذه هي المرة الأولى، التي تلتقين فيها رجلاً؟

- لماذا تسأل؟

- كي أعرف!

- الأفضل الا تعرف.. نحن معاً وهذا يكفي، يا لها من مغامرة خطيرة، مجنونة، في سبيل لقاء عادي جداً، كان يمكن، لولا الرقابة الشديدة، أن يتم بغير عناء، لو كنا نعيش ظروفًا أخرى، ظروفًا طبيعية، خالية من مسؤولية حماية ثورة، دفعنا، لأجلها، الكثير من الدماء، ولما نزل في أول طريق البناء، لإنشاء الدولة العظمى التي نريد!

شعرت، أمام هذه الديباجة المتهرئة، بصدمة، فنحن هنا، تشين لاو وأنا، كي نطفئ ما بنا من شوق، لا لسماع اسطوانة مكررة، معادة، مملّة، يمكن سماعها في الدروجبا، وفي بيتي بالذات، عندما تأتي تشين لاو إليّ، في مهمّة ما، باعتبارها مسؤولة العلاقات العامة، العلاقات التي تبدأ وتنتهي بسؤال واحد: «هل للرفيق زبيد ما يشكوهُ؟» أو «هل للرفيق زبيد، ملاحظات على الحياة في الدروجبا، تفيدنا في عملنا المشترك؟» نعم! للرفيق زبيد الكثير من الملاحظات، وهو يعرف أنّها لا تساوي قولها، لأنّها من الأشياء التي تلقى، بعد إبدائها، في سلة المهملات، لكونها رواسب بورجوازية، علي، كما نُصحت مرارًا، أن أتخلّص منها، إذا ما كنت أرغب في أن أكون رقيقًا طيبًا.. اللعنة!

سألّت تشين لاو، وهي بين ذراعي الباردين كالثلج، بعد تلك النار المتقدة في كفيّ، عندما لمست يديها فور اختلائي بها:

- ماذا حدث زبيد؟ لماذا هذا التحوّل غير المبرر، والمفاجئ أيضًا؟
قلت:

- لأنّه، في الصين لا مكان للحب، فقد تزوّجتم، جميعكم، الثورة وانتهى الأمر!

- وانت؟!

- تزوّجت ذاتي، التي أنام معها مضطربًا!

- ومارلين؟ والسيدة بورجرون؟ والأخريات؟

- بعثت بهنّ إلى الشيطان، أو، ربما، إلى الريف، لأداء العمل الجسماني، كما فعلت أنت، أو كما أرغمت على الفعل، عقابًا لك، لأنك سبحت خارج المياه الإقليمية الصينيّة! حدث هذا أم لا؟

- حدث!

- إذن؟

- أنت تعرف الجنس ولا تعرف الحب!

- وهذه المغامرة؟

- نزوة!

- في هذه الحال نفترق، كأننا لم نلتق!

نهضت عن الحجر الذي أجلس عليه، مددت يدي إلى تشين لآو مودعاً، راغباً في النسيان، أخذت يدي بين يديها وقالت:

- أنت مشاكس، كما يقال عنك، وأنت مجنون، كما أقول عنك أنا، لماذا

كل هذا الانفعال؟ ولماذا الإهانة، وأنا لا أستحقها؟ قل لي: ماذا تريد؟

- أن نكمل بناء الصين، وفي هذه اللحظة بالذات!

أضفت بنبرة أسي:

- إنني مثلك، يا تشين لآو، أتعلم ظروف الصين، وأعمل بدأب للمساعدة في البناء، لكن الأمور مرهونة بالقدر، التي يحسن ألا نبدها، كما نبذد دخان سيكارة، في ساعة غضب... هناك كلمة تقول: «لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت آخر» وكنت أحسب، في طريق الخطر الذي قطعته لأجلك، أن وقت جمع الحجارة ليس هذا أوانه، فإذا بي أفاجأ بشبه الضربة على الرأس، ان لقاءنا هذا مكرس لجمع الحجارة، فاجمعها وحدك، أرجوك!

ابتسمت تشين لآو، قالت وهي تعود إلى حضني:

- لا! لا تذهب، لا تتسرع، وإذا كان لا بد من جمع الحجارة،

فسنجمعها معاً، وبالطريقة التي ترضيك، هيأ قبلي، ضمني إليك، وباعنف ما في طاقتك!

غمست نظراتي المستثارة في عينيها، قبّلتها في وجهها، في عنقها، في

فمها، مددت يدي إلى صدرها فصاحت:

- لا! لا تفعل!

وفعلت!

في المطعم، انتقى زبيد طاولة تتسع لخمسـة أشخاص، جلس معتدًا بنفسه كما دخل، مشيحًا بوجهه عن الطاعمين الذين راحوا يتلفتون إليه! توقَّعوا أن يكون لديه ضيوف، أو ضيفة واحدة هي مارلين، بعد أن تمَّ ترحيل جيفرسون إلى المستشفى في بكين. وجاء الميتر مبتسمًا، قائلاً بمحبة ولطف:

- كيف كانت رحلتك البحرية؟

ابتسم زبيد بدوره وقال:

- ممتعة جدًا يا صديقي!

- وأين هو الصيد؟

- اشتراه تاجر سمك في بكين، بسعر لا يُنافس، لمصلحة المؤسسة العامة للأسماك هناك!

- هذا جيّد، وعكسه جيّد أيضًا، لو أردت.

- اخترتُ ما يناسبني!

- أخذت الألم لحسابك؟

- هذا ما أفعله دائمًا.

- وفعلك هذا ترك أثرًا طيِّبًا، هنا وفي بكين.. ماذا تأكل؟

- أكبر سمكة لديك، على أن تكون بنت عاهرة!

- وكيف أعرف ذلك؟

- من الغنج، السمكة كالمرأة، تغنج قليلاً دائماً.

- فهمت..

- إذن لن أقول شيئاً آخر.

- دع الآخر علي.. من هم ضيوفك؟ مارلين ثم من؟
قال زبيد مازحاً:

- هذه المرة أخطأت في تقديرك يا ميتر!

قال الميتر وهو يكتب في دفتره:

- وأنا سعيد لأنني أخطأت! ما كان يجب ذلك.
- أعرف!

نهض زبيد إلى البار، لإحضار ما يرغب من مشروب.. في طريقه رأى
نغوين والدو، جالسين إلى مائدة السيدين الاويس، لم يابه لذلك، غير أن
نغوين أنت بحركة غير لائقة، عندئذ سار زبيد بين الموائد، واضعاً يده
اليمنى في جيب بنطاله، قاصداً طاولة الاويس ومن معه، فلما هم هذا
بالوقوف لمصافحته، ضغط على كتفه وأرغمه على الجلوس، ثم نظر،
بغضب، إلى نغوين قائلاً:

- إياك وقلة الأدب مرة ثانية، هل تفهمين؟! وأنت يا الدو، أيها الفاشي
القدر، تحسن صنعاً إذا وضعت رأسك في طبقك، وإلا وضعته أنا بنفسني!
حاول الدو أن ينهض، إلا أن الميتر كان أسبق، ضغطه في كرسيه
قائلاً:

- ضع السكين من يدك، فهي لا تقطع أصلاً، وأنت يا أنسة نغوين،
تذكّري أنك في الصين لا في ألمانيا!

قال الاويس الأب:

- وماذا فعلت نغوين؟!

رد الميتر:

- اسأله، في البيت، تجبك، وهذا يكفي الآن!

قال زبيد:

- نعم يا ميتر، هذا الآن يكفي..

استدار زبيد للتوجّه إلى البار، إلا أن السيدة الاويس، الباسمة
تصايهاً، قالت:

- نحن، يا رفيق زبيد، نكنّ لك الود والاحترام، وكنا في قلق عليك..

قاطعها زبيد:

- شكراً على الودِّ والاحترام والقلق، دفعة واحدة! أنت، يا سيدتي، وكذلك زوجك، من الرفاق الطيبين، ومن الأصدقاء أيضاً، لكنَّ الأمر يختلف بالنسبة إلى نغوين وعشيقها الدو.. هناك حساب لا بدَّ أن يُصَفَّى.. في يوم من الأيام!! حسناً، إلى اللقاء..

قالت السيِّدة الاويس:

- سمعنا أنك..

قاطعها زبيد بحدة:

- ما سمعته يخصك وحدك، أما أنا فقد كنت في رحلة بحرية! أكرر: كنت في رحلة بحرية!

قال ذلك زبيد ومضى، تكدَّر الاويس وقال لمن معه:

- زبيد غير مخطئ!

أضاف:

- إنني رفيق، إنني شيعوي قديم، وأرفض اللعب بالنار، بهذه الطريقة المبتذلة.. أنا بانتظاركم في البيت! عليَّ أن أضع حداً لهذه المهزلة، التي سنتقلب إلى تراجيديا إذا لم أبادر، وفوراً!

أحضر زبيد الماوتاي والكونياك والبيرة، عاد إلى طاولته معتكراً، أشعل سيكارة، صبَّ كأساً من الكونياك، تذوقه بغير شهية، جاءه المتر قائلًا:

- لماذا اخترت، تونجي زبيد، الطريق الصعب؟

- لأنَّه صعب!

- التحديُّ له وقت، لكننا، في الصين لا نجد الوقت ملائمًا لمثل هذا التحديِّ، علينا أن نطوِّق كل حادث يثير البلبلة بين الرفاق الأجانب، ومن أجل هذا أبعادنا جيفرسون عن هذا المصيف.. وجدنا أن ذلك أنسب، لأنَّه لم يسبق، منذ تحرير الصين، ومنذ وصول الخبراء الأجانب إلينا، بعد التحرير مباشرة، إن وقع إشكال كهذا، والسبب، كما يروِّج بعض الخيَّباء، هو أنت، لأنك تريد، بشهامة، أن تحمي امرأة، والحماية، كما تعرف، نحن من يقوم بها، فلماذا ورطت نفسك، وورطتنا معك؟! ها هم ضيوفك، إنني أسف لما قلت، إلّا أن الحقيقة هي الحقيقة دائماً، وسنتحدَّث، مساءً، حول بعض هذه الأمور، دون تكليف من أحد، صدقني!

لم يصدق زبيد ما سمع، لغرابته، فهنا، في الصين، لا أحد يتكلم في موضوع خارج دائرة اختصاصه، والميتر، الذي هو رفيق مسؤول، مكلف بقول ما سمعه زبيد، إلا أن الذي قاله خطير، ما كان متوقعاً، في أي ظرف، فالتورط والتوريط، إذا ما كانا، في فعل جيفرسون وليس من فعله، وهذا يعرفه الجميع، إلا أن الأمور مأخوذة، حسبما فهم زبيد، من وجهة نظر الجماعة، لا من وجهة نظر الفرد، حتى لو كان هذا الفرد على حق، فالفردية، في النظام الشمولي، ملغاة، مختزلة في صفر، لا قيمة لها ولا رقم، وقد أحسن ناظم حكمت في التعبير عن هذا، حين قال: «كلنا واحدنا، وواحدنا كلنا» وكان يقصد به النضال، بينما قصد به الصينيون التذويب، حتى لا يكون صوت غير صوت الجوقة «ومن يدري، فقد يكونون على حق، وحتى لو لم يكونوا على حق، فإنهم يعدون التمايز نشازاً، ومن غير المسموح، حتى للفنان، أن يكون متميزاً، حتى لا يكون ناشزاً!»

قالت السيدة بورجرون، وهي تتقدم من زبيد مصافحة:

- أنت، يا عزيزي، لا تكف عن إثارة الضجيج، بصرف النظر عن نواياك الطيبة!

وقال السيد جاك بورجرون:

- الرفيق زبيد غير مسؤول، لأنهم هم الذين يثيرون الضجيج، كأنما يتعاملون مع المانوية في ثنائيتها، بين أسود وأبيض فقط، أو بين زبيد وجيفرسون فحسب.

قال زبيد، الذي قبل يد السيدة بورجرون، وصافح السيد جاك، وفق ما تقتضيه اللياقة:

- حسناً يفعلون يا أعزائي، فأننا من هواة الضجة لا السكينة! أو الحركة لا الثبات! هذا، كما تعلمون، من جدلية التاريخ!

قال جاك بورجرون:

- هذا يرضي رفاقنا الصينيين جداً، ولا يغضب رفاقنا السوفييت في الوقت نفسه!

قال زبيد ضاحكاً:

- وأنا أسعى لإرضاء الطرفين، لذلك «أدرس» في الجامعة، الماركسية -

الليبيّة فقط!

قالت السيدة بورجرون:

- يعني تمسك العصا من نصفها!

- اذا كان هذا رأيك فيّ فلا بأس!

- ورأي غيري؟

- يكون له جواب آخر، يتلاءم وقائله!!!

قال السيد جاك:

- مارغريت لا تقصد المعنى السيئ!

أجاب زبيد:

- وحتى لو قصدته فإنني أقبّله، أنتما عزيزان عليّ إلى درجة الرضى

بسلخ جلدي.. ماذا تشریان؟

قالت مارغريت:

- ما تنصحنأ أنت به!

- لنشرب، أولاً، كأساً من الكونياك، كبداية!

- وكخاتمة؟

- نشرب كأساً من الكونياك أيضاً!

ضحك الثلاثة وهم يقرعون الكؤوس، حاولت مارغريت بورجرون أن

تلتقي عيناها بعيني زبيد، كي ترى إلى وقع دعابتها عليه، إلا أنها لم توفق،

كان زبيد يتجنّب النظر إليها، منصرفاً إلى الكلام مع جاك الذي سأله:

- ما هي حكمة البدء بالكونياك، والختم بالكونياك أيضاً؟

قال زبيد ضاحكاً:

- لا تحاول، يا سيد جاك، أن تصطادني! أمامك، كفرنسي عريق، لا

أحد يتكلم على فلسفة الشراب..

قالت مارغريت:

- لم أسمع، قبل الآن، إن للشراب فلسفة!

قال جاك:

- لكل شيء فلسفته يا عزيزتي!

- وفي أي جامعة تُدرّس هذه الفلسفة؟

قال زبيد ضاحكًا:

- في الخمّارات أو البارات، من هنا تبدأ الحياة، وإلى هنا تنتهي!

- وهل لهذه الحياة نكهة خاصة؟

- طبعًا! نكهتها النشوة! وهذا من تحصيل الحاصل، لأنه ليس بيننا من لا يعرف عرس قانا الجليل، وليس بيننا من لا يعرف النشوة، إلا إذا كنا في حفرة «الأم» مارغريت، رئيسة راهبات الكرمل، في مقاطعة بوردو الفرنسية!

قال جاك مقهقهًا:

- سؤال كهذا يحتاج إلى جواب كهذا!! مارغريت، يا زبيد، «أم» كرمليّة عتيقة، لكن ذلك لا يظهر عليها إلا بعد أن تنام!

ضحك الثلاثة، وقال زبيد:

- بركاتك، إذن، أيتها الأم مارغريت، وليكن الطريق إلى الجنة ممهّدًا أمامك، من الآن وإلى أبد الدهر، آمين!

صاحت مارغريت:

- طريقي إلى الجنّة ممهّد، لأنني أصلي، قبل النوم، كل ليلة!

صاح زبيد:

- وبعد الصلاة تضربين زوجك العزيز، كي ترقدي بسلام!

صاحت مارغريت:

- لا! أنا لا أضرب زوجي، لأنني لست «صناعة إيطالية»..

قاطعها زبيد:

- إذن صناعة مكسيكيّة!

- ولا هذه أيضًا!

قال جاك:

- أنت، يا مارغريت، صناعة منغولية إذن!

- منغولية؟! أنا منغولية؟!

قال زبيد:

- دون تورية!

قال جاك:

- لا! مع التورية الكاملة، لأنك تشبهين «الأم تيريزا» تمامًا!

- وماذا في ذلك؟ الأم تيريزا قديسة!

- وأنا قصدت ذلك فقط..

قال زبيد:

- إذن باركي، أيتها الأم كلية الطهارة، هذا الماوتاي، واغفري ذنوبنا

نحن الخطاة!

قالت السيدة نلسون التي سمعت العبارة الأخيرة:

- مَنْ يغفر ذنوب مَنْ؟ هلو زبيد، أين كنت يا عزيزي؟

نهض زبيد مرحبًا وقال:

- مع المافيا، في جزيرة صقلية!! تفضلي عزيزتي، فنانتى الكبيرة،

خذي مكانك!

حركت السيدة نلسون يدها حركة أوبرالية وهي تجلس، جلس زبيد

أيضًا، ابتسمت له، قالت وشففتها تلمعان:

- قل لي، زبيد، أين كنت فعلاً؟

- في رحلة بحرية لصيد القروش!

- وهل اصطدت قرشاً؟

- اصطدت سمكة كبيرة، هي على النار الآن، ويسرني أن تتذوقها

معنا.. ما رأيك بكأس من الكونياك مع هذه الأطباق الحارة كلها؟

- ولماذا الكونياك وليس الماوتاي، عزيزي؟

- لأن البارمان الذي هو أمامك، يرى أن التدرج في المشروبات أفضل!

قال جاك بورجرون:

- لصديقنا زبيد فلسفة خاصة بالشراب، لم يشرحها لنا بعد.. لكنّها

تبدأ بالكونياك وبه تنتهي!

غمزت السيدة نلسون وقالت:

- وما الحكمة في ذلك، عزيزي زبيد؟

- الراحة الجسدية والنفسية سيدتي العزيزة.. الكونياك، في البدء، يفتح الشهية، وفي الختام يطهر المعدة، من كل ما سبقه من شراب.

- في هذه الحال لا بأس بكأس من الكونياك، لكنني لا أريد، حقيقة، أن أفرض نفسي عليكم، فقد يكون هناك، بينكم، حديث خاص!

قالت السيدة بورجرون:

- السيد زبيد يقصّ علينا كيف اصطاد سمكته الكبيرة، في رحلته البحرية!

- سمعت بهذه الرحلة ولم أصدق، إلا أن صيد السمكة التي تحدثون عنها مقنع جداً.. لنشرب كأس المغامرة الثانية هذه!

- ومغامرته الأولى؟

- أسألي عنها، عزيزتي مارغريت، الجروح التي على جسمه، والتي رأيتها من غير شك!

- نعم رأيتها، وظهرتها له أيضاً، واشترك جاك معي في تطهيرها.. صديقنا زبيد إنسان رائع، وأنا معجبة به جداً، هل أجبت عن السؤال؟!

غمزت السيدة نلسون وقالت:

- اوه! أنت أيضاً رائعة، عزيزتي مارغريت، وأنت، أيضاً، مغامرة في البحر!

- وفي البر أيضاً!! لنشرب كأس هذا اللقاء، ونتوجه بتذوق السمكة الرائعة، ونترك ما تبقى!

هذه نصيحة، سيدة نلسون، لأن زبيد سيخطب الأنسة إيتوال بروك في حفل كبير، قريب جداً، وسأكون، في المستقبل، شاهدة زواجه، في الدروجبا!

- هذه كأس تُشرب، نعم تُشرب، وبكاملها، لأن مارلين ستتحضر، وتعرف ما معنى أن يحبها جيفرسون المسكين، وبإخلاص نادر.. أليس كذلك عزيزي زبيد؟!

قال زبيد:

- طبعاً! طبعاً! جيفرسون يستحق الشفقة، لكن النساء، مع الأسف، لا يحبن الرجال الذين يستحقون الشفقة، ولا أدري لماذا! ها هي سمكتي

الرائعة، المتبيلة جيداً، وسنتناولها مع الماوتاي، ومع الأطباق الأخرى، الفاخرة، وكل هذا على شرف ضيوفي الأعزاء، الذين ذكرتهم، وتمنيت أن يكونوا معي، في الرحلة البحرية الماتعة، «كامبي»!

شربوا كؤوس الماوتاي الحادة، بينما كان الكرسون يضع السمكة الكبيرة، الممددة في «جات» كبير بحجمها، والميتر يقول:

- هذه السمكة صيد صياد ماهر، وقد حدثني البحارة الذين كانوا مع زبيد في المركب، أنه كاد يخاطر بنفسه لأجلها، دون أن يذكر لي زبيد أي شيء حول ذلك.. تخدمون أنفسكم، أم أبعث إليكم من ينوب عنكم في تشطير السمكة، ووضع شرائحها البيضاء، الشهية، في أطباقكم؟

قال زبيد:

- شكرًا تونجي على هذه المائدة الفاخرة، بل على كل شيء، ولا حاجة لمن يقدم لنا شرائح السمكة ما دمت موجوداً.. لنشرب، يا أصدقائي، في صحة النساء المتحررات من عبودية حب الرجال المجانين، أمثالي!

قالت السيدة نلسون:

- أنا سأشرب، إذا سمحتم، في صحة جيفرسون ومارلين، صديقي العزيزين!

قال زبيد:

- لك ما تريدين، سيدة نلسون، وأمل أن أسمع أخباراً طيبة عن صديقك، ما دام الوفاء، بالنسبة إلينا نحن العرب، أحد أهم الصفات التي نتحلى بها.

قال جاك:

- أين جيفرسون ومارلين الآن، سيدة نلسون؟

- زبيد يعرف!

قال زبيد:

- نعم! أعرف ولكن لي رجاء أن نؤجل الكلام على هذين الصديقين، إلى ما بعد التهام هذه السمكة، مع هذه الزجاجة من الماوتاي، وهذه البيرة المبردة، وما أعتقد أن هذا التأجيل يؤدي، أو يجرح، عواطفنا تجاههما!

قالت السيدة نلسون:

- هذا جميل منك، عزيزي زبيد، أنت لست حقوداً كالآخرين!
استفز، هذا الكلام، السيدة بورجرون، لكن زبيد، أشار عليها، خفية،
بألا ترد، فالسيدة نلسون تنقصد استفزازها، وهذه الضيفة، الجالسة إلى
مائدتهم، يجمل بهم أن يفوتوا عليها فرصة هذا الاستفزاز، وثمة وقت، بعد
الطعام، للكلام معها، إذا لم تصل إلى السكر الكامل، وغالباً تصل، ويكون
الكلام معها، في هذه الحال، غير ذي نفع، لأنها تصبح غير مسؤولة عن
تصرفها، أو فلتان لسانها.. وهذا ما حصل فعلاً، لكن زبيد، الذي حرص،
بإصرار، على تركها حيث هي، أدار لها ظهره وخرج من المطعم مع
السيد بورجرون، من غير أن يلتفت إلى ما تفعله، أو تقوله، رغم أنه
يعزها، ويقدر نبل شهادتها، في الحريق الذي شب في بيت جيفرسون،
وكاد هذا الأخير يذهب ضحيته، لولا أن بادر زبيد إلى إطفاء الحريق، من
منطلق الإشفاق على عاشق خائب!

عند العصر، وبعد نوم عميق، أيقظته السيدة بورجرون برنين ملحاح من
الهاتف، قالت، على الطرف الآخر للخط «إن كرامتي أهينت، وإن السيدة
نلسون كانت مدعوة ثقيلة الظل، ولو عرفت أنها ستلبي الدعوة، لاعتذرت
أنا، والحق، بعد كل شيء، علي قطعاً، لأنني كنت أمام حالتين: العشيق،
وهذا مستبعد إلى حد ما، أو الخوف لئلا تغيّر هذه العجوز المتصابية،
شهادتها حول الحريق في بيت جيفرسون، وهذا أمر محير! إنني أربأ
بنفسي أن أجالسها، ولم أكن أعرف أن زبيد خوّاف إلى هذا الحد!»
قال زبيد، هادئ الأعصاب، دون أثر لانفعال:

- ويعد يا سيدتي؟ هل أيقظتني من النوم، لتسمعيني مثل هذه الموعظة
الثرينة جداً؟

ردت مارغريت بورجرون بعصبية:

- أعتذرُ على هذا الإزعاج غير المبرر من وجهة نظرك، إلا أنه مبرر من
وجه نظري.. كيف أها أن أنا من أكون بالنسبة إليك؟ ولماذا تركتها تتمادى،
وتسلقنا، أنت وأنا، ببذاعتها الحارقة؟ لو كان غيرك لقطع لسانها! هناك
مؤامرات تحاك ضدك.. متى تنتبه؟ متى تفتح عينيك؟ ثم متى تفهم وتنبذ
الخو؟

قال زبيد دونما اكتراث:

- وبعد، يا سيدتي الشجاعة؟ هل أطمع بوقوفك إلى جانبي، إنقاذاً لي من المؤامرة التي تحاك ضدي؟! في هذه الحال أطلب مساعدتك، أنا المستطيع بك، كيلا أؤخذ غدرًا، بسبب من غفلتي النعامية! قللي، تكلمي، أشيري علي بما يجب أن أفعل!
قالت مارغريت بحدة:

- أنت لا تتفحصك النباهة، كونك تعرف، أن ما يجب أن تفعل، لا يُقال على الهاتف!! إنني قادمة إليك!

تمطى زبيد وهو يبتسم من بين أهدابه، اغتسل، تعطر، أعد القهوة، انتظر دقائق وإذا الباب يُقرع، وإذا السيدة بورجرون على الباب، وهي في كامل أناقتها الباريسية، كأنما تأتي لموعد مضروب، وليس لإبلاغه «شيئاً خطيراً عن المؤامرة ضده»! قال وهو ينزع عنها منديلها الحريري الهفهاف:
- هذه القهوة معدة لك، بحسب طريقتي أنا ومزاجك أنت! أفضل أن نأخذ معها قليلاً من الكونياك، كي تسترخي أعصابنا، أو نُستثار، ما دام طبق الرغبة الشَّهَاء، يعربد في دمننا نحن الاثنين.. في صحّة كونتيسستي الغالية جداً علي.. وللبرهنة على ذلك، أميل إلى أن نشرب هذا النخب، بعد أن تتخفّفي من هذا الثوب الأنيق، لتصافح عيني ما هو أشدّ أناقة: صدرك، كتفك، ساعديك، وراحتك أيضاً!

هيا، ساعديني، أرجوك!

- وإذا كنت لا أريد؟

- وإذا كنت أنا أريد؟

- تغتصبني؟!

- ويعنف شديد!

- ولماذا العنف وقد جئتك برضاي؟

- لأنّ الاغتصاب العنيف، ما دام الدم يغلي في الشرايين، يعدّ من أفضل الوجبات الجنسية.. لنشرب، إذا سمحت، هذه الكأس من الكونياك كاملة، وبعد ذلك نشرب كأساً أخرى، من رحيق آخر، أنت به سخية، كايّة امرأة متوسطة، دافئة جداً.

قال زبيد ذلك باطمئنان، كمن يعرف، ويثق، أن طلبه لا يرد، لا من طاعة، بل من اشتياق شهواني، أفعواني، تنقلب إليه المرأة، حين يكون قبالتها رجل على مثل حالها، على مثل هياجها، ومثل اندفاعها إلى الابتعاد بالثلج الذي يُزهر، في داخلها، تلك الزهرة الغريبة، النادرة، التي تتفتح، وتُفتَح معها، كل مسام الجسد المضموم بين ذراعين قويتين، فولاذيتين، نهمتين، نهاشتين للحم الرخص، البض، الذي بينهما.

أن السرير تحتهما، أن، وأن، لا من شكاة، وإنما لأثمه، السرير، كالخصي الذي يرى ولا يستطيع، فيئن معذبًا، راغبًا في خرمشة وجه الفضاء، في تمزيق لحمه أو لحم الأخرى، مدركًا، في أن واحد، أنه يُقدم، ويتهيّب أن يُقدم، لأن الشقاء كتب عليه، كما كتب على السرير، والصمت، والصبر، هما ملاذه، كما ملاذ السرير تمامًا! وماذا في وسع الجماد، أو في وسع الخصي، الذي صيروه من الداخل، جذوة، ومن الخارج جمادًا؟ يبقى الفارق، رغم ذلك، كما الفارق بين الحي - الميت، والميت - الميت، هذا لا يحسن، إذن لا يتألم، وذاك يحسن ويتألم، والألم يطول ما طال العمر، والقهر يطول ما طال الألم، وعلى الخصي أن يتعايش والمه، لاعنًا، كل يوم، عبودية الإنسان، التي أتعسُ نتاجها أن يُحرم الرجل رجولته، منذ الصبا إلى الشيخوخة إلى القبر الرحيم!

كانا، السيدة بورجرون وزبيد، يدخنان وهما في السرير، بعد تلك التربيئة على الظهر، التي تعلن بها الأنثى كفايتها من الذكر، وسعادتها بهذه الكفاية، وكان زبيد يدخن ويفكر، في الخصي والسرير، وتلك الأكذوبة عن المؤامرة، التي أوصلت السيدة بورجرون، بأسرع ما يمكن، إلى السرير، قائلًا في ذاته: «إذا لم تكن المؤامرة أكذوبة، فإن مارغريت، ستحدث عنها الآن براحة ووضوح، لأنني أعرف، من تجاربي وقراءاتي، أن على الرجل أن يهيئ جيدًا، المرأة، ويعطيها حتى ترضى، وبعد هذا، لا قبله، يسألها عما يريد، أو تحدّثه هي بما تريد!! مارغريت راضية الآن، إذن فلتقل، دون حرج، ونحن في السرير، ما اعتبرت أنه لا يقال في الهاتف!»

لكن مارغريت لم تتكلّم! إنها تريد، كما يبدو مواصلة لعبة السرير، دون أن تتكلّم!

اليومية الثلاثون ٧ شباط ١٩٦٣

وحدنا أمام القدر، وحدنا في الغابة، وراء معبد بوذا في «الجبل العطري»، ووجدنا في الشوق المتبادل، دون رِيٍّ لشوقنا المتبادل هذا، رغم أن تشين لاو متزوجة، وزوجها في سيتشوان، المقاطعة الصينية البعيدة، وقد أباحت لي أن أعانقها، أن أقبلها، أن أمدّ يدي إلى صدرها! احترقت أصابعي وهي تلامس النهدين في مكنهما! كانا مكورين، ناعمين، أملسين، يشربان بحلمتيهما الشبيهتين بمنقار حجل بري، بعندمته الغامقة، النهديّة اللون، وكنت مأخوذاً، إلى درجة الصرّع، حين رأيتهما فجأة، ولأول مرّة، خارج المنهدة البيضاء، تصافحان نور النهار، ونظراتي الملتهبة، وعلى بياض لونهما تتشهى حمرة الشفق، من ارتعاش رغبة مكبوتة، رغبة أنثى، تقاوم، بعناد صلب، أن يمتدّ النظر، أو تتغلغل الأنامل، إلى ما تحت الصدر، إلى المنطقة المحرّمة.

احترمت رغبة تشين لاو هذه، عجبت لبكارة النهدين، اللذين لم تمسهما يد رجل، ولم ترضعهما شفقا رجلاً، إلّا زوجها، ولدة قصيرة، بعد الزواج وقبل الافتراق، إذ ذهب كل منهما إلى المقاطعة التي يعمل فيها! عجبت أكثر لملامسة الجلد، في الجسد كله، كأثما هذا الجسد، للأنثى الصينية، لا زغب عليه، مع أن الزغب موجود في حواصل صغار الطير، وفي حوصلة فرخ الحمام، لحظة تفقس عنه البيضة، في العش المخصص لذلك. قبلتها، يا ويلتي كم قبلتها، وكم ارتعشت، وكم ارتعشت، خلال زرع القبل، وتبادلها، دون أن نقتصد، هي أو أنا، وعندما انقلب الحور، في عينيها، إلى شرايين دقيقة وردية، وغامت هاتان العينان، في غيبوبة الانتفاضة - الذروة، قالت تشين لاو وهي تعانقني، واضعة ذراعيها الحارّتين حول رقبتني:

- كفى زبيد، أرجوك!

لم أكف! انتهرتني: «كفى! أرجوك!» لم أكفَ أيضاً، وعندئذ تقلّقت مني وبكت، ابتعدت وبكت، جلست على حجر قريب وبكت، وأمام بكائها الذي بعضه سغب، وبعضه ندم، كفت، رحت أمسد شعرها وأنا أداري ما بها قائلاً:

- هل تتزوجيني يا تشين لاو؟

ضحكت من بين دموعها وسألت:

- ماذا؟

- هل تتزوجيني؟

- أتزوجك؟ كيف؟ هل نسيت أنني متزوجة؟

- وماذا يعني؟

- يعني أنك أضعت منطقك!

فعلاً أضعت منطقي، لا أمام الحقيقة فحسب، بل أمام النزوة أيضاً! تشين لاو متزوجة، فكيف أعرض عليها الزواج، وأنا رافض للزواج؟ كيف أعرضه عليها وبأي منطق؟ تناقض! نعم! تناقض، إضاعة عقل، تسلطت عليّ الشهوة، استبدت بي، وفي طريق العودة، استشعرت خطئ ما قلت، وحمدت الله لأنّ قلبي كان في غير محله، وأنها رفضت، وأصررت على الرفض قائلة:

- حتى لو لم أكن متزوجة، لما قبلت بالزواج منك!

- لماذا؟

نظرت إليّ مستغربة وقالت:

- حقيقة لا تعرف؟

قلت:

- أعرف ماذا يا تشين لاو؟

- تعرف، أولاً، أنني لا أترك وطني، فهذا الوطن غذائي جنيناً، ربياني وليدة، علمني يافعة، فتح لي باب الجامعة شابة، وعليّ، من باب الوفاء على الأقل، أن أسهم في بنائه!

- وثانياً؟

- أنت لا تحبني!

- هذا غير صحيح!

رازت قسمات وجهي وقالت:

- بل هو صحيح جداً.. أنت تشتهيني فقط!

- دليلك؟
 - غيابي أو حضوري سواء لديك!
 - وهذا اتُّهام فقط!
 - اتُّهام يستند إلى تجربة.
 - وماذا كان في وسعي؟ أن ألحق بك إلى الرِّيف؟
 - لا! ليس هذا أبدًا.
 - وماذا إذن؟ أن أطاردك في الدروجبا والعيون مفتحة علينا؟
 - ولا هذا!
 - إذن ما هو السبب، لمثل هذا الحكم القاسي، إذا كان هناك من سبب،
 وما أظن!
 - نحن لسنا في الظن! نحن في الواقع.. لو كنت تحترم لقائنا في
 البحر، الذي عوقبت لأجله، لما كان عندك، الآن، عشيقتان: مارغريت
 بورجرون، ومارلين تشارلز!
 أضافت:
 - علينا، في هذه النقطة، أن نفترق، أنت تذهب يسارًا، وأنا إلى يمين..
 واللقاء في الساحة، عند الذين ينتظروننا!
 في الدروجبا، نزلت من باص الرحلة إلى «الجبيل العطري»، أسرع،
 دون كلام مع أحد، إلى البيت، كيلا أسأل، فوق ما سئلت، وكيلا الفُق
 الحجج، حول مغامرتي، بأكثُر مما لفقت. كنت تحت وطأة ذلك اللقاء الذي
 بادرتُ إليه تشين لاول، ورَتَّبْتُه بدهاء المرأة عندما تريد أن تلتقي رجلًا، ولم
 يكن من السهل عليّ، أن أفرز مشاعري المتداخلة، المتشابكة مع أفكارِي،
 أو أسمع إلى صوت العقل بمعزل عن صوت العاطفة، أو أمتنع، بأيّ حال،
 عن الإصغاء إلى ضميري، وهو الرقيب، الصامت والمتكلم معًا، الذي
 تراوحت محاسنُه بين السخط والرضى: السخط على ما فعلته في غياب
 تشين لاول، والرضى عما فعلته، في أن!
 كنت وسخًا كلّي، من الداخل والخارج معًا، وكنت معجبًا بموقف تشين
 لاول، ومتأذيًا منه، لأنها انتصرت عليّ، وجعلتني أنتصر عليها، وتلك هي
 المفارقة بين دهائها وسذاجتي، أنا الذي أزعم أن لديّ من التجارب، ما

يجعلني متفوقًا في التعامل مع المرأة! تشين لاو عرّنتني حتى من ورقة التوت، تكلمت من سريرتي على سريرتي، لأنها هي فيها، قالت: «أنت لا تحبني بل تشتهيني!» وكنت فعلاً لا أحبها بل اشتيتها، وذكرتي بالواجب الوطني، هذا الذي كنت، أنا المناضل المدّعي، قد نسيت، ثم أدركت، بحسّها الأنثوي، أن تسرّعي في عرض الزواج عليها، هو نزوة طيش، دافعه عدم الارتواء، فلو أنّني مارسست الحب معها، لارتويت، ولم أتقدّم بعرض سخيف كهذا، ما دمت أعرف، منذ كنا في شنتاو، أنّها متزوجة، وأنّ زوجها في مقاطعة سيتشوان البعيدة، وأنّهما يسهمان في بناء الصين الجديدة، ومن أجلها يضحيان هذه التضحية، التي هي قاسم مشترك بين معظم الصينيين، والشباب خصوصاً.

الآن، وأنا أكتب هذه اليومية، يكون قد مضى خمسة أشهر على لقائنا، تشين لاو وأنا، خمسة أشهر بنهاراتها ولياليها، والحرق في الراحة، هو نار فيها، أحسّ بها كلما اعتادتني الذكرى، رغم أن تشين لاو غادرت الدروجبا، دون أن أعرف إلى أين، دون كلمة وداع، دون إشارة إلى أنّها ذاهبة، وعبثاً حاولت أن أعرف، من حسن أولي ناي زوجته، أي شيء عنها، مع أنّني أزور حسن، أو أراه، وأرى زوجته، كل يوم تقريباً. إنّني اتفهّم جيداً حيرة حسن أمام هذا الإشكال، فهو صادق معي، ولو أطلع من زوجته على أيّ خبر حول اختفاء تشين لاو لأبلغني به، إلا أنّ زوجته، كصينية، وكشابة، مفعمّة حماسة كالآخرين، وكتوم مثلهم، من غير المجدي أن أستدرجها، فالسرّ الصيني يبقى سرّاً صينيّاً، مهما يكن الأجنبي رقيقاً جيداً، طيباً، ملتزماً، ومهما تكن الثقة به كبيرة، لأنّه، في آخر المطاف، سيرحل، ويحسن ألا يعرف عن الحياة الصينية الداخلية، إلا المقدار الضروري للقيام بالعمل الذي هو مكلف به، وربما كانت سرّيّة النضال، القاسي والطويل، الذي خاضه الصينيون، إضافة أخرى إلى هذا التكتّم، غير المفهوم من وجهة نظر الغريب، والمفهوم، لأنّه معيش، من قبل الصينيين أنفسهم، الذين تلقّوا تربية حزبية صارمة، ونبت لديهم حذر طبيعي، خشية أن يُلحق أيّ كلام يقولونه للغرباء ضرراً ما بوطنهم!

في ذلك اليوم، وبعد العودة من الرحلة، لم يكن ليخطر لي على بال أن تشين لاو ستختفي بهذه السرعة، ولأنّني عشت معها، في «الجبل العطري»

متعة لم أعرفها مع سواها، فقد شلّني تفكيري بها، وارتبكي من جرّاء هذا التفكير، عن معرفة ما عليّ أن أعمل! تسألت: «أين هي الآن؟ ماذا تفعل؟ بماذا تفكر؟ تبتسم من سعادة؟ تبكي من ندم؟ ولماذا الندم؟ تبكي لأنها اضعأت، كما أضعأت، فرصة العمر، أم تبكي لأنها استفاقت من نشوة اللذة، وهبطت من عالم الخيال إلى حضيض الواقع؟ تعدّ ما فعلته إثمًا؟ وأين الإثم؟ أين المعصية؟ أين هو العبث بحرمة الزوجية؟ لم يكن بيننا شيء من هذا، وكان من حقها أن تفخر بتمنّعها عليّ، لا أن تبكي، فلماذا بكت إذن؟!

هذه التساؤلات، ما كانت لتطرح نفسها عليّ، لو أن ما حدث كان مع امرأة أخرى، غير صينية، أو غير تشين لاو تخصيصًا، وما كنت لأكثر لو أن ما وقع كان مع مارلين، أو السيدة بورجرون، فهاتان الصديقتان واضحتان، مقرومتان، تقريبًا، مثل حروف الأبجدية، أعرفهما، بشكل ما، كما أعرف الخطوط الجلدية، المتشابكة، في راحة كفيّ، من الخارج على الأقل، إلّا أن الأمر ليس كذلك مع أيّة أنثى صينية، هذه مغلقة ككل صيني، يبتسم لك، يتلطّف معك، بمقدار ما يكون الابتسام ضروريًا، واللفظ واجبًا، فإذا لم تكن ثمّة ضرورة لهذا أو ذاك، وإذا ما دعت الحاجة إلى خلافهما، فإنّه ينقلب من حمل إلى ذنب، ويبرز له نابان مخيفان! هناك، طبعًا، من هم غير ذلك من الصينيّين، فبينهم اللطفاء حقًا، المحبّون حبًا أصيلًا، الأصدقاء فعلاً، غير أنّ المرحلة الصعبة، غير المستقرة، غير المتوازنة، التي تمر بها الصين، في الوقت الحاضر، تفرض كل هذا التعقيد النفسي، وكل هذا الحذر غير المبرّر، وكل هذا الندم، وهذا البكاء، إذا ما كان هناك، افتراضًا، انزياح ما عن المسلك الانغلاقى، ومن المرأة الصينية خصوصًا!

حملت معي خواطري هذه إلى الحمام، ملأت البانيو بالماء الساخن، تمدّدت فيه، غطست إلى الرقبة، أحسست بالدفء، بالراحة، بالانتعاش، بقيت على هذا الوضع مدة غير قصيرة، أزيد في حرارة الماء كلما ابتعد، وفي الجوانح رغبة أن أبقى كذلك، إلى أن أهدأ، أنسى، أطفئ لاجعة الشوق إلى لقاء آخر، مماثل، في رحلة أخرى، مقبلة، ولو كانت إلى «الجبل العطرى» ذاته، ومعبد بوذا نفسه، فالرحلة، أيّة رحلة، لم تعد، بالنسبة إليّ،

للإطلاع، بل لرؤية تشين لاو على انفراد، والتحدث إليها، ومعرفة سبب بكانها، وإيقاف رعشة الجلد في ظاهري كفي، حين تحتوي هذه الكف فرخ الحمام الأبيض، الهادل، في صدرها.

بعد الحمام الساخن، وما فيه من نعيم الدنيا، أعددت قهوتي، أحضرت الكأس، وزجاجة الكونياك، كما هي عادتي، وفجأة حضرت تشين لاو، انبثقت من الجدار، اتخذت شكل تجسد من تحفة ما معلقة، أو موضوعة، أو مركونة، وتقدمت بخطى وثيدة، خفيفة، كأنها تمشي في الرِّيح، لتذهب، حين تشاء، في الرِّيح، منسربة كالدخان، متلاشية مثله، تاركة وراءها ندأ كان يفوح منها، عابقاً في فضاء الصالون الذي اجلس فيه، متأملة بحيرة تامة، كل ما يحيط بها، صامته عمداً، كأنها تعاقبني بصمتها، فلما وقفت لم تلتفت إليّ، وحين تقدمت نحوها ظلّت على وقفها، ظهرها إليّ، ووجهها إلى لوحة جدارية، تقرأ ما نقش عليها من شعر، باللغة الصينية القديمة، التي لا يعرفها في الصين سوى ماوتسي تونغ، وكوموجو، رئيس دائرة جمعيات الصداقة مع البلدان الأخرى. كنت، حتى الآن، مأخوذاً بها، اعرف أنها تشين لاو، رغم أنني لم أر وجهها، فلما سألتها:

- من أين دخلت؟

قالت دون أن تلتفت إليّ:

- وماذا يعنك في هذا؟

قلت:

- يعنني أنك في بيتي!

أجابت:

- هذا ليس بيتك، وليس بيتي، إنه بيت الدولة.. هنا الملكية جماعية،

وانت تعرف هذا!!

- أعرفه، وأعرف أن هناك ملكية فردية أيضاً، يدخل في نطاقها البيت

والحديقة والبقرة والعجل والديك والدجاجة!

- تسخر؟

- قليلاً!

- من الملكية الجماعية؟

- نعم!

- لماذا؟

- لأنها سابقة لأوانها!

- أنت إذن مع الملكية الخاصة؟

- وماذا في الملكية الخاصة؟ إنَّها ضروريَّة، إلى حدِّ ما، في هذه

المرحلة بالذات!

التفتت إليَّ تشين لائو، كأنَّ تيارًا محرَّكًا، أدارها بقوة دون إرادتها، رازتني بنظرة سابرة، وعلى وجهها يرفُّ ظلٌّ من جفوة، بعد ذلك اللقاء الحميمي الذي كان، اللقاء الذي أدخلني جنة فتنة أرضية، جاءت تشين لائو الآن لإخراجي منها، بقصد محو كل تلك المودة، أو سحبها من ذاكرتي، كي نعود إلى ما كنا عليه، قبل اللقاء عند الشبك الحديدي في بحر شنتاو، وقبل عناقنا والقُبْل، ظهر اليوم، وراء المعبد البوذي في «الجبل العطري»، كأنَّما الذي جرى بيننا «خطيئة مميتة» تعذبها، وقد أتت الآن لتتخلَّص من هذا العذاب، وتقلب الصورة الجميلة إلى ما هو ضدها تمامًا، نافية بذلك حقيقة أنَّا كنا معًا، متقصدة، في هذا النفي، نسيان هذه الحقيقة، وبقسوة شديدة، دافعها تعطيل مخيلتي، وربما مخيلتها أيضًا!

تركت المبادرة، في الكلام، لتشين لائو، فإنَّ تتكلم تريح نفسها وتريحني، وأنَّ تكفي بسبر ما في سريرتي، فهذا السبر يبدو لي لعبة متقابلة، تجعلنا، هي وأنا، نقوم بالمحاولة نفسها، وفي وقت واحد، دونما فائدة، بسبب من أن الغور الداخلي أعمق، وأعقد، مما نظنَّ للوهلة الأولى، والقياس، هنا، لا يصح، وكذلك التعميم، لأنَّ ثمة إنسانًا واحدًا، له نفس واحدة، ومن العبث فهم هذه النفس، عن طريق المقارنة مع نفس أخرى، ومهما يكن المسلك الخارجي، المتشابه، في المسلك الاجتماعي، مع تقاليد هذا المجتمع، وبشبه إجماع في بعض الحالات، فإنَّ المعوَّل عليه، لفهم النفس البشرية، أن نأخذها كمفردة، معزولة عن سواها، وأن ندرسها على هذا الأساس. وقد أدركت، بعد وصولي إلى الصين، أن اللباس الأزرق، الموحَّد، والكلام السياسي، من منطلق واحد، والحماسة التي هي قاسم مشترك، بين الشباب الصيني، يتناول، ويتحدَّد، في المظهر لا في الجوهر،

وتشين لاو هذه، التي سمحت لنفسها أن تنفلك من هذا الطوق التوحيدي، استجابة لعاطفتها، سرعان ما أطفأت عاطفتها، وعادت إلى لغة العقل، لتكون نعجة في قطيع الغنم، ولو لمدة ما، هي مرحلة بالتأكيد، وبعد ذلك، بعد عقود، قد تطول أو تقصر، لن يبقى هذا اللباس الموحد، والمسلك السياسي الموحد، والالتزام الموحد، وعندئذ سيكون هنا انفرط لهذه التوحيدة، وبروز قوي للفردية، وسيكون هناك حب، وعلمي هذه المرة، يتيح للإنسان الصيني أن يعبر عن مشاعره، بغير خوف، أو حذر، أو تردد، سواء كان ذلك بين الصينيين ذاتهم، كشعب واحد، وكأمة واحدة، أو بينهم وبين الأجانب، من شعوب أخرى وأمم أخرى.

طال صمت تشين لاو، طال صمتي، والعذاب، في هذا الصمت المتعمد، كان لديها، مثلما كان لدي، كلانا متآلم، كلانا معاند، وكلانا له أسبابه ودوافعه إلى هذا الصمت، هذا العذاب، هذه المكاسرة. وقد رغبت، بين لحظة وأخرى، أن تذهب تشين لاو لأبقى وحيداً، وبذلك نصون المودة التي بيننا، مؤجلين الكلام إلى وقت آخر، يزول فيه الندم، يزول فيه الحلم، وتهبط ثائرة كل منا! إلا أن تشين بادرت إلى الكلام، تنفيساً لاحتقانها المتأزم، فقالت بنبرة ساخرة:

- هل حقاً أنت ضد الملكية الجماعية؟ ولماذا، أنت بالذات، ترى أنها سابقة لأوانها؟ وكيف تفكر، أيها الرفيق المنظر، في أن الملكية الخاصة أنفع لنا؟! سألته:

- هل نجلس ونتحدث، أم نبقي واقفين، مشحونين بتوتر سخييف وغير لائق؟

قالت بنبرة حسم:

- بل نبقي واقفين!

أضافت:

- بالنسبة إليّ، أنا غير متوترة، لأنه لا سبب لديّ لمثل هذا التوتر.. وقد جئت كي أوصل لك هذه الحقيقة الصغيرة، التي نسيته في باص الرحلة، ومن حسن الحظ أن اسمك مكتوب عليها، ومن حسن حظي أنني وجدت

بابك مفتوحًا، وكنت أنت شارِد الذهن، تعدّ القهوة، وقد راقبتك للحظة، ثم خرجت إلى الشرفة، بانتظار عودتك من رحلة ضياعك!

قلت مبتسمًا:

- ها قد عدتُ من رحلة ضياعي!

قالت:

- عدت من رحلة ضياعك، لتدخل في رحلة صمتك!

- في رحلة الصمت، كنا معًا يا ملكتي!

- وفيم كنت تفكر، في ضياعك وصمتك؟

- فيك، وفي الحياة، والحب، والنفس البشرية، واللباس الموحد، والكلام الموحد، والفكر الموحد أيضًا!

- وما هو الحكم الذي توصلت إليه، في كل هذا؟

- هكذا؟ بالجملة؟ وبوضع كل الأشياء في كيس واحد؟ حسنًا! ليكن!

لنختزل الأسئلة في سؤال، والأجوبة في جواب، ما دمت ترين ذلك ممكنًا!

- وكيف تراه أنت؟

- غير ممكن! الكلام على الحب، يختلف كثيرًا عن الكلام على اللباس الموحد.. اجلسي يا تشين لاء، ما دمت قد جئت، وليكن، بعد ذلك، ما يكون، فالمغامرة، في العيش، تعطي للعيش نكهة ما، تخرج به عن النمطية، عن الرتابة، وعن الموقف الجمعي، الذي يقتل التمايز، ويحوّل حياة الفرد إلى حياة القطيع، ولو كان ذلك، بالنسبة إلى الصين، مرحليًا، ثم تعود الأمور إلى طبيعتها، لا أدري بعد كم من العقود، وبعودة الأشياء إلى مجراها، تأخذ السلوكية طريقها إلى الفرز، إلى فك الارتباط القطيعي، إلى الفردانية التي لا تتعارض مع الجماعية، حين تكون كل منهما صادرة عن رضى، وعن وعي، وتلقائية، ينتفي منها القسر والإكراه، والامتثال للأوامر الصادرة من أعلى، ومن خارج، دون مشاركة كل منا في اتخاذ قرارها، يستوي في ذلك القرار السياسي والقرار الاجتماعي.. وحتى القرار العاطفي، كما هي الحال بالنسبة إليك الآن! اجلسي يا عزيزتي، استرخي، قول لي كل ما تريدين قوله، فهذا أدعى لراحتك وراحتي، أنا الذي كنت مضيقًا قبل مجيئك، مشتتًا، ساهيًا، حتى بلغ من سدوري مع أفكاري

أنني نسيت إغلاق باب البيت وراني، وكان هذا من حظنا علينا، فلولا ذلك لما دخلت، لأنني كنت في الحمام، أنقع أفكاري بالماء الساخن، كما ينقع الشاي الأخضر عنديكم.

جلست تشين لاو قلقة، مشدودة الأعصاب، حائرة بين عاطفتها وعقلها، رغبة في أن تقتنع بما قلت، خائفة من هذا الاقتناع، أسيفة لأن الأمور كما وصفتها موجهة، بسبب من أنها عاجزة عن دحض ما قلت، فقد كانت، قبل هذا الذي قلت، تعيش كغيرها، وتؤمن بصحة ما هو سائد كغيرها، وتتعصب له، مدافعة عنه بعناد، تمارس الضغط على مشاعرها كأنثى، مؤجلة تفحص هذه المشاعر الأنثوية من يوم إلى يوم، ومن عام إلى عام، حتى صار هذا عادة لديها، وصار هجوع غريزتها، في الحب وممارسته، هجوعاً مشبوهاً، لا تنتفي معه الممارسة كلياً، إلا أنها ممارسة آلية، دون حب، ودون صدق في هذا الحب، حتى كان اللقاء بيننا، وكان سقوط حجر في الماء، انداحت إثره دوائر متتالية، استدعت أسئلة متتالية، توقفت بعدها تشين لاو عن الكلام، مخلدة إلى سكون راح يتشاءب، ليجعل من جلستنا، في تقابل مقعدينا، جلسة متثابرة، ذات كسل لا ينفع معه اصطناع النشاط، ومن الأفضل، في هذه الحال، أن ينصرف كل من الجالسين، الفاترين إلى غايته.

اقترحت على تشين لاو أن نشرب قليلاً من الماوتاي فوافقنا، وقد أثارت موافقتها استغرابي، وحذري، وخشيتي عليها، لأنهم، في مكتب الدروجبا، يعرفون أنها عندي، ووجودها في بيتي، أنا الأعزب، مثار للريبة، في الليل خصوصاً، فكيف أدرا الشبهة عنها وعن نفسي؟ وماذا أقول لعبد القادر، إذا ما جاء عمداً أو مصادفة؟ ولئن كانت تشين لاو قد أخذت بكلامي، وقررت أن تغامر، فما عاقبة هذه المغامرة؟ علي، إذن، أن أراجع عن اقتراحي، أن ألفتها إلى الخطر، وما ينطوي عليه من ضرر بالغ، يمس سمعتها وسمعتي، وربما تجاوز مس السمعة إلى ما هو أوخم، الطرد من الصين، أو السجن، بذريعة إغواء صينية، واستدراجها إلى بيتي، وتناول الماوتاي معها بقصد إسكارها، ثم اغتصابها! قلت لتشين لاو:

- سنشرب القهوة أولاً!

سألت:

- ولماذا القهوة أولاً؟

- لأنها مفيدة في إضفاء جو من الراحة.

- القهوة العربية تجلب القلق لا الراحة، وقد جربتُها مرة فلم أستطع النوم.

أضافت بعد لحظة من التفكير المتأني:

- هل أنت خائف؟

- وأنت، ألسنت خائفة؟

- ولماذا أخاف وأنا في مهمة؟ ثم لماذا أخاف حتى لو لم أكن في مهمة؟
إذا كنت تريدني أن أنصرف فسأنصرف، وعندئذ يتحقق غرضك من تركك
الباب مفتوحاً، حتى تتمكن التي تنتظرها من الدخول وأنت في الحمام
مثلاً!

قلت:

- أنا لا أنتظر أحداً!

قالت:

- عدم انتظارك أحداً صحيح بالنسبة إليّ، وأحسب أنني صنعتُ لك
مفاجأة، بزيارتي المفاجئة!

- هل أفهم من هذا أن زيارتك غير المتوقعة، كانت لغرض في النفس؟

- وهل تشكّ في ذلك؟

- كل الشك، لأنّ مثل هذه الزيارة لها تفسيران عندي، أولهما أنّك
أردت ضبطي مع امرأة، وثانيهما ... لا! لا حاجة لقول ما لا يقال، لأنني لا
أصدق!

قالت مستنفرة:

- لا تصدق ماذا؟ أنني أتجسّس عليك؟ ما كنت لأتوهم، مجرد وهم، أنّ
السخف يبلغ بك هذا المبلغ!

ردّ زييد بالحدة ذاتها:

- قد أكون سخيّاً يا تشين لاو، لا بسبب «مجرد الوهم» كما تقولين،
وإنّما لأنّ كلينا مراقب في الدروجبا وخارجها، وقد أسعدتني زيارتك،

وليس كذلك الطريقة التي تمت بها . وحتى مع التسليم بأنني نسيت إغلاق الباب، فإن المفاجأة هي المفاجأة، وكان ينبغي الإعلان عن مجيئك، فور دخولك وإغلاق الباب وراءك، وبهذا كنت تصنعين لي مسرة لا حد لوقعها في نفسي، إلا أن الذي جرى، وفق روايتك، أنك خرجت إلى الشرفة، وبغته دخلت الصالون حيث أجلس، فخيّل إليّ أنك انبثقت من الجدار، من الأرض، من وراء أية تحفة في البيت، وزاد في تخيّلني هذا، انصرافك عني، تأمّل الأشياء وأنت تديرين ظهرك إليّ، الكلام معي وأنت على هذا الوضع، دون تحية المساء، دون كلمة تعريف، دون السماح لي برؤية وجهك، فلماذا اللجوء، عمداً، إلى مثل هذا التصرف غير المألوف، في أي بيت، أية مدينة، أي بلد؟ ولماذا قلت لي، جواباً عن سؤالني عن كيفية دخولك: «بماذا يعنيك هذا؟» كيف لا يعنيني هذا؟ كيف تدخلين بيتي خلسة، وتقومين بحركات غير عادية، ثم تريدني ألا أدهش وألا أستغرب؟ مع هذا كله، تقبّلت زيارتك بما يليق بك، وحاورتك بلطف، واحتملت سخريتك وأنت تصفينني «بالمنظر»، لمجرد قلبي إن الملكية الجماعية، إذا لم ترافقها ملكية خاصة، تكون سابقة لأوانها في هذه المرحلة من بناء الاشتراكية في الصين! هذا، يا عزيزتي، رأيي، ولكل إنسان رأيه، والخلاف في الرأي، من وجهة نظري، ليس عداً، ليس فرية، وليس مدعاة للرفض، وهو، الخلاف في الرأي، لا يستدعي الزعل، أو الحرد، أو ينال من المودة، ويا ليتنا، في الصين وغيرها، وفي الاتحاد السوفياتي خصوصاً، نقلع عن مصادرة حق الخلاف وحق التمازج حوله، وبحريّة تامّة، حتى لا يكون هناك صوت واحد فقط، وأمر واحد فحسب، ووجهة نظر واحدة، باعتمادها ينتفي الديالكتيك، وتنتهك إحدى أهم ركائز الفلسفة المادية التي نؤمن بها، أنت وأنا والآخرين.

أضفتُ وتشبّهتُ لاو صامتة، مصغية، مثقلة بهمّ يلوح في قسّمات وجهها، وكبت داخلي مؤلم تعاني منه معاناة شديدة:

- أنت، أيّتها الصديقة الكريمة، المحترمة، الغالية، على حق في قولك «أنت خائف»! لكنك لست على مثل هذا الحق في قولك «أنت تتوهم أنني أتعسّس عليك»! فالسبب الثاني لزيارتك غير المتوقعة، والذي ترددت في قوله، هو أن علاقتنا قد انكشفت، وأنهم رأونا، في لقائنا الحميمي، الذي

لم يدنس بالممارسة، في «الجبل العطري» وقد جئت لإبلاغك ذلك، وتبلغته إدراكاً لا مصارحة، وأنا، صدقيني، أسف لهذا، لكنني سعيد به، فقد كان لقاء لا ينسى، كان لقاء العمر، فهل أنا على خطأ في استنتاجي؟ نهضت تشين لآو مودعة وهي تقول:

- استنتاجك في محله تماماً! لقد رأونا رغم كل الحيلة التي اتخذناها، ونحن تحت المراقبة الشديدة، منذ لقائنا الأول في بحر شنتاو، وقد نعاقب، أو يفضون النظر عن فعلتنا مؤقتاً، لكنهم لن ينسوها، ومن أجل هذا كله، ورغبة في التحدي، ونكاية بالترمت، ورفضاً لمنطق تحريم الحب بين صينية وأجنبي، ملت إلى المغامرة، وافقت على شرب الماوتاي معك، وكنت عاقلاً في سحب اقتراحك، لأنهم، بالنسبة اليّ، قد يبعدونني، ثانية، إلى الريف، أما بالنسبة إليك فإنهم قد يتهمونك باغتصابي، وهي تهمة جاهزة، عقابها السجن الطويل، ولو حدث ذلك لجننت، وربما قتلت نفسي، لأنني كنت المبادرة إلى ترتيب اللقاء، اليوم، في «الجبل العطري» إنّه، كما ترى، ذنبي، إلا أن سعادتي بهذا اللقاء تفوق أي ذنب، مهما يكن الإحساس به، أو العقاب المترتب عليه.

قالت ذلك تشين لآو، صافحتني بحرارة، خرجت وهي تتلفت. استبطنت الليل، إلا أن الليل، في الصين، له عيون، ومن المستحيل، إلا نادراً جداً، أن تخفي خافية على هذه العيون!

الشيء الوحيد الذي لم تقله تشين لآو، هو أنها جاءت، مغامرة، لوداعي، فقد كانت تعرف، قبل مجيئها، أنها عوقبت، وأنها أبعدت عن الدروجبا، وعن بكين كلها، ولربما كان النفي مصيرها، أو كان السجن ينتظرها!

لم يكن زبيد يحتاج، لمعرفة ما هناك، أن تتكلم السيدة بورجرون، وقد تدوَّش، بعد انصرافها، طلباً للانتعاش، وصفاء الذهن، والشروع في العمل، بكل ما عرف عنه من جدية، ومن قيام بالواجب على أتم وجه. كان شعاره: «السريـر لا يتعارض مع المكتب!» كل منهما يكمل الآخر، ولكل منهما وقته، الآن انتهى وقت السريـر، ليبدأ وقت المكتب، ليشرع بعمل ينتظره، بعد رحلته البحرية الماتعة، في «قاووش الموت» الذي كان فيه، وأخفى سره عن الجميع، غير مكترث بمن يصدق، أو بمن يرفض التصديق، طالما أنه، هو زبيد، صاحب العلاقة وكلمته هي التي تؤكد أو تنفي ما حدث.

قطع الاتصال الهاتفي، اشتغل بجد، متأنياً في إصلاح ترجمة مقالات مجلة «بناء الصين» التي عليه أن يسلمها اليوم، لترسل إلى بكين في قطار الليل، وبذلك يفي بوعده، وتصدر المجلة في وقتها المحدد. تناول، بعد ذلك، كتاباً عن تحرير شنغهاي، هذه المدينة البحرية الجميلة، التي كانت تحتلها أربع دول، هي فرنسا وبريطانيا واليابان وألمانيا، وقد تقاسمتها دول الاحتلال هذه، ظناً منها أنها باقية إلى الأبد، فجاءت الثورة الصينية، في اندفاعها الكاسح، وكُنست المحتلّين، وضبطت الكثير من الوثائق، غن خطط الاحتلال الرباعي، وأهدافه وأطماعه ومنازعاته، الداخلية والخارجية، وما كانت كل دولة محتلة، تحاوله من إزاحة الدولة الأخرى، لتحل محلها، وعن تكاتف هذه الدول، ضد نضال الثوريين الصينيين، من عمال وحرفيين وصيادين، داخل شانغهاي، والفظائع التي ارتكبتها هؤلاء المستعمرون ضد هؤلاء المناضلين، في داخل المدينة، أو ما يحيط بها من الضواحي والقرى. الكتاب، في رأي زبيد، كان مهماً جداً، وكتبه كان بارعاً في عرض

الصراعات الكلية، بين دول الاحتلال الأربع، وما كانت تؤسس له لترسيخ احتلالها، وما تقتترفه من آثام، ومن نهب وسلب وتنافس تجاري، ومن انتهاكات ضد السكان، وتقتيل وتذبيح وتكسير للإضرابات، بواسطة جنودها وعملائها، وقد عزز الكاتب كل هذا بالوثائق والصور، وكان نشر الكتاب حدثاً فجائعاً بالنسبة إلى دول الاحتلال الرباعي، بسبب ما اقتترفت من فظائع تحمل على الرعب، ثم ما في الكتاب من وثائق دامغة حول إعدامات المناضلين الصينيين الأبطال، بقصد إبادة كل من يتحرك، أو تشبه بأنه يتحرك، ضدها، وخصوصاً بريطانيا واليابان، ثم مفاداة المناضلين الذين قدموا، بعناد وسخاء، الفوج بعد الفوج من الذين استشهدوا، تحت التعذيب الوحشي، أو على أعواد المشانق، حتى تم التحرير بانتصار الثورة.

غير أن الكتاب، في طبعته الصينية، ظل تأثيره محدوداً، وقد أحسنت القيادة، بعد أن استتبت الأمور، وعولجت القضايا حسب أولوياتها، بالالتفات إلى ترجمة أمثال هذا الكتاب إلى اللغات الحيّة، بواسطة الرفاق الأجانب الذين يعملون في دار النشر، وجاء الوقت الذي ينبغي أن يترجم فيه هذا الكتاب، إلى اللغة العربية، بواسطة زبيد، وعن الإنكليزية، وبالسرعة الممكنة، مع الدقة، والإتقان، هذه الأمور التي كان زبيد يوليها اهتمامه، جديته، دأبه، سهره، لأنّ الكتاب، في طبعته العربية، سيكون مفيداً جداً، لشعبه، لأمتّه، وللمناضلين العرب بعامة. وعندما كان زبيد، يكلف بأعمال كهذه، كان يستشعر الراحة، لأنّه، حتى في منفاه البعيد، يسهم، إلى حدّ ما، في معركة التحرير العربية، التي يثق بانتصارها، وثوقاً كلياً.

«يخيّل إلى الناس، فكر زبيد، أنّني ديك في مملكة الدجاج، لا هم لي، في هذه الغربة، سوى التنقّل من امرأة إلى أخرى، سوى ممارسة الحب، سوى التباهي بالإنفاق والشرب، وكذلك بارتكاب المعاصي من كل الأنواع، بما في ذلك إغواء هذه المرأة أو تلك، وخطف مارلين من خطيبها المزعوم جيفرسون، والتقرّب من الأنسة إيتوال بروك، والفجور، والبطر، والطيش، بكلمة: الدونجوانية، النرجسية، الشعبوية، هذه الصفات المزدولة، المقرونة بأخلاق الغربة، وما فيها من فساد وإفساد، وفي الطليعة التشوّف، للفت الأنظار إليّ، كفارس من القرون الوسطى، دأبه الخروج من مغامرة للدخول

في مغامرة، ومع النساء خصوصاً، ناسياً، الأصح متناسياً، البلد الذي جئت منه، والمبدأ الذي اعتنقه، فماذا أقول لهؤلاء؟ لا شيء! نعم! لا شيء! لأنني غير مجبر على تقديم تقرير عن حياتي الخاصة، لأحد في هذا الكون! إنهم يرون إلى الجروح التي على جسمي، ولا يرون الجروح التي في روحي، لا يعرفون أنني شقي، معذب، يتناهشني الألم، باكثير مما يتناهش جيفرسون، هذا العاشق المتهالك، البائس لأنه متهالك، الذي يحب دون أمل، لأنه الأضعف، بينما مارلين هي الأقوى، لأنها لا تحب، لا تستجيب لجيفرسون وحبّه، تكرهه، وهي في كرهها صادقة، وفق قانون الحياة، الذي جعل من الكراهية الوجه الآخر للحب! مسكين جيفرسون، هذا الفاقد لإرادته، غير القادر على استعادتها، المتعامل مع المرأة بمعزل عن تاريخها الاجتماعي، التاريخ التعيس الذي صنعه الرجل للمرأة، منذ انتهاء عهد الأمومة، بعد معركة طويلة، اغتصب فيها الذكر عرش الأنثى، متربحاً عليه إلى أيامنا هذه، وفي يده، بالتناوب، السوط والكأس المرّة، والمرأة مضطرة إلى احتمال الضرب والمرارة، وإلى ممارسة الصبر على الأذى، وما فيه من قمع واضطهاد، لاجئة، برغمها إلى المراوغة، إلى الحيلة، إلى تقمّص الأفعى ودورها، في الليونة وعطب السم، لأنها أسلحتها الوحيدة، الخفية، المستخدمة بدهاء يفوق دهاء الرجل، هذا الأبله الذي هو قرين جيفرسون وأمثاله، من الذين يستغربون، ويستنكرون أيضاً، ثأر المرأة لنفسها، لضعفها، ولانكسارها، لذلك، لقدرتها على الانتقام، حين يُتاح لها أن تضع سكينها في عنق الرجل، وتذبحه تشقيّاً، وبقسوة بالغة!

«جيفرسون غبيّ، نحن الرجال أغبياء جميعاً، وحين نهمل، تاريخ المرأة الاجتماعي، وعندما نحب، أو لا نستطيع أن نحب، وفي هذا، في القدرة على الحب، وعدم القدرة عليه، أتساوى، أنا زبيد، وجيفرسون، فلماذا، إذن، يشفقون على هذا الأخير ولا يشفقون عليّ؟ ولماذا يحسبونني سعيداً، في التنقّل، كالعصفور الدوري، من غصن إلى غصن، دون أن أستقرّ على غصن!؟ إنّ شقاء عدم الاستقرار، يفوق، بمرّات عديدة، شقاء الاستقرار، ومع ذلك أريد أن أستقر، أن أحب، وأنزّوج، وأنجب كالأخريين، وهذا كله ليس في وسعي، من غير أن أعرف لماذا هو في غير وسعي، أنا القادر على أشياء كثيرة، الفائز في مجالات عديدة، المجابهة للشدائد، المرتفع

عليها، الشجاع في النزال، الجبان أمام فكرة الاستقرار دون حب، والباحث عن هذا الحب لاستقر، دون أن أعرف لذة خفقان القلب، في حبه الذي أعرفه كبيراً، قدرياً، وأبحث، برغبة، باشتياق، عن هذا القدر، كي ينزل بي ضربته، فأستريح، مرة وإلى الأبد!

«أما ما أعانيه، في سهري، في دأبي، في عملي المتواصل، الذي يستنزف قواي، ويرهق أعصابي، ويجعلني حزينا حتى الموت، فإن الآخرين، المفترين عليّ، الذين صلبوني على خشبة الدونجوانية، فإنهم يجهلون، أو يتجاهلون، عمداً أو مصادفة، وكذلك يجهلون، أو يتجاهلون، تجرُّح روحي، تشمّع كبدي، تقرّحها، من شدة ما أصابتها سهامهم، وشدة كتمانني لهذه السهام في هذه الكبد التي تنن في الليالي، وتتوجّع، وحيدة، منكفئة، لائذة بالصمت، الذي دونه الشكوى، وما اعتدتها، ولن أتحمّل نلّها، مهما يكن، مهما يكن!».

اللعة! قالها زبيد بغير صوت، بعد هذا التفكير الطويل، في حديث مع نفسه، حاوله، حتى الآن، مرات عديدة، ومن جوانب متعدّدة، لكنّها، كلّها، تنبع من معين واحد، نفسيّ، قلق، وتصبّ في مصب واحد، عكر، لا فائدة منه، أو فيه، إلا محاكمة الذات، تجريحها، تعذيبها، كأنما هذا التعذيب قد أصبح عقدة نفسيّة، إذا أجراها تطهّر، تخفّف مما يعانيه، متعلّماً، دونما نجاح، نسيان هذا كله، محو هذا كله، من خلال العمل، ثم العمل، ثم العمل، لأنّه وحده يُشعره بالطمأنينة، يقنعه بأنّه يناضل، كرفاقه هناك، في وطنه العربي بخاصة، وفي العالم بعامة، ومن أجل التسريع في الخلاص المرتجى، الخلاص الذي يأتي «خلل قفل ومفتاح» كما قال بوشكين في إحدى رسائله إلى الديسبريين، الذين يموتون في «بيت الموتى»! كما في كتاب دوستوفسكي، الذي عاش في هذا البيت، وعانى فيه ما يعانيه الآخرون، زملاؤه، شركاؤه، أحبّته، مهما تكن الذنوب التي ارتكبوها، أو التّهم الموجهة إليهم، بحق أو بغير حق، وغالباً بغير حق، لأنهم ضحايا مجتمع قيصري، مجتمع موجود، وسيوجد، في كل البلدان، وكل العصور، إلى أن تنتصر الحرّيّة، وتتحقّق العدالة الاجتماعيّة، في المدى المنظور وغير المنظور في آن واحد!

أعاد وصل الهاتف، وبه شعور أنّه يعيد اتصاله بالحياة من حوله، وفي

هذا الاتصال الذي لا بد منه، ما هو مريح، وما هو مزعج، وكذلك هو العيش، في وجهيه: الحسن والقببح، إنما العيش مطلوب لذاته، لجدارته، لما هو فوق الحسن والقببح: استمرارية الحياة، والكفاح فيها ولأجلها، وهذا ما هو حاصل، وكل ما تبقى هامشي، لا يستحق أن نشغل أنفسنا به طويلاً، كما يفعل الذين لا أمل لهم ولا عمل، ولأن الفراغ ينخر الأحشاء، يسئم القلب، فإن أمثال هؤلاء سئمون منخرون من الداخل!

أخرج زبيد أوراقه، فتح الكتاب، ترجم العنوان، ترجم اسم المؤلف، ترجم كل ما في صفحة الغلاف الأولى، قائلاً في نفسه، ومن بين ابتسامته: «لو أحصيت الكلمات التي أقولها بغير صوت، بالنسبة إلى الكلمات التي أقولها بصوت، لكان الفارق كبيراً ومذهلاً، ولكنت مفكراً من الدرجة الأولى، إنما بالسفساف لا بالفلسفة، أو بالقضايا المهمة، أو الخطيرة، شأني في هذا شأن غيري، ترى يفعل الناس ما أفعله أنا؟ يفكرون في الأشياء أم يمارسونها؟ يتأملون ما حولهم، وما بداخلهم، كما أتأمل؟ أشك! ما أنا فيه نتيجة الوحدة، والناس ليسوا مثلي، وحيدين، متوحدّين مع ذواتهم، لأن لهم زوجاتهم وأولادهم، وقد يكونون، بخلافي، ضجرين من زوجاتهم وأولادهم، ومن الضجيج الذي يثيرونه، وهم يرغبون في وقت للتأمل فلا يجدون، وهكذا ينطبق عليّ قول الشاعر «أنّي بما أنا شاك منه محسود!»

ترجم زبيد صفحتين من الكتاب، بحماسة وسعادة، ثم توقف ليردّ على الهاتف، لسمع صوت عبد القادر وضحكته الأليفة، مكرراً استهلاله الدائم:

- كيف حالك يا أستاذ؟

- بخير يا عبد القادر! أين أنت؟ أين غبت؟ لماذا لا تحضر إليّ؟ هل هي التعليمات!!؟

قاطعه عبد القادر ضاحكاً:

- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ ماذا تقصد بالتعليمات؟ هذا لا شيء، كنت في بكين، في مهمة تتعلق بالعمل، هل لديك أحد؟ هل أستطيع المجيء؟
- تعال، وبسرعة!

بعد دقائق كان عبد القادر يقرع الباب، فتح له زبيد مبتسماً، مرحباً، متذكراً موقفه معه وهو في «قاوش الموت»، وهربه كيلا يرى عملية الشنق، شاعراً نحوه بالامتنان، رغم هذا الضعف، أو هذا الخوف الذي انتابه، هو الشاب الصغير الذي لم يسبق له أن رأى عملية وحشية، رهيبة، كهذه، وبغفوية تامة فتح له ذراعيه، فاحتضنه، وقبله، وقال له:

- شكراً يا عبد القادر، على وفائك وإخلاصك... ماذا لديك من أخبار؟
قال عبد القادر:

- الرِّفاق في الجامعة، وفي دار النشر، وفي الدروجبا، حملوني تحياتهم إليك، وثناءهم على ما تبذل من جهد، لكنني، هنا، سمعت قصة غريبة عنك، فقد أبلغوني أنك كنت في رحلة بحرية!
- وأين الغرابية في هذه القصة يا عبد القادر؟ نعم! كنت في رحلة بحرية! خفق عبد القادر كفيه وقال ضاحكاً:

- ولكن كيف هذا يا أستاذ؟ أنت كنت في السجن لا في البحر!
- ومن رأيي في السجن؟
- أنا! ألم نكن هناك معاً؟

- أنت كنت تحلم يا عبد القادر، أو أنك جننت قليلاً.. أنا كنت في رحلة بحرية! والكل يعرف أنني كنت في رحلة بحرية، وقد اصطدت سمكة كبيرة جداً، أكلتها مع ضيوفي في المطعم، وإذا كنت لا تصدق فإذهب واسأل مدير المطعم، والسيد بن بورجرون، والسيدة نلسون، والآخرين، الذين كانوا معي في البحر، والذين رأوا السمكة الكبيرة على طاولتي.. وكيلا تتعب، اختصر الوقت، اسأل مدير الإدارة في بيتاخو.

انهبل عبد القادر، فكر، لأول مرة، دون أن يضحك، اعترف أنه سأل مدير الإدارة، وسأل مدير المطعم وغيرهما، فأكد الجميع أن زبيد كان في رحلة بحرية، وأنه اصطاد تلك السمكة الكبيرة، وكيلا يشك في عقله، وفي نظره، فرك عينيه وقال:

- هناك سر لا أعرفه، لا أفهمه، لا أصدق، ولا أصدقك أنت أيضاً يا أستاذ!

قال زبيد:

- هذا لأنك شاب صغير يا عبد القادر، شاب يحلم وهو نائم، وربما
يمشي وهو نائم أيضاً، ألم تسمع بالذين يمشون وهم نائمون؟
- سمعت!

- اذن أين الغرابة في قصة رحلتي البحرية؟! اسمع! خذ هذه المواد
الخاصة بمجلة «بناء الصين» وأبعث بها في أول قطار ليلي إلى بكين، كي
يسلموها إلى دار النشر، وإلا تأخر صدور المجلة عن موعدها المحدد.. ما
رأيك أن نتعشّى معاً الليلة؟ سأبلغ الرفيق مدير الإدارة، وأدعوه إلى
العشاء معنا أيضاً، وأدعو بعض الرفاق في الإدارة، ومدير المستشفى،
والرفيقة الصينية التي تحبها..
فرقع عبد القادر بالضحك وقال:

- ولكن كيف هذا؟ أنت تمزحني يا أستاذ! أنا ليس لي حبيبة في
بيتاخو، ولا أعرف ماذا أقول بشأن الدعوة إلى العشاء، مدير الإدارة هو
الذي يدعو لا أنت! هذه هي العادة عندنا!
- وإذا قلت لك إنني سأخرج على هذه العادة، وأن مدير الإدارة
والآخرين سيقبلون الدعوة؟
سأل عبد القادر مبهوئاً:

- دون إذن القيادة؟
- بإذن القيادة، في بيتاخو وليس في بكين.
- لا بد من إذن القيادة في بكين!
- هل هذه قاعدة؟

- نعم!
- إذن من القيادة في بكين، لأجل دعوة للعشاء؟
- نعم!
- أنت تخرف يا عبد القادر!
- أنا أقول ما أعرف يا أستاذ!

- في هذه الحال نترك لمدير الإدارة أن يتصرف.. انتظر! سأصل،
إمامك، بمدير الإدارة، وأدعوه للعشاء الليلة، ونرى كيف يتصرف، وبماذا
يجيب!

أتصل زبيد بمدير الإدارة، دعاه إلى العشاء، قبل هذا الدعوة، سأل عن الوقت، اقترح زبيد أن يكون العشاء في الساعة الثامنة، وافق مدير الإدارة كما وافق أن يكون عبد القادر حاضراً، ليقوم بالترجمة، وعندئذ تهلل وجه زبيد، فأغلق سماعة الهاتف وقال لعبد القادر:

- هل رأيت؟ اذهب بسرعة وابعث بهذه المواد، وسيكون لقائنا في المطعم في الساعة الثامنة إلا ربعاً، لأن هذا من الأصول، فالمضيف يسبق الضيوف عادة، كي يستقبلهم بنفسه.

أجاب عبد القادر:

- فهمت!

وانطلق بسرعة. ظلّ زبيد، بعد ذهابه، يفكر فيه، يقارن بينه وبين الشبيبة الصينية، وكيف يقوم كل شاب، بحماسة واندفاع، بتأدية المهمة التي هو موكل بها، وبالسهر على المصلحة العامة، حتى بغير تكليف من أحد، وبغير إيعاز أو استنفار، وفي السنوات الصعبة، التي واجهت الصين بها الجفاف والكوارث، عدت هذه الشبيبة نفسها مستنفرة، فقامت بجهد فائق القدرة، للمساعدة في تجاوز المصاعب، وهكذا نجحت الصين في تجاوزها، بشكل أدهش المراقبين، في الدول التي تترصدها، وأميركا خصوصاً! قال زبيد، وهو يرى إلى هذا البلد الذي ينهض من بين الانقراض: «الصين الشعبية هذه، لا تنطبق عليها المقاييس المعتادة.. إنها بلد العجائب، بلد اختراق المألوف، وحتى بعد فتور الحماسة الملتهبة، والابتعاد في الزمن عن لهب الثورة، وتأثير المسيرة الكبرى، وانتفاضات العمال في المدن، حتى بعد هذا كله، فإن الصين ستتابع نهوضها بشكل محير، مدهش، وعندئذ لن يحصل الذين يتسألون: كيف؟ وبأية طريقة؟ وبأي تخطيط؟ على أجوبة لأسئلتهم، وستظل الصين، في نموها، وفي طاقتها الخارقة على التكيف مع المستجدات، مثار انبهار الجميع، الأعداء والأصدقاء، وستنداح دوائر هيبتها المتعظمة أكثر فأكثر، ويوماً بعد يوم، حتى تبلغ، وتشمل العالم كله!»

في الساعة الثامنة مساءً، جاء الضيوف الصينيون إلى المطعم، كان زبيد قد رتب، بمساعدة من مدير المطعم، مائدة لائقة، إلا أن الضيوف

المنتظرين لم يأتوا، ولم يحمل عدم مجيئهم زبيد على الاستغراب، فهو يعرف، من الدروجبا، أنك توجه الدعوة إلى قيادة دار النشر، أو قيادة الجامعة، أو أية منظمة أخرى، وتقوم قيادة هذه المؤسسات، باختيار الذين يلجئون دعوتك، وهذا، إذا لم تكن مجرباً، يصيبك بالإحباط، لأنك دعوت فلاناً، فإذا علان، الذي قد لا تعرفه، يأتي إليك، ولا بد لك، كمضيف، من مجاملته، واصطناع الابتسامة أمامه، وربما كان عليك، أن تضحك لسؤال بليد، أو نكتة بانخة، إذا سعيت إلى تبديد الوجوم الذي يخيم على الجوا! ولأن زبيد يعرف أمثال هذه التصرفات، ويستهنجها، ويردّها إلى الجمود العقائدي الصارم، فإنه تصرف، مع ضيوفه الذين لا يعرف بعضهم، تصرفاً كيساً، لبقاً، وكان مدار الحديث، وهذا من حسن الحظ، على الرحلة البحرية، واصطياد السمكة الكبيرة، كأنما هذه الرحلة المزعومة قد صارت حقيقة، والسمكة الكبيرة قد اصطيدت فعلاً، وأن كل شيء يسير وفق المشتهى! وحتى تبادل أنخاب «الكامبي» من الماوتاي الفاخر، وبالتناوب، مع عبارات المديح، والشكر، وعرفان الجميل، والثناء على المساعدة في بناء الصين، هذه كلها كانت، أو يجب أن تكون، طبيعية، لأنها جزء من الدعوة، ملازم للضيافة الناجحة، وقد بلغ زبيد حد السكين، فابتسم، وضحك، بل وقهقه وهو يتبادل الأنخاب، حسب الطقوس المعتادة في مثل هذه المناسبات، تبادلاً متكافئاً، وعندما ودع ضيوفه، وسئل عن المناسبة، أجاب:

- هؤلاء الرفاق كانوا معي في الرحلة البحرية!

ثم خرج من المطعم، حوالى الساعة العاشرة، وسار وحيداً، في اتجاه البحر، راغباً في التنزه، والتشرّد، على هواه، سالكاً طريقاً جانبياً، يمر، ويتعرّج، بين الأدغال والأشجار، حيث تنفّس زبيد الهواء النقي، المنعش، الذي ملأ رئتيه، وكان شميم الصنوبرات، على جانب الدرب، يعطر أنفه، وحاسة شمّه، وكلما أوغل في سيره إلى أمام، تزداد هذه الحاسة رهافة، وكان خرير البحر يأتيه أوضح فأوضح، كموسيقى فاغزنية، تصخب حيناً، وترقد حيناً، حسب اندفاع الموج على الرمل، أو ارتطامه بالصخور.. وعندما توقف، بسبب خشخشة مربية في دغل، لينزاح قليلاً ويبتعد، لاحظ أن إنساناً ما يتبعه! تذكّر، فوراً، هذا الحدث الذي تكرر، والتحذير الذي

سمعه من مدير المطعم، داعياً إيَّاه إلى الانتباه، وعدم التغفل، ليلاً، في الغابة الصغيرة المفضية إلى البحر، كما تذكر هاتف السيدة بورجرون، وكلامها على مؤامرة تحاك ضده، مؤامرة لا يمكن الكلام عليها في الهاتف، حتى إذا جاءت إليه، ومارست الحب معه، شغلها الجنس، والرغبة في الاستزادة منه، عن شرح تفصيلات هذه المؤامرة، التي عدها زبيد نوعاً من ذريعة أوصلتها سريعاً إلى سريرته، وضحك، في سره، على هذا النوع من المراوغة الأنثوية.

الآن، وهو في دروب الغابة، وتعرُّجاتها، فطن إلى أنَّه مستهدف، لكن ممن؟! من اللصوص؟ هذا مستبعد، من جيفرسون؟ هذا في المستشفى بيكين، من المحقق تن بو؟ لا يمكن! إذن هذا وهم، ما لاحظته وهم، وهذه ظاهرة طارئة، ففي عمره كله، وفي تجاربه كلها، لم يكن للوهم، أو التوهم، سبيل إلى نفسه، ويحسن به، وهو في نزته الليلية، المعتادة كثيراً، إلا بيالي، وأن يمضي إلى أمام، أو يكتفي ويعود، لأنَّ عليه أن يعمل بعد... استدار زبيد فجأة، فإذا ما حسبه وهماً كان حقيقة، هناك إنسان يتبعه، يقترب منه أكثر كي ينقض عليه، وقد هرب هذا التابع المجهول، وراح يركض وزبيد وراءه، وإذا بأحد الحراس الصينيين يبرز من أمام، فيسد الطريق، ويقبض عليه.. يقبض على من؟ على لص؟ على قاطع طريق؟ لا! على الدو، الفاشي الإيطالي! ولكن ماذا يريد الدو هذا؟ وماذا تفيد شفرة الحلاقة التي يحملها؟ وماذا وجدوا عنده في البيت؟ وكيف انقلب من اشتراكي إلى فاشي؟ وهل الحزب الشيوعي الإيطالي، الذي هو عضو فيه، مخترق أيضاً، كغيره من الأحزاب؟ وبأي أسلوب تسلل إلى الصين؟ وما علاقته بنغوين الأويس، النازية الحقوق؟ وما علاقة الاثنين: الدو ونغوين بجيفرسون؟ وهل كان الصينيون يراقبون هذا الثلاثي، ويتتبعون تحركاته، ويعرفون اللقاءات التي كانت تجري في بيت الدو؟ ولماذا قبضوا، في الوقت نفسه، على الدو ونغوين؟ وأين كانت نغوين، عندما كان الدو يلاحق، أو يقتفي، أثر زبيد؟ وبأي شيء كانت شفرة الحلاقة، تنفع الدو؟ زعم أنَّها كانت معه مصادفة، فهل زعمه كان صحيحاً؟ وماذا وجدوا في بيته، بيت الدو هذا الذي اتخذ منه الثلاثة وكراً لهم؟ وأي رابط كان بين نازية وفاشي

وشاب ينتمي إلى الجيش السري الإيرلندي؟ الإرهاب؟ قرّر المحقّق الصيني، وفق ما قاله عبد القادر لزبيد، أنّه الإرهاب! خلية إرهاب، وفي الصين الشعبية؟ وما هي الأهداف التي وضعها هؤلاء الإرهابيون لأنفسهم؟ إثارة القلاقل؟ الإساءة إلى سمعة الصين خارجياً؟ مجرد التحريض؟ نشر الفكر النازي؟ التبشير بعودة الفاشية؟ الارتباط بالمركز النازي في ألمانيا الاتحادية؟ الارتباط بالمركز الفاشي في إيطاليا؟ الاتصال بالشبيبة الصينية؟ العلاقة مع تايوان؟ اللقاءات في هون كونغ؟ تلقي المال، والنشرات باللغة الصينية، من تايوان أم من هون كونغ؟ لماذا الأوراق والأعلام الصغيرة التي تحمل الصليب المعقوف؟ كم عدد أعضاء هذه الخلية؟ هل بين أفرادها صينيون؟ من هم هؤلاء الشباب الصينيون المضطّون؟ ما هي الوثائق التي ضبطت في بيت ألدو؟ منذ متى انضمّ جيفرسون إلى ألدو ونغوين؟ ماذا وجدوا في بيت جيفرسون في بيتاخو؟ ماذا وجدوا في بيوت هذا الثلاثي في الدروجبا بيبكين؟ هل خططوا لقتل زبيد، أم لقتل أيّ أجنبيّ يعمل في الصين، بغية إثارة الضجة في الصحف المعادية للصين في الغرب؟ وأخيراً ما هي العلاقة مع أميركا، وعن أي طريق؟! وهل يمثل ألدو ونغوين شباب أوروبا؟ قطعاً لا!

استمرّ التحقيق مع ألدو ونغوين إلى الصباح، كان التحقيق مع جيفرسون، يجري في الوقت نفسه، في المستشفى، أما التحقيق مع الشباب الصينيين المتورّطين فلم يعرف عنه شيء، ومع ثبات التهمة على ألدو ونغوين، فإنّ إخلاء سبيلهما تم في الصباح الباكر، وفي قطار الظهر سافرت عائلة الأويس، وسافر ألدو، بذريعة أن الإجازة قد انتهت، وفي اليوم التالي، قبل الظهر، طار الثلاثة: ألدو ونغوين وجيفرسون، إلى براغ، ومنها إلى حيث شأؤوا، دون ضجة، دون لغط، دون سجن، وبذلك طوّق الحادث، فلم يدر الأجانب الذين في بيتاخو شيئاً، ولم يرشح إلى مسامعهم أيّ شيء، وعادت الحياة طبيعتها، والأمور مجراها، واستأنف زبيد عمله، من غير أن يتكلّم، من غير أن يشير، ولو تلميحاً إلى ما جرى معه، وهذا استحسنه الصينيون، كما استحسنوا، قبله، فكرة الرحلة البحرية، التي غدت، بعد أيّام، من المسلّمات تقريباً!

اليومية الحادية والثلاثون ٦ تموز ١٩٦٢

أحسست، بعد اختفاء تشين لائو، أنَّ الحياة في الدروجبا، فقدت الكثير من بهجتها، عاقبوها بقسوة، دونما اعتبار لكل ما قدمته، في أي عمل كلفوها به. أنا، الآخر، عوقبت؛ فرضوا رقابة شديدة عليّ، راحت عيونهم، كلَّما رأوني، ترزَّ حقداً مموهاً بابتسامة مصطنعة، أعرفها جيّداً، لأنها، كما يخيل لي، ابتسامة موحدة، ترتسم بفعل إرادي، ذي دربة طويلة، أبعد من زمن التحرير، إلّا أنَّها، بعد التحرير، غدت علامة فارقة، كما العصبية البيضاء، التي تكمّ الأنف والفم، في الشتاء خاصة. وقد كان، بعض الخبراء الأجانب، يروون في سهراتهم قصصاً غريبة، غير قابلة للتصديق، غير أنَّها، كما يؤكد هؤلاء الرواة، قصص حقيقية، جرت، وتجري، كل يوم، من فرط حماسة الشبيبة الصينية، التي ألهمت الثورة، ولا يزال هذا اللهب متقدداً، منبعثاً من جذوة لا تترمد، حتى يتم بناء الصين الجديدة، وهذا البناء لا تاريخ محدداً لإنجازه، لكونه يطال كل المرافق، تجديداً وإعادة، وقد عاهدت الشبيبة قائدها، الرفيق ماو، أن تقوم بمهمة التجديد هذا، ولو أفنت في ذلك عمرها كله.

ومن القصص التي كانت تروى، دونما سند من حقيقة، ان طلائع الشبيبة الصينية، في اندفاعها الحماسي، كانت تقيم السدود بأيديها، لافتقارها إلى المعدات، وأن بعض أعضاء هذه الشبيبة، كانوا يثبتون صور الرفيق ماو، على أجسادهم، بالدبابيس، إذا لم يكن هناك صمغ لاصق، وأن فريقاً من الأطباء الحديثي التخرُّج، نجح في إجراء عملية القلب المفتوح، بعد قراءة أحد كتب الرئيس ماو، وأن المزارعين، في منطقة كانتون، وصلوا إلى استنبات قمح يعطي عشرة أضعاف ما يعطيه القمح العادي، وأن القصر الكبير، أو قصر المؤتمرات، في ساحة «تيان مِّن» تعهد العمال ببنائه كاملاً خلال شهر واحد، وبنوه وكسوه وأثاثه خلال شهر واحد فعلاً، وقد سألت تشين لائو، عن هذه القصص، فقالت «إنَّها مبالغات!» وكانت وسائل الإعلام الصينية، ومنها القسم العربي في إذاعة بكين، تبث مثل هذه المبالغات، وأكد الرِّفاق العرب الذين يعملون في هذا القسم، أنَّهم، فعلاً، يترجمون ويذيعون قصصاً وأخباراً من هذا القبيل، ولم يكن هذا كله في مصلحة الصين، أو في مصلحة إدكاء روح الحماسة،

الموجودة، والملتهبة، أصلاً، إلا أن الجمود العقائدي، وانعدام الحريّات، ومنها، وفي رأسها، حرّيّة النقد، وكذلك التوجيهات الصادرة من القمة إلى القاعدة، وغباء الإعلام، كل ذلك أسهم في نشر هذه الخزعبلات التشويهية، التي أضرتّ بأكثر مما نفعت، بل إنّها أضرت كثيراً، واستغلها أعداء الاشتراكية، من الصينيين أنفسهم، فالفوا فيها كتباً، وزيدوا فيها ما استطاعوا، فالفوا ما، وكانت هذه المزاعم، وتاليه القادة، وكمّ الأفواه، إرهاباً لثورة ما مدمرة، لا بدّ أن تقع في المدى غير المنظور بعد^(١)!

كانت هذه الأفكار، تراودني في ليالي وحدتي، كانت تتلبّسني في حالة شبه عصابية، وكنت ألقأ إلى الرفيق حسن بيجاري، لأحدّثه بما أفكر فيه، ناقلاً إليه ما يقوله الخبراء الأجانب، حول مبالغات الإعلام، وكان حسن يعرف، ربما، أكثر مما أعرف، بحكم زواجه من «لي ناي» الصينية، إلا أنّه صارحني، ونحن في قاعة البليارد نشرب الفودكا، أنّ زوجته لا ترى رأيي، القريب من رأيي، وهي، كعضو في الشبيبة الصينية، تتقدّ حماسة، وتؤكد له أن ما يُنشر من أخبار وقصص صحيح كل الصحة، وكان هو، بخلافي، لا يأبه كثيراً بما يقوله الآخرون، ولا يأبه حتى بأقوال زوجته، وعلى علاقة طيّبة بالرفاق الصينيين، في قيادة الدوجبا، نافياً، بقطع، أنني مراقب، قائلاً لي وهو يضحك:

– لماذا أنت مهتم كثيراً بهذه الأمور يا أخي؟ هل أنت الرفيق تشوته؟
إذا كنت الرفيق تشوته، فتولّ عنه وزارة الدفاع، وحرّر تايوان من حكم تشيانغ كاي شيك، وعندئذ يقيمون لك تمثالاً في ساحة تيان من، وأصبح أنا نائبك! ما رأيك في هذا؟

١ – حدثت هذه الثورة المدمرة، بعد خمس سنوات من كتابة هذه اليومية، وبلغ من عنفها أن القائمين بها، جرجروا، دون رادع، رئيس الجمهورية ليوشاوشي، وغيره من القادة الصينيين، الذين أفنوا حياتهم في النضال حتى تحررت الصين، في شوارع المدن الكبرى، مثل بكين وشانغهاي وكانتون، وحطموا كنوزاً من الآثار الصينية التراثية، بذريعة التخلص من القديم والتمسك بالجديد، وأطلقوا على هذه الثورة، تعسّفاً وتضليلاً، اسم «الثورة الثقافية».

- رأيي أنك تهتم بالنساء أكثر من اهتمامك بالسياسة!
- وهذا جيد يا زبيد، افعل، أنت أيضاً، كمثلي، تزوج مارلين، وأعشق
بورجرون!

- وهل تزوجت أنت «لي ناي» لتعشق عليها؟
- وماذا أفعل إذن؟ زوجتي في عملها، من الصباح إلى المساء، والبيت
غير مراقب كبيتك، والفردوسي كان كمثلي، يحب الجمال، وعندما كنت
أعزب، وكان الخبراء السوفيات هنا، كان لي عشر عشيقات، دفعة واحدة!
النساء السوفياتيات كالفسقت التبريزي، الا تحب الفسقت التبريزي؟
- أحب الفسقت الحلبي يا حسن.. ولكن ما علاقة الفسقت بالمرأة؟
- المرأة، يا زبيد، فسقة، والفسقت أنواع، وعلينا أن نتذوق كل الأنواع،
هل مارلين حارة أم باردة؟
- وما أدراني؟

- كيف ماذا أدراك يا ملعون؟ أمس كانت مارلين عندك ليلاً، وماذا
تعمل المرأة عند الرجل في الليل؟ هل كنت تقرأ معها الأنسكلوبيديا
بريتانكا؟!

- كنت أقرأ معها المسرحيات الشكسبيرية!
- لم أفهم! ما معنى مسرحيات؟
- لا ضرورة للفهم يا حسن!! أنا أتحدث معك عن الوضع في الصين،
وأنت تتحدث عن الوضع في تبريز.. ماذا جرى؟! هل التبريزيات جميلات؟
يقولون إن المرأة التبريزية قوية، ملساء، مثل حبة القمح الذهبية، هل هذا
صحيح؟

- ما معنى حبة القمح؟
- معناها «البغضا»^(١)
- تقصد ماذا؟ أنها قوية؟
- نعم! قوية ولذيذة وأنيقة جداً جداً! لكنّها.. كيف أقول؟
- لعنة الله عليك إذن؟ لا تقل شيئاً، وهذا أفضل! متى كنت في تبريز؟!

١ - البغضا: القمح (والكلمة تركية).

- عندما كنت أتاخر بالسجاد التبريزي، وأهتم بالفولكلور التبريزي، وبالتقاليد الشاهنشاهية!!!

- وماذا في ذلك؟ هذا، يا أخي، يعني المحافظة على الموروثات الشعبية! أنا أشكرك!

- وأنا أقوم بواجبي لا أكثر! خدمة الفولكلور العالمي ضرورية، لأنه لم يبق في العالم سوى الفولكلور!

- هذا صحيح جداً، وأنا أفهمك جيداً.. نحن، يا زبيد، فولكلوريون كلنا! فما رأيك أنت، أيُّها الملعون؟

- أنا أختنق في البيت يا حسن! أفكر كل الوقت بما يجري، بما أرى، بما أسمع.. بأولاد الكلب الذين ينافقون، ويتملقون الصينيين، وبالخلاف السوفياتي الصيني، وبتأجبه الرهيبة علينا.. لماذا، هؤلاء المنافقون من الأجانب، يغشون الصينيين؟ اسمع! كنت في رحلة، العام الماضي، وكانت معنا عجوز أميركية، ومعها دفتر سميك، تكتب فيه كل ما تسمع، وهذا طبيعي، لكن غير الطبيعي أن تزعم أنها ستؤلف كتاباً عن الصين، وأنها تتنهي على كل ما ترى، وتتأخر في أي مكان نزوره، وتتوخرنا معها، حتى إنها، في معمل قديم لصنع المسامير، سألت: كم مسماراً ينتج المعمل في اليوم الواحد؟ فأعطوها رقماً، وعندئذ صاحت: VERY NICE، وظلت تردّد هذه العبارة في كل مكان، حتى أزهرت أرواحنا، وفي طريق العودة إلى بكين، جلست قرب نافذة القطار ودفترها على حافة النافذة، وعندئذ انتقمت منها، تعرف كيف؟ أنا أقول لك: كنت قد اشتريت عصا كتذكار، فمددت العصا ونقرت الدفتر الذي طار في الهواء، دون أن يراني أحد، فلمّا أفاقت العجوز ولم تجد الدفتر، راحت تبحث، تسأل، تطلب إيقاف القطار، إرجاعه إلى الوراء، للبحث عن الدفتر، الذي لا قيمة له، لأنه يتحدث عن المسامير، وعن الحديد الصدي، وأنايب المراحيض، وأشياء أخرى مماثلة، فهل تتصوّر يا حسن إلى أين بلغ النفاق؟! وإلى أين بلغ التزيير؟ وهناك، في معمل للصناعات الثقيلة، رأيت عدداً من المخارط والمقاطع والمحركات وغيرها، وعلى كل منها كلمة: «صنع في الصين» وكنت قد رأيتها سابقاً، في الجناح الصيني في معرض دمشق الدولي، وعليها العبارة نفسها، مع

إضافة عبارة: «وفق النموذج السوفياتي» التي حذفت بعد الخلاف، ولأنني سألت عن سبب الحذف، انبرت تلك العجوز، صاحبة الدفتر إياه، تناقشني بحدّة، وتكذّبنني، وحتى تشتمني، حتى أسكتها مدير المصنع، معترفاً بأن الحذف تمّ، لأنّه أصبح معروفاً، نافلاً، لا ضرورة له، وكان كلامه مقنعاً. ضحك حسن لطرافة قصة العجوز، وقال وهو يشرب ما تبقى في كأسه من الفودكا:

- أنت يا زبيد، يا أخي، تحمل السّلم بالعرض، وعليك، اذا أردت أن ترتاح، أن تحمله بالطول!
قلت:

- فعلاً يا حسن، ولكن في تبريز وليس في بكين!
قال حسن:

- اسمع يا أخي، أنا كمثلك يا زبيد، أمزح بشأن حبة القمح الذهبية في تبريز، فلا تكن مترمّماً، ولا تصدّق ما قلته لك عن العادات التبريزية.. نحن طيّبون، مخلصون لزوجاتنا!
ضحكت وقلت:

- أنتم التبريزيّون طيّبون جداً، ولكن.. في القطب الشمالي!
قال وهو يصافحني مودعاً:

- اللعنة عليك يا أخي.. وعلى القطب الشمالي أيضاً! قلت لك لا تكن شقيّاً، ولا تقرأ الأنسكلوبيديا بريتانكا مع مارلين في الليل..
صحت وراءه:

- ماذا أقرأ إذن؟ وماذا أفعل؟!

التفت إلى وراء وقال:

- اقرأ رباعيات الخيام، وافعل مثله، بعد أن تطفئ الكهرباء في غرفة النوم!

- وهل كان الخيام يفعل هذا؟

ضحك حسن وقال:

- الخيام كان رومانتيكياً كمثلي، يفعل ذلك الشيء في الهواء الطلق..
وفي ضوء القمر!

- وفي الشتاء؟

- كان يجلس على إصبعه كمثلك.. مع السلامة وإلى اللقاء!

افترقنا، بعد هذه المداعبة السفيهية، والتي أحبها لأنها سفيهية، ذهب هو إلى بيته وذهبت أنا إلى «مزرعة دمشق» الواقعة خلف العمارة الكبيرة، في الطرف الغربي من الدروجبا، حيث كنت أسكن أولاً، قبل سفر الخبراء الروس وانتقالي مع كل الخبراء الأجانب إلى المبنى الرئيسي.. هذه المزرعة ورثتها عن رفيق إيراني غادر الصين، تضامناً مع الاتحاد السوفياتي، واسمه خُزُنْبُري، وقد أوفده حزبه إلى إيران، في مهمة سرية، فقبض عليه وأعدم شنقاً. كانت المزرعة صغيرة، لكنّها مخططة بشكل هندسي جيد، فيها أقنية للرّي، وفيها خيمة من البامبو، مسقوفة بالسعف، ترتفع عن الأسقف مقدار متر ونصف، وتصلح لناسك بوذي متعبد، مثل آتمان الذي اكتسب صفة الخلود، والذي سيبقى خالداً بعد الموت، يتقمّص في حياة أخرى، جديدة، أو يتحرّر، بصومه، ونحوه الشديد، من قيود الوجود!

ولأنني أجهل، في شؤون الزراعة أكثر من بستانني مبتدئ، فقد قرأت كتاباً عن البستنة، وأحضرت من لبنان غرسات الزهور، وبذور البامياء والكوسا والفليفلاء، زرعتها، هي وغيرها، في مساكب، وفرحت عندما نبتت فرعاً غامراً، إلا أنّها لم تثمر، بل ارتفعت، وخاصة الكوسا، كأدغال صغيرة، بسبب من السماد الكيميائي الغزير، أيّ إنّها «جهلت» من «الجهل» الذي هو العشق، ولم أكن أعلم، قبل ذلك، أن النبات يعشق أيضاً، أو يجهل حسب التعبير العامي في سورية ولبنان. أما البقدونس فقد اصفرّ واحترق، وسلمت الزهور، فتبرعمت وتفتّحت، وصار للمزرعة شأن يذكر، وعندئذ وضعت، في مدخلها، لافتة عليها العبارة التالية: «مزرعة دمشق» وإلى جانب هذه اللوحة، المكتوبة بثلاث لغات، هي العربية والفرنسية والإنكليزية، لوحة أخرى، مكتوبة باللغات الثلاث: الفارسية والفرنسية والإنكليزية، وفيها هذه العبارة الطنانة: «تكريماً لروح الرفيق خُزُنْبُري، مؤسس هذه المزرعة».

ولأنني غرائبي الطبع، زادت المزرعة من غرائبيّتي، اشتريت أسلاكاً حديدية، سيّجتها بإتقان، عرّشتُ الدالية على الخيمة، تفنّنت في ذلك،

صارت الخيمة أشبه بخميلة، اشترت سلة كبيرة من قش، حفرت الأرض، أنزلت السلة في الحفرة، أحضرت أنواعاً من المشروبات، الكونياك الفاخر، النبيذ الأبيض والأحمر خصوصاً، وضعتها في السلة، طمرت السلة بالتراب، كتبت فوقها، بعدة لغات «خمور معتقة»! استعنت بخبير ألماني في الكهرباء، قيل إنه هو الذي هندس التمديدات الكهربائية في قصر الشعب، مدّ لي يد المساعدة، هندس الكهرباء في المزرعة، جعل الأضواء ملوثة، تشتعل، تنطفئ، ألياً، عثرت على ثلاجة صغيرة، أخفيها وراء عريشة من الزهور الحمر، يقال لها في دمشق «المجنونة»! ابتعت صحوناً وأقداحاً من أصناف مختلفة، لائقة، ابتعت كذلك مقاعد خشبية، مع طاولة خشبية أثرية، رحت، كل يوم، أضيف أثاثاً جديداً، أدخل تحسينات جديدة، حتى صار لمزرعتي «مزرعة دمشق» شهرة، يتحدث عنها سكان الدروجبا، ويستأذنون، وفق مواعيد مسبقة، لزيارتها، فأنظر إلى المستأذن، أو المستأذنة، متفحّصاً، انتقائياً، ثم أسمح أو لا أسمح، حسب غرائبية طبعي! وكى تكتمل الأمور، فرشت أرض الخيمة بسجادة، ونصبت السيدة بورجرون ملكة على المزرعة، واخترت مارلين وصيفة لها، وكتبت على لوحة، علقها في مكان بارز «ممنوع للمس»!

باختصار صرت بستانياً صينياً، صاحب مزرعة دمشقية الطراز، ولم أكن فطناً بما يكفي، كي أحسب حساب الإزعاجات، ومن النساء خاصة، فوقع في شرّ أعماله، لأنّ الخيمة، حوالى منتصف الليل من كل يوم، كانت تتحوّل عشّ غرام، وسجاداتها الفاخرة سريراً، وأعمدة هذه الخيمة تكاد تتخلخل من الرهز، وفضاء المزرعة يضج بالضحكات الصغيرة، والتأوهات الصغيرة، والصرخات الصغيرة أيضاً، في مأمن، كما كان يُظن أو يظن الآخرون، من رقابة الصينيين، إلى أن كانت ذات ليلة صيف، وكنت غائباً عن المزرعة، فاغتنم الفرصة رجل، كان يخون زوجته في خيمتي، لا أدري منذ متى، مع امرأة أخرى، وإذا السماء تمطر، والمطر المفاجئ، في الصيف، يحدث بكثرة، فانتظر العاشقان انقطاع المطر، وعبثاً انتظرا حتى تبللا، وعندما خرجا من الخيمة، وجدا رفيقاً صينياً منتصباً، قدّم لهما شمسية إنقاء للمطر!

وعندما علمت السيدة بورجرون بالخبر، ثارت لأنّ خيمتها، خيمتها،

تنتهك حرمتها من قبل رجل سافل، وهددت بفضح الزوجة والعشيق، قالت وهي تدخن بعصبية:

- كيف ترضى بهذا؟

- ومن قال لك إنني راض؟

- إذن أبلغ قيادة الدروجاً!

- بأنهم يستخدمون مزرعتي لأعمال مريبة؟

صاحت:

- لأعمال معيبة، فاسقة!

قلت لا مبالياً:

- أنت مخطئة يا عزيزتي! الأفضل أن نسكت، أن نطوق الحادثة، وإلا

أصبحت فضيحة!

أضفت:

- لي صديق عزيز، قال لي صراحة: أحب ممارسة ذلك الشيء في

الهواء الطلق.. وفي ضوء القمر! وهذا العاشق، الذي خان زوجته في

مزرعتي، ربما كان مثل صديقي، يحب أن يفعل ذلك الشيء بين الورود

والزهور والخضرة.. وفي الهواء الطلق أيضاً! لكنه، المسكين، نسي شيئاً

واحداً، مهماً جداً، وهو أن العين الصينية ساهرة على سلامتنا، حريصة

على راحتنا، حتى ونحن نمارس الحب في الهواء الطلق!

قالت بنبرة غضب:

- وماذا بشأني أنا؟ كيف أكون ملكة المزرعة، ويتجرأ أحد من هؤلاء

الأوغاد على تدنيس مملكتي؟!

- الحق، يا مليكتي، ليس على هؤلاء الأوغاد!

صاحت من جديد:

- على من إذن؟!

قلت ببرودة أعصاب:

- الحق على الهواء الطلق!

- وضوء القمر؟!

- وضوء القمر أيضاً!
- ثم ماذا؟
- حبة القمح الذهبية التبريزية!
- ماذا تعني؟
- الذي أعنيه لا يمكن شرحه بسرعة.. إنه نكتة!
- ولماذا تقوله؟
- لزيادة معارفك في ممارسة الغنج من جهة، ونقل معلومة عن الغنج التبريزي اليك من جهة أخرى.. أما الشرح فيمكن الأطلاع عليه في الانسكلوبيديا بريتانىكا، مادة «غَنَج».
وقفت السيدة بورجرون، كانت ترتجف من الانفعال، قالت:
- دع هذه العاهرة التي اسمها مارلين، تبحث عن شرح يفيدها وحدها، وبعد ذلك طبقه معها!
- مارلين لديها صديق جديد اسمه جيفرسون، وصل حديثاً إلى الدروجبا!
- عظيم! صار لمارلين هذه صديقان: أنت وجيفرسون!
أضافت:
- كيف تقبل هذا على نفسك، اذا كنت شهماً كما تدّعي؟
قلت باسترخاء:
- الذي يدّعي الشهامة قولاً، لا يكون شهماً فعلاً، وهذه خطيئة لا أرتكبها.. ثم إنني أرفض مبدأ استملاك المرأة، لمجرد أنها كانت صديقتي، وهذا القول افتراض، لسبب واحد: مارلين هذه شابة صغيرة، وتفضل، كما قالت لي، الشباب الصغار مثلها، وهذا جيد، من وجهة نظري، وقد شجّعتها عليه.. هل هذا جواب كافٍ؟ اجلسي، اذا كان هذا يطيب لك، كي نشرب شيئاً من الكونياك، ونتحدث في شؤون المزرعة، لأنّ هناك من يطلب شراءها، وسأبيعها بعد حادث الخيمة!
جلست مارغريت، خلعت عنها ما يستر كتفيها، كانت تلبس فستاناً حريراً معلقاً بكتفيها بشريط حريري، من القماش نفسه، شريط ناعم،

أنيق، يكشف كل مفاتيحها، من الصدر وإلى أعلى، وكانت فيها خصلة
ترضييني، هي عدم التكلف، عدم التعفف، عدم الغنج والتدلل، فإذا كانت
بها رغبة في شيء، تبدي ذلك صراحة، تعرف ما تريد، وتطلب ما تريد كما
الطفل، وقد صارحتني أن الكونياك ليس شرابها المفضل، وأنها تشربه
لأنني أؤثره، وكان هذا لطفًا منها، ومجاملة فيها لباقة السيدة الباريسية،
وبعد الكأس الأولى، عادت تسألني:

- هل ستبيع المزرعة حقًا؟

قلت مؤكدًا:

- نعم يا مارغريت.

- ولكنك لم تشتريها حتى تبيعها، الملكية، في بلد اشتراكي كالصين،
ملكية جماعية، والبيع مخالف للقانون.

- وماذا لو خالفت القانون؟ هناك ملكية خاصة أيضًا.. ثم إن لي دالة
على الرِّفاق الصينيين.

- وهل تجيز لك هذه الدالة أن تخالف القانون؟

- تجيز!

- هذا ما يتحدث عنه الرِّفاق الأجانب في الدروجبا، منذ أن أنشأت
هذه المزرعة.

- أنا لم أنشئها، ورثتها عن غيري كما تعلمين، ولن أبيع الأرض طبعًا،
وإنما الآثار الموجودة عليها.

- وذكرياتنا المشتركة فيها؟ يهون عليك أن تنسى هذه الذكريات، أو أن
تمحوها؟

- لا! الذكريات تحفظ في الصدر، إذا ما كانت حقيقية، وليس في
الأماكن التي تذكر بها.

- وماذا ستفعل بثمان الآثار؟

- أشتري به تحفًا، أو أنفق بعضه كما هي عادتي.. وبالمناسبة! إليك
هذا المغلف الذي لم أفتحه بعد.. وصلني أمس من دار النشر، ولست
بحاجة إلى المبلغ الذي فيه.

- وهل أنا بحاجة؟

- لا أقول هذا، ولست بالذي يتقصّد الكرم، أو يتباهى به، افهميني يا مارغريت، اشتري بهذا المبلغ المتواضع تذكّاراً ما، من الأشياء التي تخصّ المرأة، كوني طيّبة كما عرفتك دائماً، ضعيه في محفظتك، وسنشرب كأساً أخرى، ثم نذهب إلى العشاء... مع السيد بورجرون.

قالت مارغريت:

- ولماذا لا نذهب قبلاً إلى الخيمة في المزرعة؟

- زمن الخيمة انتهى!

- بالنسبة إليّ فقط؟

- بالنسبة إلى الجميع!

- لا! أنا لست غبيّة، زمن الخيمة لم ينته بالنسبة إلى تلك العاهرة مارلين.

تفرّست فيها، ابتسمت لها، داعبت شعرها وقلت:

- ما دمت ساكون معك، فكيف أكون مع مارلين في الوقت نفسه؟

قالت مارغريت:

- ستكون مارلين مع عشيقها الجديد جيفرسون... إنني أعني ما أقول!

- وماذا نفعل؟ نذهب ونحرس الخيمة؟

قالت بانفعال:

- نذهب ونهدمها! نعم! نهدمها فوراً، حتى لا تدنسها تلك الإنكليزية القذرة.

قلت بهدوء:

- مارلين ليست قذرة، وجيفرسون ليس عشيقها، وحتى لو كان عشيقها فإن له بيتاً، فما حاجتهما إلى الخيمة؟

- الهواء الطلق كما قال صديقك الذي لا أعرف اسمه!

- صديقي هذا كان يمزح، فهل تصدّقين مزحة كهذه؟

- ولماذا لا أصدّق؟ هل تحسب أنّك تستغيبيني؟ أنا، كما قلت أنت، ملكة المزرعة، فإذا كنت صادقاً، دع الملكة تهدم مملكتها! هدمها أفضل من

تدنيسها، ويمن؟ بتلك العاهرة التي تبدل عشاقها كما تبدل ثيابها الداخلية!

- مجنونة!

- وأنت أيضاً مجنون، لكن على طريقتك، طريقة إسكات الآخر، أو الأخرى، بالمال، لكنني أنا..

قاطعتها بغضب، وأنا أمسك بيدها التي امتدّت إلى محفظتها:

- ماذا أنت؟ ومتى كانت النقود، في الصين، تنفع لغير شراء التحف؟ أنا شبعنا من التحف، بشمت منها، ولا حاجة لي بها، كوني عاقلة إذن، كوني عاقلة! دعي المحفظة، ما فيها لا يستحق الذكر، الأصدقاء يتبادلون الهدايا دائماً، وسبق، أن تبادلنا الهدايا، أنت وأنا، وهذا طبيعي جداً.. هيا! ساهدم الخيمة، اذا كان هذا يرضيك، ساهدمها غير أسف عليها. انهضي ولنذهب إلى المزرعة مباشرة، عندئذ، وبعد هدم الخيمة اللعينة، تعرفين أنك عندي أثمن وأغلى، من كل مزارع الدنيا، وكل خيم الدنيا.. هيا.. انهضي!

لم تنهض مارغريت، سكبت كأساً من الكونياك، شربتها كاملة، ودفعة واحدة، وبعد إشعال سيكارة، انفجرت باكياً، بكت وهي تقول:

- لا! لن نهدم الخيمة، لن نهدم الخيمة، إنها قطعة منا، نحن الاثنين، فقد بنيناها معاً، وتمتعنا بها معاً، ويعز عليّ، على يديّ هاتين، هدم ما بنينا، هدم ما بنيت، بمالك وعرقك يا زبيد، يا حبيبي، سامحني إذن، أنت كريم، كما عرفتك دائماً، وأنت تفعل ما تقول، وقد قلت: «هيا لنهدم الخيمة!» وأنا متيقنة أنك تهدمها، لكنني، أنا، أشفق عليها، أرغب في الاحتفاظ بها ولن تبيع المزرعة، أبداً لن تبيعها، تعرف لماذا؟ لأنها «مزرعة دمشق» وسبق أن قلت لي، ذات ليلة مقمرة، ونحن نجلس فيها: «دمشق عيوني» ولا أصدق أنك تبيع عيونك، أو أن يوماً سيأتي وتُنزع هذه اللوحة من مكانها، فقل للرفاق الصينيين، اطلب منهم، توسّل إليهم، أن يبقوا هذه اللوحة في مكانها، حتى بعد رحيلك من الصين كلها.. عدني بذلك، أرجوك، عدني..

ووعدها!

لم يكن زبيد سعيداً أو شقياً بترحيل الذين رُحلوا عن الصين. كان، في خلافه مع الآخرين، من أنصار الحوار، إلا إذا مال الذين يختلف معهم إلى العنف، كما فعل ألدو بتحريض من نغوين ألويس، هذه النازية الخقود، التي تنطوي، هي وبعض الشبيبة الألمانية، على حقد شديد ضدّ دول المعسكر الاشتراكي، والاتحاد السوفياتي خصوصاً، في رغبة عمياء، جهنمية، طائشة، هادفة للثأر، بكل الوسائل الممكنة، لهزيمة ألمانيا الهتلرية في الحرب العالمية الثانية. نغوين نازية، ألدو فاشي، وفي انبعاث النازية والفاشية، في ألمانيا الغربية وإيطاليا، ثمة صلة ما مع انبعاث المكارثية في أميركا، وهذه الحلقة الخبيثة إحدى ظاهرات الحرب الباردة، الحرب التي يستعمل فيها الغرب، وفي المقدمة الولايات المتحدة الأميركية، كل الأسلحة القدرة، ومنها إذاعة أوربا الحرة، والبؤر الصغيرة، للفكر النازي والفاشي، التي أخذت تستعلن، بدفع وتمويل من الرأسمالية في بون وروما، مستميلة الشباب المضلل إلى صفوفها، بشكل مواز لحركة مكارثي، وقوانينها الرهيبة، في واشنطن!

وكان زبيد، الذي يعرف هذا كله، يحسب أن الأمر يتعلق بأوروبا وأميركا وحدهما، وربما نبت، هذا الغرس الشيطاني، في اليابان مستقبلاً، أما أن يصل إلى الصين، أو يجتذب ولو أفراداً قلائل من الشباب الصيني، فإن هذا مما يدعو إلى العجب الشديد، لذلك كان ماوتسي تونغ على حق، في اهتمامه الاستثنائي، بالشبيبة الصينية، وخشيته عليها! إنمّا، في ظروف القمع، وعندما لا يكون هناك مجال للنقد، ولممارسة حق الاشتراك في اتخاذ القرار، عن طريق ضمان الحريّات ووسائل ممارستها، فإنّ المناخ الفكري، الاجتماعي، السياسي، لا يكون صحياً، ويصبح من

الصعب معرفة العشبة السامة، واقتلاعها في الوقت المناسب. لقد أطلقت القيادة الصينية شعار «لتفتح مئة زهرة» في الآداب والفنون كافة، إلا أن هذا الشعار بقي على الرفوف العليا، لم ينزل، أو يلامس، سجادة أرض الحياة، والخوف على الشبيبة وحده لا يكفي، كما أن الخوف على الزرع، من العشبة السامة، لا يكفي، إذا لم نجد للأميرين كليهما، العلاج اللازم، وما من علاج سوى حرية الفكر، وحرية الزرع!

قال السيد جاك بورجرون:

- هذه المخاوف، رفيق زبيد، مبالغ فيها!

قال زبيد:

- المبالغ فيه، رفيق جاك، هو الاطمئنان الزائد، ورؤية الأمور بمنظار حسن، من مرصد الدروجبا فقط!

قالت السيدة بورجرون:

- نحن هنا لنتذوق القهوة والكونياك، لا لنصدع رؤوسنا بأمور لا تعنيننا.

قال جاك:

- زبيد غارق حتى أذنيه في السياسة، وهذا عائد إلى أن الشعب في سورية، مسيّس كما قال لي ذات مرة. لماذا، يا عزيزي، لا ندع ما يخص الصين للصين ونرتاح؟

قال زبيد:

- على طريقة إعطاء ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؟

قال السيد بورجرون:

- تمامًا!

قال زبيد:

- إذن في صحتكما، ولنترك، جانبًا، الحديث في السياسة! لنطلقها، كما ترغبان! ولنتحدث عن تبريز!

ضحك الثلاثة، شربوا النخب، قال السيد جاك:

- لم نصل بعد، صديقنا زبيد، إلى الطلاق، ولكن لا يجوز أن يكون زواجنا بالسياسة زواجًا كاثوليكيًا!

قالت السيدة بورجرون:

- أنا من هذا الرأي، وفي بيتاخو خصوصاً، حيث جئنا لنستريح ونستمتع، لا لنقيم مناقشة، كما أقمتها يا زبيد عند رحيل الخبراء السوفييت، ماذا جرى؟ أنت تستمتع بوقتك في غيابنا، أما في حضورنا فإنك تبدو مهتماً بأمور هي من الشؤون الداخلية للصين، الشؤون التي علينا ألا نتدخل فيها!

قال جاك ضاحكاً:

- وماذا يفيد تدخلنا في هذه الشؤون؟ أنت يا زبيد، لم تستمتع بوقتك في هذا المصيف الجميل، وقد حرمت من السباحة بسبب جروحك، فكيف هي الآن؟

- أندملت نهائياً.

سألت السيدة بورجرون:

- وهل نسبح معاً اليوم؟

رد زبيد:

- سأفكر في هذا عصرًا.

ضحك جاك وقال:

- وهل السباحة تحتاج إلى تفكير كما لو أنك تكتب دراسة أدبية؟

قال زبيد:

- أنا أكتب دراسة فعلاً، ولكن ليس عن الأدب بل عن الكومونات الشعبية!

- معها أو ضدها؟

- معها وضدها في آن واحد، الرفاق الصينيون يحرقون المراحل بتسرّع سيندمون عليه، إلا أنهم قادرون على التكيف دائماً، وهذا ما يعجبني فيهم.

هتف جاك:

- هذا شيء جديد، الذي أعرفه أن الأمور في الصين لا تعجبك كلها!

قال زبيد:

- لا تعجبني كما تعجبك، وبالجمله، لماذا تنفي المفرق من هذا الإعجاب؟

- لأنني راض عن الأمور في الصين بالجمله والمفرق معاً!
قال زبيد:

- الحقيقه، يا عزيزي جاك، أنك راض عن حياتك الخاصه في الصين كل الرضى!

صاحت السيده بورجرون:

- ولم لا؟ الحياه في الصين أفضل من الحياه في فرنسا نفسها!
قال جاك وهو ينهض:

- لا تجوز هذه المقارنه يا مارغريت، فرنسا تبقى فرنسا.
قالت وهي تنهض أيضاً:

- والصين تبقى الصين يا جاك، وصديقنا زبيد يكسب كثيراً، ويتمتع بامتيازات لا يتمتع بها غيره، وفي وسعه أن يعيش منعماً الآن، بعد أن رحل جيفرسون إلى بكين أو..

قاطعها زبيد ضاحكاً وساخرًا:

- وبقيت مارلين هنا!

أضاف:

- نعم يا سيدتي، بعد أن بقيت مارلين هنا، وبعد أن استخدمت نفوذي في ترحيل جيفرسون!

قالت مارغريت:

- أنا لم أقصد!

ردّ زبيد:

- اقصدي!

قال جاك وهو على العتبة:

- نعم! قصدي!

خرجوا مودعين، بلطف زبيد المعتاد، وبغمزه من عين مارغريت، وابتسامه مبتسرة والباب يغلق وراءهما، بعد هذه الزياره المقصوده، بعفوية من جاك، وقصديه من مارغريت، ودهاء من زبيد، لأنه لم يقل حرفاً

واحدًا مما كان يفكر فيه، حول ترحيل نغوين والدو وجيفرسون، هذا الأخير، المتورط لغير سبب معلوم، إلا أن تكون عضويته في الحزب الجمهوري الإيرلندي، ومشاركتة في الإرهاب، قد نمت لديه غريزة الإرهاب، فوجد في انتمائه إلى حلقة نغوين وشركائها بعضًا من تعويض!

«هذه أخلاق الغربية، همس زبيد في سريرته، الأخلاق التي تُنسي الإنسان وطنه، وما بعد الوطن من شيء! السيدة مارغريت تعيش أميرة، ومن يرضى بالتنازل عن إمارته؟ وأنا أتمتع بامتيازات، وفي وسعي أن أعيش منعمًا، وأن أستخدم نفوذي في ترحيل جيفرسون، كي تبقى مارلين لي وحدي، وقد فعلت كل ذلك لأتني بوجهين، أحدهما عليه صورة خروتشوف، والثاني عليه صورة ماو، وهذا من أخلاق الغربية أيضًا، فبكم من الوجوه يعيش الذين يتملقون الصينيين، ويتنكرون لمواقف أحزابهم التي بعثت بهم إلى هنا؟ مالرو يقول «من الصعب أن يكون الإنسان إنسانًا، خارج تعميق صلاته بالآخرين» فأني آخرين يقصد؟ المناضلين طبعًا، وقد كان في الصين، وفييتنام، وكمبوديا، لكنه كان في إسبانيا أيضًا، يحارب مع الجمهوريين ضد الفرنكويين الفاشيين، أما السيدة بورجرن فإنها، في الصين، تنعم بالماء الساخن، في «بانيو» بيتها المليء بالتحف، وتفعل ذلك مرتين في اليوم، وبعد ذلك تغسل قدميها بالكولونيا، المجلوبة من هونغ كونغ، وترتدي فساتينها الموصى عليها من باريس، وتجمع ثروة صغيرة، تنمو، وتكبر، مع كل شهر يمر عليها وهي هنا!!! وبينما تكون، صباحًا، على كرسي التواليت تتشيك، يكون الخدم الصينيون في غرفة النوم، يغيرون فرش الأسرة، مرتين في الأسبوع، ويلمعون أرضية البيت الخشبية، وكذلك البانيو والمغسلة والتواليت، كل يوم، فاذا ما طرا أي عطل، يكفي أن ترفع سماعة الهاتف وتطلب من يصلحه، فيصلح العطل بأسرع ما يمكن، ولهذا، وحرصًا على هذا الفردوس، ترى الصين أفضل من فرنسا، وأنا لا مأخذ لي عليها، ولا يعنيني من هي الأفضل: بكين أم باريس، إلا أن السيدة بورجرن تعرف كم أعمل، وبداب، وكم أسهر حتى الفجر أحيانًا، وتنسى، مع هذا، أن ما أتمتع به من دخل هو نتيجة الجهد والعرق، ولي مطلق الحق، ومطلق الحرية، أن أنفق ما أكسب بالطريقة التي تروق لي، وأما استدراجي، أو استفزازي، للكلام على رحيل جيفرسون،

أو ترحيله، فإنه باء وسيبوء دائماً، بالفشل، وستدفع ثمن أنثامي، بأنني فعلت ذلك لأنفرد بمارلين، غالياً جداً!»

- أيُّها الكونيك! يا باخوس، إله الخمر! إنني أبارك خمرك، أبارك كونياك الذي هو ملك الخمر، كما البحر ملك الماء، وكما الغابة ملكة الخضرة، وأبارك الأرض، التي من ترابها خرجنا، وإلى ترابها نعود، وأبارك الحياة، لا ثلاث مرّات، بل ثلاثين مرّة!»

كذلك هتف زبيد بغير صوت، ولماذا الصوت، تساءل؟! ليكن صمت، لتكن سكونية، ليكن هدوء يعمّ العالم، الذي يصرخ من الألم، ولتتنزّل زرقاة السماء، حتى تمتزج بزرقاة البحر، فنحصل من ذلك على دنيا من الزرقاة، كل ما فيها أزرق، من القلب إلى القمر، ومن جسد المرأة إلى جسد الحلم، وليمنحني الله القدرة على الحب، لأنني، دونه، أتعذب، وفي كل صباح ومساءً، تخفق الكرة الملونة، الزجاجيّة، تحت الثدي الأبيض، لتشعرنني أنّها قدرتي، فإلى متى يا قدرتي، أيُّها القدر، الذي وحدك تعطي الأشياء أن تكون، والمسافات أن تقتصر، والمصير أن يتحدّد، والرحلة أن تسوقنا، من أقصى الأرض إلى أقصاها، إلى متى، أيُّها القدر الذي أخطأنا عندما سمّيناك صدفة، وأنت من يجعل الصدفة حقيقة، في حلوها ومرّها، صدقها وباطلها، خيرها وشرّها، إلى متى، إلى متى، إلى متى؟

وقال لي قدرتي:

- أמן أن ما كتب على الجبين، قد كتب وانتهى الأمر!

أجبتُه بعناد وحزم:

- أمّا هذا فلا!

- تتمرّد؟

- بالتمرّد يكون الإنسان إنساناً!

صاح بي:

- بقدره يكون الإنسان أو لا يكون، هذا ناموس الحياة!

قلت لقدري:

- بك يولد المخلوق، وبك يموت، وبك يؤمن، وهذا حسبك! أما ما كتب

على الجبين فإنه خرافة من صنع البشر، وهذه الخرافة ترجمة للمثل

القائل: «القناعة كنز لا يفنى!» فكيف نقنع ونحن نختنق في بركة البؤس ومائها الأسن؟

- وإذا كان هذا حظكم؟

- وهذه ترجمة أخرى للخدعة القائلة «مكتوب على الجبين!» يكفي ما تحاورنا اليوم، والآن إلى العمل!

جلست إلى مكتبي، كففت عن الأخذ والردّ مع نفسي، عملتُ فنسيتُ نفسي، العمل وحده يخلص الإنسان من خواطره، من هواجسه، من وساوسه، لأنّه ينسيه إياها، وكَم كان الإنسان شقيّاً لولا نعمة النسيان؟! حكمة! غير أنّ الحكمة كالطيبة، بحاجة إلى من يدفع عنها الأذى، الأذى الأكبر هو التذكُّر، وثمّة، في هذه الحياة، من يضطرك إلى قطع رحلة النسيان، ويعيدك إلى النقطة التي انطلقت منها: التذكُّر في الواقع، وهذا ما فعلته بي السيدة نلسون، التي أخرجتني من هناءة العمل، إلى شقاء العطالة، وما فيها من ثرثرة، صادرة عني، أو عن الآخر، أو الأخرى!

قالت بعد أن جلست قبالي، إلى جانب المكتب:

- الإجازة تكاد تنتهي، ولم نحسّ كيف انقضت أيامها الجميلة الماتعة.

قلت:

- أنت على صواب سيدة نلسون، نحن جميعاً نركب سفينة العمر، وهذه تمضي دون أن تتوقّف، ولا سبيل إلى إيقافها، رغم أنّنا نتمنّى ذلك، وأمنيتنا هذه في المستحيلات، فهل من حل لديك لهذه التراجيديا البشرية، تراجيديا أن نأتي دون أن نُستشار، وأن نذهب دون أن نُستشار، كما تقول إحدى رباعيات عمر الخيام؟!

قالت السيدة نلسون:

- الحل هو أن نستمتع، عزيزي زبيد!

- إذا استطعنا!

- ولماذا لا نستطيع إذا كان كل شيء متوافراً لنا؟

- أنا أتكلّم على العامّ وليس على الخاصّ.. تسعون في المئة من البشر محرومون حتى من أبسط مقوّمات الحياة، فكيف تتوافر لهم وسائل الاستمتاع؟!

- نلسون هو من يفكر بهذا وليس أنا!
- السيد نلسون رفيق طيّب، وإنسان رائع.. الحديث معه يشعرني بالسعادة!

- والحديث معي، ألا تشعرك بالسعادة؟
- نعم! ولكن.. تريدان الصراحة؟ الحديث يطيب معك، حين لا تخوضين في مشاكل الغير.. هل لك بكأس من الكونياك؟

ابتسمت السيدة نلسون، حركت يدها برشاقة وقالت:
- كنت سأطلبها بنفسي، لأنك تأخرت فيها! قلت في سري: «هل يعقل ألا يقدم لي عزيزي زبيد كأساً من الكونياك، هو الرائد في هذا المجال؟ هذا لا يصدق! أنت تشرب الكونياك في الفصول الأربعة، بينما يشربه غيرك في الشتاء فقط! إذن أنت ملك الكونياك يا عزيزي، فاسقني منه، صالطني، قل لي كلمات بكرة، وبهذا ينتفي إحساسي بالخيبة معك.
قدم لها زبيد ما طلبت، سأل ربه ألا تعود إلى حديث الحب معه، قال لها:

- ما هي الكلمات البكر، في قاموسك اللغوي؟
شربت نخبه وهي تبسم، تأملته بنظرات ملتمة، فيها قدر من المراودة، قالت:

- الكلمات البكر هي التي لم تدخل قواميس اللغات بعد!
- ومن أين أتيك بها؟
- هذه ليست مشكلتي! فكّرْ تجد، الجم نفاذ صبرك، عيب بعض الناس، والمتقفين خصوصاً، أنهم متسرّعون، مستعجلون، يقطفون الثمرة قبل أوانها، لا ينتظرون الخوخة حتى تنضج، حتى تصفر، حتى يشف غلافها الرقيق عما في داخله. اعترف! أنت لست من هذا الصنف، أنت تعرف كيف تنتظر، كيف تنقض ومتى، لكنك تسطو على ملك غيرك، وهذا لا يجوز، عزيزي زبيد!
قال زبيد:

- أنا مثلك سيدة نلسون، أبحث عن الكلمات بحكم عملي كمترجم، أو مصلح ترجمات كما تعلمين! الكلمات البكر نعم، لكنها مشكلة. لا، سأبحث

وسأجد، ثقي من ذلك، إنما هذه ليست مهمتي وحدي، وبدقة الكلمة أقول: إنها مهمة الكتاب! الجامع اللغوي، في أكثر البلدان، مصابة بالعقم، وفي بلداننا العربية خصوصًا. الشاعر بوشكين كان شاعرًا عظيمًا، كان ثروة قومية بإجماع، وكان، بما أدخل من كلمات إلى اللغة الروسية، وبما أحيا من كلمات روسية بحكم الميثة، لغويًا بأعظم مما كان شاعرًا، على النطاقين الروسي والعالمي، لكنك، سيدتي، جئت إلي لا لتقولي هذا، وهو معروف، بل لاثّهامي بأنني أسطو على ملك غيري، فمن هو هذا الغير؟ إنه جيفرسون، أليس كذلك؟ وأنا أسألك: هل تعرفين من هو جيفرسون حقيقة؟ وماذا فعل جيفرسون هذا؟ وأي إثم اقترف بحق الصين؟ وهل أنت شريكة في إثمه؟ ومتى كانت مارلين ملكة؟ وكيف سطوت على هذه الملكية المزعومة؟

قالت السيدة نلسون:

- اوه! عزيزي زبيد، لماذا هذا الغضب كله؟ ولماذا تريد إخافتني؟ جيفرسون يستحق صداقتك، هذا المسكين الذي دمّره الحب!

رد زبيد:

- هل أنت جادة في ما تقولين؟ إذا كنت جادة فاسمعي ما أقوله لك: جيفرسون هذا لا يستحق صداقتي، وقد جاملتك في أمره مرارًا، كان آخرها عندما طلبت مني أن نذهب إليه، أنت وأنا، في بيته، وكان الحريق المعروف، وكان اتّهامه الكاذب، النذل، بأنني من أحرق فراشه، بقصد إحراقه هو، وجاءت شهادتك الموضوعية، الصادقة، في محلها، وقد شكرتك عليها، وأكرر الآن شكري، لكنك، في المطعم، كنت استفزازية ونحن نتناول السمكة التي اصطلدتها في رحلتي البحرية..

قاطعت السيدة نلسون:

- إنني أشك في هذه الرحلة البحرية!

أجابها:

- شكك لا يقدم ولا يؤخر! لقد احترمتك كفنانة كبيرة، وجاملتك، وصبرت على بعض نزواتك، فماذا كانت النتيجة؟ محاولة إحراجي، باقتراحك أن نشرب نخب جيفرسون ومارلين، أمام ضيوفي!

- قل أمام عشيقتك!

- أمام عشيقتي إذا كان هذا يرضيك!

- لا يرضيني ولا يزعجني، أنت حر في علاقاتك، وكذلك تصرفاتك، الشخصية!

- إذن لماذا الاستفزاز؟ هل أنت عشيقة جيفرسون؟ لقد فات أوان العشق بالنسبة إليك، ومنذ زمن بعيد!
قالت وشفقتها السفلى ترتجف:

- أعرف! أعرف زبيد، عزيزي، لا تكن قاسياً عليّ إلى هذا الحد، أنت تدمرني كامراً! كفنانة، لماذا تنسى أنني فنانة؟

رق قلب زبيد، ندم على كلامه الجارح، نسي الحقيقة الأولى والأخيرة، بالنسبة إلى هذه السيدة التي تعيش حاضرها بالأتكاء على ماضيها كفنانة! زبيد أخطأ، فاته أن الفنان لا تنطبق عليه أحكام المجتمع الوضعية، الأحكام التي تسلبه تميزه، تفقده فرادته، تقضي على وهمه بأنه غير الآخر، العادي، تنكر عليه حقه في أن يخرج على المألوف، وماذا يبقى للفنان إذا أصبح، مهما يتقدم في العمر، داخل دائرة المألوف؟ ماذا إذا انتفى قلقه، كانتفاء وهمه؟ الفنان يلعب مع نفسه لعبة الخداع، يتواطأ معها على نسيان الحقيقة، فإذا جاء من يذكره بهذه الحقيقة، وإذا صدق، ووعى هذه الحقيقة، فإنه يتهدم، يفقد توازنه، يحس بأن الأرض غارت تحت قدميه، وبأنه لا شيء، لا شيء باطلاق، وعندئذ يبقى عزاءه في الموت وحده! ندم زبيد، حاول تدارك الموقف، فكر في تحويل ما قال، فطن إلى عبث محاولة كهذه، كل تحويل في الكلام يعيد إنتاجه، الأفضل أن يصمت، أن يدخل في ثوب الصمت، أن يدع غيمته حيث هي، معلقة بين السقف والأرض، ألا يقول شيئاً للعزاء، السيدة نلسون لا تحتاج إلى عزائه، إلى إشفاقه، إلى تحنانه، فقد احترقت، ترمدت، بكت، ثم نهضت، ومن غير كلام، انسحبت، فتحت الباب وخرجت، دون تحية وداع، الميت لا يودع، والأحسن له ألا يودع، أن يترك وشأنه، وقد ترك زبيد السيدة نلسون وشأنها، اكتفى بالنظر إليها من وراء ستارة النافذة، كانت بائسة، يائسة، متهدمة، كانت جثة، تتحرك ببطء، تمشي بوئى، قدماها تبحثان عن الطريق،

تهتديان، بحكم العادة، إلى الطريق، وعندما غيبها الطريق، بكى زبيد أسفاً لأنه أجهز عليها، الكلمة ليست خنجراً، لكن من ينفي أن الخنجر كلمة أحياناً؟! كلمات زبيد كانت رصاصات. زبيد قتل السيدة نلسون بكلماته الرصاصية، قال لها: «لقد فات أوان العشق بالنسبة إليك، ومنذ زمن بعيد» فات؟ مات؟ لم يعد هناك عشق أو من يعشق؟ وهي؟ هل كانت تعشق أم تعيش على وهم العشق؟ ولماذا وهمها العشقي، كان يمدّها بالعزم؟ كان يمنحها الفرحة، الابتسامة، القدرة على الغناء، وعلى تحريك يدها برشاقة أوبرالية؟ غيرها، لو سمع ما سمعت، ما كان ليبالى هذه المبالاة، وغيرها، لو سمعت ما سمعت، هي، لضحكت للنكتة، لكن هذا الغير ليس فناً، ليس حساساً، لا يحيا على خُليّة الظن بأنه لا يزال كما كان: ذلك الفنان، أو تلك الفنانة، والشباب، والشهرة والتصفيق، والرسائل، والإعجاب، ورنين الهاتف، وكلمات المديح، وتنهدات العشاق، وملاحقات المعجبين، والصبا الريان، والعطور الفاخرة، والملابس الانيقة، وباقات الزهور، وبطاقات مرسلتها، والذهب والماس، والمجوهرات، والأحجار الكريمة، كل هذه الأشياء ضاعت؟ كل هذا المجد خبا؟ كل تلك الفتنة تلاشت؟ لا! الفنان لا يصدق أنه انتهى، الفنانة لا تستسلم لواقعية الراهن، السيدة نلسون تأمل، حتى وهي في الصين، أن تعود تلك الأيام الخوالي، أن تُبنى دار للأوبرا الحديثة، أن تدعى، بكل الحفاوة اللائقة، كي تؤدي، من جديد، أدوارها القديمة، أن تنال الإعجاب، تسمع التصفيق، تتناثر الزهور على الخشبة، تتساقط الورود على هامتها، على قدميها، أن تجد المتيمين بها في الكواليس، ينتظرون إطلالتها، ينحنون لها، يقبلون يدها، يقدمون لها بطاقتهم الشخصية، يرجون نظرة عطف، يلتمسون موعداً ما، في يوم ما، وهي تبسم، تجامل، تنسحب، تغيب، تزيل المكياج في غرفتها الخاصة، ترتدي ثوبها المفضل، تتدثر بالفرو، تخرج من الباب الخلفي للأوبرا، تركب عربتها التي تجرها الخيول المطهمة، الأصيلة، تصل بيتها وقد سبقتها إليه أكاليل الغار، تتويجاً للملكة المتربعة على عرش الفن!

من يزعم أن هذا لن يحدث؟ من يدعي أنه لن يعود؟ من يسرق الحلم، من يقتل الأمل؟ من يتجرأ على القول: «لقد فات أوان العشق بالنسبة إليك، ومنذ زمن بعيد»؟ زبيد فعلها، قالها، قطع الشريان الأبهر في صدرها،

ردها إلى الواقع، إلى الحقيقة، أسلمها إلى خواء الحياة، إلى صقيع الشيخوخة، إلى اليأس الذي وضعها على حافة العدم، جرّدها من سلاحها الوحيد: الوهم!

«لماذا يا زبيد، يا عزيزي زبيد، وجهت إلي طعنك الغادرة؟! جيفرسون أفضل منك، له قلب يخفق، له عضلة تضخ دمًا، عاطفة تتقدّ حبًا، له صدقه في عشقه، له وفاءه في هذا العشق، ومن أجله كاد يضحي بحياته، بينما أنت، يا زبيد، تحمل، في صدرك، كرة زجاجية، كرة بكماء، كرة صماء، لا تضخ دمًا، لا تشعل عاطفة، لا تبعث حرارة، لا تنير جوارح، لا تعرف الحب، لا تسعد بالحب، لا تبتهج به، لا تقي له، لا تضحي بشيء من أجله، شيء صغير: اسمه الإخلاص! أنت شقي يا زبيد، شقي أكثر من الشقاء نفسه، ولهذا تكره جيفرسون، وما تفعله لأجله، ليس إلا ستارة تخفي هذا الكره!»

السيدة نلسون لم تقل هذا الكلام، فمها لم ينطق به، عيناها قالتاه، نظراتها رزته، قسماات وجهها نطقته، معاناتها كتبتة، وعندما أدارت ظهرها الذي احدودب، ومشت وثيدة الخطى، مترنحة القوى، متهدمة الجسم، قرأ زبيد، على ذلك الظهر، كل ما انكتب عليه، بعد أن نفذ سهمه إلى كبدها، وكتبته في كبدها، وخرجت من بيته، دون عودة إليه.

في اليوم التالي، غادر السيد نلسون وزوجته، مصيف بيتاخو، وفي بكن لزمت السيدة نلسون بيتها، فرضت على نفسها الإقامة الجبرية في بيتها، راحت تذبل، وظلت تذبل، والغضون، في وجهها وصدرها، تتكاثر، تتعمق، ووطاة الكهولة تشتدّ، إلى أن أوهنها الضعف، ولم يجد معها دواء الأطباء، ولا نفعت نصائح الزوج، فانطرحت في فراشها، رافضة أن يزورها أحد، حتى أقرب المقربين إليها. زبيد فكر أن يزورها، وجبن لمجرد التفكير في زيارتها، خاف أن يراها، أن تلتقي نظراته بنظراتها، أن يخاطبها فتصرخ في وجهه: «أيها القاتل!» وكان، في سريره، يعترف أنه القاتل، انما بغير قصد، فلم يكن زبيد فنانًا، ولا مر بتجربة الفنان، ولا استشعر يومًا شعوره، أو أدرك شفافيته، أو قدر حساسيته، وخصوصًا عندما يتقدّم به العمر، ويعيش على وهم: أنه الفنان الذي كانه، ذات يوم، ولم يستطع، بعد ذلك، أن يصدّق أن هذا اليوم قد مضى وانقضى.

بعد أشهر ماتت السيدة نلسون، شيعها كل من كان في الدروجبا، وزيد بينهم، وبكى عليها زوجها، وبكى محبوبها، وبكاها زيد كالآخرين، لكن بغير دموع تبدو في المأقي، أو تسيل على الوجنات، فقد غار دمعها، سال في داخله، في أحشائه، في ضميره المعذب، وروحه المجرحة! وكان هذا آخر العهد بإنسانة، بفنانة، فهمته أكثر من كل الآخرين، وأحبته بأصدق مما أحبه كل الآخرين!

اليومية الثانية والثلاثون ١٠ آب ١٩٦٢

لم أبع المزرعة، كانت، كما قالت السيدة بورجرون، «مزرعة دمشق» ودمشق، كما قلت لها ذات ليلة مقمرة، عيوني، فمن يصدق، يا زيد «أنتك تبيع عيونك»؟ نعم! من يصدق أنني أبيع عيوني؟! أضافت السيدة بورجرون: «قل للرفاق الصينيين، اطلب منهم، توسل إليهم، أن يبقوا لوحة «مزرعة دمشق» مكانها، حتى بعد رحيلك من الصين كلها.. عدني بذلك» ووعدتها، ووفيت بوعدي، غير أنني كابدت كثيرًا في هجرانها، مثلما كابدت كثيرًا في فراق السيدة نلسون، فقد كانتا، المزرعة وهذه السيدة الفنانة، جزءًا من حياتي في الدروجبا، جزءًا عزيزًا، فائق الأهمية، فائق الأثر في نفسي، وقد طلبت السلوان في الخمر، وطلبت في المرأة، وطلبت، دون جدوى، في العمل، وكى أتعرى، أكثر من الخروج، في زيارتي للصديقين حسن وفهمي، وفي استقبال الطلاب العرب الذي يدرسون في جامعة بكين، وفي المشاركة بالرحلات إلى «الجبل العطري» وإلى «سور الصين» العظيم، والمعابد البوذية، والامكنة الأثرية، وكذلك في الإقبال على المطالعة، وعلى البحث، في أحياء بكين القديمة، عن التحف الصينية، التي أصبحت على إلمام كاف بها، من ناحية القدم، والتاريخ، وأماكن الصنع، والأسر التي تحدثت منها، أو كانت في ملكيتها.

كنت أخرج صباحًا باكراً من بيتي، لأقوم بنزهة هي ذاتها، كل صباح ومساء، وهذه النزهة هي الدوران حول الدروجبا، في الدرب الذي هو محيطها، وبعده العودة إلى نقطة البدء، لأنه من غير المسموح، ومن غير الممكن، تجاوز الشريط الحديدي الشائك الذي يلتف حول هذه المدينة

الصغيرة: مدينة الخبراء الأجانب، الذين يعملون في الصين، ويسكنون جميعاً ههنا! ولشدّ ما بحثت عيني، في محيط الدروجبا وداخلها، عن أثر لتشين لاو، التي تبخّرت كالضباب، ولكم توقعت، وأنا في البيت، أن يرنّ الهاتف، وأن تكون المتكلمة تشين لاو، أو يطرق الباب، فتكون هي عليه، أو أفتح هذا الباب فأجد رسالة ما، كلمة ما، منها، أو يتحدث عبد القادر عنها، أو يأتي حسن بأيّ نبأ عن مصيرها، وفي ليالي الوحدة، والشوق، والمسكن الفارغ، كانت ذكرى تشين لاو تعتادني، فأنهض لأدور في فراغ الصالون والغرف، ثم أجلس، ثم أنهض، وأمل انبثاقها، من مكان ما، في الداخل أو الخارج، يتدرج نزولاً نحو الخيبة، نحو اليأس الكامل، الذي أصبح مع الأيام يقيناً، بأن تشين لاو غابت مرة وإلى الأبد!

موظفة العلاقات العامة، التي جاءت بعد تشين لاو، أو حلّت محلها، كانت تدعى توبو، وقد زارتني، في بعض المهمّات، مرات كثيرة، وسرّني أنّها تجيد الإنكليزية، إلّا أنّها، المسكينة، اصطدمت دائماً بشرودي، بالجفاء القسري الذي ما كنت أريده، بالإصغاء الأصمّ الذي يعذبها ويعذبني، بفقدان الحوار الضروري لمعرفة رأيي في المسألة التي تعرضها عليّ، وأحسب أنّها شكّت من حالّي هذا إلى قيادة الدروجبا، فكان الجواب، كما يخيّل اليّ، الابتسام الاستغبائي، لأنّهم أبلغوها سلفاً بغرابة أطواري، وطلبوا منها أن تدعني وشأني، أن تقول لي ما تريد قوله وتنصرف، سواء فهمت ما قالته أم لم أفهم، عملت بما تدعوني للقيام به أم لم أعمل، إلى أن عرضت عليّ، ذات يوم، أن أشتري في رحلة إلى سور الصين، فأجبتها، باقتضاب:

- أعرفه!

- وماذا تعرف عنه؟

- كل شيء!

- مثلاً؟

- وهل هذا امتحان؟

تلعثمت توبو، أطرقت وأوراقها على ركبتيها، أدركت، من نبرتي، أن جفائي معها هو نفسه، استشعرت نوعاً من إهانة، عذرتني على جفائي، غفرت لي إهانتني، إلّا أنّ جوابي القاسي، الذي يفتقر إلى الحس السليم،

سد عليها منفذ الحوار الذي رغبت في إدارته معي، فلما لاحظت ارتباكها ندمتُ على ضيق خلقي، على سوء تصرفي، فقلت مبتسماً:

- ما رأيك بفنجان من الشاي الأخضر تونجي بو؟

نظرت إليّ باستغراب وقالت:

- لا بأس تونجي زبيد، إذا كان ذلك لا يضايقك، أو لا يأخذ من وقتك

أكثر مما يجب!

ضحكتُ وقلت:

- وقتي؟! المهم هو وقتك أنتِ!

- أنا في مهمة لديك، إذن وقتي غير ضائع، وفيه متسع لذلك.

شربنا الشاي الأخضر، شفني نوع من سرور، زال حرج توبو، أحسستُ بتبدُّلي المفاجئ، سألتني على استحياء:

- لماذا أنت حزين؟

هتفت:

- أنا؟! ولكن هذا طبيعي! إنَّه هو هو منذ وصولي إلى الصين، والرِّفاق،

في قيادة الدروجبا يعرفون ذلك، والأمر ليس بيدي، صدقيني!

قالت توبو:

- الرِّفاق في قيادة الدروجبا يعرفون طبعك هذا، لكنَّهم يعرفون، أيضاً،

دأبك في العمل، وحجم المساعدة التي تقدمها لبناء الصين. من أجل هذا،

وبسبب تنبيهات من الجامعة ودار النشر، يتساهلون معك في أمور كثيرة،

وأنا أفعل الشيء نفسه.. لنعد إلى موضوع الرحلة، هل تعرف السور

العظيم حقيقة؟

ضحكتُ وقلت:

- أعرفه مجازاً!

فطنت إلى التورية فقالت:

- أسفة، قصدت تعرف السور كله! إنَّه طويل جداً! طوله يقارب السبعة

آلاف كيلومتر، وهو يمتدُّ فوق سلسلة جبليَّة وعرة جداً، ترتفع وتنخفض،

ويحتاج من يريد أن يقطعه كله إلى ثمانية أو عشرة شهور، حسب سرعة

السير أو بطئه، لذلك..

قاطعتها:

- أنصحك بالإقلاع عن هذه المغامرة اللعينة!

ضحكت بو وقالت:

- أبداً! أنا لم أقل هذا، العكس هو الصحيح... مهمتي إقناعك بهذه المغامرة التي تستحق تعبها.. رؤية السور، إحدى عجائب الدنيا، ليس بالمغامرة اللعينة، صدقني!

- وإذا كنت قد قمت بهذه المغامرة مرتين؟ ورأيت السور من أعلى نقطة فيه، ولدي كتاب عنه أقوم بترجمته الآن؟

- خن خاو (جيد جداً) تونجي زبيد، لكنني أرغب في أن تشارك معنا في الرحلة، وهكذا نتعارف أكثر!

- وإذا كنا قد تعارفنا وانتهى الأمر؟

- نتعارف من جديد!

- وماذا في هذا الجديد؟

- مفاجأة!

وقفت لأودع توبو وأنا أقول:

- ليس من مفاجآت في الصين.. الأيام متشابهة، والرتابة ذاتها!

سألت وهي تهتم بالانصراف:

- هل أنت واثق بما تقول؟ ما أظن! تذكّر شنتاو والجبل العطري..

سايجين (إلى اللقاء).

- سايجين!

أضفت:

- تونجي بو! سأغامر، مرة أخرى، سجلي اسمي!

- واسم من أيضاً؟

- اسم من يريد!

قالت وهي على الباب:

- وانت؟! ألا تريد أحداً بعينه؟ مارلين مثلاً؟ أو السيدة بورجرون؟ أو..

ضحكنا! تصافحنا! توادعنا بمودة! انصرفت توبو، أغلقت الباب،

تساءلت: «أو...؟» من تكون «أو» هذه؟ ولماذا أمسكت بو عن الكلام؟ هل كانت تقصد؟ ربما! هؤلاء الصينيون رمزيون بطبعهم، دلالة الرمز عندهم علامة استفهام! علامة ترسم في فضاء الكون، ولولا المبالغة لقلت: «إنهم يعرفون الكون، لكنهم يغفلون هذه المعرفة السريّة بأوراق البردي!»

بعد عودتي من الجامعة، اتّجهت مباشرة إلى المزرعة. أخرجت زجاجة من النبيذ، ابتسمت وأنا أنظر إلى حفرة «المشروبات المعتقة»، جلست على مقعد قريب، أنشأت أشرب متذوّقاً الخمرة بغير قليل من التّاني، كأنّما خدعتي قد جازت عليّ، وأنّ هذا النبيذ معتق حقاً! تذكّرت قصة جحا الذي قال للصبيان: «في ذلك البيت تُوزع الحلوى!» ركض الصبيان في اتجاه البيت وجحا ينظر إليهم ضاحكاً، فلما غابوا عن نظره، قام وركض مثلهم، قائلاً في نفسه «قد يكون صاحب هذا البيت يوزع الحلوى فعلاً!» أنا أيضاً، في الخدمة التي صنعتها لغيري، خُدت بدوري، صار النبيذ معتقاً بالوهم، وصرت ضحية وهمي، أشرب جالساً، واقفاً، متلقفاً، متأملاً، أنظر إلى ما حولي نظرة غريب، يرى الأشياء مندهشاً، كأنّما لا عهد له بها من قبل، مع أنّها كانت مألوفة لديه، فهنا كانت تجلس السيدة نلسون، تشرب وهي تقول: «أوه! زبيد، عزيزي، ما أطيب مذاق هذا الخمر المعتق!» وهناك كانت تقف تشين لاو، متسرّرة بالظلمة وهناك، في الخيمة، كانت السيدة بورجرون تجلس على العرش، باعتبارها ملكة المزرعة، وعلى مقعد مستطيل، كانت تتمدّد مارلين، مستمتعة بحمامها الشمسي، وفي هذه المزرعة تعرفت، لأول مرّة، بجيفرسون الإيرلندي، الجمهوري، وفيها، أيضاً، استقبلت السيدين الأويس، وحتى نغوين جاءت مدفوعة بفضولها، وهذه الأقتية من الاسمنت، صنعتها يدا الرفيق خزنبري، الذي أوفد بمهمة حزبية إلى طهران، وهناك أعدم سنقاً، فوقفنا، حسن وفهمي وأنا، دقيقة صمت حداداً على روحه التي جاد بها على مذبح المبدأ!

ذكريات، ذكريات، ذكريات! حزن، حزن، حزن! دمع تحير، دمع سال، دمع على الوجنتين، دمع في الصدر، وزجاجة بعد أخرى، ومرة، ثم مرة، ثم مرّة، وقفت، جلست، طوّقت، ويعد ذلك جننت، اتخذت قراراً مجنوناً، نفّذت قراراً أكثر جنوناً، أخرجت زجاجات الخمر، حطمتها، نثرت حطامها، فعلت هذا بالكؤوس، بالصحن، بفناجين الشاي، والقهوة، وبكلّ

ما طالته يدي، وبسكين خزّقت سجادة الخيمة، وجئت بفأس، رفعت الفأس، وإذا بحسن بيجاري يقبض على الفأس، وبغير كلام ارتمى أحدنا في حوض الآخر، بقينا كذلك دقائق، ظللنا صامتين، لم يكن هناك ما نقول، العيون وحدها كانت تقول، ورويداً ورويداً خرجنا من «مزرعة دمشق» بقيت اللوحة وحدها، وإلى جانبها اللوحة التذكارية للرفيق الإيراني الشهيد، الذي أبّنه حسن بهذه الكلمات: «نم في مثواك هائناً، استرح طويلاً طويلاً، بعد تعب طويل طويل، ولأنت في قبرك، اسعد منا في غريتنا!» ثم قرأ الفاتحة، وقبّل اللوحة التذكارية، وفعلت مثله، ومشينا صامتين إلى أن افترقنا، كأنّما هذا الافتراق، بعد ذاك الالتياح، كان مقرّراً، كان ضرورياً، كي يخلو كل منا بنفسه، ويهدد نفسه، ويمسح على جراحها المدمّة، لا من أسى فقط، بل من شعور بالإحباط أيضاً!

هتفت إليّ السيدة بورجرون عصباً، صاحت وهي على الطرف الآخر من الخط:

- ماذا فعلت أيّها المجنون؟!

أجبت بهدوء:

- ما يفعله العقلاء يا مارغريت!

- والوعد؟

- وفيت به، اللوحة في مكانها وكذلك اللوحة التذكارية!

- ولماذا إلى جانب لوحة دمشق، لوحة تذكارية أيضاً؟

- لأنّ دمشق خير من يكرّم الشهداء، هذا من تقاليدنا.

- هل أستطيع المجيء، لزيارة قصيرة؟

- الأفضل لا! دعيني مع نفسي!

- لكنك تتألّم!

- الألم يطهرني، وهذا ما أنا في حاجة إليه.

- أفهمك تماماً! يا إلهي كم أنت حساس!

- هذا هو تشكّلي النفسي، وإني لراض به.. مع السلامة يا مارغريت!

أقفلت سماعة الهاتف، نقتع جلدي الخشن في الماء الساخن، استعدت ما جرى معي، لم أندم على ما فعلت، كان ذلك مناسباً، المزرعة ليست وكراً

للأوغاد، ليست مكاناً للدنس، أنا نفسي لم أَدنسها، لم أأخذ منها مرتعاً للمجون، احترمت كل ما فيها، وفي المقدمة اسمها، وكذلك ذكرى الذي أنشأها، احترمت الأرض، والرفاق الصينيين الذين هم أصحابها، والذين يسهرون عليها، وقد أجازوا لي استخدامهما، وقدموا كل ما يلزم لتنظيمها، لإنباتها، لجعلها نموذجاً للحدائق الصغيرة، الملائى بالخرصة والزهر والورد، أفيء إليها في طلب الراحة بعد عناء العمل، الراحة في العمل البدني، بعد التعب من العمل الفكري، وهذا لا علاقة له في الاختلاف، نحن مختلفون في وجهات النظر السياسية، لكننا، رغم ذلك نتصل، ومع الاتصال يكون الاختلاف، وفي هذه النقطة تتوازن المعادلة يصبح لها طرفان: اتصال، اختلاف، ودون أيّ منهما يكون نقص، والنقص ينفي الكمال، ينفي الطموح، ومع التقدم، إذن الاختلاف ضروري كمحرض للاتفاق، فلولا ذاك ما كان هذا، ولو لم يختلف الناس لما اتفقوا، لما بحثوا، في اختلافهم، عن نقطة التقائهم، والبحث مطلوب في ذاته ولغير ذاته، وكل بحث ينبني على جدلية سالب وموجب، وأين السالب والموجب في اتفاق لا اختلاف قبله أو بعده؟! وهل أخرجُ للناس منادياً: أيُّها البشر اختلفوا لكي تتفقوا؟

السيدة بورجرون لها رأي آخر في موضوع الحديقة، خلاصته أن السماح بإنشائها هو امتياز لي، وكل امتياز له ثمن مدفوع، ولا بدّ أنني دفعت هذا الثمن مسبقاً، إذن أنا غير صادق في ما أدعيه من اختلاف مبدئي مع الصينيين، ثم إنني أتخذ الحديقة وسيلة للإيقاع بالنساء، وللسكر وممارسة الحب مع مارلين، وقد قصصت عليها الحكاية التالية: كان لينين يجلس إلى طاولة أمام بيته مفكراً، فمرّ به فلاح وسأله: «هل ترتاح يا رفيق لينين؟» أجابه: «لا! أشتغل!» وبعد مدة مر هذا الفلاح فرأى لينين يعزق بمنكاش حديقة بيته الصغيرة، فتوقّف وسأله: «هل تشتغل يا رفيق لينين؟» أجابه: «لا! أستريح!»

علّقت السيدة بورجرون قائلة:

- وماذا يعني هذا؟ ما مغزى الحكاية التي رويتها؟ وما علاقتها بك أو بحديقتك؟

أجبتها:

- لا شيء!

- هل تسخر مني؟

- قليلاً!

- وتجرو على قول هذا؟

- ماذا أفعل إذن؟

- كن لطيفاً وعاقلاً!

لم أستطع، طبعاً، أن أكون هذا اللطيف، أو هذا العاقل، قرّرت بيع الحديقة فعارضت، خربت الحديقة وحطمت كل ما فيها فاتهمتني بالجنون، وعندما أقفلت الهاتف، ونشدت الانتعاش بالماء الساخن، جاءت تقرر الباب، إلى أن يثسّث فأنصرفت، وعندئذ لجأت، كعادتي، إلى القهوة والكونياك، وفي اليوم التالي ذهبتُ مع الرحلة، وذهبتُ مارلين أيضاً، وكانت المسافة بين بكين والسور العظيم، حوالى التسعين كيلومتراً، قطعناها بالباص، بعد أن انجزت مسؤولية العلاقات توبو، كل الأوراق اللازمة.

توقفنا عند بوابة بادا لانغ، نزلنا من الباص ومادلين تمسك بيدي، كانت هذه أول مرّة تزور فيها السور، وكنت أتفهّم دهشها، إعجابها، سرورها، نشاطها، لأنّ هذا ما كنت عليه أنا أيضاً، في زيارتي الأولى للسور، من نقطة عبور أخرى، ومثل كل الذين يزورون السور، خصوصاً من السياح والأجانب، كانت مارلين تحمل آلة التصوير وهي مشرقة الوجه، موردة الوجنتين، باسمه الثغر، راغبة في التقاط الصور ونحن لما نبدأ الصعود، تنظر اليّ بفرحة طفل، قائلة:

- ما أروع ما أرى.. أكاد لا أصدق!

تضيف:

- كيف أكتب وأصوّر في وقت واحد؟ ألا تساعدني قليلاً يا زبيد، يا

صديقي؟

وكنت أجيبها:

- هذه، يا مارلين، رحلة للرياضة والمتعة، تمتّعي بما ترين، دون تفريط

بقواك، لأن أماننا صعودًا صعبًا، مرهقًا، تمارسين فيه رياضة شاقة، وتلتقطين صورًا رائعة، وفي وسعك، إذا ما هدأت، اختزان قواك، وتوفير الفيلم في آلة التصوير هذه، لما هو أهم، حين نصير، بعد قليل، وسط السور، في امتداده الأفعواني فوق سلسلة جبال شاهقة جدًا، نرى منها إلى ما تحتنا من انحدارات مخيفة!

إلا أن مارلين، في الرؤى البكر لما حولها، لم تكن قادرة على الهدوء، على الاقتصاد بقواها، على عقلنة فرحتها، وعلى عدم تدوين أشياء وأشياء في دفتر يومياتها، هي، من وجهة نظري، نافلة، لأن الدليل لم يصل بعد، والمسيرة، في المرتقى اللولبي، لم تنطلق، وأماننا وقت فيه متسع لكل هذا النهم الذي يترأى في حركاتها! لذلك تركتها وشأنها، مبتعدًا عن لغوها الذي لا ينقطع، متأملًا، مفكرًا، مسترجعًا ما أعرفه عن السور، وهو، في رأيي، أصح وأشمل في الكتاب، مما يعرفه وسيشرحه الدليل لمن يصطحبهم في هذه الرحلة، التي شاركت فيها لأن توبو أثارت فضولي بما قالته عن المفاجأة المنتظرة خلالها.

المفاجأة؟! رفعت رأسي إلى السماء، كانت صافية، فاتحة الزرقة، موشحة بتشكيل من الغيوم، يشبه رأس حصان، مغيب الجسم في السحب البيض العالية، وإلى جانبه رقاقات من الغمام المنخفض، في ثناياه انبثاقات نورانية، تعطيه تهاويل أضواء محجبة، مبعثرة، تسمح للشمس أن تحدث، بقوة أشعتها، انقشاعات فيه، لا تلبث أن تحتجب، ثم تبين، ثم تحتجب، فوق ذرى الجبال التي نقف قبالتها. لقد فكرت يومًا، وأنا أجلس في المزرعة، أن أحاول الرسم، ففكرت، كذلك، أن أحاول الشعر، أن أخرج من داخلي ما يعذبني، دون أن أتوصل إلى معرفة هذا الذي يعذبني، غير أن خواطري، التي ترف حولي كفراشات، كانت تتطاير هباء ما إن أحاول القبض عليها. كنت، كما وصفتني السيدة بورجرون، صيادًا فاشلاً، بسبب من نفاذ صبري، الذي لا سبيل إلى لجمه، ولا سبيل إلى تحمله، أو دفعه، فنسيانه، لأنني، كما كانت تضيف ضاحكة: معطوب في الجهة اليسرى من صدري!

انتشلتني من هذا الاستغراق السرابي، صوت مارلين صائحًا:

- زبيد هيا، أسرع، إننا نتحرك إلى أعلى.
خطوت في اتجاه جماعة الرحلة، وإذا بالأنسة توبو تقترب مني
هامسة:

- ها هي المفاجأة!
نظرت إلى أمام، إلى مرتفع تقف عليه امرأة، تتكلم الإنكليزية بطلاقة،
فاذا بي أمام تشين لاو، وجهها لوجه، كأنما الانبثاق الذي كنت أرقبه في
السماء، قد حدث بغتة على الأرض. حاولت التقدم أكثر، ارتقاء المرتفع
بشكل أسرع، الا أن تشين لاو التي رأنتي، جمدت حركتي بقولها:
- لا تزاحم!!

أضافت:
- ليبق كل منكم في مكانه، أرجوكم! دعوني أكمل شرحي، وبعد ذلك
نصعد بالدور، فالمرضى جداً!
صاح صوت من بين الحاضرين:
- كيف أنت تونجي تشين لاو؟ دعينا نفترب منك أكثر، كي نسمعك
جيداً.

قالت تشين لاو:
- إنني بخير، لكن تشين لاو التي في الدروجبا أصبحت غيرها الآن،
أنا، هنا، دليلتكم فقط، وسأرفع صوتي بأكثر ما أستطيع، كي تسمعوني
جيداً، هل ترغبون في شيء آخر؟
تعالَت الأصوات:

- هذا يكفي، إننا نسمعك جيداً، ولكن متى نصعد إلى السور؟
أجابت تشين لاو:
- بعد قليل، أمامنا أفواج من السياح والزوار، وسأعطيكم الآن فكرة
عامة عن السور، هل نسيتم شيئاً في الباص؟ حقائب الكتف مثلاً،
والكاميرات، وكذلك الطعام والماء، نحن، الآن، في نقطة الصعود، لكننا لن
نعود إليها، سيكون النزول في نقطة أخرى، بعيدة نسبياً، وسيكون الباص
هناك، بانتظاركم!
نظرتُ إليها من قرب، أشاحت بوجهها عني، ارتبكتُ قليلاً، شعرتُ

بارتباكها، المفاجأة كان لها تأثير فيها، إلا أنها تماسكت بسرعة، حولت نظرها عني، بقيت على هذا الوضع، أدركت فوراً الحرج الذي سببته لها، تشين لاو التي أعرفها خُطفت في السحب، اندغمت بها، صارت جزءاً منها، تبخّرت كما الضباب الصباحي، على هذه القمم العالية، هذه تشين لاو أخرى، هذه دليلة سياحية فقط، تماماً كما قالت عن نفسها، وتاماً كما أرادت أن أفهم، وقد فهمتُ ما أردته، كل شيء صار واضحاً، المغامرة انتهت، هذه هي المغامرة الأخيرة، لا فائدة من إنعاش الذاكرة، الأفضل إخمادها، لقد كنتُ أنا زبيد، وكانت هي تشين لاو، ولكن متى؟! في أي يوم، أي شهر، أي عام؟! ربما في الحلم، والآن أفاق كلانا، والحلم سفته الريح، ومن المستحيل أن تعيد الريح ما أخذت! ما تبقى هو الذكرى، الذكرى فحسب، وفي هذا بعض إيلام، لكن فيه، بعض شفاء أيضاً، ترى شفيت تشين لاو من الحب، أم أرغمت على الشفاء؟! الأرجح أرغمت، أجبرت، كغيرها، على حذف اسمها من قاموس الحب، إذا كان قد بقي، في غمرة الحماس الثوري، قاموس للحب، وهذا ما أشك فيه، أشك مؤقتاً، ما دام إلغاء الناموس الطبيعي الغاء للطبيعة، وليس من سلطة، الآن وفي المستقبل، في هذا القرن أو القرون المقبلة، بقادرة على الغاء الطبيعة البشرية، على وضع غرائز الناس في قمقم، ثم الختم عليه بخاتم أي نظام، اشتراكياً كان أم رأسمالياً، فالأنظمة تتغير، إلا أن مشاعر القلوب، تبقى مشاعر قلوب، أزلاً وأبداً!

انسحبت كالطيف إلى وراء، تسَلَّلت دون أن يدري بي أحد، حتى مارلين وتوبو، وقفت في المؤخرة، مكثفياً بسماع الصوت، منتشياً، بقدر ما يسمح الموقف، بالنبرات، وجاعني صوتها من بعيد، من الشبك الحديدي في بحر شنتاو، من العرزال وراء معبد بوذا في الجبل العطري، من بيتي، في زيارتها الأولى لي، ومن جدرانها، في زيارتها الأخيرة لي، وقام الرمز مقام الواقع، إلى أن غدا الترميز هو الواقع كله.

قالت تشين لاو:

- الغاية الأساسية لهذا السور محض دفاعية، ضد الغزاة الطامعين في الصين. يوم لم تكن هناك طائرات ومدافع بعيدة المدى، وصواريخ، وكان القتال يجري بالنبال والسيوف وراجمات النار من فوق السور ومن

فتحاته ذات المسافات المحددة.. وهو يمتد من بوابة شانغهايغون على الساحل الشرقي للمحيط الهادي إلى بوابة جيايغووان في صحراء غوبي، المعبر الأساسي لقوافل طريق الحرير. لكن هذا السور لم يحل بين الغزاة القادمين من الشمال، أي من جهات منغوليا، وبين اجتياحه مرات عديدة، كما فعل جنكيزخان عام ١١١٣، عندما تخطى السور، وغزا الصين، وحكمها حوالي قرنين من الزمن، إلى أن جاءت أسيرة مينغ الصينية عام ١٣٧٠ تقريباً وقامت بترميم السور الذي خرب المغول بعض أجزائه.

أضافت:

- السور العظيم هذا بني فوق مناطق جبلية، وأقيمت عليه حصون منيعة، على امتداد قمم الجبال، وقد عمل في بنائه، ملايين العمال والمعماريين، وعُدَّ زمن إقامته، أعجوبة الدنيا، وهناك رسالة من أحد العمال إلى زوجته، يقول فيها إنَّه جُنْدٌ للعمل فيه وهو شاب، ومات وهو كهل ولما ينته البناء، فتأملوا هذا الجهد الإنساني الخارق الذي بُذِلَ لإقامة هذا السور.

قال أحدهم:

- قصة بناء هذا السور تشبه قصة بناء الهرم الأكبر، هرم الملك خوفو في مصر، إذ اشترك في بنائه مئات ألوف العمَّال، ونقلت أحجاره على طوافات من أسوان إلى الجيزة، فوق مياه نهر النيل، وتدل هندسته على معلمية معمارية دقيقة، تجعله إحدى أعاجيب الدنيا أيضاً.

قالت تشين لاو:

- أسمع بأهرام مصر، لكنني لم أزرها، وقد تكون إحدى عجائب الدنيا، إلا أنَّ السور يبقى فريداً في عظَّمته! أرجوكم! دعوا الأسئلة والتعليقات إلى أن نصعد، ونصبح فوق السور، ونطل منه على ما حوله.. إنَّنا، الآن، أمام تجربة نادرة، فالحماسة وحدها لا تكفي، لأنَّ الصعود يحتاج إلى قوَّة بدنيَّة، وإلى عضلات متينة في الرجلين، و..

قاطعتها سيدة:

- كان يجب أن يكون هناك تلفريك يا عزيزتي الدليلة!

ردت تشين لاو:

- هذا سيصير مستقبلاً.

- متى؟

- ليس خلال زيارتك هذه للصين على كل حال!

ضحك بعض الحاضرين، صفق آخرون، صاحت تشين لاو:

- أرجوكم! أرجوكم! دعوني أكمل شرحي الذي لم يبق منه إلا القليل،
ويعد ذلك نبداً الصعود، ويصبح لدينا وقت طويل للأسئلة والاستفسارات،
وسأجيب عنها كلها، كلها، هل تسمعون؟

- نسمع! هيّا، أكملني، ولكن كيف نقف على حدّ السور؟

قالت تشين لاو:

- للسور حدان، جداران، وهو أشبه بطريق، نمشي فيه، ونتجمع،
ونتفرّق، بكلّ راحة، الصعوبة في الصعود فقط، وعندما نصل ستكون
هناك فترة للراحة والتقاط الأنفاس، لا تتعجلوا، أرجوكم! السور أشبه
بطريق عريض نسبياً، وقد تم الشروع ببنائه في القرن السابع قبل الميلاد،
وهو يمتد فوق سلاسل من الجبال، يرتفع بارتفاعها حيناً، وينخفض
بانخفاضها حيناً آخر، وستجدون أنه مبنيّ من الحجارة الضخمة، ويبلغ
ارتفاع كل من جداريه حوالى التسعة أمتار في بعض الأماكن، وسماكة
كل جدار حوالى ثلاثة أمثال، وعلى هذا السور، وبطول امتداده وتعرّجاته،
أبراج للمراقبة وقلاع للدفاع، وبوابات واسعة، وفتحات ضيّقة لإطلاق
النبال، وكان الحراس الذين يتولون المراقبة يعطون إشارة الإنذار بإشعال
النيران ليلاً، أو بإثارة الدخان الأبيض نهاراً، وهذا كل ما لديّ من شرح
موجز، فمن أراد التوسع في الاطلاع، عليه أن يشتري بعض الكراسيات أو
الكتب الصغيرة، قبل الصعود، أو عند النزول، شكراً لكم، ولنستعدّ جميعاً
للصعود.. هيّا، وراحوا يصعدون، ومارلين ملتصقة بتشين لاو تقريباً،
تحمل كيس زواذتها بكفها، ممسكة آلة التصوير بيد، ودفتر اليوميات بيد،
مندفعة بفرح وحماسة إلى أمام، مصعّدة في الجبل دون أن تلتفت إلى
وراء! دون أن تتذكرني، أو تفتقدني، أنا الذي تسمرت في مكاني، ثم عدت
إلى البوابة، وفي النفس جيشان من الخواطر والذكريات، أحاول السيطرة
عليها شيئاً فشيئاً، وفي فمي، من الداخل، مشروع ابتسامة، لهذه
المصادفة السعيدة وغير السعيدة في آن واحد.

عند البوابة الصغيرة نظروا إليّ باستغراب، حسبوا أنّني تهت عن جماعتي في الرحلة، أو قصّرت عن اللّحاق بهم، وأن عليهم أن يفعلوا شيئاً لأجلي، لكنني اهتديت إلى من يتكلّم الإنكليزيّة، وهو شاب يلبس الرداء الأزرق، وعلى أرنبة أنفه نظارة طبّيّة بيضاء، اقترب مني وقال:

- هل في وسعي أن أقدم لك خدمة ما؟

قلت:

- شكراً تونجي! كل ما أريده، لهذه اللحظة، أن أستريح، وأن أبلغ سائق الباص الذي جئت فيه، ألا ينساني عندما سيتحرك إلى نقطة نزول رفاقي في الرّحلة.

- وهل جئت في رحلة؟

- أجل!

- ولماذا لم تصعد إلى السور معها؟ هل تشكو شيئاً؟

- أبداً، لكنني أعرف السور جيّداً، فقد زرتّه سابقاً، وقرأت عنه، وأنا بصدد ترجمة كتاب حوله لدار النشر في بكين.. إنني عربي، من سورية، أعمل في الصين كمدرّس في الجامعة، منذ سنتين ونصف تقريباً، وأترجم بعض الكتب الصينية إلى اللغة العربية، اسمي زبيد، تونجي زبيد.

تصافحنا بحرارة، أبدى استعداداه للقيام بما أسماه واجبه حيالي، ابتسمت له، شكرته، لكنني لم أحفظ اسمه، قادني إلى غرفة جانبية، وجدت فيها ما أنشد: طاولة وبضعة كراسي، أرسل من مسح لي الطاولة، وأعدّ الكراسي، وأرسل إليّ ترمساً من الماء الساخن، وفنجاناً فيه شاي أخضر، وبعد حديث بسيط، اعتذر قائلاً:

- نحن، الآن، في موسم السياحة، ولديّ شغل كثير، وفي إمكانك أن تستريح، وأن تطلب ما تريد مما هو موجود، مثل البيرة، السندويش، وغير ذلك..

شكرته، طلبت زجاجة بيرة مبردة، أخرجت بعضاً مما معي، من طعام رحلة كهذه، وكذلك زجاجة الكونياك وترمس القهوة، ووجدتني سعيداً بأشدّ مما كنت أظن، فأتكأت على كرسي، مسافراً على جناح أفكار، غير مكترث بما جرى، أو سيجري، متناسياً وقائع سوء الحظ، التي لا فائدة

من تذكُّرها، أغزل الضوء غلالة، تليق بتشين لآو، المرأة التي أحببتني
لتنكرني، وأنكرتني لتحبني، متفحصاً، بحيرة تامة، عاطفتي نحوها،
العاطفة الناضجة، المشرقة كدودة القز، الماسية كحريرها، وفي داخل
الشرنقة دودة ميتة: اسمها الحب! حبِّي الذي ليس حباً، لأنَّه لم يكن يوماً،
ولن يكون يوماً، ولا حيلة لي في ذلك.

شربت، كالأخطل، ثلاث زجاجات من البيرة، هذه البيرة لا هدير لها،
لأنَّها ليست من العنب، وإنَّما من الشعير! الأخطل، بعد أن سكر، خرج
يجر الذيل تيهًا، حتى على أمير المؤمنين نفسه، أما أنا فلم أسكر، ولم يكن
لي ذيل موشى أجره، أو أمير مؤمنين أتبه عليه، كنت غريباً، في مكان
غريب، بعيداً في مكان بعيد: سور الصين العظيم! هذا وحده، إذن،
يستحق الاحتفال، وسأحتفل به وحدي، دون غناء، أو رقص، أو نديم، وفي
مكان يجهلني كجهلي له، لكوننا غرباء هنا، غرباء جبلاً وحجارة وتربة،
وليس من قبر لأي مخلوق، أقول له ما قاله امرؤ القيس لجارته: «إنا
غريان ههنا، وكل غريب للغريب نسيب!».

فتحت زجاجة الكونياك، ترمس القهوة، طلبت كأسين، طلبت فنجانين،
لي ولتشرين لآو! لم أكن ساحراً، أو مهلوساً، لكنني استحضرت طيفها،
أجلسته قبالي على الكرسي، سألته، بعد أن تبادلنا الأنخاب:

- هل عرفتني؟

تفرَّس الطيف في وجهي وقال:

- لست بالغريب عني! لكنني نسيت متى تعارفنا، وأين التقينا!

قلت:

- هذا طبيعي! في كل بلدان العالم يتعلَّم الإنسان الأينسي، لكنهم، في
الصين، يعلمونه أن ينسى، وربما كان هناك معهد للنسيان، في بكين أو
غيرها!

قال الطيف:

- أعرف هذا المعهد، وقد تخرَّجت حديثاً منه.

- وما هي المادة الأساسية في الدراسة؟

- عدم الوثوق بغير الصيني، والابتعاد عن الأجنبي ما أمكن ذلك!

- الابتعاد أم الإبعاد؟

- هذا يتوقف على كل حالة بمفردها!

- وفي مثل حالي؟

- أعتذر عن الجواب!

قال زبيد:

- تعتقد أنني لا أعرف الجواب؟

- إذا كنت تعرفه فلماذا تسأل؟

- نفياً للشك!

قال الطيف:

- الشك، يا زبيد، لا يُنْفَى في الصين، إنه مادة دراسية أيضاً!

سأل زبيد:

- والحب؟

- والوطن؟

- وأين التعارض؟

- لا تعارض هناك من حيث المبدأ، إنما الحب ليس للحب دائماً! هناك

الحب وهناك الواجب، وأنت لا تحب ولا تقوم بالواجب، لأنك نسيت لماذا

أنت هنا!

أضاف الطيف:

- أنا أيضاً نسيت، لفترة ما، ما نسيت أنه أنت، فد شغلني الحب عن

الواجب، وهذا معقول، ومقبول إلى حد ما، غير أن الحب لا يكون من طرف

واحد! هذا ما يسمونه وهم الحب، وغايته التسلية.. ثم ماذا؟ أنت تريد أن

تتسلى معي، كما تتسلى مع غيري، وعرضك الزواج كان غسلاً للوجدان،

كان سبراً لمشاعري، لا أكثر، لأن من لا يحب لا يتزوج. وحتى لو أحببت،

افتراضاً، فلن تتزوج، ولديك أسبابك في ذلك، ولا مجال لمناقشتها الآن..

في البدء استشعرت الأسى، لاعتقادي أنهم أبعدوني عنك، لأنهم فرّقوا

بيننا، لكنني، بعد ذلك، فهمت أنهم أيقظوني من غفلتي في الوقت المناسب!

كن سعيداً! أنس! النسيان هو الدواء، فإذا لم يكن فاليناس.. اليأس مع

الحب راحة!

قال طيف تشين لاو ذلك واختفى، غار كما انبثق، كنت أحسب أنني استحضرت، فإذا بي اكتشف أنه هو الذي استحضرتني، لإسماعي ما أرغب في سماعه، فلما أدى مهمته في الدفاع، خرج من دائرة تصوُّري كما يخرج المحامي من قاعة المحكمة، بعد إنهاء مرافعته.

عدت، من جديد، وحيداً كما كنت، فوجئت أن الكأس الأخرى لم تمس، وأن فنجان القهوة الآخر لم يشرب، ومن يشربهما إذا لم أفعل أنا؟ الوهم يبقى وهمًا، وتشين لاو جاءتني على أثر الوهم، وعليه نفسه غادرتني، لكن الحوار الذي دار كان حقيقة، كان واقعًا، كان موضوعيًا ومقنعًا، فانا خارج دائرة الحب بالكرة الزجاجية التي في صدري، وأنا خارج دائرة الزواج بالطمأنينة التي تلازمه، وهي كفته ونعشه وقبره، وأنا خارج دائرة الحياة في المستقبل من الأيام، لأن لي فلسفة خاصة حول نعمة الانتحار إذا ملكت الشجاعة الكافية لذلك، ومع أنني أؤمن بالتقمُّص عن طريق الرجعى، فانا لست بوذيًا ولن أكون، وأكره النرفانا لأنها طريق الخلاص من الألم، وأنا أحب ألمي وأداريه وأحنو عليه، لأنه يشعُرني بأنني حي، ثم إنني لا أخاف الحياة، وعندما لا أخاف منها، فإنها هي التي تخاف مني، وهذا جيّد، يجعل الحياة جميلة ومباركة، وأخيرًا فإنني أكرس حياتي للعدالة الاجتماعية، وهذا التكريس هو الكفاح، وما في الكفاح من سرّة، تجعل الإنسان يأخذ قيمته من ذاته، عبر الصراع الذي يعلو على البلادة والكسل!

هكذا، وأنا في سفح السور العظيم، مارست رياضة الصعود إليه، فلما انتهت الرحلة، وراحت مارلين، في طريق العودة، تروي بإعجاب بالغ، كل ما شاهدته، قلت لها:

- خبرت ذلك قبلك!

أضفت:

- أشعر بصوت يناديني من المجهول، وسوف ألبي النداء..

وضعت يدها على كتفي وقالت:

- أي نداء وأي مجهول؟ مع من كنت في السفح، بينما أنا كنت في

القمة؟

- مع تشين لاو!
- تشين لاو كانت معنا!
- كان ذاك طيفها لا هي!
- وهل هي من المجهول الذي تزعم أنه يناديك؟
- ربما نعم! وربما لا! تشين لاو صارت من الماضي!
- ومن هي التي في الحاضر؟
- الكرة الزجاجية!
- لا تكن مجنوناً! لا تجعلني أخاف عليك.. متى نلتقي؟
نظرت إليها نظرة امتنان وقلت:
- لقاؤنا المقبل في مصيف بيتاخو، على الباسيفيكي.. أنا مسافر بعد غد إلى هناك!
- سألق بك!
ولحقت بي فعلاً!

اليومية الثالثة والثلاثون ٢٠ آب ١٩٦٢

في محطة قطار بيتاخو، كان بانتظاري الرفيق حسن بيجاري وزوجته «لي ناي» وأحد موظفي إدارة المصيف، وكان هناك بعض الزملاء الأجانب أيضاً، يستقبلون أصدقاءهم القادمين لقضاء إجازاتهم السنوية، على شاطئ المحيط الهادي، الذي يكفي اسمه فقط لاجتذاب المصطافين إليه. كنت أعرف مصيف شنتاو، ولم أسر فيه كما كنت أتوقع، فبالبحر فيه جميل، إلا أن الشاطئ الرملي كان واسعاً، والماء ضحلاً يصلح لسباحة الأطفال، وللذين لا يجيدون السباحة. تعانقنا، حسن وأنا، قدمت لي زوجته باقة من الزهور، تكفل عبد القادر، الذي رافقني، بنقل حقيبتي، عدنا جميعاً من محطة القطار إلى المصيف بالسيارات، أصر حسن و«لي ناي» على تناول الغداء معاً، تواعدنا على اللقاء عصرًا في المسبح، وهو قريب من المساكن الحديثة، بحدائقها الأنيقة، ذات الخضرة والزهور، وأسبجتها التي تذكر بحدائق البيوت الإنكليزية. كان مسكني في الطابق الأرضي، بناء على اختياري، وكان مؤثثاً

بشكل جيّد، تطلّ نوافذه على الحديقة، وعلى الأبنية المجاورة، وطرقاتها المتقاطعة، وينفتح فضاؤه على أمداء بعيدة، تشرف على المزارع، وعلى عرض البحر، وعلى السماء الموشّحة بالسحب، عند التقائها بالأفق، كما تشرف على هضبة الصنوبر من وراء، وما فيها من المساكن الموزّعة، بشكل هندسيّ بديع، على بعض الروابي، ذات الأشجار الباسقة، الظليلة، ولقد ارتحت، بل فُتنت، بكل شيء: البيت والحديقة والمطعم والنادي وشمس الأصيل، وفُتنت أكثر «بالبلّاج» وما فيه من تنظيم، وبالمسبح الواسع جدًّا، المحوط بالشبك الحديدي، اجتنابًا لخطر سمك القرش، المتواجد بكثرة في الباسيفيكي.

سبحنا عند الغروب، أنا وحسن ولي ناي لما يوفّره من متعة خاصة، لا تتوافر في الأوقات الأخرى، فالماء يكون أكثر دفئًا، وأهدأ موجًا، ومنظر الغروب يصبح خلّابًا، عندما تتدلّى الشمس من السماء، مسبّقة بأشعتها الذهبية، ملحوقة بجمرة السحب، وهي، كعروس الجن، تنزلق ببطء، منحدرة عن صفحة السماء، لتلامس صفحة الماء، ثم تغيب فيها رويدًا رويدًا، راحلة نحو المغرب، لتعود فتطلع صباحًا من المشرق، مكّلة دورتها المعتادة كل يوم.

كان حسن سباحًا ماهرًا، وعندما قال لي: «هيا إلى الشبك الحديدي» تذكّرت تشين لاو، واللقاء الغسقي عند الشبك في شنتاو، ومن بعيد لوّحنا بأيدينا إلى «لي ناي» التي تفضّل السباحة قرب الشاطئ الرملي، وقد عرفت من حسن، ما كنت أعرفه عن أهمية تسوير المسبح بالشبك الحديدي، وعن ضرورة التقيّد بالمعلومات، وأهم ما فيها عدم تجاوز الشبك، بالقفز من فوقه، لأنّ القروش وراءه، وكان حسن، على مهارته وشجاعته، يخاف هذه القروش، وبعد غياب الشمس، وهبوط العتمة، خرجنا من البحر، فتدوّشنا بالماء الساخن، وحملنا ثياب البحر والمناشف في حقائبنا الصغيرة، عائدين إلى بيوتنا، ومنها، بعد تبديل الثياب، إلى قاعة البليارد في النادي، لنلعب مع بعضنا بعضًا، أو مع سوانا، على رهان ما، وكان حسن يكسب دائمًا، ومع كل من يلعب معه، الرهان، بسبب من مهارته بالبليارد، التي تتساوى مع مهارته في السباحة. عندما عدت إلى البيت، في ساعة متأخرة من الليل، وجدت إشعارًا من

مارلين، تقول فيه إنها تصل بيتاخو في قطار الساعة الحادية عشرة، وتأمل أن أكون في انتظارها. فتحت حقيبتني، علّقت ثيابي الصيفية القليلة، جلست إلى المكتب لأشتغل، وإذا بالهاتف يرن، والسيدة بورجرون على الخط. كانت مبتهجة مثلي لوجودها في هذا المصيف، أخبرتني أنها وصلت إليه مع جاك قبل يومين، وأنها تسكن في البناية رقم ٩، الطابق الثاني، ورقم هاتفها ٩٢٧، وأنها علمت بوصولي من السيدة الأويس، وحصلت على رقم هاتفني من السنترال، وسألتني ما إذا كنت مرتاحاً، ما إذا كانت الرحلة إلى سور الصين قد خففت من توترني، وأنها افتقدتني كثيراً، وخصوصاً عندما زارت «مزرعة دمشق» ورأت ما آلت إليه من دمار، وللمرة الثالثة أو الرابعة سألتني:

- لماذا كنت على هذا القدر من الهياج، ولماذا خربت ما بنيته، وأنفقت عليه الكثير من المال؟

قلت:

- لا أدري يا مارغريت، أحياناً أخرج عن طوري بغير إرادتي!

قالت:

- هذا لأنك مجنون! ولأن مارلين كانت مع جيفرسون في خيمة المزرعة ليلاً!

- ربما!

- بل هذا مؤكد!

- لا شيء مؤكد!

- تتستر عليهما؟

- وما هي مصلحتي في ذلك؟

- إذن تغار من جيفرسون!

قلت بتروء:

- اسمعي يا عزيزتي! الغيرة، كما هو معروف نفسياً، حارسة الحب، وأنا لست بحاجة إلى الغيرة، أو إلى حراستها، لسبب بسيط هو: أنني لا أحب مارلين أو غيرها.

- وإذا قلت لك إنك تحب وتخون من تحب؟

- تكونين أدري بنفسي مني.
- المسألة لا تحتاج إلى دراية خاصة أو فراسة خاصة.. هناك دلائل قاطعة!
- مثل ماذا؟

- لقاءك مع مارلين في المزرعة.. رأيكما بعيني الانثنين.
- هذا صحيح! لكنني التقي في المزرعة مع كثيرين.. الرفاق الأجانب يبحثون دائماً عما هو طريف، وقد وجدوا في المزرعة نوعاً من الطرافة، وكذلك نوعاً من.. الجنون!
- الكلمة الأخيرة هي الأصح.. أنت مجنون وعاقل، مجنون عندما تنفعل، وعاقل عندما تنصب الفخاخ للنساء، فيقعن فيها بسهولة.. كان عليك أن تحترم اسم المزرعة على الأقل، لو كنت هاوياً لإنشاء المزارع فقط! قلت بحدة:

- لا تتنمرّي عليّ يا مارغريت! دعي هذه السخافات جانباً وإلا أقفلت الخطأ! إنني أحترم المزرعة واسمها وخصوصاً اسمها، دمشق غالبية عليّ كنور عيني، وقد تحدثنا مطوّلاً حول هذا، وكنت مثلي، وربما أكثر، حريصة على المزرعة، ومن أهلك لم أبعها، لكنني حطمتها لأنها أصبحت ملقى العشاق، والصينيون يعرفون هذا، ويراقبون حتى النملة، ولولا إصرارهم على التكتّم، وعلى تطويق الأمور، لحدثت فضيحة، فهل يرضيك أن يمارس الحب في خيمتي؟
قالت مارغريت:

- لا يرضيني طبعاً، لكنك، أنت، تمارس الحب في خيمتك اللعينة.. الصياد، يا عزيزي، يتلذذ بأكل صيده، وأنت لم تقصر في الاصطياد وفي التلذذ، وإلا فلماذا ابتكرت لعبتك الشيطانية، وأسميتها «حفرة الخمر المعقّقة»؟ تذكر ما قلته لي عن الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي، وبيته المشهور جداً، حول «الماء والخضراء»^(١) والوجه الجميل! «هذا البيت الشعري ينطبق على مزرعتك، عليك، تماماً! ففي المزرعة ماء وخضرة

١ - كلمة «الخضراء» بدل الخضرة مقصودة.

وامرأة.. فيها خمر معتق حسب زعمك، وفيها خيمة وسجادة، وفيها الإغراء من خلال الإطراء، وما من فتاة مثل مارلين، أو سيدة متصابية مثل الألويس، إلا وتقع في الفخ المنصوب! قلت بسخرية:

- لماذا نضرب الأمثال بالثعالب لا بالذئاب؟ أنت، الذئبة، وقعت في الفخ أيضاً، وزدت فأوقعتني معك، والهواء الذي يقال إنه يحتفظ بما يسمع، لا بد أن يكون قد حفظ فحيحك على السجادة ذاتها، وفي الخيمة ذاتها. لماذا، يا مارغريت، نذكر الآخرين وننسى أنفسنا؟ الأرواح، أحياناً كثيرة، تضيق بالجدران، وتنشد الهواء الطلق، وهذا من حقها، كما هو من حقنا.. والآن انتهينا من كل هذا، هدمنا المزرعة واسترحنا، فماذا تريدين أكثر؟ - أن تفهم أن مارلين تلعب على الحبال! - شكراً لهذه المعلومة! - وأنها تحب جيفرسون كأساس، وتنتظر بحبك كاحتياط! - هذا أعرفه!

- إذا كنت تعرفه، فلماذا تجشمت عناء السفر في الرحلة إلى السور معها؟ تحسب أنني غبية، وأن الماء يجري تحت جسري دون علم مني؟ قل! تكلم! دافع عن نفسك إذا استطعت! كل ما أريده هو الآتي: ذهبت معها أم لم تذهب؟

- ذهبت في رحلة هي فيها.. هذا هو الأصح! - المهم أنك ذهبت، وأن جيفرسون كان يبحث عن مارلين هنا.. أي عشيق في الرحلة وعشيق بعد الرحلة، فما رأيك أيها العاشق المخدوع؟ - رأيي أنك متجنبة، وأن الذي حدث لم تنقله باي لي إليك بأمانة، فانا لم أذهب مع مارلين أو لأجلها، ذهبت لغاية أخرى، هي النزهة بقصد النزهة، والدليل على ذلك أنني افترقت عن مارلين فور وصولنا إلى بوابة السور، فصعدتُ هي مع جماعة الرحلة، وبقيت أنا أعد نجوم الظهر من داخل البوابة، بقيت أشرب، أتأمل، أفكر، أتذكر، بقيت كما تريدين أن أبقى، فهل هذا أيضاً كافٍ ومرضٍ؟ إلى اللقاء، عزيزتي، فقد تعبت من الكلام، والكلام لا يجدي إذا أكثرنا منه، إذن لنقتصد فيه قليلاً!

قالت السيدة بورجرون:

- لم اقتنع عزيزي، كما ينبغي، ولأنك تعبت فأبني أوجّل ما تبقى إلى الغد... سأنورك في الساعة العاشرة والنصف صباحًا، ما رأيك؟
- أرحب بزيارتك، لكنني لن أكون في البيت، في هذا الوقت، بل في محطة القطار، طلبت مني مارلين أن أكون في انتظارها، ومن اللياقة أن ألبي الطلب، اليس هذا من الجنتلماينية، عزيزتي مارغريت؟ تصبحين على خير!

- ليلة سعيدة وغير سعيدة إذن!

- هذه سفسطة!

قلت ذلك واقفلت الهاتف، رنّ من جديد، تركته يرنّ، توقّف قليلاً، عاد يرنّ، لم أرفع السماعة، تواصل الرنين، انقطع فحمدت الله، إلا أنه رنّ بإلحاح شديد، وكانت المتكلمة السيدة بورجرون، تعاقبني بقسوة، على قلة ذوقي في إغلاق الهاتف بوجهها، قالت:

- مَنْ يكن جنتلماناً، كما تحاول أن تظهر غداً، لا يفعل هذا.. أنت حرّ في أن تستقبل من تشاء، أو تودّع من تشاء، لكنني وجدت من اللياقة، يا سيدي العزيز، إخبارك أن جيفرسون في بيتاخو، وأنه سيكون في استقبال هذه العاهرة الإنكليزية، ومعه باقة مناسبة من الزهر، فلا تتعب نفسك، ولا تصدم إذا رأيته في المحطة!

حاولت المحافظة على برودة أعصابي، قلت:

- سيدتي العزيزة! حاولي أن تفهميني، أرجوك! هذا هو يومي الأول في بيتاخو، وقد سعدت بوجودك في هذا المصيف الجميل، وأحسب أننا سنقضّي فيه أياماً مائعة، إذا أقلعت عن هذا النكد غير المبرّر..

قاطعتني بغضب:

- عن أي نكد تتحدّث، وأنت مَنْ بدأ به؟ لماذا إغلاق الهاتف في وجه سيدة، أيّها العزيز المهذّب جداً؟! ثمّ لماذا اتّهامي بالسفسطة، لمجرّد رغبتني في أن تكون على علم بأن جيفرسون هنا، ومن المؤكّد، باعتباره عشيقها الأول، أن يكون في انتظارها؟ إنني، أيّها السيد المبجل، أعرف اللياقة فطرة، وليس اكتساباً كغيري! كن في استقبالها باعتبارك عشيقاً ثانياً،

احتياطياً، وخذ باقة كبيرة من الورود أيضاً.. هذا، يا عزيزي، لا يهمني في شيء، هل تسمع؟

قلت متأنياً، مسالماً:

- أسمع جيداً يا سيدتي السفيرة..

- أنا لست سفيرة، كما أنت لست سفيراً، فلماذا هذه السخرية البليدة؟ نحن، في الصين، خبراء لا سفراء..

قاطعتها:

- كل إنسان سفير لبلاده في غيرها، فكوني، لأجل فرنساك المجيدة، سفيرة لاثقة، وفوق العادة أيضاً، ومطلقة الصلاحية، وتعاملني مع الآخرين بغير هذه الطريقة الفجة.. أنا لست عشيقاً أو ثانياً لمارلين، ولست عشيقاً أصيلاً أو احتياطياً لها، لكن ماذا أفعل إذا كانت قد أبرقت إليّ، طالبة أن أكون في المحطة، باعتباري الأقدم هنا، والأكثر معرفة في التصرف مع الصينيين من جهة، ومع المصطافين مثلك من جهة أخرى؟

- دعها تتعلم من تجاربها، إذا كان الحس السليم، والتصرف بكياسة، يمكن تعلمهما بهذه الطريقة، لكن مارلين لن تتعلم شيئاً، تعرف لماذا؟ لأنها إنكليزية، بينما أنا فرنسية، والفرق هنا شاسع!

- وماذا بعد؟

- خذ بنصيحتي، دع جيفرسون يستقبلها، ثم لماذا الاستقبال؟ هل هي الملكة فيكتوريا؟ وعلى كل حال، ستكون هناك سيارة بانتظارها، ورفيقة صينية من إدارة بيتاخو، وهذا يكفي، حتى لو افترضنا أن جيفرسون، هذا السكير، لن يكون غداً في محطة القطار!

- وماذا يهمني أنا من كل هذا؟ لو كان السيد جاك مكاني، لفعل كما سأفعل، ولانتظرها أيضاً!! هذا ما يسمونه أدب العلاقات الاجتماعية.. والآن إلى اللقاء غداً، في البلاج أو المطعم، كوني عاقلة يا مارغريت، وأعدك أن أكون مثلك، وأن أخلي بين الناس وما يريدون، لأن عليّ أن أستجم وأن أعمل، في حقيقتي أكثر من عمل يحتاج إلى إنجاز، لأنهم هناك، في دار النشر، ينتظرون مساعدتي، ولن أبخل بها، لأنها من بعض الواجبات المترتبة عليّ، تجاه بلد اشتراكي، ومضيف أيضاً.. ما رأيك؟ هل أستطيع

أعادة سماعه الهاتف إلى مكانها؟ إنني متعب جداً، وكفى ما تكلمنا الليلة..
كوني كئُسة، رقيقة، شفافة كما عرفتك دائماً، وتصبحين على أحلام وردية.
أطفأت الضوء فوق السرير، تمددت طلباً للراحة والنوم، أجّلت ترتيب
أفكاري إلى الغد، نمت مباشرة، وبعمق، وفي الصباح عملت قليلاً، بعد
القهوة والكونياك، وفي الموعد المحدد كنت في محطة القطار، فلم أجد
جيفرسون، ولم أبه لذلك، وكان استقبالي لمارلين ودنياً وحاراً، وما إن دخلت
الشقة المخصصة لها، حتى تركتها واتّجهت إلى البحر، وهناك وجدت
الرفيق حسن بانتظاري، كي نسبح في العمق، وقد سبّحنا، وتناولنا طعام
الغداء معاً، وقلت لحسن ونحن خارج المطعم:
- هناك، يا صديقي، انقلاب في الطقس!

قال:

- هذا يحدث كثيراً في بيتاخو، تمطر فجأة، تشرق فجأة، والسباحة
لذيذة في الحالين، فإذا لم نسبح نلعب البليارد، سأراهن لأجلك على
زجاجة من الكونياك وأكسب الرهان، تمتّع يا أخي زبيد، كن كمثلي، محباً
للحياة، وكن كالشيرازي، ممّن يحبّون الوجوه الحسنّة.. هل ستستريح بعد
الغداء؟

قلت:

- لا بدّ يا حسن من الاستراحة قليلاً، ثم العمل إلى المساء، وربما إلى
وقت متأخر، أنت تعرف دقة التزامي مع دار النشر.. أين أجدك ليلاً؟
- في البيت أو في النادي، إنني متزوّج، ولست حراً كمثلك أيّها
الملعون.. أين صديقتنا التي ستشتري السجادة التبريزية؟
- تستريح من السفر في بيتها، أو تجلس على السجادة التبريزية التي
بعثها إيّاها!

قال حسن ضاحكاً:

- لعنة الله عليك إذن، تباع «السجاد التبريزي» وأنا موجود في
الدروجيا؟

- وماذا أفعل يا حسن؟ أقضي أكثر أيامي في البحث عن التحف
الصينية في أحياء بكين القديمة.. صرت خبيراً في كل شيء، حتى في

السجاد التبريزي، تصور أن أنجلو الإيطالي، صدّق كمارلين، أن هناك سجاداً تبريزياً في مخازن التحف في الصين! أمس عثرت، في بيتاخو البلد، على سجادة بغل، وسأبيعتها لانجيلو على أنها سجادة تبريزية! قال حسن جاداً:

- لا تفعل هذا يا أخي! أنت تسيء إلى سمعة تبريز، وسيغضب عليك الشاه كمنّتي، ويطلب من الصين تسليمك إلى إيران، وهناك تعرف ماذا يعني حكم الشاهات! قلت بأسئى:

- عرفته يا حسن! ولماذا أنا في الصين إذن؟! لننسى هذا، ولنشرب الماوتاي حتى ننسى بشكل أفضل! نحن مطاردون، يا أخي، منذ خلقنا، وسنبقى مطاردين حتى نموت! هذا يعني أن تكون «اشتراكياً» في زمن «الاشتراكيات» هذا، الذي تخوزقنا لأجله مرة، وستخوزق مرة ثانية، عندما «تتزوج كمنّتك». اذهب يا حسن اذهب! الخازوق في البيت بانتظارك! ضحك حسن وقال:

- المشكلة، يا أخي، أن هذا الخازوق لا بدّ منه.. إن لم يكن في هذه الدنيا، ففي الآخرة إن شاء الله.

- هل هذا رأيك الأخير؟

- الأول والأخير.. إلى اللقاء!

سرت في طريقي إلى البيت وأنا أضحك من طرافة حسن، ابن تبريز الذي خرج منها مرة وإلى الأبد، ترى يكون خروجي من دمشق، مثل خروج حسن من تبريز! وهل كتب على الذين يناضلون لأجل سعادة الآخرين، أن يعيشوا هم في شقاء مؤبد؟! وهل تزوّج حسن ليخلص من هذا الشقاء، فوقع في شقاء أكبر؟! حسن أحبّ لي ناي فمن أحبّ أنا؟ ومتى، متى، متى؟! أه أيّتها الكرة الزجاجية! أما أن الألوان لكي تصبّحي من لحم ودم؟ وكيف تُعاش الحياة، لو لم تكن هناك إمكانية الانتحار؟ وماذا يعني، حسب عمر الخيام، ألا نعرف لماذا جئنا ولماذا نرحل؟ أنا لن أكون مثل مجانين «الام فرتر» هؤلاء كانوا من المراهقين وأنا تخطّيت مرحلة المراهقة، ومنذ زمن بعيد جداً!

في البيت استلقيت على سريري وأفكاري، هذه زوجتي، أفكاري زوجتي، وكان زواجنا هذا «كاثوليكيًا» من الطراز الرفيع جدًا، فلا أنا قادر على الانعتاق، ولا هي. إذن لا بد من قضاء العمر معها، ولا بد، فوق ذلك، من محاولة الرضى بما هو «مكتوب على الجبين» بين الجلد والعظم، ولا شيء يكبح جماح أفكاري سوى العمل، ولكن بعد ترتيب هذه الأفكار، ووضعها، قولة تشيكوف، في «دولاب المحفوظات» إلى أن يأتي زمن التعامل معها، بطريقة ما مناسبة! العقبة الوحيدة، الصغيرة والكبيرة معًا، أنني أجهل أفكاري، وأجهل، تاليًا، المربع الذي أضعها فيه، في «دولاب المحفوظات» الذي أوصى به المايسترو الأعظم، والسؤال الذي يقف جدارًا، أو سورًا صينيًا، بيني وبين هذه المعرفة، هو أنني لا أدري ما أريد، إذا ما وضعنا القضية جانبًا! ففي القضية أنا اشتراكي، وزواجي بها من «النوع الكاثوليكي» أيضًا، إلا أن هناك دائمًا، ما هو موضوعي وما هو ذاتي، والجمع بينهما اندغامًا، يبطل جدلية الأشياء في الوجود، ولست من الغفلة، أو من الحمق، بحيث أصدق، الآن أو في المستقبل، أن دور الذاتية ينتهي، وفي دائرة الذات يبقى السؤال قائمًا: ماذا هناك؟ لماذا عدم التلاؤم مع المحيط؟ ولماذا الميل إلى الانعتاق الروحي، من أسر الجسد المادي، هو هم أكبر من همومي ولماذا الإنصات، قسرًا، إلى نداء المجهول الذي لا أتوصل إلى فهمه، مكانًا وزمانًا؟ «كل ذلك، قالت لي نفسي يومًا، يحدث في حال انتفاء المغامرة، فمن يغامر لا يخف، وعدم الخوف نسبي في الوجود، وفي إطار هذه النسبية، لا بد من التغلب على الجبن، بالصمود له!» إذن الصمود للخوف، هو ألف باء الشجاعة، ومع الشجاعة تتسق المغامرة، وكل من لا يغامر، في طلاب هذا أو ذاك من آماله، يُعدّ في القعدة، والقاعد عن نيل أمانيه، في إطار الطموح الممكن، هو عاجز، عاجز، عاجز!

مجيء مارلين إليّ، ودون موعد مسبق، انتشلني من بئر هواجسي! فتحت ذراعيها، وهي على الباب، وعانقتني بحرارة.. بعد ذلك طافت في البيت، أثنت على ترتيبه، مدحت أدبي في العمل، وكعادة الأوربي، الذي يمدح طعامك وهو يتذوقه، ويعدّ ذلك من اللياقة، أبدت مارلين إعجابها بمقتنياتي القليلة، وكانت هذه أولى الخطى في مشوارنا القصير معًا في مصيف بيتاخو.. سألتني:

- هل الجو، هنا، غائم بشكل دائم؟

قلت:

- غالبًا يا مارلين! الجو الغائم، على الشاطئ، هو الأساس، وإلا فلماذا نحن جيران البحر؟ أحيانًا تحدث انقشاعات، تشرق الشمس ليوم، ليومين، لأيام، ثم تغيم السماء، وتطرأ أحيانًا، الا تحبين الغيم والمطر على الساحل؟
- أحب أن يصبح جلدي برونزيًا.

- سيكون لك هذا!

- متى؟

- ليس هذا العصر، ولا غدًا صباحًا.. هناك، في الجو، أمائر غريبة!

- تتوقع عاصفة ما؟

- العاصفة غير مستبعدة!

- تحبها؟

- إذا كنت أنتِ من يرقص فيها!

- مجنون!

- بشكل نصفِي فقط.

- أحيانًا تكون مجنونًا بالكامل! ماذا فعلت بالمرزعة؟

- هدمتها!

- هدم ما ينشئ الإنسان، وبيديه الاثنتين، هو الجنون الكامل!

قلت:

- الهدم ثم البناء، ثم البناء والهدم، يعني إنشاء عالم آخر، من حلمنا، من تصوُّرنا، من رغبتنا في أن نكون مبدعين لما نريد!

- لكنك، أنت، لست فنانًا تشكيليًا!

- ولست مبدعًا أيضًا..

- مع أن لك سمات المبدعين.. وجنونهم أيضًا!

- يحدث هذا أحيانًا.

- في رحلتنا إلى سور الصين لم تكن مجنونًا.. كنت، فقط، غريب الأطوار، وغير مفهوم!

- كنت أنا، وأحب، دائماً، أن أكون أنا وليس غيري.. مع أن اناني ليست متورمة جداً.

- أناك العليا؟

- والسفلى أيضاً!

- لكنك عزيزي، وستكون على ما يجب أن تكون عليه في بيتاخو: عاقلاً على الدوام، أليس كذلك؟

- أمل!

- والآن؟

- هبطت عليّ من السماء، أنقذتني من أفكاري.. غير البيضاء طبعاً!

- ولماذا غير البيضاء؟

- اسألني إبليس!

- ولماذا لا أسأل الملاك؟

- ليس لي شأن مع الملائكة.. إبليس يفهمني أكثر!

- لكن إبليس نفسه غير قادر على فهمك.. نسيت ماذا فعلت في رحلة السور؟

- كنت على انسجام مع نفسي، وهذا حسبي!

- نفسك لعينة يا زبيد، اسمح لي بقول ذلك.

- أنتِ على حق.

- عانقتني مارلين قائلة:

- في مثل هذه الأمور، لا أريد أن أكون على حق! متى نخرج؟

- عندما تشائين!

- هكذا؟ بمثل هذه البساطة؟

- لا! نشرب شيئاً أولاً..

- غمرت بعينها وقالت:

- نشرب فقط؟

- ابتسمت وقلت:

- الجواب عن هذا السؤال يكون بعد الشرب، أو خلاله!

- هذا يرضيني! أنت تفهمني! لنشرب اذن قليلاً من الكونياك والقهوة.
شربنا، سررنا لوجودنا معاً في هذا المصيف الجميل، زاد الغيم
الساحلي من نشوة الكونياك، نصحت مارلين بأن تسبح وقت الغروب، وفي
الصباح الباكر، سألتني: «لماذا لا نسبح معاً» أجبتها: «لديّ عمل ينبغي
إنجازه» قالت محتجة:

- العمل وأنت في إجازة؟ لماذا هذا الإفراط في تأدية الواجب كما تردّد
دائماً؟ كن كغيرك، أعمل وقت العمل فقط، ما دمت، كما تقول وكما أعرف،
لا تقيم وزناً للمال! أم أنّ هذا من بعض غرائبك أيضاً؟
- من بعض غرائبي!

- لا أصدّق، هناك ما هو أهم من الغرائبيّة التي تتبدّى بها، أودّ لو
أعرف ماذا يدور في رأسك؟
قلت:

- دعي رؤوس الناس وما فيها، معرفة هذا مؤذية، تسبّب المتاعب..
والفضائح! تصوّري أن يعرف الناس ما يدور في رؤوس الناس، وأن تكون
هذه المعرفة هدفاً بذاتها، في هذه الحال نقع في الهلوسة، ندهش إلى حدّ
الصدمة العصبية، فالكشف هذا، لو تمّ، لدارت بنا الأرض دون توقّف، ولما
بقي لنا أصدقاء! لدينا حديث يقول: «النفس أمارة بالسوء» ولو حدث أن
عرفنا ما تأمر به نفوس الأصدقاء قبل الأعداء، لفجعنا وتألّمنا جدّاً، وقد
نكفر بكل ما نرى وما يقال، لأنّه غير ما كنّا نحدس أو نقدر، فعالم الناس
الداخلي مباهة دود، ننسّر عليها جميعاً، ونجمّلها كلنا، حتى لا تبين على
حقيقتها، حتى تبقى محجوبة بجلودنا، بشبابنا المخملية أو الحريريّة، ببريق
الخارج، وكلماتنا المنمّقة، الصادرة عن الشفاه لا عن القلب، والتي هي
غلاف خارجي لما في حقيقة الداخل: النفس!
قالت مارلين:

- ولكن هذا، يا زبيد، فيه تعميم، وفيه استبطان بودليري قبيح، أنت،
في ما تقول، متأثر «بأزهار الشرّ» ولا انسجامية المحيط، وربما النقمة على
هذا المحيط، الذي في دائرته أنا وأنت والآخرون! هل يعقل أن نكون، من
الداخل، على مثل هذه الطوية الخبيثة؟ إنك تبالغ، تعكس مرآة تشاؤمك

على الجميع، مع أنك، في حياتك، في سلوكك، في تصرفاتك، تعطي انطباعاً عن التفاضل والمحبة..

قلت:

- وعن الازدواجية!

هتفت مارلين:

- لا أصدق! لا أريد أن أصدق، الناس، كما سمعت منك، طيِّبون.

- وهل نفيت هذه الطيبة في الذي قلته؟ الازدواجية فينا تلبس «طاقية الإخفاء»، إلا أن اختفاءها لا يلغي تمظهرها، من حين إلى آخر، في هذا الموقف أو ذاك، في هذه الهاجسة أو تلك.. نحن نتحدث عن عالم الانسان الداخلي، عن اختلافه عن عالمه الخارجي، وعن رؤوس الغير، والرغبة المستحيلة، ومن الخير أنها مستحيلة، في معرفة ما يدور فيها، وقد أبدت رأياً خلافاً، يحتمل الخطأ والصواب، وأفضل ما نفعله في هذه الحياة القصيرة، حياتنا، أن نجسّر الهوة ما بين الداخل والخارج في نفس الإنسان، أن نحاول تغييره من الداخل، فالإنسان، في الأصل، فاضل بالفطرة، إلا أن الفطرة إلى زوال، والتشكُّل النفسي اللاحق، يرتبط بالتاريخ الاجتماعي، وهذا يعود إلى نوع النظام الذي نحن أبنائه، ونوع المفهوم، المادي أو المثالي، الذي نستوعبه، ويعود هو فيستوعبنا، يشكلنا وفق معطياته النظرية، التاريخية، الاجتماعية، البيئية، وصدقيني يا مارلين، أن التغيير النفسي، يأتي تالياً للتغيير الاقتصادي، فهذا يسبق كثيراً، وبمئات الأعوام، التغيير النفسي، وفهم هذا الواقع الموضوعي، البعيد عن الرغبات، يجعلنا نفهم أنفسنا، ونفوس الآخرين، بشكل أقرب إلى الصحة.. المملكة الفاضلة، وبالمصطلح العلمي، الجمهورية الفاضلة، تبقى حلمًا بعيداً، لكنه ممكن التحقيق! كفى! لنشرب! واذهي أنت، بعد ذلك، إلى البلاج، بينما أنصرف أنا إلى العمل، ونتعشى الليلة مع بعض الأصدقاء..

قالت مارلين:

- علمت أن السيِّدة بورجرون هنا!

- وجيفرسون هنا أيضاً!

- ولماذا هذا التقابل؟

- لتكتمل اللوحة!

وقفت مارلين بنزق وقالت:

- أنت لا تفهمني إذن!

قلت:

- أفهمك يا مارلين، المرأة ليست لغزًا بالقدر الذي يتصوره الرجال،
المرأة مراوغة، بسبب من ضعفها، وهذا الضعف ناتج عن اضطهاد الرجل
لها، وتحت كلمة المراوغة تنطوي كلمات.. المراوغة قوس واسعة الحدين،
وتدرجاتها عديدة جدًا، متنوِّعة جدًا.

سألت مارلين بغضب:

- أنا مراوغة إذن في نظرك؟

- برغمك!

- ومن الذين يرغمني؟

- تاريخك الاجتماعي كأنثى!

- هل هذا التاريخ قدر؟ وأين التغيير مع العصر الصناعي الذي غيّر
المرأة، بعد أن تعلّمت وعملت؟

وقفت، ابتسمت، قلت:

- الكلام هنا، على المرأة بعامة، باعتبارها أنثى، لا تزال، وستبقى...
زمن طويل، مضطّهد من الرجل، أي ضعيفة حياله، وضعفها هو قدرها
التراوغي.. إنني لا أقصد امرأة بالذات، وأنت خصوصًا، هذا كلام عام،
أما في التخصيص فأنت عزيزتي مارلين.. هل حصلت على سجادة
تبريزية؟ لا؟ إذن لنواصل البحث.. وإلى اللقاء مساءً، مع بعض الأصدقاء
في المطعم.

- هل بينهم تلك البورجرون؟

- لا بالتأكيد!

- جهد شجاع، مثمر، قبلني، وهذا كل شيء.

قبلتها، لمت نفسي على تمادي في كلام يطفئ النشوة، اعترف: أنني
غبيّ أحيانًا، بذريعة التوعية، كان عليّ، في هذه الزيارة الأولى، أن أدع
التفلسف الذي يزهق الروح، ثم من الذي قال: إنني واع بما يكفي، حتى

أتصدى لتوعية غيري؟! التعويض في المساء، سأعوّض مارلين ما فاتها من تدليل، وسيكون حسن و«لي ناي» معنا، لكن ماذا بشأن بورجرون وجيفرسون؟ الترحيب، وهذا كل ما لديّ.

أفقتنا، في الصباح التالي، على غير ما أمسينا، العشاء في المطعم كان مناسبة للمرح، وللمجون قليلاً، وللمداعبة حول نهفات السيدة نلسون، واللقاء بآل الاويس والاصدقاء الآخرين، وقد كان رأي حسن ورأيي، متفقين حول عاصفة متوقعة، وها هي العاصفة المجنونة، وفي جنونها ستلفّ النوارس المذعورة، إلا أنّها ستبهجننا كمصطافين، رأوا الباسفيكي العظيم بوداعته، واليوم يروونه في شراسته، في عنفه، في ثورته، هذا المعلم الكبير للثورة والثوار.

شربت قهوة الصباح مع بعض البسكويت، تدفأت بالكونياك، لبست المايو والقيت بالمنشفة على كتفي، مع شحّاطة بلاستيكية، بحريّة، في القدمين، اتّجهت نحو المسيح فوجئت بالناس يعودون، أغلبهم بتياب السباحة، ينصحون غيرهم بالرّجوع، لأنّ المسبح مغلق، تابعت طريقي غير مبال، أتقدّم فأحتاج، أحتاج فاتقدّم، أمشي في خريطة الرّيح، أمتنع عليها، أستقرّها في سرّي، تحاول اقتلاعي، أحاول اختراقها، أنظر إلى السماء المجلّبية بغيّم أسود، أرغب أن تمطر، اسمع دويّ الرعد، تدرجه، كما على لوح من زجاج، أطرب، تبرق صاعقة عند الأفق، تغوص في مفرق الشمس ساعة الغروب، أودّ لو أكون هناك، لو أقبض على وميضها، لو أملاّ راحتي بضوء البرق، أحمله، كما الثلج، دليلاً على أنّني كنت هناك، أبقى، في الراحتين، بقيّة نار، أشعلها سراجاً في بيتي! أركع لأصلي أمامه، كما لو أمام شمعة، في معبد بوذيّ، طالباً البركة من «كوشي بين» العذراء البوذيّة في طهرها والجلال، أسجد أمام المحيط، وثنيّاً ينشد عماده في العناصر الأربعة، لهذا الكون الذي يحارّ به، يهابه، يتقحمه، يجترئ عليه، وبعد ذلك يضمّ يديه، ينحني انحناء الاحترام، وينهض مفعماً براحة سرمدية!

بلغت الشاطئ، المسبح مغلق فعلاً، أردت الدخول إلى حرمة فمנعت، قال لي الحارس الصيني:
- ممنوع الدخول!

- لماذا؟

- ألا ترى؟

- وماذا في الذي أرى؟

قاسني الحارس الصيني، من فوق إلى تحت وبالعكس، رازني، شك في أنني إنسان عاقل، سألني:

- هل كنت في مثل هذه العاصفة يوماً؟

- لا!

- اذن أنت فيها الآن!

- وماذا يعني هذا؟

- يعني جنون الطبيعة!

- وجنون الإنسان؟

- أسأل عن هذا في المستشفى!

- ولماذا لا أسأل البحر؟

- لأن سمك القرش سيجيبك.. هل تعاملت مع هذا النوع من السمك؟ أرجوك، لا وقت لدي، المسبح مغلق والسباحة ممنوعة بأمر الإدارة.. تفضل بالذهاب إليها، إذا كنت مصرّاً على معرفة لماذا المسبح مغلق!

لم يعد ثمة مجال للكلام، لكنني لم أقتنع، وقفت أتفرّج، النزول إلى البحر مستحيل، حتى بالنسبة إلى الصينيين، فكيف بالأجانب المسؤولة عن سلامتهم الصين نفسها؟! ان تنتحر ففي مكان آخر، أفضل الأمكنة لمثل هذا التهور البيت، فهناك سقف وحبل، عليك صنع الأنشطة الملائمة بنفسك، لكنني، أنا، لن أنتحر، أنا أصغي إلى نداء المجهول، قد يكون هذا المجهول اللّجّة، وهي مغرية، إنّما الإغراء يؤدي إلى الموت، والموت غير مسموح به، وفي ذلك منطق، وفيه صواب، لو ترك هذا المنظر الرهيب، بفتنته وشوقه، للصواب فسحة للإقناع أو الاقتناع، للإقدام أو التراجع، للحذر أو التهيب، فإمام جبال الأمواج، المحممة، المندفعة، كازدلاف الخيل، نحو الشاطئ، استشعرت الضياع، استلاب الإرادة، الافتقار إلى قوة التقرير، بين سلب وإيجاب.

وقفت على الرّمل كمن به خبل، كمن مسّه فرح عاصف، فانا ثابت

متحرك، ميّال إلى التروّي، نزاع إلى الركض، بأقصى ما أستطيع، وثوباً على واحد من خيول الموج المصطخب، في قفزة أعتلي معها سرج الزبد، لمعانقة هياجي الداخلي، في سكون ما قبل المروق بحدق المجهول، الكامن نداؤه وصمته في سمع الهول البعيد، المتمثل بتهاول غريبة، تبتسم فيها أنثى، يكشّر شديق، يُرى عرس الحياة، وماتم الموت، في متواليات بين شفة لموية، شهاء وناب أسود، كفحة الليل، بين عجز التردد، وبهجة الاقتحام، بين الجلوس على عرش الماء، أو الهبوط إلى جحيمة الأبدية، كأنما في انغراسي حيث أقف، أنتظر إشارة ما، من مكان ما، تحسم هذا الصراع النفسي، المعذب ما دام في دائرة الحيرة.

كان الناس، عبر رؤية ضبابية، يأتون، يذهبون، يتكلمون لغات لم أسمع بها من قبل، يتحركون، يدورون، يلوبون، ينخطفون في الأعاصير، دون أن يبالي بي أحد منهم وكنت أضحك، أكاد أصفق، حين يجلس رجل، تجلس المرأة، طفل، طفلة، على الرمل المخرّم بالرغاء الزبدي، فيأتي الموج، في اندفاعات، هادرة، متلاحقة، ويحمل الجالسين، يكتسهم، يقذف بهم مسافات إلى وراء، وهم يقهقهون، يعاودون الكرة، كما في لعب مسلّ، ليعاود الموج، في لعب مماثل، قذفهم إلى وراء، دون أن يجروا أحد على الذهاب إلى ما هو أبعد، لأنه مخيف، وممنوع، في أن واحد!

تحركت عائداً من حيث جئت، ترددت، توقفت، رجعت إلى البحر، ورجع الصمت يعانق الصمت، على شفّتي، على يدي، على جسمي المرتعش انفعالاً، وكلما تقدّمت نحو حوض المسبح، ردّني إلى وراء، حارس أو منقذ، والعند، في داخلي، يزداد، يemor، يقترب من الانفجار، فأضغط عليه، ألجم انفجاره، أهدأ بانتظار ما سوف يكون، أداري مشاعري المتوتّبة في صدري، هياجي الناغر بنفاد صبر طال وطال، إلى أن جاء حسن، جاءت لي ناي جاء آخرون، فرادى، لا للسباحة بل للفرجة، صارت العاصفة فرجة، صارت بهجة، وصار المحيط، في اصطخابه، دويّه، رنينه، انفلاته، جنونه، أعجوبة أخرى، صينية هذه المرأة، كأعجوبة السور العظيم.

وضع حسن يده على كتفي وقال:

— لماذا أنت هكذا، كالمجذوب؟ «نا أولدي»؟ (ماذا جرى؟) بماذا تفكر؟

وثياب البحر هذه لماذا يا أخي؟

التفتُ إليه، راح يضحك منِّي، كان في ثيابه الخفيفة، ومثله لي ناي والآخرون، قال وهو يمسك الطرف الأدنى، المدور، من ذقني:

- منذ متى أنت هنا؟

- منذ الصباح الباكر!

- ولماذا في ثياب السباحة؟

- كي أسبح طبعاً!

- ولماذا لا تسبح؟ تخاف؟

- يمنعونني من السباحة، وأخاف قليلاً!

- ليس قليلاً يا أخي، كثيراً جداً، سمك القرش مخيف أكثر مما

تتصوّر.

قلت:

- أين هو هذا القرش والمسبح مسوّر بالشبك الحديدي؟

- والأمواج التي تقفز فوق الشبك، ألا تحمل القرش معها؟

- من يدري؟

قال حسن:

- كيف من يدري يا أخي زبيد؟ المسبح سيظل مغلقاً إلى ما بعد

العاصفة، عندئذ يفجّرون الديناميت فيه، لقتل القروش الموجودة، وبعد ذلك

يسبح الناس.. لا تكن مجنوناً! هيا نلعب البليارد.

- العاصفة أهم لديّ من البليارد، لن أغادر الشطّ يا حسن.

قال حسن بحدّة، ونبرة إيرانيّة:

- لماذا؟ كل الناس يأتون ويرجعون، كن عاقلاً! أنت لست أكثر جسارة

مني، ولا أقوى، أو أمهر في السباحة، أم تريد أن تكون بطلاً بالمجان؟

قلت بصدق:

- أعرف ما تقوله يا حسن! أنت أكثر جسارة، وأمهر سباحة، وأقوى

عضلاً، وأنت بطل رياضي، لكنك لست «كمثلي».

- مجنوناً!

- إذن دعني!

قالت لي ناي:
- لا تدعه يا حسن! إنه مريض.. تونجي زييد اصفر الوجه، يرتجف،
لنأخذه إلى البيت.
ضحك حسن وقال:
- وفي البيت نعالجه بالمواتاي... ما رأيك؟
قلت بحسم:
- عالج نفسك يا حسن بما تريد، دعني هنا... سأسبح!
- والقرش؟
- أنا لا أخاف القرش!
- ومنع السباحة؟
- هذا لا يهم..
قالت لي ناي:
- بلى! يهم! سأئذه للحارس أو المنقذ.

قالت ذلك وندهت، ضاع صوتها في الرّيح، ذهبت بنفسها، سبقتها،
قذفت نفسي في الموج، غصت فيه، اخترقته، ابتعدت، أطلق الحارس
صفّارته، أشار إليّ أن أرجع، لكنني أمعنت، لا تحديًا بل هوسًا، نزل المنقذ
ورائي بفلوكة، قلب الموج الفلوكة، حطمها، قذف بأشلانها إلى الخارج،
خفت! غطست تحت الماء، كان القاع عميقًا، وكان التّيار قويًا، وقعت في
الفخ! المحيط العظيم وجدني فريسة حقيرة، رغم ذلك تشقّى، مال إلى
الانتقام، لماذا أيّها الهادئ تثور؟! ولماذا تنتقم؟! ضعت فيما أنا أقاوم
الضياح، حاولت، بكل طاقتي، الرجوع إلى الشاطئ، وحاول المحيط، دون
اكتراث، أن يسحبني إلى الداخل، سحبني ببساطة شديدة، غصت من
جديد، فشلت من جديد، التيار تحت، كما فوق، لا يقاوم، خابت مقاومتي،
خبت، صحت، أكل الهدير صياحي، أكل صمتي، أكل فكري، وكى يجهز
عليّ، دفعة واحدة، رفعني موج المحيط إلى أعلى، يا إلهي! كم رفعني الموج
إلى أعلى، كم رجّني، كم وضعني على ذروة جبل من الماء، وكم خلع قلبي
وهو يحطّ بي في هوة من الماء، وراء الشبك الحديديّ، الذي جرح، لا أدري
كيف، صدري... أين المفر؟ ساح دمي، رأيت دمي يطفو أمامي، إذن

النهاية، فالقرش يشم الدم، يستثيره الدم، والعودة إلى داخل الشبك بدت صعبة، المحيط جعلها مستحيلة، الداخل ليس كالخارج، دخول المحيط ليس كالخروج منه، ماذا أفعل؟ أستسلم؟ أفوز براحتي في موتي؟ هذا، في هولة ما أنا فيه، ما كنت أبحث عنه! لا أدري ما أريد، كنت أسرف في نفسي، طول عمري، الآن فقط فهمت ما أريد: الراحة بالموت، الانتحار على يد الآخر، هذا الآخر هو المحيط، إذن بلغت ما كنت أرجو، أدركت الغاية، وفي إدراكها النصر، انتصرت!

بعد معاناة نسيئ، أو أنسيئ، أنها معاناة، حملني الموج، بمقاومة واهنة، إلى يمين الشبك الحديدي، إلى صخرة عالية، ورغم علوها، يرتفع الموج عليها، ينساح عنها، وكانت هذه فرصتي الأخيرة: ارتطم بالصخرة فأنمرق، أو ارتفع مع التيار إلى ما فوقها فأنجو، وكنت أريد النجاة، لا أريد الموت، أيها المحيط، أيها العظيم، أيها القادر أمام عاجز، لا أريد الموت، لا أريد أن أموت، والصراع بيني وبينك على غير كفا، إلا أنني، أنا الإنسان، سأصارع، صار الصراع قدرتي، تقبّلت، على مضض، حكم القدر، استنفرت ما بقي من عزمي، ارتفعت مع الموج إلى فوق، هبطت معه إلى تحت، رأيت هامة الصخرة وجذرها، حاولت التمسك بنتوء الحجر، خائني الحجر، تجرّحت، التهبت بالملح جروحي، أبصرت، وأنا أرتفع، أشباحاً على الصخرة، سمعت أصواتاً على الصخرة، امتدّت إليّ الأيدي من على الصخرة، لم أفلح، مرّة ومرّة ومرّة، ظهر القرش في البعيد، اندفع في اتجاه الصخرة، صراخ! انتبه! القرش، القرش، القرش! ماذا أفعل، يا أحبائي، مع القرش؟ اصعد إلى فوق.. كيف! لا تنحدر إلى القاع.. كيف! القرش من ورائي، والصخرة من أمامي، وطارق بن زياد غاب عن بالي، لكن فكرة برقت، الهام ومض، الخروج من تحت الصخرة، الابتعاد عنها، بضربات قوية، أخيرة، للساعدين، فعلت، ابتعدت، نجحت، ركبت موجة شالت بي على منكبيها، هوت، ارتفعت، هوت، ارتفعت، وفي ارتفاعها، فجأة، وجدت نفسي على الصخرة، تمسكت جيداً، أظافري غرزت بمادة صلبة، بالحجر، وامتدّت إليّ بالأيدي، وكان فرح!

أدخلت، بسرعة، إلى المستشفى، أسعفوني، ضمدوا جراحي، ابتسموا في وجهي، ابتسمت في وئى، بوجوههم، أفقت في اليوم التالي، كان هناك

حسن، فهمي، لي ناي، بورجرون، مارلين، جيفرسون، لم يؤنّبني أحد، لم يذكر المغامرة أحد، لم أقل: هذه هي المغامرة الأخيرة لأحد، زارني كثيرون، غمروني بعواطفهم، بورودهم، قالوا كلمات ودّية، تشجيعيّة، طيّبة، عطرة، وقال مدير المستشفى:

- بعد أسبوع، أو عشرة أيام، تندمل الجروح، تشفى، وتخرج، تونجي زبيد، من المستشفى!

لكنني، في اليوم الثالث، هربت من المستشفى!

مغامرة أخرى!؟

شيء من هذا القبيل!

- انتهت -

ليل ١٤ شباط ١٩٩٧

عنوان المؤلف

دمشق ص.ب. ٣٠٣٩٣ هاتف: ٥١١٥٣٢٢ - سورية

SYRIA - DAMASCUS P.O.BOX 30393 TEL: 5115322

مؤلفات حنا مينه

فوق الجبل وتحت الثلج	المصاييح الزرق
الرحيل عند الغروب	الشراع والعاصفة
النجوم تحاكم القمر	الثلج يأتي من النافذة
القمر في المحاق	الشمس في يوم غائم
المرأة ذات الثوب الأسود	الياطر
حدث في بيتاخو	بقايا صور
عروس الموجة السوداء	المستنقع
المغامرة الأخيرة	القطاف
الرجل الذي يكره نفسه	الأبنوسة البيضاء
الفم الكرزي	المرصد
حارة الشحادين	حكاية بحار
صراع امرأتين	الدقل
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة	المرفأ البعيد
ناظر حكمت ثائراً	الربيع والخريف
هواجس في التجربة الروائية	مأساة ديمتريو
كيف حملت القلم؟	حمامة زرقاء في السحب
البحر والسفينة... وهي!	نهاية رجل شجاع
	الولاعة

المغامرة الأخيرة

B5 رواية

S.P375



1 0 4 9 8 2

عالم المعرفة

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف رسم الجندي